

الحجاج بن يوسف الثقفي
رحمة الله

المفتري عليه

د. محمد زيادة
رسالة دكتوراه

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م

حَقَاقَةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّرْجُمَةِ مَحْفُوظَةٌ
لِلنَّاشِرِ
دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوَزُّعِ
لصاحبها
عَبْدُ الْغَادِرِ مُحَمَّدُ الْبَكَارُ

١٢٠ شارع الأزهر _ ص. ب. ١٦١ القورية
ت: ٩٣٢٨٢٠ : ٢٧٤١٥٧٨ فاكس ٢٧٤١٧٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

باسمك اللهم أبدأ وبِعونك أستعين . وبهديك أهتدي . راجيًا منك التوفيق في كل ما يخطه القلم ، والهداية إلى أقوم طريق .

وبعد . فإنني في أثناء دراستي لاحظت أن العصر الأموي لم ينل حقه من الإنصاف وخاصة الحجاج بن يوسف الذي وصف بكل رذيلة وجرد عن كل فضيلة ، فأخذت في البحث عن أخباره والتنقيب عن آثاره - التي اختلطت صحيحها بموضوعها اختلاطاً شديداً - من المصادر الدينية والتاريخية والأدبية المخطوطة والمطبوعة ، فكننت كلما أمعنت النظر فيه أغرمت به وامتلاً قلبي بحبه والإعجاب به .

وإذ نظرت في سياسته وجدته سائساً لا يخدع ، ومقدماً لا تشق عصاه وخصماً يدين له الأعداء بالتسليم والإذعان ، قد مثل دوراً عظيماً من أدوار حياة الأمة الإسلامية فجمع كلمتها ونظم جهادها وقرز مصيرها .

وَأذ بحثت في إدراته وجدته إدارياً حازماً ، وإذ قصدت نحو تدينه وجدته ورعاً زاهداً وإذ طلبت منه علماً وجدت الشريعة قد سلمت إليه بزمامها وألقت عنده بعضاً تسيارها من جودة حفظ للقرآن الكريم والحديث الشريف إلى علم بالأحكام ، وإذ ما نشدت فصاحة وبلاغة هالني البحر الذي لا ينضب معينه ، وإذ طرقت باب إصلاحاته وجدته من أعظم المصلحين ، وإذ نظرت إلى وفائه وكرمه وإخلاصه وجدته المثل الأعلى الذي يجب أن ينسج على منواله المصلحون ويسير على هديه المجددون ، فهالني ما كتبه عنه المؤرخون وعولت على أن يكون الدفاع عنه موضوع رسالتي التي أتقدم بها لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ رغبة في أن أضع الأمور في نصابها وأن أعطي تلك الشخصية العظيمة التي لم تعطها أقلام الكتاب والمؤرخين في القديم والحديث حقها من التقدير، وجعلت رائدي الإنصاف في الحكم للحقيقة والتاريخ.

أجل . قد أغرمت بالحجاج وامتلاً قلبي بحبه ؛ ولم لا أغرم به وهو من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي ؟!

ألم يل الأمور في دولة بني أمية والحالة تتطلب حزمًا وعزمًا ؟ فقد كان عصره عصرًا يموج بالثورات والاضطرابات ؛ فأعاد الجماعة السياسية في الدولة مرة ثانية ؟! ألم يل شؤون العراق بعد فتنة ابن الزبير التي كادت تأتي على الخلافة الأموية ؟؟

ألم يل شؤونه والعراق يشق عصا الطاعة ويأبى أن يساهم مع المهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج الذين كانوا منتشرين في العراق يترصدون بالخلافة الدوائر ؟؟

فكان من الطبيعي أن يظهر لأهله بمظهر خشن وأن يلبس لهم ثوب الأسد وأن يعاملهم هذه المعاملة التي وصفت بالقسوة ، وإن كانت - في نظرنا وفي نظر كل منصف - لا تستحق هذا الوصف ، فقد أدب العصاة وأذل العتاة ووطد أمور المملكة ونشر الأمن : وهل ينجح الساسة بغير هذا ؟؟

وقد كانت له في العراق أعمال عمرانية وإصلاحات إدارية وسياسية : نشر راية الإسلام عالية خفاقة فأظلت بلادًا لم تصل إليها الفتوحات من قبله ولا من بعده فوصل بذلك إلى مستوى الساسة العظام والقواد الكبار والمصلحين الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

إذن فلم هذا التجني على الحجاج والحكم عليه حكمًا قاسيًا من وصف بعدم التدين إلى اتهام بالوحشية حتى ليخيل إلى القارئ أن الحجاج ليس من بني الإنسان ؟!!

إن ذلك يرجع في نظرنا إلى أن عقلية الحجاج عقلية غريبة عن الطبيعة العربية سبقت عصرها بالمئات من السنين فظهرت الوسائل التي لجأ إليها في سياسته وإدارته - في نظرهم - كأنها وسائل شيطانية فقالوا عنه : إنه إبليس من الأبالسة وإنه ساحر

لبعد تصرفاته عن عرفهم وتقاليدهم .

ويرجع الأمر كذلك إلى كثرة ما سمعوه وما قرؤوه في خطبه من التهديد والوعيد كما يرجع إلى تعصب الرواة والكتاب للأشخاص الذين اصطدموا بسياسته تعصباً أعماهم عن النظر والتفكير ؛ وقد جرى الناس في كل زمان ومكان على رمي خصومهم بكل كلام شائن وقاتل يستثيرون عليهم العواطف فتاً في عضدهم وتشتيتاً لقوتهم وفضاً للأنصار من حولهم .

وتتفاوت الشهوات في رمي الأعداء بأنواع الجرائم حسب الظروف والأحوال والمبائات فهي في الأوساط الدينية غيرها في السياسية كما أنها في الأوساط المدنية غيرها في البدوية .

لهذا كله نسجوا حول الحجاج القصص الشائن، وافتروا عليه وعلى قبيلته شتى المفتريات، بل وصل بهم البغض والكراهية إلى أن يختلقوا على رسول الله ﷺ أحاديث في شأنه وشأن قبيلته مما تعرضنا لبيان كذبه في مطاوي رسالتنا : وإن بعض الذين عابوا الحجاج ثم ولوا شيئاً من أمور الدولة لم يستطيعوا إلا السير على طريقتة .

فالحجاج كان ضحية المؤرخين الذين افتروا عليه شتى المفتريات تمشياً مع روح العصر الذي يكتبون فيه ؛ ونرى أننا كلما بعدنا عن عصر الحجاج كثرت المفتريات والأباطيل .

ومن الإنصاف أن يسجل المؤرخ لمن يؤرخ له ما أصاب فيه بمثل ما يسجل عليه ما أخطأ فيه ، وقد كان الحجاج مسلماً مخلصاً موهوباً ؛ وفي ضوء الأساليب الحديثة الصحيحة لا يسعنا إلا الإعجاب بمواهبه .

ولي العراق عشرين عاماً كان فيها سيفاً من سيوف الإسلام المسلولة ودعامة من أقوى دعائم الدولة الأموية .

وقد انتهجت في هذا البحث أن قسمته إلى خمسة أبواب تكلمت في الباب الأول عن الحجاج منذ أن ولد إلى إن ولي بلاد الحجاز وألمت في هذا الباب بشيء عن أسرته

ونشأته إلى أن ولي أمور الدولة بقدر ما سَمَحَتْ به المصادر من غموض وتناقض في حياته وحياته أسرته .

وفي الباب الثاني تناولت الحجاج بصفة كونه حاكمًا سياسيًا في الحجاز والعراق وبينت أعماله العمرانية والإنشائية وحددت علاقته بالبيت الأموي . وتكلمت في الباب الثالث عن الثورات في عهد الحجاج والتي لم تكن من عمله وعقدت بابا رابعًا للفتوح في عهد الحجاج وبابا خامسًا للحجاج في حياته الخاصة من علاقته بالشعراء وكتابته وخطابته وأخلاقه وتدينه ونسائه وتربيته لأولاده . ثم ختمت الرسالة بخاتمة عن نظرة في سياسة الحجاج وإدارته .

وقد اقتصر في صفحات الرسالة على ذكر التاريخ الهجري فحسب إذ لا حاجة لنا في مثل هذه الرسالة إلى تحميل القارئ مشقة قراءة التواريخ الميلادية خلال الصفحات .

ولكنني وضعت في آخر الرسالة ملحقًا بأهم الحوادث وفق التقويمين الهجري والميلادي وقد جرت عادة الباحثين أن يكتبوا كلمة عن المراجع يذكرون فيها قيمة المرجع ومقدار الانتفاع به . ولكنني لم أرى ضرورة لذلك لأن الكتابة في بيان قيمة المراجع أصبحت عملية مكررة سيما في المراجع التي تناولت موضوعي .

أما قيمة المراجع ومقدار انتفاعنا بها فقد بدت في صفحات الرسالة ذاتها فإننا قلما أوردنا رأيا لم تتفق عليه المصادر إلا ورجحنا مصدرًا على آخر وفق ظروف الحادث بذاته .

وفي رأينا أن كبوة المؤرخ مرة لا تؤخذ على المصدر بأكمله ، يضاف إلى ذلك أن بضعة آراء في تصرفات الحجاج كانت مثارًا لنقمة الناس والمؤرخين عليه نقمة أثبتت الأيام بعد ذلك أن لا محل لها . ولا يعاب على المؤرخ أن يكون قد ساير روح العصر الذي عاش فيه ، وإنما يعاب علينا نحن أن لا نحلل هذه الحوادث في ضوء

وقد استطعنا بحمد الله أن نؤدي واجبنا من هذه الناحية مثبتين أن الحجاج كان يستحق الإعجاب بدلاً من النقد ؛ وعلى ذلك أكون قد كشفت عن ناحية من نواحي التاريخ فأكون قد ساهمت بقسط ولو يسير في حلبة النهضة القائمة في العالم اليوم .

ولا يسعني إلا أن أبدي عجزتي وتقصيري عن الشكر للأستاذ الكبير محمد حبيب أحمد : أستاذ حياتي الدراسية من مبدئها إلى منتهاها . بمقدار ما أوسع لي من صدره وأفسح لي من وقته في الإشراف على هذه الرسالة واجتيازه معي الصخور التي كنت أكد فيها لإظهار الحقائق التاريخية وترجمته لي الكثير من المراجع الأوربية كما هو واضح من ثبت المراجع . فأسأل الله له حسن المكافأة . كما أشكر حضرات الدكاترة والأساتذة :

الدكتور محمد عبد الله ماضي لإمداده لي ببعض الإرشادات وترجمة جزء من الامبراطورية العربية وسقوطها لفلهوزن ؛ والدكتور على حسن عبد القادر فقد ترجم لي الكثير كما هو واضح من ثبت المراجع ، والأستاذ عبد العزيز عبد الحق فقد ترجم لي الكتاب الثالث من حياة الحجاج كما تراه المصادر العربية لبريه ، وفصولاً من كتاب الطائف للامنس وما يتعلق بهذه الرسالة مما كتبه دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا ومما كتبه فان برشم عن الملكية العقارية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأوائل ، والأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي لترجمته لي جزء من الدعوة الإسلامية لأرنولد وما يتعلق بمدينة واسط من أرض بابل القديمة لاسترك وكذلك ما يتعلق بها من كتاب الأمثال العربية لفرايتاج والأستاذ مبروك نافع لترجمته لي ما يلزمي من كتاب الخلافة لموير .

وختاماً أرجو من الله أن يكافئهم عني جميعاً أحسن المكافأة وأن يوفقنا إلى الخير وخدمة هذا البلد الأمين .

الباب الأول

الحجاج منذ أن ولد إلى أن ولي بلاد الحجاز

الفصل الأول

من هو الحجاج . أبواه . أصل قبيلته . موطنها . دخولها الإسلام . أشهر رجالها ؟

الحجاج هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي (ثقيف) وإليه تنسب القبيلة .

فوالده يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ؛ وذكروا أنه كان معلم صبيان بالطائف . وهم إذا قالوا معلم صبيان فإنما يقصدون بهذا الوصف التحقير فيكفي أن يكون الرجل عندهم من معلمي الصبيان ليبان أنه ضعيف العقل مأفون الرأي ساقط المهمة ؛ وقد ضربوا المثل بحماقة المعلم ^(١) .

ويبالغ البعض فيقول إن ذلك في عرف العرب يوازي الحكم بالأشغال الشاقة ^(٢) .

والسبب في احتقار العرب للمعلم أنهم كانوا يحتقرون الصناعات ، والتعليم من جملتها فلا يشتغل به إلا المستضعف الذي ليست له عصبية ؛ فأوحى إليهم هذا الفهم الخاطيء ما أوحى من هجاء .

(١) وكيف يُرجى العقل والرأي عند من : يروح على أنثى ويغدو على طفل .

الملاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨ .

(٢) لامنس - الطائف ص ٢٥٥ .

أما الحجاج نفسه فلم تتفق المصادر على عمل كان يتولاه في صباه فقد ذكر البعض أنه كان معلم صبيان ^(١) بالطائف . بينما قال آخرون إنه كان دباغاً ^(٢) وقال فريق ثالث إنه كان بائع زبيب ^(٣) .

أما قصة أنه كان دباغاً أو بائع زبيب فذلك مستبعد لأننا إذا سلمنا بأن والده كان معلماً فإن من العسير على أهل العلم أن ينشئوا أبناءهم في الصناعات ، والتعليم ميسور أمامهم ؛ وخاصة في تلك العصور التي كان فيها الأبناء يتوارثون وظائف الآباء .

ولعل الذين قالوا ذلك أرادوا أن ينالوا من الحجاج بعد أن أحرز من المجد ما أحرز فاصطنعوا عليه هذه القصص ونظموا في هجائه تلك الأشعار شأن الهجاة في كل عصر يبتكرون من خصب خيالهم ما يوحيه مزاجهم .

(١) قال مالك بن الزيب :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إيراد
زمان هو العبد المقر بذلة يراوح غلمان القرى ويغادي
ابن قتيبة - المعارف ص ٢٢٨ . وابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٥ .
وقال آخر :

أنيس كليب زمان الهزال وتعليقه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر
المبرد الكامل ص ٢٩٠ وابن قتيبة - المعارف ص ٢٣٩ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٢ وياقوت - معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٠ - مع اختلاف في الشطر الثاني من البيت الأول فيروى « وتعليه صبية الكوثر » ولعله يشير بذلك إلى قرية الكوثر الملحقة بالطائف التي نشأ فيها الحجاج .
(٢) قال كعب الأشقر :

إن ابن يوسف غره من غزوم خفض الجناح بجانب الأمصار
ورأى معاودة الدباغ غنية أيام كان مخالف الإقتار
الأصفهاني - الأغاني ج ٣ ص ٥٨ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٣ .
(٣) راجع الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٣٠٣ .

على أن اختلافهم فيما بينهم في إسناد هذه المهن المتباينة إليه يقوم دليلاً على الاختلاق .

وأما أنه كان معلماً وأن أباه كان من قبله معلماً فهذه قصة سلم بها الكثيرون ؛ ولكنهم اختلفوا في تقدير العمل من حيث هو ، فالتعليم وخاصة في صدر الإسلام لم يكن صناعة وإنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ ؛ وكان القائمون بهذا الأمر أهل الأنساب والعصبية .

وكان والد الحجاج من سادات ثقيف وأشرافهم ، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قریش معروفة ، وإنما صار التعليم صناعة واشتغل به المستضعفون حينما استقرت قواعد الإسلام واشتغل أهل العصبية بأمور الملك والسلطان وتركوا التعليم ^(١) .

وبينا كان الحجاج يستهدف لفتح الغاصبين وهجاء الشعراء على هذا الوجه . كان يفاخر بأنه ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قریش ^(٢) ، ومن كان هذا حاله فيبعد كل البعد أن يشتغل بالدباغة أو بيع الزبيب ؛ ولكن من الجائز أن يشتغل بالتعليم على الوجه الذي ذكرناه آنفاً .

ومهما يكن من الأمر فوالد الحجاج كان عظيماً في قومه محبوباً محترماً يدلنا على ذلك أنه كان بمصر فمر عليه سليم بن عمرو التجيبي قاضي مصر فنهض إليه والد الحجاج وسلم عليه وقال له : إني أريد أن آتي أمير المؤمنين فإن كانت لك حاجة فأعلمني . قال حاجتي أن تسأله أن يعزلي عن القضاء .

فقال يوسف : والله لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا !؟ ثم انصرف .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٧ .

فقال الحجاج لأبيه : من هذا الذي قمت إليه فقال : سليم بن عمرو قاضي أهل مصر وقاصهم .

فقال الحجاج : يغفر الله لك يا أبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت تقفي ؟ ! فقال : والله يا بني ما أرى الناس يرحمون إلا بهذا وأشباهه . فقال الحجاج : والله ما يفسد على أمير المؤمنين الأمر إلا هذا وأشباهه : يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس فيذكرون سيرة أبي بكر وعمر فيخرجون على أمير المؤمنين والله لو صفنا لي الأمر لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل أن أقتل هذا وأشباهه . فقال له أبوه : والله إني لأظن أن الله خلقك شقياً (١) .

فترى من هذا أن والد الحجاج يريد أن يفد على الخليفة وأن القضاة يرونه أهلاً للشفاعة في حوائجهم وأن الحجاج يرى لوالده عظمة تسمو به عن القيام لمثل قاضي أهل مصر .

وإذا صحت هذه القصة فإنها تدل على ما كان للحجاج من نفس طموح وثابة وما كان يمتاز به من علم بالأنساب .

وكان والد الحجاج من الذين يحملون بعض الألوية في يوم الربرة (٢) حينما بعث مروان بن الحكم بن حبيش بن دلجة القيني لقتال ابن الزبير (٣) كما خرج مع مروان قبل ذلك في حملته على مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري عامل ابن الزبير (٤) .

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٩ ص ١١٨ ، ١١٩ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٣ ، ١٠٤ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١١ .

(٢) الربرة - قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها - ياقوت - معجم البلدان ج٤ ص ٢٢٢ .

(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٢ والمعارف ص ١٧٣ والبلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ١٥٥ والطبري ج٤ ص ٤٧٥ وابن الأثير ج٣ ص ٣٤٧ .

(٤) الذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١١ .

وكان من كبار الملأك في مكة (١) وقد تزوج بالفارعة سيدة نساء ثقيف وأكثرهن حلياً (٢) وقد مات والحجاج وال على المدينة فنعاها على المنبر (٣) .

وكانت أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي وكانت قبل زواجها بوالد الحجاج متزوجة بالمغيرة بن شعبة (٤) .

ويروى أنها طلقت منه لأنه دخل عليه مرة في السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألته عن السبب فأخبرها بأنه دخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فقال لها : إن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة . فقالت : كل ذلك لم يكن ولكني تخللت من شظايا السواك والله ما فرحنا إذ كنا ولا ندمنا إذ ينّا ؛ فندم المغيرة على ما بدر منه وخرج أسفاً فلقيه والد الحجاج فقال له : هل لك إلى شيء أدعوك إليه ؟ قال : وماذا ؟ قال إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فإنها تنجب لك . فتزوجها فولدت له الحجاج (٥) .

فالمغيرة الذي أحصن العدد الجم من النساء (٦) يأسف على فراقها ثم يبين لوالد الحجاج أنها خليقة بأن تنجب ، وبأن تأتي برجل يسود (٧) ، مما يدل على عظمتها من ناحية ، وشخصية والد الحجاج من ناحية أخرى .

(١) أخبار مكة ج٢ ص ٢٤١ .

(٢) ابن الأثير ج٢ ص ١٨١ وابن كثير ج٤ ص ٤٣٥ .

(٣) المعارف ص ١٧٣ .

(٤) ابن عبد ربه ج٣ ص ٥ والجاحظ - المحاسن والأضداد ص ١٨٢ والأغاني ج٦ ص ٢٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٧٢ .

(٥) ابن عبد ربه ج٣ ص ٥ وابن كثير ج٩ ص ١١٨ .

(٦) فيروى أنه أحصن ثلاثمائة امرأة وقيل ألف امرأة - الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج١ ص ٢٥٩ وأشد الغابة ج٤ ص ٤٠٧ .

(٧) ابن كثير ج٩ ص ١١٨ ويروى العيني ج١١ ص ٤٠٠ أن المغيرة قال : إنها خليقة أن تأتي بالرجل ويروى أنها كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب وطلقها لنفس السبب . المسعودي مروج الذهب ج٢ ص ٩٤ وابن خلكان .

وقد أنجبت من المغيرة بنتاً وإن الحجاج نازع عروة بن المغيرة بعد وفاة والده في ميراث الفتاة ورفع القضية إلى ابن زياد ^(١) .

وكان الحاسدون للحجاج لا يدخرون وسعاً في محاولة النيل منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً : يقول ابن الجوزي في تنقيح فهم أهل الأثر ^(٢) : إنه بينما كان عمر بن الخطاب يطوف بالمدينة إذ سمع امرأة تقول .

هل من سبيل إلى خير فأشربها : أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتي ماجد الأعراق مقتبل : سهل الحيا كريم غير ملجج

فقال عمر : لا أرى معي في المدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن وسيّره إلى البصرة .

ويذهب ابن الجوزي إلى أن هذه السيدة كانت أم الحجاج بينما يتردد ابن كثير ^(٣) فيروي أنها أمه مرة وأنها جدته من جهة أبيه مرة أخرى .

وهذه رواية قصد بها الخط من شأن الحجاج فإن مثل تلك الأمنية لا تتصور من هذه السيدة العظيمة في قومها بنسبها وزوجها ؛ فوالدة الحجاج جدها عروة بن مسعود عظيم القريتين ^(٤) ؛ وكانت هي من عظيمات نساء ثقيف حتى أن خولة بنت حكيم السلمية - زوجة عثمان بن مظعون قالت في حصار الطائف : يارسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان أو حلي الفارعة ؛ وكانتنا من أكثر نساء ثقيف حلياً ^(٥) .

(١) الأصفهاني ص ٦ ص ٢٣ .

(٢) تنقيح فهم أهل الأثر ص ٣٥٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ١١٨ .

(٤) المذكورتين في القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ سورة الزخرف آية ٣٠ والمقصود بها مكة والطائف والرجل الثاني الوليد ابن المغيرة المخزومي .

(٥) ابن الأثير - الكامل ج ٤ ص ١٨١ وابن كثير - البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٥٠ .

ولا يضيرها كما لا يضير الحجاج إن كانت تزوجت ثم طلقت ؛ فقد كانت متزوجة بسيد قومها ولها بينهم ما له من مكانة .

ولثقيف بين القبائل شرف رفعت بناءه بمآثرها ومكارم أخلاقها وظهور شخصيات عظيمة من أبنائها خدموا الدولة الإسلامية في العصر الأموي أجل الخدمات .

غير أنها مع هذا المقام السامي لا تتمتع بنسب ناصع ؛ ولعل ذلك راجع إلى الأمور الآتية .

أولاً : تأخر إسلامها .

ثانياً : نزولها الطائف وهي مسكن ثمود في أول أمرهم ^(١) .

ثالثاً : إخلاص الكثير من رجالها للدولة الأموية ؛ ذلك الأمر الذي جر عليها الكثير من الادعاءات والأقاويل واختلاق أحاديث نسبت إلى الرسول ﷺ . وسنحاول ذكر الروايات التي قيلت في نسبها - باختصار - وترجيح ما نعتقده . فتذهب رواية إلى أن نسب ثقيف يرجع إلى قبيلة ثمود التي بادت وانقرضت وأن أباهما كان يدعى أبا رغال .

وتختلف الروايات في العمل الذي كان يتولاه وكيفية هلاكه . فمن قائل إنه كان ملكاً بالطائف ؛ وكان ظالماً لرعيته فمر مرة بامرأة ترضع صبياً يتيماً بلبن عنز فأخذها منها وبقي الصبي بلا مرضع حتى مات فرماه الله بقارعة أهلكته فرجم العرب قبره ^(٢) .

ومن قائل إن أبرهة لما توجه بجيشه إلى بلاد العرب خافت ثقيف أن يقصد اللات - صنهم المعظم - فبعثوا معه مسعود بن معتب وهو أبو رغال ليدله على

(١) ابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص ٣٣٨ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني ج٤ ص ٧٤ .

الكعبة وليحول نظره عن صنهم فلما رماهم الله بالطير الأبائيل هلك أبو رغال فدفن بين مكة والطائف في مكان يسمى المغمس ^(١) ؛ فمر النبي بقبره فأمر برجمه فكان ذلك سنة للناس يرجعون ذلك القبر حينما يرون به ^(٢) .

وقد هجا جرير الفرزدق فقال :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال ^(٣) .

ومن قائل إن أبا رغال وجهه النبي صالح على صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قسي بن منبه فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم ^(٤) .

ومن قائل إن ثقيفاً كان عبداً لأبي رغال ، وكان أصله من قوم نجوا من ثمود ثم انتهى بعد ذلك إلى قيس ^(٥)

فهذه النسب كلها تدور على أن ثقيف من ثمود سواء أكان أبو رغال والد ثقيف أم أن ثقيفاً كان عبداً له !!

ويذكر الرواة في صدد ذلك أحاديث وآثار لا يخالجنّا شك في أنها موضوعة مثل حديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفاً وإنه من ثمود وكان في الحرم فنعه الله منه) وحديث (بنو هاشم والأنصار حلفان وثقيف وبنو أمية

(١) المغمس . موضع قرب مكة في طريق الطائف - ياقوت - معجم البلدان جـ ٨ ص ١٠٤ .

(٢) المسعودي جـ ٢ ص ٧ والأغاني جـ ٤ ص ٧٤ والأزرق جـ ١ ص ٨٧ وابن كثير جـ ٢ ص ١٧١ وابن خلدون جـ ٢ ص ٦١ .

(٣) المسعودي جـ ٢ ص ٧ وقال غيلان بن سلمة وقد ذكر قسوة أبيهم على أبي رغال (نحن قسي وقسي أبونا) ويقول أمية بن أبي الصلت الثقفى .

نقوا عن أرضهم عدنان طراً
وكانوا للقبائل قاهريناً
وهم قتلوا الرئيس أبارغال
بكّة إذ يسوق بها الوضيناً

(٤) ابن قتيبة - المعارف ص ٤١ والمسعودي جـ ٢ ص ٧

(٥) الأغاني جـ ٤ ص ٧٤ .

حلفان) وما روي عن علي بن أبي طالب من أنه مر بقوم من ثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم وقال : يا عبيد أبي رغال ، إنما كان أبوكم عبدًا له فهرب منه فثقفه (ظفربه) ثم انتهى إلى قيس . وأنه قال على منبر الكوفة : لقد هممت أن أضع الجزية على ثقيف لأن ثقيفًا كان عبدًا لصالح نبي الله وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث العامل معه بها فهرب واستوطن الحرم وإن أولى الناس بصالح محمد . وأن حسان بن ثابت قال :

إذا الثقفي فاخرم فقولوا هلم نعد شأن أبي رغال
أبوكم أخبث الأباء قديمًا وأنتم مشبهوه على مثال^(١)

وقال مرة وهو جالس بمنى بعد أن كف بصره .

وكان حافرها بكل جيلة صاع يكيل به شحيح معدم
عاري الأشاجع من ثقيف أصله عبد ويزعم أنه من يقدم

وكان المغيرة بن شعبة - وهو ثقفى - يسمعه فأرسل إليه بخمسة آلاف درهم يستهويه بها^(٢) .

إلى غير ذلك من الأخبار التي تنسب ثقيف إلى ثمود .

ويظهر أن نزولهم الطائف كان من الأسباب التي روجت هذه الفكرة وهذا فوق الأسباب التي ذكرناها من إسلامها متأخرة .

وإذا كان هذا سببًا فإن أغلب القبائل قد أسلمت متأخرة وإن الإسلام يقطع ما قبله ، وإذا كانت قد أشدت في معاداة النبي ﷺ فقد كانت قريش كذلك لم تسلم إلا مكرهة .

على أن هذه الشدة في العداوة للإسلام تقابلها شدة أخرى في تمسكها به ، فإن جميع قبائل العرب ارتدت إلا قريشا وثقيفًا^(٣) وثبت سبب آخر هو أن نفوذ ثقيف امتد

(١) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة م ١ ص ٢٩٧ والأغاني ج ٤ ، ص ٧٤ ، ٧٦

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ١٣٦ . (٣) ابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ٦٥ .

طوال الحكم الأموي وارتبطت الأستنان ببعضها برباط المصاهره ارتباطاً دفع
الوضاعين أن يضعوا أحاديث على النبي في هذا الارتباط مثل قولهم « بنو أمية
وثقيف حلفان » .

وقد فند الجاحظ نسبة ثقيف إلى ثمود فقال : وأما ثمود فقد أخبر الله عنهم بقوله
﴿ وثمود فما أبقى ﴾ ؛ ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ وأنا أعجب من مسلم يصدق
بالقرآن ويزعم أن قبائل العرب من بقايا ثمود !! ^(١) . وكان الحجاج إذا سمع ذلك
يقول : كذبوا فقد قال الله عز وجل ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ .

وقال مرة « ولئن كنا من بقايا ثمود فما نجا مع صالح إلا خيارهم » .

فهو قد رأى فيها فخاراً وتقديراً لأجداده لأنه لم ينج مع الرسول صالح إلا
خيارهم فأهل الطائف هم أبناء هؤلاء الأخيار الذين رضي الله عنهم ^(٢) .

كما أنه إذا صح خطاب عبد الملك الذي حقر فيه شأن ثقيف بأن جدهم كان عبداً
لنبي الله صالح وأنه ائتمنه على الصدقات فهرب بها : فإن الحجاج انتهزها فرصة وأبان
لعبد الملك بأن ثقيفاً كانت عدل قريش في الجاهلية حتى أنهم لما أرادوا المباهاة وقد
نفخ الشيطان في مناخرهم قالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين
عظيم » فوقع اختيارهم على الوليد بن المغيرة وأبي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار
بها صنوين ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي ^(٣) .

وبذلك يمكننا القطع بأن نسبة ثقيف إلى ثمود خرافة قد فطن إليها ابن
خلدون ^(٤) وكذلك المستشرق لامنس ^(٥) ؛ فإنه يقول : وهذه القصة وأمثالها ليست
مما يؤيده علم الأنساب والتاريخ بل هي خرافة أذاعها دعاة العباسيين الذين كان

(١) الجاحظ ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) راجع الأغاني ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) ابن عبد ربه ج ٣ من ص ٨ - ١٠ .

(٤) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ٢٤ (٥) الطائف ص ١٧٠ .

يهمهم أن يحطوا من قيمة البيت الأموي وعماله الذين أخلصوا له .

وتذهب رواية أخرى إلى أن ثقيفاً من إياد بن نزار بن معد بن عدنان .

وأن قسيّاً هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن دغمي بن إياد بن نزار ... وأن النخع وثقيف من إياد^(١) وأنها خرجا ومعها عنز لها يشربان لبنها فعرض لها عامل صدقة ملك الين وأراد أخذها فأبيا عليه ورماه أحدهما فقتله فقال الآخر إنه لا يجمعني وإياك أرض فضى النخع إلى بثية^(٢) وأقام بها وصار في عداد مذحج ونزل قسي موضعاً قريباً من الطائف ، وتمكن من إرغام العدواني أبي عامر بن الظرب بن قيس بن عيلان على تزويجه بابنته من غير أن يستشير العدواني أحداً .

فلما علم بذلك ابنه عامر قال : لله أبوه لقد ثقف أمره . فسمي من ذلك اليوم ثقيفاً .

وعير الناس العدواني بذلك وقالوا له قد زوجت ابنتك بعبد فसार إلى الكهان يسألهم فقال له بعضهم : إنه قسي وقسي عبد إياد ؛ وقال له البعض الآخر : إن قسيّاً من ولد ثمود^(٣) .

واستأنس أصحاب هذا الرأي بقول أخت الأشر مالكة بن الحارث النخعي ترثيه :

أبعد الأشر النخعي نرجو	مكاثرةً ونقطـع بطن وادي
ونصحب مذحجاً بإخاء صدق	وإن ننسب فنحن ذرا إياد
ثقيف عننا وبنو أئينا	وإخوتنا نزار أولو السداد ^(٤)

(١) الأغاني ج٤ ص ٧٥ . ويروى أنها أخوان لأب وأم . الأغاني ج٢ ص ٢٦٧ وابن أبي الحديد م ٢ ص ٣٩٢ .
وياقوت - معجم البلدان ج٧ ص ١٢ .

(٢) قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد الين - ياقوت معجم البلدان ج٢ ص ٣٣٤ .

(٣) الأغاني ج٤ ص ٧٥ (٤) الأغاني ج٢ ص ٢٦٧ .

ويقول شبيب بن يزيد الشيباني في دخوله الكوفة :

عبد دعي من ثمود أصله بل يقال أبو أيهم يقدم^(١)

ومن الواضح أن هذا النسب يكاد ينطق بعدم صحته فإن الرواية التي رواها الأصفهاني في هذا الشأن مضطربة ، فإن بعض الكهان قال إنه من إياد ، والآخر قال إنه من ثمود .

وقول أخت الأشر لا يفيد إلا أن قبيلة مذحج لم تنصرهم ، وأرادت أن تتقرب لثقيف لتأخذ يدها في محنتها . وأما ما أنشده شبيب من الشعر فهو قول خصم يريد أن يشهر بعده ؛ ويكاد بعض المؤرخين^(٢) ينفي ذلك وتذهب رواية ثالثة إلى أنه من هوازن فهو قسي (ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن .

وهذا ما صرح به كثير من النسابين والمؤرخين^(٣) وقد ارتضاه الثقفيون لأنفسهم واشتهروا به فزى أن المغيرة بن شعبة سأل هند بنت النعمان وقد جاء خاطبًا لها : ما كان يقول أبوك في ثقيف فقالت : أذكر وقد اختصم إليه رجلان أحدهما ينتمي إلى إياد والآخر إلى هوازن فقضى للإيادي . وقال :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا ولم يناسب عامرًا ومازنا

إلا قريبا فانشروا المحاسنا

فقال المغيرة : أما نحن فمن هوازن فليقل أبوك ما شاء^(٤) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ .

(٢) ابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) المقتضب من جهرة أنساب العرب ج ٢ ص ٦٢ والمبرد ص ٢٦٦ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٥٥ وابن خلدون ج ٢ ص ١٦٦ ، والمسعودي - التنبيه والأشراف ص ٢٧١ وابن خلكان ج ١ ص ١٥٤ .

(٤) المسعودي ج ٢ ص ٤٩ والأغاني ج ١٤ ص ١٣٦ والمبرد ص ٢٦٧ والأبشهي ج ٢ ص ٢٢١ . وتقصد هند عامر ابن صعصعة بن بكر بن هوازن ومازن بن منصور .

وهذا ما نراه في نسب هذه القبيلة التي اضطربت الرواية في أخبارها والتي لم يقتصر الطعن فيها على أصلها بل وجه إلى جده ^(١) وإلى الحجاج نفسه على ما سنذكر إن شاء الله تعالى .

كانت الطائف في الجاهلية للعائلة ثم نزلتها ثود - قبل وادي القرى - ثم سكنها بنو عدوان ثم غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة . ثم تمكنت ثقيف بدهائها من احتلالها .

وذلك أن بني عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن كانوا يُصيفون بالطائف ويشتون بأرضهم من نجد وكانت ثقيف قد نزلت حول الطائف ^(٢) ؛ فحاولت ثقيف أن تمتلك الطائف حينما أعجبهم نباتها وطيب ثمرها فأبانت لبني عامر أنه في الإمكان أن تستغل أرض الطائف استغلالاً تاماً ، كاملاً بجفر الآبار وعرضوا عليهم استعدادهم للعمل إذا ما مكنهم بنو عامر من الأرض ودفعوا لهم الماشية للعمل عليها - لأنه لم يكن لثقيف مواشٍ - نظير نصف ما يخرج منها .

فرحب بنو عامر بهذه الفكرة وسلموا إليهم الأرض ونزلت ثقيف البلاد فزرعت الأغاب والثار ووفت بما اشترطت على نفسها حيناً من الزمن .

وفي ذلك الحين كان قد كثر عدد ثقيف وحصنت الطائف ببناء سور لها ^(٣) واستبدت بالأمر ولم تدفع شيئاً لبني عامر فحاول بنو عامر أخذ الأرض منهم بالقوة فلم يظفروا بشيء وتمت الغلبة لثقيف ^(٤) فلكت الطائف .

(١) فيروي ابن شاعر ج ٥ ص ٢٥٦ بأن معتباً جد الحجاج كان عبداً رومياً يقال له فيروز - لبعض اليهود يبيع الحمر بالمدينة .

(٢) ابن قتيبة - المعارف ص ٣٩ وابن خلدون ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) كانت الطائف قبل بناء السور تسمى بوج وبواج - البلاذري فتوح البلدان ص ٦٢ والهمداني - البلدان ص ٢٢ .

(٤) ابن الأثير ج ١ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

كانت ثقيف من القبائل المناوئة للإسلام في بدئه شأنها شأن كل القبائل العربية . ولما مات أبو طالب عم الرسول ونالت قريش منه مالم تنل من قبل فكَّر الرسول ﷺ في قبيلة تعادل قبيلته وتساجلها في مذاهب العروبة وتنازعها في الشرف فوجد ثقيفاً فسار إلى الطائف يلتمس من أهلها النصرة والمعونة والمنعة من قومه ^(١) ولكن تمسك ثقيف بدينها جعلها لا تقبل الدعوة واستمرت كذلك حتى فتح الله مكة على المسلمين وانتصر الرسول على قريش ذلك النصر العظيم فلم تخضع تلك القبيلة ولم تسلم بل اجتمعت وقررت أن تسير لحرب محمد .

علم الرسول بذلك فأرسل رسولا لمعرفة حقيقة الأمر فذهب عبد الله بن حدرد ورجع فأخبر بأن القوم قاصدون حرب المسلمين فخرج الرسول في اثني عشر ألفا منهم عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الذين أسلموا يوم الفتح وهو أكثر جند خرج به الرسول وسار حتى وصل وادي حنين في أول يوم من شوال من السنة الثانية للهجرة .

وكانت هوزان قد كنت في جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد ^(٢) وثبت الرسول عليه السلام ومعه عدد قليل ونادى العباس وكان جهير الصوت فاجتمع حول الرسول نحو المائة وحمي وطيس القتال وانتصر المسلمون وسار الرسول إلى الطائف وحاصرهم .

وصار يرميهم بالمنجنيق وهم يرمون جيشه بالنبال حتى استشهد عدد عظيم من المسلمين في ذلك الحصار . رأى الرسول أن الحصار سيطول أمده وسيعرض المسلمين لخسائر فادحة فأمر برفع الحصار ^(٣) .

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ وابن كثير ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٨ والحضري بك ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ وابن الأثير ج ٢ ص ١٨١ وابن كثير ج ٤ ص ٢٤٨ .

فقال رجل : يا رسول الله ادع على ثقيف . ولكن الرسول كان يعرف أهمية ثقيف وإسلامها فقال « اللهم اهد ثقيفا وأت بهم » .

وقال عبيدة بن حصن الفزاري « أجل والله مجدة كراما » فقال رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عبيدة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله ؟!! فقال والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفا ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها تلد لي رجلا فإن ثقيفا قوم مناكير ^(١) .

وارتحل الرسول عن الطائف حتى نزل الجعرانة ^(٢) وكانت الأموال قد حبست بها - فأتاه هناك وفد من هوزان مسلمين فقالوا : يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فمَنْ علينا . وقال له رجل : إنما في الحظائر عمتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك .

وهكذا وبمثله تنازل الرسول عما خصه من السبي الذي كان قد سباه من هوزان وتنازل كذلك المسلمون تبعاً للرسول ثم وفد عليه مالك بن عوف النضري - أحد الزعماء - فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الأبل فأسلم وحسن إسلامه واستعمله الرسول بعد ذلك على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف فضيق على الذين لم يسلموا باستباحة سرحهم وقطع سابلتهم ^(٣) .

ولما رأت ثقيف أن الذين يجاورونهم من العرب قد أسلموا وصاروا يناوئونهم فلا يخرج لهم مال إلا نُهَبَ ولا إنسان إلا أُخِذَ وأن الرسول قد خرج إلى تبوك ^(٤) ؛ فأرهب من لم يسلم وعقد المعاهدات مع أهل أيلة وأهل جربا ^(٥) وغيرها لما رأت

(١) ابن الأثير ج٢ ص ١٨١ وابن كثير ج٤ ص ٣٥٠ .

(٢) الجعرانة ماء بين مكة والطائف وهي إلى مكة أقرب - معجم البلدان ج٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير ج٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ وابن خلدون ج٢ ص ٢٤٦ .

(٤) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام - ياقوت معجم البلدان ج٢ ص ٣٦٥ .

(٥) أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام - ياقوت معجم البلدان ج١ ص ٣٩١ . وجرباء بلدة من بلاد الشام كان أصلها من اليهود - ياقوت ج٢ ص ٧٤ .

ثقيف ذلك اجتمعوا وقرّ رأيهم على الإسلام طواعية قبل أن يكرهوا على ذلك بحرب فأرسلوا في رمضان من السنة التاسعة للهجرة وفدا من زعمائهم إلى الرسول ليتفاوضوا معه في أن لا يهدم اللات ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة فأبى الرسول عليه السلام ذلك مبيناً أن إسلامهم يجب أن يكون بمحو الوثنية ومظاهرها فقبلوا الإسلام بلا قيد ولا شرط (١) .

وبإسلام قريش وثقيف قدمت وفود العرب من كل حدب وصوب . وكما كانت ثقيف شديدة في شركها حريصة على معتقدها فقد كانت أقوى القبائل إيماناً وأشدها تمسكاً بالإسلام . فإنه لما مات رسول الله ارتدت جميع قبائل العرب عدا قريش وثقيف (٢) .

واستمرت ثقيف في إخلاصها للإسلام والمسلمين وعملت بمجد في خدمته وأخلصت للخلافة الإسلامية أي إخلاص . وقد اشتهر منها رجال كانوا رواة للحديث وعلماء في الطب واللغة والحرب والسياسة وسنلمح إلماخاً سريعاً لبعض تلك الشخصيات ليطم البحث .

فمن هؤلاء عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف ؛ وأحد الشخصيات البارزة في جزيرة العرب وأحد الرجلين اللذين قال فيهم العرب « لولا أنزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم » .

وكان غائباً عن الطائف حينما حاصره النبي فقد كان بجرش يتعلم صناعة الدبابات والمجانيق (٣) .

ولما قدم الطائف بعد انصراف رسول الله قذف الله في قلبه الإسلام فخرج إلى رسول الله في شهر ربيع الأول من سنة تسع للهجرة فأسلم وسُرّ رسول الله بإسلامه

(١) ابن الأثير ج٢ ص ١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ وابن خلدون ج٢ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن الأثير ج٢ ص ٢٣١ وابن خلدون ج٢ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن سعد - الطبقات ج٥ ص ٣٦٩ وابن خلدون ج٢ ص ٢٤١ وجرش بلدة باليمن فتحت صلحاً سنة عشر .

ثم استأذن رسول الله في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام فقال له الرسول : إنهم قاتلوك . فقال : لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني ^(١) فسار إليهم وأعلن إسلامه فقتله قومه وكادت تقع بين بطون ثقيف الحروب لولا أنه تصدق بدمه على قاتله - قبل موته - واعتبر ذلك شهادة ساقها الله إليه . وبلغ النبي ذلك فقال « مثل عروة مثل صاحب يس » دعا قومه إلى الله فقتلوه ^(٢) .

الحارث بن كلدة : بن عمرو بن علاج الثقفي . طبيب العرب في وقته ، رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار في الجاهلية وأجاد في هذه الصناعة وطب في موطن العلم وعالج بعض عظماء فارس فأهدى له بعضهم مع جاريته سمية مالا كثيرا وتعلم صناعة العود في فارس أيضا وكان له تقدم في النحو ^(٣) .

ولما مرض سعد بن أبي وقاص عاده النبي وأوصاه بأن يعرض نفسه على الحارث وأوصى كل من كانت به علة أن يعرض نفسه على طبيب العرب مما يدل على نزوجه وتفوقه ^(٤) .

ومنهم أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري : كانت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء صفة ولما مسائل ومجالس وقد أخذ عنه سيبويه النحو وألف كتابا سماه الجامع في النحو ؛ ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وعلق عليه من كلام الخليل بن أحمد وغيره ثم نسبه إلى نفسه ؛ وهو الكتاب المشهور باسم كتاب سيبويه ولم يقتصر تأليفه على كتابه الجامع بل ألف نيفا وسبعين كتابا في النحو ، قد ضاعت وحفظ لنا الزمن هذا الكتاب وآخر اسمه الإكمال .

(١) ابن سعد - الطبقات ج ٥ ص ٣٦٩ وقيل إنه أدرك الرسول في الطريق حين رجوعه من الطائف . ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٣ .

(٢) ابن سعد - الطبقات ج ٥ ص ٣٦٩ وابن الأثير ج ٢ ص ١٩٣ وابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٣) راجع القفطي ص ١١١ ، ١١٢ والزوزني ص ١٦١ .

(٤) ابن سعد الطبقات ج ٥ ص ٣٧١ ، ٣٧٢ والقفطي ص ١١٢ ، والزوزني ص ١٦٢ .

وكان عيسى نقاداً فكان يخطيء بعض الشعراء المشهورين مثل النابغة ؛ ومن تلاميذه الخليل في النحو والقراءات ، والأصمعي في القراءات . ومات في حدود سنة تسع وأربعين ومائة للهجرة (١) .

ومنهم أبو محجن الثقفي الشاعر : كان في جيش أبي عبيدة الثقفي يوم الجسر وقد أبدى من الشجاعة الشيء العظيم (٢) وقد تجلت شجاعته ووفاءه في يوم أرمات (٣) .

ذلك أنه كان في حبس سعد بن أبي وقاص فاستأذن امرأة سعد في أن تحل قيده ليخرج إلى قتال الفرس فإن قتل فقد نال الشهادة وإن سلم رجع ثانية إلى حبسه . فحلت قيده وخرج فقاتل المشركين قتالاً شديداً عجب منه الناس حتى قال بعضهم إنه نصر نزل من السماء إلى الأرض وظنه البعض الآخر هاشم بن عتبة الأمير المنتظر من الشام ؛ وبعد أن انتهت الموقعة رجع إلى قيده وفاءً بوعده (٤) .

ودخل ابنه يوماً على معاوية بن أبي سفيان فقال أبوك الذي يقول :

إذا مت فادفني إلى أصل كَرْمَةٍ تروى عظامي بعد موتي عروقها
فقال أبي الذي يقول :

لا تسألني الناس عن مالي وكثرته وسألني الناس عن بأسِي وعن خلقي
القــــــــوم يعلم أني من سراتهم إذا تطيش يد الرعيـدة الفرق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتم السر فيه ضربة العنق (٥)

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٦٠ .

(٣) أرمات - يوم من أيام القادسية .

(٤) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٥) ابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ١٦٢ .

وغيلان بن سلمة بن شرحبيل الثقفي : أحد الوافدين على كسرى من ثقيف وقد أعجب به كسرى حين سألته عن أحب أولاده إليه وأجابه بقوله : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب ، وكان شاعرًا توفي في آخر خلافة عمر وكان من رواة الحديث (١) .

ومن رواة الحديث أيضًا من هذه القبيلة أوس بن أوس الثقفي وأبو عاصم الثقفي وابن أبي إبراهيم الثقفي (٢) .

والمغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب : أحد دهاة العرب الأربعة . يروي أن الشعبي قال : إن معاوية للأناة والحلم وعمرو للمعضلات والمغيرة للبديهة وزباد للصغيرة والكبيرة (٣) .

ويقول عنه معاوية : إن المغيرة للأمر العظيم . ولي البصرة والكوفة لعمر بن الخطاب وأقره عثمان ثم عزله ولما قتل عثمان دخل المغيرة على علي ونصحه نصيحة لو عمل بها لاستقر له الأمر (٤) .

وكذلك نراه يقول لمعاوية بعد استقرار الأمر له - وقد رأى عمرو بن العاص بمصر والمغرب وعبد الله ابنه بالكوفة - تفعل هذا فتكون بين فكي الأسد .

فشورته تدل على العقل الناضج والرأي السليم ؛ وقد شهد بيعة الرضوان وشهد حروب اليمامة وفتوحات الشام واليرموك - وقد ذهبت إحدى عينيه في هذه الموقعة - والقادسية وكان من الصحابة الأجلاء والأمراء النبلاء ؛ وهو أول من وضع ديوان الأمراء وأول من سلم عليه بالإمرة ولما حضرته الوفاة قال : اللهم هذه يميني بايعت بها نبيك وجاهدت بها في سبيلك . مات وهو أمير الكوفة في سنة خمسين من

(١) راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٢ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ .

(٢) راجع تنقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٥٢ .

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج١ ص ٢٥٨ وأسد الغابة ج٤ ص ٤٠٦ .

(٤) راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج١ ص ٢٥٨ .

هجرته ﷺ ؛ وقد رثاه بعض الشعراء (١) .

أبو عبيد بن مسعود الثقفي : أول من لبى نداء عمر بن الخطاب في الخروج إلى العراق ؛ ولذا ولاه إمرة الجيش دون من خرج معه من المهاجرين والأنصار ؛ وسار حتى لقي الفرس بالنارق (٢) فهزمهم وأسر في الموقعة جابان قائد الجيش ؛ وقد أسره رجل من عامة الجيش وأمنه فوفى له أبو عبيد بالأمان ولم يقتله على الرغم من إلحاح الذين معه بوجوب قتله (٣) .

وقد أبدى في يوم الجسر (٤) من الشجاعة والبسالة والإخلاص ما جعله في مصاف العظماء وقد قتل في ذلك اليوم وأخذ اللواء بعده أخوه الحكم فقتل ثم ابنه جبر فقتل وصارت ثقيف تتداوله حتى قتل منها سبعة في ذلك اليوم (٥) .

المختار بن أبي عبيد الثقفي : كان طموحًا وقد بدا طموحه من صغره فنراه يشير على عمه سعد بن مسعود الثقفي أمير المدائن حينما جرح الحسن بن علي في مظلم ساباط - بالمدائن - بدفع الحسن إلى معاوية للتقرب به إليه فأبى عمه . ولهذا عد الشيعة المختار عثمانيا (٦) .

ولما ذهب مسلم بن أبي عقيل إلى الكوفة ، كان المختار أحد الذين بايعوه وقد حبسه ابن زياد لذلك ثم توسط له زوج أخته عبد الله بن عمر فأطلق سراحه فسار إلى ابن الزبير واشترط عليه أن يوليه أفضل أعماله وأن لا يقطع أمرًا دونه فأظهر

(١) راجع أسد الغابة ج٤ ص ٤٠٧ .

(٢) النارق - موضع قريب من الكوفة .

(٣) ابن الأثير ج٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٩ والخضري بك ج١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) ويقال لها موقعة قس الناطف وال مروحة . وقس الناطف موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي والمروحة بشاطئه الغربي ، وكانت تلك الموقعة في رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة .

(٥) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٦٠ ، ٢٦١ وابن الأثير ج٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٦) ابن الأثير ج٢ ص ٢٠٣ .

ابن الزبير قبول شروطه وشهد معه حصار الحصين بن غير ولكن ابن الزبير لم يف له بالشرط فتركه (١) وسار إلى الكوفة حينما علم أن الفتنة قد برقت فيها ورعدت وقبل خروجه أتى محمد ابن الحنفية وأبان له أنه سيخرج للطلب بدم الحسين والانتصار لآل البيت فلم يأمره ولم ينهه وأوصاه بتقوى الله .

ويروى أنه قال إني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ؛ ولست أمر بحرب ولا إراقة دم فإنه كفى بالله ناصرا ولحقنا آخذا وبدمائنا طالبا (٢) .

وقد تذرع المختار بهذه الوسيلة التي أخذها عن المغيرة بن شعبة ذلك أنه بينما كان المغيرة راكباً بسوق الكوفة وكان معه المختار فقال المغيرة : أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال أقواماً فصاروا له أنصاراً ثم لا سيما العجم الذين يقبلون ما يلقي إليهم . فقال المختار وما هي يا عم ؟!

قال : يدعوه إلى نصره آل محمد والطلب بدمائهم . فكانت هذه الكلمة في نفس المختار حتى دعا (٣) .

وقد استعمل المختار دهاءه في ضم الناس إليه بما وهبه الله من فطنة ودهاء فإن المختار من دهاة ثقيف وثقيف من دهاة العرب (٤) .

وخرج بمن انضم إليه وناوأ الخلافة الزبيرية وتغلب على عمال عبد الله بن الزبير بالكوفة وظفر بأغلب قتلة الحسين وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير معارك انتهت بقتله في سنة تسع وستين للهجرة .

وسمى مصعب يد المختار على حائط المسجد الجامع فلم تزل حتى قدم الحجاج بن

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ من ص ٢١٤ - ٢١٦ وابن الأثير ج ٣ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ من ص ٢١٤ - ٢١٨ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ من ص ٢٢٣ .

(٤) الأبشيهي - المستطرف من كل فن مستظرف ج ٢ ص ٨٩ .

يوسف العراق فأمر بها فانتزعت ودفنت (١) .

محمد بن القاسم الثقفي : والي ثغر السند من قبل الحجاج في سنة تسع وثمانين وقد أخضع في ولايته هذه مكران وواصل تقدمه في المنطقة المعروفة الآن باسم بلوختان وفتح الديبل والبيرون (حيدر أباد) واستمر في سيره شمالا حتى وصل الملتان في جنوب البنجاب (٢) .

وكان من نبوغه أن ولي قيادة الجيش وهو ابن سبع عشرة سنة (٣) فنجح ووفق توفيقاً عظيماً .

يوسف بن عمر الثقفي : ولي الين لهشام بن عبد الملك في سنة ست ومائة للهجرة ثم ولي العراق في سنة عشرين ومائة ؛ وهو أحد المجدين للدرهم المسماة باسمه (اليوسفية) (٤) .

ولقد أتيت على هؤلاء بشيء من التفصيل لبيان أن عصر صدر الإسلام والعصر الأموي كان مليئاً بالثقيين من مختلف الطبقات ؛ وليس هذا حصراً لمن تقدم في الدولة الإسلامية فإن غيرهم كثير فمنهم محمد بن يوسف والي الين في عهد عبد الملك ابن مروان وزائدة بن قدامة محارب الخوارج ، وأمّية بن أبي الصلت الشاعر المشهور الذي كان يفكر في أنه سيكون النبي المبعوث . والحكم بن أيوب والي البصرة في عهد الحجاج .

وحقا لقد أخرجت لنا ثقيف رجالاً كانوا مروضين للبدو ، ضربوا بسهم وافر في

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ من ص ٢٢٥ - ٢٥٥ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان من ص ٤٤٢ - ٤٤٥ وابن الأثير ج٤ ص ١١١ ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ودحلان - الفتوحات الإسلامية ج١ من ص ١٨٨ - ١٩٠

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ١٣٤ .

(٤) ابن قتيبة - المعارف ص ١٧٤ وابن خلكان ج٢ ص ٣٦٦ .

الحرب والسياسة والطب . وبهم فتحت الفتوح ومصرت المدن ، مما يدلنا على مكانة هذه القبيلة .

والحجاج أحد هؤلاء الذين لعبوا دورًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي وأكبر شخصية في عهد الوليد الأول بلا منازع ^(١) .

* * *

(١) لامنس ص ١٢٩ .

الفصل الثاني

مولد الحجاج . نشأته . تعليمه

ولد الحجاج بقرية الكوثر^(١) من قرى الطائف في سنة إحدى وأربعين من الهجرة^(٢) وقد لقب طول حياته بالحجاج^(٣) وكان يكنى بأبي محمد^(٤) .

(١) ياقوت - معجم البلدان ج٧ ص ٢٩٠ .

وفي النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٣٠ أنه ولد بمصر بدرب السراجين ؛ وأغلب المؤرخين على أنه ولد بالطائف ويذكر ابن عبد الحكم في كتابه أخبار مصر وفتوحها ص ١٠٨ ، ١٠٩ أن الحجاج وأباه قدما على حبيب ابن أوس الثقفي بمصر ؛ وذلك يرجح أنه ليس بمولود بها .
(٢) ابن شاعر ج٥ ص ٢٥٦ وابن نباتة ص ١٠٢ وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج١ ص ١٩٨ وابن خلدون ج١ ص ١٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ في أرجح روايتهما .
ويذكر الطبري ج٣ ص ١٣١ وابن الأثير ج٣ ص ٢١٠ وابن خلكان ج١ ص ١٥٦ في روايتهما المرجوحة أنه ولد في سنة اثنتين وأربعين .
وتردد المصادر الآتية مولده بين سنة تسع وثلاثين وسنة أربعين وإحدى وأربعين واثنتين وأربعين .
العيني - عقد الجمان ج١١ ص ٤٠٠ والأتابكي ج١ ص ٢٣٠ وابن عساكر ج٤ ص ٤٩ .
وينفرد ابن حجر العسقلاني في كتابه تهذيب التهذيب ج٢ ص ٢١٠ بأنه ولد في سنة خمس وأربعين أو بعدها بيسير .

(٣) ويروي المؤرخون أن اسمه الحقيقي كليب .. ابن قتيبة المعارف ص ٢٣٨ وابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ٥ والمبرد - الكامل ص ٢٩٠ وابن كثير ج٩ ص ١١٨ ومرآة الجنان ص ٢٩٠ وكنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١١٧ ويذكرون ما تقدم من الشعر مثل : أنيس كليب زمان الهزال : وتعليمه سورة الكوثر .
وما ذكره المبرد ص ٢٩٠ من قول منسوب إلى رجل من الطائف .

كليب تمكن في أرضكم وقد كان فينا صغير الخطر
ويعلل صاحب كنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١١٧ هذه التسمية بأسطورة هي أنه لما ولد ولم يقبل ثدي أمه قالوا : انظروا له كلبه سوداء ليس فيها بياض فاذبحوا له جروا من جروها .
وفي رأينا أن سبب ذلك أن العرب كانت تختار لأبنائها أسماء للدلالة على القوة والشدة كصخر وفهد وأسد وكنب ، فلعل أمه سمته بذلك جريا على العادة القديمة فكان لقباً له كما يقول ابن شاعر في عيون التواريخ ج٥ ص ٢٥٨ ثم أسمته بالحجاج للتفاؤل بأن يكون من المكثرين للحج .

(٤) والكنى عن العرب أشبه بالألقاب في عصرنا الحاضر فلا بد للعربي من كنية يكنى بها ويتميز بها عن الموالى الذين لا يكتنون ، ولعله كني بأكبر أبنائه (محمد) .

وقد أحاط المؤرخون حياته الأولى بمحو من الأساطير يرجعونها إلى ما قبل ميلاده للاستدلال على أنه كان محباً لسفك الدماء والجور والفساد (١) .

نشأ الحجاج بالطائف وهي مدينة تقع جنوبي شرقي مكة وعلى بعد ستة فراسخ ونصف منها قائمة على طرف مرتفعات نجد الوسطى عند ملتقى الطرق الآتية من أطراف شبه جزيرة العرب وتحيط بها بساتين الفاكهة والحقول الخصبة التي تروىها المياه الغزيرة المتفجرة من الآبار والسدود .

ولقد كانت هذه المدينة هي الوحيدة التي جارت مكة قبل الإسلام فبينما نرى أن ازدهار مكة راجع لكونها مدينة مقدسة يحج إليها العرب في مواسم معروفة - نرى ازدهار الطائف راجع لكونها محط القوافل التي تمر بها ، ولحصولات حدائقها من الكروم .

(١) أقتصر من هذه الأساطير على أسطورة أنه لم يقبل ثدي أمه ولا غيرها فتصور الشيطان لهم بصورة الحارث بن كعدة الثقفي - طبيب العرب - فقال لهم اذبحوا له جدياً أسود وأولغوه دمه ، وفي اليوم الثاني افعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سائحاً وأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع - المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٩٤ وابن خلكان - وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤ وابن كثير ج ٩ ص ١١٨ والعبادي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ١ ص ١٠٧ وصاحب غرر الخصاص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ص ٧٢ . والعيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١١ ص ٤٠١ .

ويعقب المسعودي على هذه الأسطورة بقوله : فكان بعد ذلك لا يصبر عن سفك الدماء وإرتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا يسبق إليها أحد سواه .

واهتمام العرب برواية الأعمال الخارقة من ناحية وكرههم لحاكم العراق من ناحية أخرى كل ذلك أوحى لكتابتهم هذه الأسطورة حول ولادته ، إذ كانوا يريدون أن يضعوا إبليس إلى جانب مهده

ومن الكتاب من تلمذ في ذلك فحدثنا عن الحجاج قبل ولادته ، وقد يطول بنا الحديث لو تعرضنا لشيء من هذه الروايات . راجع ابن عساكر - التاريخ الكبير ج ٤ ص ٤٩ وابن كثير ج ٩ ص ١١٨ وابن شاکر ج ٥ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ والعيني ج ١١ ص ٤٠١ .

ولقد أطلق العرب على هاتين المدينتين اسم القريتين ^(١) .

ومناخها معتدل لحسن موقعها وإحاطة البساتين بها وقد اشتهر أهل الطائف بحضور البدية وحسن التفكير .

وكانت لهجة أهل الطائف من أقوم لهجات الجزيرة العربية . حدث في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان أن قدمت نسخة للقرآن فوجد فيها خطأ فقال « نظن أن الناقل لم يكن من أهل الطائف وأنه لم يكتب تحت إملاء عربي من بني هذيل » ^(٢) .

ولقد كان أهل الطائف في مواطنهم على اتصال دائم يبدو هذيل أفصح وأشعر قبيلة في الحجاز بل وفي كل البلاد العربية ولهذا أرسل الخلفاء العباسيون بخدمهم الأجانب إلى الطائف ليتعلموا فيه اللغة المستقيمة وليحسنوا لغتهم العربية ^(٣) .

في هذا الجو ، وفي هذه البيئة نشأ الحجاج فكان لغويًا دقيقًا في لغته فصيحًا بليغًا في خطابه وقد حفظ القرآن في كَنَفِ أبيه وأجاده شأنه شأن كل الأطفال في جميع الأزمان والعصور .

وبدراستنا للحجاج نرى أنه كان عالمًا بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث حافظًا لكثير من أشعار العرب وأيامهم كثير الاستشهاد بذلك في المقامات المختلفة .
فأين دَرَسَ التفسير وروى الحديث والشعر؟؟

والجواب على ذلك سهل إذا علمنا أن الطائف لا تبعد عن مكة كثيرًا ، وكانت مكة والمدينة أهم مراكز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر وكان بها كبار الصحابة والتابعين وكان الناس يجلسون إليهم يفسرون لهم القرآن ويعلمونهم السنة ويفتونهم

(١) ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم﴾ آية ٣٠ سورة الزخرف .

(٢) مجلة المنار سم ٥ ص ٢٢ ولامنس الطائف ص ٢٥٥ .

(٣) الأصفهاني الأغاني ج ٩ ص ٤٦ .

في أمورهم ويروون لهم المغازي والسير والفتوح ؛ وعلمنا كذلك أن الحجاج رحل يافعاً إلى مكة كعبة الفصحاء والعلماء والشعراء . فازدهرت مواهبه كأثر للبيئة الجديدة التي عاش فيها . قيل عنه : إن عقول الناس كانت تقرب بعضها من بعض إلا ما كان من عقل الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولها كانت ترجح عقول الناس^(١)

فسمع التفسير عن حبر الأمة ابن عباس وروى الحديث عنه وعن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الملك بن مروان^(٢) .

وقد روى عنه موسى بن أنس وسعيد بن أبي عروبة ومالك بن دينار وثابت البناني وحميد الطويل والأعمش والربيع بن خالد الضبي وعوف الأعرابي وقتيبة بن مسلم وغيرهم^(٣) .

وكان الحجاج من رواة الحديث إلا أن علماء المصطلح لا يوثقونه لا لضعف في مكانته العلمية وإنما أخذوا عليه أموراً أرجف بها المعادون له حتى قال عنه بعض علماء الحديث « فلولا ما ارتكب من العظائم والفتك لمشي حاله »^(٤) .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن تلك العظائم وذاك الفتك الذي أشار إليه هؤلاء العلماء فموضوع ذلك في باب آخر . إلا أننا نقطع بأن الكثير مما أخذ على الحجاج كانت تقتضيه مصلحة الدولة والمصلحة العامة ، وبعضه تافه لا يستحق الذكر .

ولما كان الحجاج نشأ في بيئة تحيط بها البداوة من كل جانب ولا تسري إليها

(١) العيني - عقد الجمان ج١١ ص ٤٠٠ وابن عساكر ج٤ ص ٤٩ .

(٢) الذهبي - ميزان الاعتدال ج١ ص ٢١٦ وابن حجر العسقلاني - تهذيب التهذيب ج٢ ص ٢١٢ والعيني ج١١ ص ٤٠١ وابن كثير البداية والنهاية ج٩ ص ١١٧ .

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ج٩ ص ١١٧ وابن حجر العسقلاني - تهذيب التهذيب ج٢ ص ٢١٢ .

(٤) الذهبي - ميزان الاعتدال ج١ ص ٢١٦ ويقول ابن حجر ج٢ ص ٢١٢ ليس بثقة ولا مأمون .

لوثة المدن فكان بذلك غاية في الفصاحة حتى قال عنه عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري (٥) . وخطبه في الكوفة والبصرة دالة على هذا .

ولقد روى الحجاج الشعر في مكة عن كثيرين ممن سبق ذكرهم وكان يتمثل به كثيراً في خطبه وكتبه .

فمن ذلك يتبين لنا أنه نشأ نشأة عظيمة وقضى جزءاً كبيراً من شبابه إلى الرابعة والعشرين - ببلاد العرب ثم اتصل بعد ذلك بخدمة الدولة الأموية . مما جعل بعض المؤرخين يرى أن نشأته كانت بالشام (٦) .

(٥) العيني - عقد الجمان جـ ١١ ص ٤٠٠ وابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٢ وابن كثير جـ ٩ ص ١١٩ ويقول الأستاذ أحمد بك أمين « وكان الحسن البصري يقارن بالحجاج في فصاحته » فجر الإسلام جـ ١ ص ٢٢٨ .

(٦) روى الجاحظ في البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٦ والجهشياري في الوزراء والكتاب ص ٢٤ أن جميل بن بصهري حين شكاه إليه الدهاقين شر الحجاج قال : أخبروني : أين مولده ؟ قالوا : الحجاز . قال : ضعيف معجب قال : فمنشؤه ؟ قالوا الشام : قال ذاك شر . قال : ما أحسن حالكم أن تهتلوا معه بكاتب منكم « يعني من أهل بابل » .

الفصل الثالث

اتصاله بالخلفاء والأمراء

تمهيد . ذهابه إلى مصر . المدينة . اتصاله بعبد الملك بن مروان وإعجابه به .
إرساله في وفد لمفاوضة زفر بن الحارث . ولايته لتبالة . ولايته شرطة فلسطين .
إعداده الجيش الشامي لمحاربة مصعب بن الزبير .

شهد الحجاج عصر بني أمية من بدايته وشهد الحوادث فيه ورأى انقسام الجماعة الإسلامية إلى طوائف وأحزاب متنازعة كل جماعة تريد أن تطغى على الأخرى ويكفر بعضها بعضاً ، ورأى كثيراً من الولاة والقواد الذين بلغوا الذروة من الشهرة في ميدان الحرب والسياسة أو سمع بأسمائهم ؛ ومما ضاعف الأثر في نفسه أن كان بعض هؤلاء من قبيلة ثقيف كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والمختار بن أبي عبيد الثقفي .

فكان لأخبار أولئك العظماء أثر في نفس الحجاج وطموحها إلى الانتظام في مصافهم وبلوغ مراتبهم وعمل على ذلك ؛ فبدأ حياته بانخراطه في سلك الجندية في سن الخامسة والعشرين ؛ وذلك كان في الحملة الذاهبة إلى مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري ^(١) . عامل ابن الزبير في عهد مروان بن الحكم وبقيادته بعد أن استقرت له الأحوال بالشام - ققبض مروان على ناصية الحال في مصر ورجع إلى الشام في رجب من سنة خمس وستين للهجرة ^(٢) .

وفي الشهر التالي (شعبان سنة خمس وستين) لعودة مروان إلى الشام أرسل جيشاً إلى المدينة بقيادة حبيش بن دلجة القيني لمحاربة ابن الزبير ؛ وكان والد

(١) ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٩ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١١ وابن نباته ص ١٠٣ وابن كثير ج٩ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) ابن الأثير ج٣ ص ٣٣٠ والأتابكي - النجوم الزاهرة ج١ ص ١١٦ ، ١٦٧ .

الحجاج في هذا الجيش يحمل بعض الألوية فسار ذلك الجيش حتى وصل إلى الربذة حيث قابلته جيوش ابن الزبير بقيادة مسروق النصري قادمًا من مكة - وعباس بن سهل الساعدي - من المدينة - والختف بن السجف - من البصرة - ومحمد بن الأشعث - من الكوفة - ، وقد انتصر حبيش في بدء المعركة لولا أن الختف كان قد أكن لهم كمينًا خرج عليهم فقتل حبيش وانهزم الشاميون ونجا الحجاج ووالده في ذلك اليوم ^(١) .

ثم اتصل الحجاج بروح بن زنباع فكان في جملة شرطته ، وكان روح صفي عبد الملك يستشير في كل الأمور ولا يكاد يفارقه فكان له مقام الوزير ^(٢) .

ولما أراد عبد الملك التوجه لقتال زفر بن الحارث بقرقيسياء ^(٣) وجد صعوبة في تعبئة الجيش وجمع الجنود لأن الجيش كان محتل النظام لا يرحل برحيل قائده ولا ينزل بنزوله

وفاتح في ذلك روح بن زنباع واستشاره في الأمر فقال روح : يا أمير المؤمنين إن في شرطتي رجلًا يقال له الحجاج بن يوسف لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره

(١) ابن الأثير ج٢ ص ٢٤٧ وابن قتيبة ص ١٧٢ وأنساب الأشراف ج٥ ص ١٥٢ ، ١٥٣ واليعقوبي ج٢ ص ٣ ويروى ابن عبد ربه ج٢ ص ٢٢٩ أنه تحصن من جيش حبيش خمسمائة رجل على جبل بالربذة وفيهم والد الحجاج فأحاط بهم عباس بن سهل فطلبوا منه الأمان فقال انزلوا على حكي فنزلوا على حكه فضرب أعناقهم أجمعين . وهذا يخالف ما ذكرته بعض المصادر السابقة فإنها تروى أن الحجاج ووالده هربا وفي ذلك اليوم يقول يوسف بن توسة بن تيم الله .

ونجى يوسف الثقفي ركض دراك بعدد ما سقط اللواء

ابن قتيبة ص ١٧٢ والبلاذري ج٥ ص ١٥٣ .

(٢) ابن كثير ج٩ ص ٥٥ وابن نباتة ص ١٠٤ وتعتبر بعض المصادر بلفظ وزير عبد الملك . ابن عبد ربه ج٢ ص ٥ وابن خلكان ج١ ص ١٥٤ والقرماني ص ١٣٣ .

(٣) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن عوف وهي مثلث بين الخابور والفرات - ياقوت - معجم البلدان ج٧ ص ٦٠ وذلك لأنه بعد موقعة مرج راهط في سنة خمس وستين للهجرة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس بسبب دعوته هو والنعمان بن بشير وزفر بن الحارث لابن الزبير ، خرج زفر من قنسرين إلى قرقيسياء وتحصن بها .

لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله . قال : فإننا قد قلدناه ذلك ^(١) فكان بعد ذلك لا يقدر أحد على التخلف إلا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم مرة وهم يأكلون وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فسخروا منه ووجهوا إليه ألفاظاً قارصة وطلبوا منه أن ينزل ليأكل معهم فأبى ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في المعسكر وقطع أطناب خيمهم وأشعل النار فيها .

علم بذلك روح بن زنباع فدخل على عبد الملك شاكياً الحجاج فطلبه عبد الملك وقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما أنا فعلت يا أمير المؤمنين . قال : ومن فعله ؟!! قال الحجاج : أنت والله فعلت فإنما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح عوض الفسطاط فسطاطين والغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما قدمني له ؟! ^(٢) .

وتروي بعض ^(٣) المصادر أنه قال له عندما سأله عن فعل هذا بغلمان روح فقال : أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقي من العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يعرض عليهم ما ذهب ، وقد قامت الحرمة وتم المراد ؟! فأعجب عبد الملك به وقال : إن شرطكم لجلد - ثم أقره على ما هو عليه وزاد ذلك في منزلته عنده .

فلما طال القتال بين عبد الملك وزفر أرسل عبد الملك وفداً لمفاوضة زفر بن الحارث برئاسة رجاء بن حيوة فكان من بين أعضائه الحجاج بن يوسف فحدث أن حضر الوفد عند زفر في وقت وجوب الصلاة فقام رجاء فصلّى مع زفر وصلى

(١) ابن عبد ربه ج٣ ص ٥ ، ٦ وابن خلكان ج١ ص ١٥٤ .

(٢) ابن عبد ربه ج٣ ص ٥ ، ٦ وابن خلكان ج١ ص ١٥٤ وسرج العيون ص ١٠٤ (٣) ابن نباتة سرج

العيون ص ١٠٤ .

(٤) ابن نباتة ص ١٠٤ .

الحجاج وحده فستل عن ذلك فقال : لا أصلي مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته (١) .

فسمع عبد الملك بذلك فزاد إعجابه بالحجاج ورفع قدره وولاه تبالة (٢) وهي أول ما ولي الحجاج - فلما قرب منها سأل عنها ف قيل له إنها وراء هذه الأكمة فقال « أف لبلدة تسترها أكمة » ورجع عنها ف قيل في المثل أهون من تبالة على الحجاج (٣) .

ويبدو لنا أنه عاد إلى أمير المؤمنين يعتذر له عن الولاية ويطلب منه عملا في الجيش فولاه عبد الملك بن مروان شرطة فلسطين لأخيه أبان بن مروان (٤) .

ولما استقرت الأحوال بالشام لعبد الملك بن مروان وأراد الخروج إلى العراق لتخليصها من مصعب بن الزبير - واليها من قبل أخيه عبد الله - جعل يستنفر أهل الشام فيبطؤون عليه ، فقال له الحجاج سلطني عليهم فوالله لأخرجهم معك . فأذن له في ذلك فيروى أن الحجاج كان لا يمر على باب رجل من أهل الشام إلا أحرق عليه داره فلما رأى الناس ذلك سارعوا إلى الخروج (٥) .

ولربما اتهم الحجاج بالإفراط في القسوة في تنفير أهل الشام للقتال ولكنها وسيلة كانت تبررها غاية ، تلك هي توطيد الملك وجمع الرعية حول الإمام وقد نجحت

(١) ابن نباتة ص ١٠٤ .

(٢) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٧ وياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٧ وابن نباتة سرح العيون ص ١٠٤ ، ١٠٥ وفي معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٧ تبالة بالفتح . وتبالة الحجاج بلدة مشهورة في طريق اليمن وبينها وبين مكة اثنان وخمسون فرسخا - فتحت سنة عشر من الهجرة . قال أبو اليقظان كانت تبالة أول عمل وليه الحجاج فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل : أين تبالة وعلى أي سمت هي ؟؟ فقال له ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة فقال : لا أراني أميراً على موضع تستره عني هذه الأكمة أهون بها ولاية !! وكرراجاً ولم يدخلها .

(٣) ابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٥ (٤) أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٦٦ والمعارف ص ١٧٣ ، ١٥٥ والعيني ج ١١ ص ٢١٧ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٧ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢ .

واجتمع لدى عبد الملك جيش كبير حتى أنه لما نظر أصحاب مصعب إليه تواكلوا وشملهم الرعب وداخلهم الخوف والفرع^(١) فأمكنه أن ينتصر على مصعب في مسكن^(٢) بدير الجاثليق وقتله في ثلاث عشرة من جمادى الآخرة لسنة اثنتين وسبعين للهجرة وبقتل مصعب صفا العراق لعبد الملك بن مروان .

(١) الدينوري - الأخبار الطوال ص ٣١٧ .

(٢) مسكن موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق - ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٥٤ .

الفصل الرابع

الحجاج وابن الزبير

تفكير عبد الملك في حملة للحجاز . قيادة الحملة وإسنادها للحجاج . سيرها إلى مكة .

حصار الحجاج لعبد الله بن الزبير وحربه له . قتل عبد الله بن الزبير .
أسباب انتصار الحجاج . تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق .
وبعد مقتل مصعب آلت الأمور في العراق إلى عبد الملك بن مروان فصفا له الجو فيه وخفقت عليه أعلامه .

أما الحجاز فإنه كان لا يزال تحت إمرة عبد الله بن الزبير اعتمد به حيث سمي العائد بالبيت ^(١) والتمس في أرض الحرمين معقلاً لم يرد الخروج منه بحال .
فكر عبد الملك في أمر هذا الخارج عليه المعتصم ببيت الله الحرام فرأى أن لا مندوحة له - إذا أراد أن يثبت عرشه - من أن يحارب هذا الخارج حتى يقضي عليه .

هل فكر عبد الملك وهو لا يزال بالعراق ؟؟ أو أنه عاد من العراق منتصراً ففكر وهو في مقر ملكه ؟؟ وهل قطع برأى في ذلك وهو بالعراق فخرجت حملة الحجاز من العراق أو أنه قطع بذلك وهو في الشام فخرجت حملة الحجاز من الشام ؟؟
تذهب أكثرية المراجع - التي بين أيدينا - إلى أن خروج الحملة كان من العراق ^(٢)

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٤ والمسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ٧١ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٥ والبلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣١٨ والطبري ج٥ ص ٢٠ وابن الأثير ج٤ ص ٢٢ والعيني ج١١ ص ٢١٦ وابن شاعر ج٥ ص ١٠ وابن خلدون ج٢ ص ٣٧ .

بينما تذهب أقلية من المصادر المتأخرة ^(١) إلى أن الحملة خرجت من الشام ؛ وتوجه هذه المصادر ما ذهبت إليه بإيراد قصة عن حديث دار بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام ؛ وتصف لنا كيف أن هؤلاء الأخصاء استكبروا في أنفسهم تجريد حملة على الحرمين ، وأنهم قعدوا عن متابعة عبد الملك فيما يريد ، بل تزيد على ذلك أنه فاتحهم في الأمر فصمتوا حتى تقدم الحجاج فآل إليه أمر الحملة . ويذكرون في تفاصيل الحملة أنها في خروجها إلى مكة لم تتعرض للمدينة المنورة بسوء مما يرجح أن الحملة كانت آتية من الشام .

وفي رأينا أننا لا نستطيع أن نتجاهل إجماع المصادر على خروج الحملة من العراق ، بل إن إجماع هذه المصادر على كثرتها وأقدميتها إزاء قلة المصادر المتأخرة يسمح لنا بأن تقطع بأن الحملة خرجت من العراق .

أما قصة المرور بالمدينة المنورة وعدم التعرض لها فبين أيدينا من المعاجم الجغرافية ما يستدل منه على أن الطريق المطروقة بين العراق ومكة تمر بالمدينة كما تمر بها طريق الشام إلى مكة .

أما قصة الحديث الذي جرى بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام فلم يرد نص - في غير هذه المصادر المتأخرة - على أن الحديث جرى في دمشق ؛ وليس هناك ما يمنع من أن يكون الحديث قد جرى فعلا بينه وبين هؤلاء ولكن في الكوفة بدلاً من دمشق .

على أن الحديث في ذاته يبدو موضوعاً . ذلك أن حديثاً يماثله كل الماثلة قد أوردته بعض المصادر بصدد ولاية الحجاج للعراق ^(٢) .

(١) سرح العيون ص ١٠٥ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٥ والمنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٠ وكاتريرير الحملة الأسبوعية الجديدة ص ١٤٣ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٩٥ وابن نباتة سرح العيون ص ١٠٥ والأبشهي - المستطرف من كل فن مستطرف ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

وفي رأينا أن المؤرخين الذين قالوا بخروج الحملة من الشام قد جرم إلى ذلك ما أجمعت عليه المصادر المتقدمة من أن الجيش الذي خرج به كان شاميًا ؛ والواقع أن الجيش الذي خرج به الحجاج من الكوفة وكان أغلبه شاميًا - هو بعض بقايا الحملة التي خرج بها عبد الملك - وتحت إمرة الحجاج - من الشام حيث حاربوا مصعب ابن الزبير وانتصروا عليه .

نخلص من كل ذلك إلى أن حملة الحجاز خرجت من العراق وتجمع المصادر على أنها أسندت إلى الحجاج ولكنها تختلف في الطريقة التي أسندت بها هذه القيادة إليه فتروي بعض المصادر ^(١) أن عبد الملك بن مروان هو الذي أسند قيادة الحملة إليه بينما يروي البعض الآخر أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذه الحملة وعمل على أن يندبه لها عبد الملك .

وتذكر هذه المصادر قصصًا شتى عن السبيل التي سلكها الحجاج إزاء عبد الملك حتى يصل إلى هذا المنصب ، فن قائل إنه عندما سكت أهل الشام عن إجابة عبد الملك قام الحجاج فقال أنا لها ^(٢) ومن قائل إنه قال لعبد الملك إني رأيت في المنام أني قتلته وسلخته فابعثني إليه وولني قتاله ^(٣) إلى غير ذلك من القصص التي يرويها المؤرخون تأييدًا لوجهات النظر التي يتجهون إليها .

وفي اعتقادنا أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذا الأمر فصادف هذا الترشيح

(١) السعوى التنبيه الإشراف ص ٢٧١ والبلاذرى أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٤٨ وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٣ ص ٣٧ وابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٦٩ والديار بكري - الخيس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٢٠٤ وأبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٦ والسلامي ص ٢٠ .

(٢) الذهبي - تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٤٥ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٢ واليعقوبي ج ٣ ص ١٢ وابن قتيبة - المعارف ص ١٧٣ والسديري ج ٢ ص ٥١ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٥ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣ .

ويروى صاحب المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٠ أني لبست جُبته .

هوى في نفس الخليفة لما رآه في الحجاج خلال حملة العراق من حزم وقوة شكية وما أبداه من مهارة وإخلاص .

وفي اعتقادنا أيضاً أن الحجاج لم يكن متطفلاً في ترشيح نفسه على هذا الوجه . ذلك أنه كان طموحاً يريد أن يصل إلى قمة المجد فضلاً عن أنه كان يخلص للأمويين إخلاصاً صار مضرب الأمثال فكان يعتقد أنه يخدم الأغراض الأموية ويثبت العرش الأموي بترشيح نفسه لمحاربة الخارجين على هذا العرش .

خرج الحجاج من العراق على رأس جيش لا يزيد على ثلاثة آلاف من المقاتلين ^(١) فاخترق الصحراء غرباً ولكنه لم يقدم على المدينة بل عرج إلى الطائف فوصل إليها ونزلها دون مقاومة ولعله اختار النزول بالطائف لأسباب جمة . أهمها أن الطائف كانت ذات تربة خصبة تكثر فيها الحقائق ويطيب فيها النسيم فرأى الحجاج أن يجعل خاتمة مطاف جيشه في الصحراء أن ينزل الجند بأرض تطيب لهم الإقامة فيها ريثما يتم استعدادهم لمكة ويقضي بأمره فيها . ولعل الحجاج - وقد أصبح بأرض قومه - كان يعلم أن سراة مكة تربطهم بالطائف مجموعة من الروابط .

ذلك أن كانت لهم بها الحقائق الغناء التي يعتمدون على فاكحتها والمزارع النضرة التي تغذيهم بغلاتها والقصور الصيفية التي يهرعون إليها هرباً من قيظ مكة اللافح فإذا ما انقطعت هذه الأسباب جميعاً عن أهل مكة تقموا على ابن الزبير أن كان موقفه من عبد الملك سبباً في حرمانهم من كل ذلك - ولربما أدى ذلك إلى الخروج عليه وقد حققت الأيام بُعدَ نظر الحجاج في هذا .

والمتصفح لتاريخ الطائف في ذلك الوقت يرى أنها كانت مقام محمد ابن الحنفية

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢ وابن خلدون ج ٢ ص ٢٧ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٨ في إحدى رواياته ويروي الطبري ج ٥ ص ٢٠ وابن سعد ج ٥ ص ١٦٩ - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٨ في روايته الثانية أن عدد الجيش كان ألفين .

هذا بينما يروي كل من السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ١٤٢ والقرماني في أخبار الدول ص ١٣٣ أن الجيش كان عدده أربعين ألف مقاتل .

وغيره من كبار الصحابة وأبناء عمومة الرسول وأبناء العباس أُخْرِجَ هؤلاء من مكة على يد عبد الله بن الزبير فلجأوا إلى الطائف ^(١) خوفاً على أنفسهم بعد أن حاول ابن الزبير إحراقهم لامتناعهم عن البيعة له ^(٢) .

وجود هؤلاء في الطائف - إذا لم يكن من الأسباب التي دعت الحجاج للوقوف بها - فهو لا شك من الأمور التي رحب بها الحجاج ومما لا شك فيه أيضاً أنه استطاع أن ينتفع بها في رفع الروح المعنوية في جنوده الذين يوشكون أن يهاجموا بيت الله الحرام .

يضاف إلى كل ذلك أن الحجاج وهو قائد موهوب أراد أن يقف بجيشه على مقربة من مكة بدلاً من أن يهاجمها أو يحاصرها بجيش أضناه السفر عبر صحراء وعرة، ولا يستطيع الحجاج منذ البداية أن يكلف هذا الجيش بأن يهاجم بيت الله الحرام دون أن يكون لذلك مبرر من ناحية ابن الزبير يدفع الجند الحجاجي إلى اقتحام المعركة بنفوس مطمئنة وهو في أثناء ذلك يدرس الموقف ويخطط طريق الهجوم على ابن الزبير .

فكانه ربح بالطائف انتظاراً لتطور الحوادث ومن يدري فمن المحتمل أن يكون قد بث دعائه بين أهل مكة على النظام المعروف اليوم بالطاير الخامس . وسابقة حرب عبد الملك لمصعب بن الزبير في العراق تؤيد وجهة نظرنا هذه .

على أن هجوم جيش إسلامي على مكة المكرمة وتهديد بيت الله الحرام لم يكن - وخاصة في مثل هذا الوقت - من الأمور الهينة وواجب على من يفكر في مثل هذا الأمر أن يعد له عدته وأن يهيئ النفوس لقبول ما هي مقدمة عليه . وآية ذلك أن

(١) الأخبار الطوال ص ٢٩٩ وابن كثير ج ٩ ص ٢٨ والمعارف ص ٥٩ وابن خلكان ج ١ ص ٥٦٨ وفوات الوفيات ج ١ ص ٢١١ والأغاني ج ١٦ ص ٦٠ .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٤ واليعقوبي ج ٣ ص ١٧ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ١٩ والمسعودي ج ٢ ص ٧٢ والأغاني ج ٩ ص ١٥ .

الهيثم بن الأسود النخعي قال لعبد الملك بن مروان في مستهل هذه الحملة « مر هذا الغلام الثقفي أن لا يهتك أستار الكعبة ولا ينفر أطيارها ولكن يأخذ على ابن الزبير بشعاب مكة وفجاجها حتى يهلك فيها جوعاً أو يخرج منها مخلوعاً »^(١) .

وإذا كان هذا النص يخفض من قيمة الحجاج بأن يسميه بالغلام الثقفي مع أنه كان في مستهل العقد الرابع من حياته فإننا لا نستطيع أن ننكر ما ورد به من حكمة سياسية حربية كانت ثملها ظروف مكة ومكانتها الدينية من الجزيرة العربية . وإذا كان الحجاج قد اضطرته الظروف على ألا يعمل وفق هذه السياسة فنرى في هذا الفصل أنه لم يحد عنها إلا مضطراً وأن ظروف الحوادث هي التي سارت به في السبيل التي سلكها .

عسكر الحجاج بالطائف وجعل منها مركزاً لقيادته ثم سير منها سرايا الراكبة إلى عرفات حيث كانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير فتصطدم بهم سبراً لغورهم والتماساً لمعرفة مدى قوتهم وكان فرسان الحجاج يعودون إلى الطائف في كل الأحوال غالبين^(٢) . ولم يفكر ابن الزبير في أن يرسل إلى الطائف بعض طلائع جيشه ولعل السبب في ذلك أن الطائف كانت واقعة على رأس جبل غزوان فهي بذلك الاعتبار الجغرافي مدينة حصينة لا يدركها مهاجم إلا بصعوبة .

ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت كفة الحجاج على الدوام هي الراجحة تبين له ضعف خصمه فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك وينبئه بما تبينه من أمر ابن الزبير من تفرق بعض أصحابه عنه وفرار الكثيرين من جيشه ويسأله أن يمدّه بالمال والرجال وأن يأذن له في دخول الحرم للقضاء على ابن الزبير^(٣) ، قبل أن يعمل ابن

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٥٧ وكنز الدرر ج٤ القسم الثاني ص ١٢٤ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٥٧ والطبري ج٥ ص ٢٠ وابن الأثير ج٤ ص ٢٢ وابن خلدون ج٢ ص ٣٧ وابن شاکر ج٥ ص ١٠ والديار بكري ج٢ ص ٣٠٤ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٢٠ وابن الأثير ج٤ ص ٢٢ وابن خلدون ج٢ ص ٣٧ وابن شاکر ج٥ ص ١٠ والخيس ج٢ ص ٣٠٤ وابن سعد ج٥ ص ١٦٩ والمنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٥ .

الزبير فكره ويستجيش ويجمع إليه أنصاره وتؤوب إليه فلاله ^(١) .

هذا ما أجمعت عليه المصادر عن موقف الحجاج من مهاجمة مكة .

وينفرد صاحب أنساب الأشراف ^(٢) في إحدى روايته بأن عبد الملك هو الذي كتب للحجاج بذلك ويعلله بأن الزبير بعد مقتل مصعب كتب إلى أهل العراق يدعهم إلى طاعته ومعاونته وأن خبر ذلك قد ورد على عبد الملك بن مروان من أخيه بشر بن مروان بالعراق ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج (أن سر إلى ابن الزبير فانزل معه واشغله) .

كما يعلل موقف عبد الملك هذا من الحجاج بأن الشعراء في بلاط عبد الملك كانوا يحرضونه على قتال ابن الزبير ، ومن ذلك قول جواس بن القعطل الكلبي .

إن الخلافة يأمية لم تكن	أبداً تدر لغيركم ثدياها
فخذوا خلافتكم بأمر حازم	لا يحلبن الملحدون صراها
سيروا إلى البلد الحرام وشمروا	لا تصلحوا وسواكموا مولاها
لا تتركن منافقين ببلدة	إلا أقلتم بالسيف طلاها ^(٣)

على أننا لا نستطيع أن نجزم أن جواس هذا قال هذه الأبيات في معرض التصريح للحجاج بمهاجمة الحرم ، ومقام هذه الأبيات بعد مقتل مصعب بن الزبير بالعراق والأمر بتسيير الحملة على الحجاز لاسيما وأنه لم يرد نص عن المقام الذي قال فيه الشاعر هذه الأبيات .

كانت المدينة قد آلت إلى عبد الملك بن مروان بعد أن كانت في يد ابن الزبير .

(١) الأخبار الطوال ص ٢٠٤ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) البلاذري ج ٥ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ذلك أن عبد الملك أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال ابن الزبير على المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القرى ، فلما انتصر عليهم وخرج عامل المدينة منها دخلها طارق بينما كان الحجاج مقيماً بالطائف ^(١) .

فلما أرسل الحجاج إلى عبد الملك يطلب إليه المدد أرسل عبد الملك إلى طارق - وقد صار والياً من قبله على المدينة - في ذي القعدة يأمره أن يلحق بمن معه من الجنود ، فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار ^(٢) . وبدراسة الموقع الجغرافي لمكة والمسالك المؤدية إلى غيرها من المدن نستطيع أن نقطع بأن الحجاج جاء إلى مكة عن طريق عرفات فنى ثم نزل إلى أرباض المدينة من شمالها الشرقي بينما جاء جيش طارق من شمال غربي المدينة عن طريق وادي فاطمة .

فإذا حاولنا التوفيق بين المصادر العربية - التي لم تكن تعني بالتوقعات الجغرافية عناية تذكر - وبين المواقع الجغرافية على ما هي واردة في المصورات القديمة والحديثة ترجح لدينا نزول جيش طارق بجبل قُعَيْقَعَان في شمال غربي الحرم ونزول جيش الحجاج في شرقي الحرم عند بئر ميمون الواقعة بين المعللة ومنى .

ولما كان هذا المكان يصلح لنزول الجيش دون أن يحقق الغرض الذي قصد إليه الحجاج وهو تهديد عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم فقد استغل الحجاج جبل أبي قبيس لذلك فنصب عليه المنجنيق وأقام عليه بعضاً من جيشه ^(٣) .

على أنه لا يجوز لنا أن نتصور انقطاع الصلة بين الجيشين إذ إنها تحت إمرة قائد

(١) ابن الأثير - الكامل ج٤ ص ٢٢. وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن الأثير - الكامل ج٤ ص ٢٢. وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص ٣٧ . والمنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٥ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٢ ص ٤٤٥ .

(٣) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج٥ ص ١٦٩ والطبري - تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص ٢١. وابن الأثير ج٤ ص ٢٢ ، ٢٣. وابن خلدون ج٢ ص ٢٨ وعقد الجمان ج١١ ص ٢٧٧ .

واحد وهو الحجاج والمسافة بين منزليهما جد قصيرة .

خرج الحجاج على رأس جيشه من الطائف متجهاً نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين . ويروي البلاذري والدينوري . أنه قال لأصحابه : تجهزوا للحج^(١) بينما تورد بقية المصادر خروج الحجاج إلى مكة دون الإشارة إلى قوله لأصحابه بأن يتجهزوا للحج . فهل خرج الحجاج بجيشه بحجة الحج أو الحرب ؟؟ وبعبارة أوضح هل عمل الحجاج على إغراء جيشه بالحج أو خرج بهم من الطائف وهم يعلمون أنهم خارجون لحرب ابن الزبير ؟؟ فإذا كان قد خرج بهم بقصد الحرب أفما كان الأوفق أن ينتظر حتى ينتهي موسم الحج ثم بعد ذلك يخرج لقتال ابن الزبير ؟

والواقع أن الحجاج أنصف بخروجه لابن الزبير في هذا الشهر ، ولو فرضنا أن خروجه في هذا الوقت إنما اقتضاه مسير جيش طارق لكان ذلك من حسن حظ الحجاج أيضاً إذ لو ترك ابن الزبير ومكة مليئة بوفود المسلمين من كافة الأقطار التي يحكمها الأمويون لبث دعايته ضد الدولة الأموية بين هؤلاء الوفود ولكانت لهم بعد عودتهم إلى أقطارهم مواقف من الدولة الأموية لا يعلم مداها فمسارعة الحجاج إلى مهاجمة مكة في موسم الحج من طبيعته أن لا يمكن ابن الزبير من بث دعايته بين هؤلاء .

ورب قائل يقول بأن وقفة الحجاج ورغبته في مهاجمة الحرم فيها دعاية صامتة ضد الدولة الأموية التي وجهته لهذه الحرب وفي موسم الحج ، ولكن ظاهر الحق في جانب الأمويين ومبلغ نفوذهم في الأقطار المفتوحة وحديث انتصارهم على مصعب بن الزبير بالعراق كان مبعث اعتقاد لدى المسلمين بأنهم أصحاب حق لن يتنازلوا عنه وأنهم جاءوا مكة لمحاربة خارج على الخلافة الأموية معتمدين ببيت الله الحرام بغير حق وهو إلى جانب ذلك أضعف من أن يخرج لمحاربة الحجاج خارج الحرم ، وأبخل من أن

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٥٧ والأخبار الطول ص ٣٠٤ .

يكفي أصحابه شر العوز وخزائنه مملوءة بالأقوات ، والعالم الإسلامي لم ينس بعد موقف ابن الزبير من مجموعة من سادة المسلمين من الصحابة والتابعين وأبناء عمومة الرسول وكيف حاول أن يحرقهم بالنار أولاً ويضطرهم إلى الخروج إلى الطائف ثانياً .

وبينا كان الحجاج قادماً إلى مكة بجيشه - للحج أو للحرب - نراه أرسل فرقة من جيشه نصبت المنجنيق على جبل أبي قبيس فلما جاوز عامة الجيش منى ^(١) وصار أبو قبيس منها على مرأى رأوا المنجنيق قد نصب فهاهم ذلك ^(٢) .

وفي رأينا أن الحجاج خرج من الطائف وجنوده يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير إذ من غير المعقول أن يغري قائد جيشه بالحج بينما هو خارج للقتال لاسيما وأنها خدعة لن تطول فإذا كان مسيرهم إلى مكة يحتاج إلى هذه الخدعة ففيم كان مسيرهم من العراق على ما نذهب - أو من الشام - على ما يذهب البعض الآخر عبر هذه الصحراء المترامية الأطراف ؟؟ وهل أغراهم الحجاج حين خروجهم بالحج أم كانوا يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير ؟ فإذا ثبت الشق الثاني - وهو ثابت - أصبح الحجاج في غير حاجة إلى إغراء جنوده حين مسيرهم من الطائف بالحج أو بغير الحج .

على أن صاحب البلاذري والدينوري لما آمنّا بأن الحجاج أغرى جنوده بالحج صاغوا قصة رؤيتهم للمنجنيق على أبي قبيس وذعرهم لذلك ولكنهم لم يرتبوا نتائج لهذا الذعر فلم يحدثونا عن فتنة في جيش الحجاج أو خلاف في الرأي بين الجنود ، مما يدل على أن المقدمات التي ساقوها لا تتناسب مع النتائج التي أثبتتها التاريخ ، مع ما رواه المسعودي ^(٣) من أن أهل دمشق لما بلغهم خبر حصار الحجاج لابن الزبير بمكة

(١) قرية شرقي مكة على بعد نحو فرسخ منها - ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ١٥٩ .

(٢) البلاذري ج ٥ ص ٣٥٧ - والدينوري - الأخبار الطول ص ٣٠٤ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٩ .

والظفر بأبي قبيس كبروا سروراً بذلك النصر .

وإذا ثبت أن جند الحجاج ذعروا لرؤية المنجنيق فأغلب ظننا أنه لم يدر بخلدنهم أن من برنامج الحملة هدم الحرم ونصب المنجنيق قد يدل على ذلك ، فإذا ذعروا لنصب المنجنيق كان ذعرهم في محله فهم مذعورون لذلك لا لحرب ابن الزبير . وترى بعض المصادر بأن المنجنيق نصب على أبي قبيس وقيقعان ^(١) ، ونحن لا نرى بأساً من مجازاة هذه المصادر على هذا إذ كان جبل قيعقان مجاوراً للمنزل جيش طارق ، ولا بأس في نظرنا أن ينصب المنجنيق على الحرم من ناحيتين إحداها شرقية والأخرى غربية والجبلان على مسافة تكاد تكون متساوية من الحرم . لا سيما وأن نصب المنجنيق على كل من هذين الجبلين يحقق ما ذهبت إليه بعض المصادر من أن الحجاج جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير على الكعبة ^(٢) . وقد كانت هذه الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من أبي قبيس وقيقعان أمراً ميسوراً دون أن تتعرض بقية الكعبة لأحجار المنجنيق هذا إذا أحسنت الرماية .

على أننا من جهة أخرى لا نحب أن نسلّم بأن رماية المنجنيق كانت من الدقة بحيث تصيب جزءاً من بناء محدود وهو الكعبة دون جزء آخر .

ولعل القائلين بأنه قصد الزيادة التي زادها ابن الزبير أرادوا أن يرفعوا عن الحجاج ما اعتقدوه إثماً وهو رمي الكعبة ذاتها بالمنجنيق فالتسوا له مخرجاً من هذا الإثم المزعوم بأن قالوا إنه رمى الزيادة دون الكعبة نفسها ، وسواء أرمى الحجاج الكعبة ذاتها أم الزيادة التي زادها ابن الزبير فقد كان يعمل مضطراً مكرهاً ، ذلك أن بعض أعوان ابن الزبير صعد فوق الكعبة وصار يوجه الضربات إلى جيش

(١) ابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٣٥ والقرماني ص ١٢٣ .

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٧ ص ٢٦٠ و امرأة الجنان ج ١ ص ١٥٤ .

الحجاج مما اضطره إلى أن يوجه الضربات لهم ولا حيلة له في ذلك ، وسنرى فيما بعد أن أعيان مكة توسطوا لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم (والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت) ؟؟
كانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق ، ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر عبد الله بن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له : اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً ^(١) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفور المسلمين من استعمال المنجنيق في موسم الحج كان عامًا وأن جماعة من كبار الصحابة - لا عبد الله بن عمر وحده - ذهبوا بأنفسهم إلى الحجاج وكلموه في أن يترك الضرب بالمنجنيق وأنه قد منع الناس من الطواف . فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج ، وقال لهم : والله إني لكاره لما ترون ، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت . ^(٢)
وأياً ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف .

أمّا الفريقان المتحاربان فقد كان كل منهما يريد أن يؤدي فريضة الحج ، ولكن مناسك الحج كانت مقسمة بينهما ففي يد ابن الزبير الحرم والمسعى وفي يد الحجاج منى وعرفات والجمرات ، لذلك نرى أن كلا من الفريقين قد أدى الفريضة غير كاملة - أداها على ما بيده من مناسك - فابن الزبير وأتباعه قد طافوا وسعوا ولم يقفوا بينما أن الحجاج ورجاله وقفوا ولكنهم لم يسعوا ولم يطوفوا ^(٣) .

(١) ابن الأثير ج٤ ص ٢٣ وابن خلدون ج٣ ص ٢٨ وكنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١٢٤ وأنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٦ .

(٢) المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٦ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٢١ وابن الأثير ج٤ ص ٢٣ وابن خلدون ج٣ ص ٢٨ والعيني ج١١ ص ٢٧٦ والمنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٥ .

انتهى موسم الحج ، فنادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد الملحد ابن الزبير^(١) .
وفي يوم من الأيام بينما كان الحجاج يرمي بالمنجنيق أرعدت السماء وأبرقت فأكبر ذلك الشاميون وتوقفوا عن القتال اعتقادًا منهم أن هذا غضب من الله ، فأخذ الحجاج الحجارة بيده ووضعها في المنجنيق ورمى بيده أيضًا فرموا ، وفي اليوم الثاني جاءت الصواعق مرة جديدة ولكنها كانت أشد عنفًا من سابقتها فقتلت من الشاميين عددًا وقيل إنها أحرقت المنجنيق فضعفت عزيمه الجند وكفوا عن القتال ثقة منهم أن الخالق سبحانه لا يرضى عما يصنعون فقال لهم الحجاج : لا تنكروا هذا فأنا ابن تهامة وهذه صواعقها^(٢) ، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا^(٣) ، وسيصيبهم في الغد مثل ما أصابكم . وفي اليوم التالي لمقاتله نزلت الصواعق فقتلت من أصحاب الزبير عددًا ، فقال الحجاج لجنده : أما قلت لكم إنهم يصابون ؟ وأنتم على الطاعة وهم على خلافها^(٤) .

ونحن لا نرى بُدًا من أن نقف من هذه الحوادث وقفة : هل كانت هذه الصواعق أمرًا طبيعيًا ؟ وهل كان الحجاج صادقًا فيما قال لجنده ؟

لقد حدثت هذه الصواعق في منتصف ذي الحجة من عام اثنين وسبعين وهو يوافق أوائل مايو من سنة ٦٩٢ (أي بداية فصل الصيف) . وإذا كانت بلاد العرب مشهورة بالجفاف على وجه العموم فمن المعروف أن أمطارها إذا نزلت تكون صيفية ، وكان هذا اليوم مطيرًا كما يقول البلاذري^(٥) . ومثل هذه الأمطار تلازمها

(١) أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٦ وابن الأثير ج٤ ص ٢٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٣٠ وابن شاکر ج٥ ص ١٦ وابن الأثير ج٤ ص ٢٣ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ٢٣ وابن خلدون ج٣ ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير ج٤ ص ٢٣ والبلاذري ج٥ ص ٣٦٨ وقيل إنه قال لهم إن النار كانت على من قبلنا فتأكل قربان من تقبل منه ابن عساكر ج٤ ص ٥٠ وابن كثير ج٨ ص ٣٢٩ وكنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١٢٥ .

(٥) أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٦٨ .

الصواعق في كثير من الأحيان ، وفي هذا ما يدلنا على أن الحجاج كان محقًا - ولو إلى حد - فيما قاله لأصحابه .

أما قوله إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ففي تقديرنا أنه أراد أن يرفع الروح المعنوية بين جنده وقد علم أن الصواعق إذا نزلت يومًا كان نزولها بعد ذلك أمرًا محتملاً ، ولقد كان من حسن حظه أن أصابت صواعق اليوم التالي معسكر ابن الزبير دون معسكره هو ، ولم يكن هناك ما يمنع من أن تتكرر هذه المأساة في معسكر الحجاج .

استمر نطاق الحصار مضروبًا على ابن الزبير والتراشق بين الطرفين مستمرًا . وقد كانت وطأة الحصار شديدة على أهل مكة حيث أحدث مجاعة شديدة حتى بيع مد الذرة بعشرين درهمًا ، وقد كان من أثر ذلك أن خرج الكثيرون من أهل مكة إلى الحجاج بعد أن بعث إليهم بالأمان الذي أعطاه عبد الملك لهم ولابن الزبير حتى قيل : إنه خرج إليه عشرة آلاف منهم ابنا عبد الله بن الزبير حمزة وخبيب .

كانت المجاعة تأكل أهل مكة بينما خزائن ابن الزبير عامرة بالأقوات والأموال لم يخرج منها من الغلال والذرة والتمر إلا ما يسد الرمق وكان يقول في ذلك : إن أنفس أصحابي قوية مالم يفن هذا (١) .

وقد كان ابن الزبير يرجو أن يقنع أهل مكة بالكفاف حتى تنجلي غمة الحصار ويخرج من هذه الحرب منتصرًا ، كما كان يخشى أن فنيت أقواته أن يهرع رجاله إلى معسكر الحجاج ، وقد حدث ما كان يخشاه إذ فر هؤلاء إلى معسكر كان فيه الحجاج يغمر الناس بعطاياه وكانت المؤونة فيه موفرة تحمل إليه من الشام والعراق ، ولقد بلغ من وفرة الأقوات في معسكر الحجاج أن بعض رجاله كان يبيع الزائد عن حاجته فقد حدث محمد بن عمر عن سعيد بن مسلم بن بانك عن أبيه أنه ابتاع من

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦١ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٣ وابن خلدون ج ٢ ص ٣٨ .

بعضهم كعكاً بدرهم فكفاه هو ومن معه إلى أن بلغوا الجحفة - وكانوا ثلاثة نفر - (١) .

ولما كانت المسافة بين مكة والجحفة نحو المائتين والسبعين من الكيلو مترات يقطعها المسافر راكباً فيما لا يقل عن خمسة أيام كان ما اشتراه هؤلاء من بعض جند الحجاج قد كفاهم - وهم ثلاثة - عشر وجبات على الأقل ويدلنا ذلك على وفرة الأقوات لدى جيش الحجاج وفرة يكاد لا يصدقها العقل .

فإذا سلمنا بما يحتمل أن تنطوي عليه هذه القصة من المبالغة فهي دليل - على كل حال - على اليسر في معسكر الحجاج .

وتبدو أهمية ذلك إذا وازنا بين هذا اليسر وما كان عليه أهل مكة من ضنك في المعيشة وقلة في الأرزاق واستطعنا أن نعلل هروغ الآلاف من أهل مكة إلى معسكر الحجاج .

بعد خروج الآلاف من أهل مكة إلى الحجاج لم يبق مع ابن الزبير إلا عدد قليل ما بين متحمس له ومتورط معه ، فلما رأى ابن الزبير ذلك جمعهم للتفكير في الموقف فقال ما ترون ؟؟ فقال رجل من بني مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلاً ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج (٢) .

وفي هذه المقالة ما يدل على مدى اليأس الذي تسرب إلى قلوب أصحابه وفيه إنذار بأن لا رجاء في القتال .

وقال له رجل آخر اكتب لعبد الملك بن مروان . فقال كيف أكتب ؟؟ من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان فوالله لا يقبل هذا أبداً . أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟؟ فوالله لأن تقع الخضراء

(١) الطبري ج٥ ص ٢١ والنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٥ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٥ والإمامة والسياسة ج٢ ص ٢٤ .

على الغبراء أحب إليّ من ذلك (١) .

وفي هذا الحوار دليل قاطع على أن ابن الزبير كان يأبى أن يسلم على أية صورة .
وقال له رجل ثالث : بل نطلب الصلح . فقال ابن الزبير : أوحين صلح هذا ؟؟ فوالله
لو وجدوكم في جوف الكعبة لقتلوكم (٢) .

ولقد أجمعت المصادر على أن ابن الزبير كان في حالة عصبية إذ حدث أن حاول
أخوه عروة أن يقنعه بالكتابة إلى عبد الملك بن مروان قائلاً « إن الله قد جعل لك
أسوة في الحسن بن علي إذ خلع نفسه وبايع معاوية » فرفع ابن الزبير رجله فضرب
بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقد كان جالساً معه عليه (٣) .

كانت كل هذه العوامل تتناوب عبد الله بن الزبير فهو حائر ما بين استبساله
وخذلان الأكثرية من أنصاره . دخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر وقد
بلغت من العمر مائة سنة - فقال : يا أماه قد خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق
معي إلا اليسير ومن ليس معه أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من
الدنيا ، فما رأيك ؟؟ فقالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك فإن كنت تعلم أنك على
حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب
بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك
ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل
الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟؟ القتل أحسن . فقال يا أماه إني
أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

فقالت : يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٥ والإمامة السياسة ج٢ ص ٢٤ .

(٢) ابن شاکر - فوات الوفيات ج٢ ص ٢١١ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٢ ص ٤٤٥ والمنتهى في أخبار أم
القرى ص ٢١ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٥ والبدء والتاريخ ج٦ ص ٢٦ والإمامة والسياسة ج٢ ص ٢٤ .

وبعد حديث طويل تناول يديها ليقبلها، فقالت : هذا وداع فلا تبعد ادن مني حتى أودعك فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها - وكانت عمياء - على الدرع فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ، فقال : ما لبسته إلا لأشد متتك فقالت : إنه لا يشد متني ، ولكن البس ثيابك مشمة ^(١) ففعل وخرج بعد أن ودعها للانضمام إلى أصحابه بالحرم .

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الزبير إذا بالحجاج يخطب الناس مبيناً لهم ما صارت إليه حال ابن الزبير وما هو فيه ، فقويت نفوسهم وتقدموا فلأوا ما بين الحجون إلى الأبواء ^(٢) .

ورتب الحجاج جنده فوكل جماعة بكل باب من أبواب الحرم وكان من حسن رأيه أن جعل أهل كل جهة من جهات الشام على باب من أبواب الحرم بذاته حتى لا تحدث فتنة وحتى تتحدد المسؤولية ، فجعل لأهل الأردن باب الصفا ولأهل فلسطين باب بني جمح ولأهل قنشرين باب بني سهم ، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلى المروة ^(٣) .

وبينما كان ذلك يجري خارج أبواب الحرم كان ابن الزبير ينصح البقية الباقية من أصحابه ويرتبهم فكان مما قاله لهم « لا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ منكم قرنه ولا يسلم سلاحه فإن الرجل إذا سلم سلاحه فهو كالمرأة أعزل ولا تسألوا عني فأني في الرعيل الأول ^(٤) .

ثم بدأ المحاصرون في مهاجمة ابن الزبير داخل الحرم فرة يحمل في هذه الناحية

(١) اليعقوبي ج٣ ص ١٢ وابن الأثير ج٤ ص ٢٤ والطبري ج٥ ص ٣٠ وابن خلدون ج٣ ص ٢٨ وكنز الدرر ج٤ ص ٢٢ وابن شاكر ج٥ ص ١٨ والعيني ج١١ ص ٢٨١ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٣ وابن الأثير ج٤ ص ٢٣ وابن خلدون ج٣ ص ٢٨ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٣٢ وابن الأثير ج٤ ص ٢٤ وابن شاكر ج٥ ص ٢١ والعيني ج١١ ص ٢٨٢ .

(٤) الطبري ج٥ ص ٣٣ وابن الأثير ج٤ ص ٢٥ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٢ ص ٤٤٧ وابن خلدون ج٣ ص ٣٩ والأخبار الطوال ص ٣٠٥ .

وأخرى في هذه الناحية كأنه أسد في أجة يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم .

فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير ترجل وأقبل يسوق الناس حتى لا يتقهقروا .

وفي إحدى الحملات قتل صاحب علم ابن الزبير عند باب بني شيبه وصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج فاستشاط ابن الزبير غضباً ثم حمل على جماعة من رجال الحجاج حتى أخرجهم من المسجد وتابعهم حتى بلغ بهم الحجون فرماه رجل بأجرة (١) فأصابت وجهه فأرغش لها ودمى وجهه فتعاور عليه رجال الحجاج فقتلوه وقطعوا رأسه (٢) .

وكان ذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى (٣) من سنة ثلاث وسبعين للهجرة .

ولما قتل ابن الزبير كبر أهل الشام فرحاً بقتله وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمار بن حزم إلى المدينة فنصبت بها ثم أرسلت إلى عبد الملك ابن مروان (٤) .

أما جثته فقد صلبت على الشية اليمى بالحجون (٥) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٣ ابن الأثير ج ٤ ص ٢٤ ، ٢٥ وابن شاکر ج ٥ ص ٢١ والعيني ج ١١ ص ٢٨٣ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ والقرماني ص ١٣٣ وقيل وقعت عليه شرفة من شرايف المسجد - دول الإسلام للذهبي ج ١ ص ٢٤ والسلمي ص ٢٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥ والطبقات ج ٥ ص ١٦٩ والديار بكري ج ٢ ص ٣٠٥ والعيني ج ١١ ص ٢٨٣ والذهبي - دول الإسلام والعيني ج ١١ ص ٢٩٤ والقرماني ص ١٣٣ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٥ والقرماني ص ١٣٣ ويروي ابن عبدربه ج ٢ ص ٢٣٧ أن الحجاج هو الذي قطع رأس ابن الزبير بيده .
(٣) الطبري ج ٥ ص ٣٣ ، والطبقات ج ٥ ص ١٦٩ والعيني ج ١١ ص ٢٧٦ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٥ ويروي ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ أن ذلك كان في جمادى الآخرة من السنة نفسها .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٣٣ ، ٣٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥ ، ٢٦ وابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٣٦ والعيني ج ١١ ص ٢٨٣ والطبقات ج ٥ ص ١٦٩ وابن خلدون ويقول الديار بكري إنها أرسلت من المدينه إلى خراسان ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ وابن شاکر ج ٥ ص ٣٢ والعيني وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ .

وقطع الرؤوس وإرسالها من العوائد المعروفة فلم يأت الحجاج ببس في هذا - وقد أرسلت أمه إلى الحجاج تستأذنه في تكفينه ودفنه فأبى ووكّل بالخشب من يحرسها وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه^(١) وما كان من أمره، فكتب إليه يلومه ويقول له ألا خليت بينه وبين أمه ؟ ^(٢) فأذن لها الحجاج فكفنته وصلى عليه عروة وقيل غيره ودفنه بالحجون ^(٣) .

وبذلك انتهت حركة ابن الزبير التي استمرت زهاء اثنتي عشرة سنة ينافس فيها بني أمية الخلافة حتى كادت تعصف بالدولة الأموية لولا عزيمة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك يؤازرهم ويشد عضدهم رجال أقوياء كالحجاج .

ويأخذ حركة ابن الزبير أيضاً انتهت آخر محاولة حاولها الحجاز لاستعادة مكانته من أيدي الأمويين إذ انصرف الناس بعدها إلى الناحية العلمية كدراسة القرآن والحديث واكتفوا بهذا عن الكفاح بالسلاح ^(٤) .

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ . ويروي الديار بكري ج ٢ ص ٣٠٨ أن عبد الملك هو الذي أوصاه .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ وكنز الدرر ج ٤ القسم الثاني ص ١٢٧ وابن شاعر ج ٥ ص ٣١ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ وابن خلدون - العبر ج ٣ ص ٣٩ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ . وتروى بعض المصادر أن أمه دفنته بالمدينة - ابن شاعر - فوات الوفيات ج ١ ص ٢١١ ويروي فريق ثالث أنه أُلقي في مقابر اليهود .

(٤) سنوك هوجرنه - أخبار مكة ج ١ ص ٣٠ .
العيني ج ١١ ص ٢٩٢ والنووي على شرح مسلم ج ١٦ ص ٩٨ وابن كثير - البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٤١ وكنز الدرر ج ٤ ص ٢٢٥ والديار بكري ج ٢ ص ٣٠٨ .

وقد كثرت الأخبار في هذا الموضوع ونسجت قصص حول مقتله فمن قائل إنه سلخ جلده وحشاه تبناً - البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٦ ومن قائل إن الحجاج صلبه سنة حتى عشب فيه الحمام وفرخ وعندما غسلته أمه تقطع ثم تماسك وحاض أمه ونزل اللبن من ثديها فقالت قد حنت إليه مواضعه ودرت عليه مواضعه القرماني في ص ١٣٣ وابن شاعر فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٢ والديار بكري ج ٢ ص ٣٠٦ وراجع ابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٣٨ .

أسباب انتصار الحجاج على ابن الزبير : يجدر بنا بعد مقتل عبد الله بن الزبير أن نقف قليلاً لنوازن بينه وبين الحجاج حتى نتعرف الأسباب التي أدت إلى هزيمة ابن الزبير مع وجوده في موطنه ومن حوله الكثير من الناقمين على الأمويين والراغبين في أن يظل الحجاز مركز الخلافة الإسلامية .

وإننا لموجزون الأسباب التي أفضت إلى ذلك فيما يأتي :

أولاً : وفرة موارد الحجاج وقلة موارد ابن الزبير : منذ أن خضعت العراق لعبد الملك وابن الزبير محصور بمكة لا يصله من العراق المادة والذخيرة والرجال فارتفعت أثمان الحاجيات حتى بيع مد الذرة بعشرين درهماً بينما كان الحجاج في رغد من العيش فكانت تأتيه العير من دمشق تحمل الكعك والسويق والدقيق بكثرة ^(١) .

ثانياً : كرم الحجاج وبخل ابن الزبير : كان الحجاج يغمر الناس بعطاياه ويشجعهم بذلك على القتال فنراه يقول لهم « قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين » ^(٢) بينما كان ابن الزبير حريصاً شحيحاً ، وكان عبد الملك يعرف ذلك منه فقال فيه « إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبداً عُجْبٌ قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه فلا يسود بها أبداً » ^(٣) وقال بعد قتل مصعب « لله در مصعب لو كان لأخيه سخاؤه وله شجاعة أخيه ما طمع فيهما » ^(٤) .

ولم يكن البخل طارئاً على ابن الزبير لظروف مكة خلال الحصار بل كان بخيلاً

= وتروى بعض المصادر أيضاً أنه صلب معه كلباً ميتاً أو سنوراً حتى لا تشم رائحة المسك منه ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ .

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣ والطبري ج ٥ ص ٢١ والمنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٨ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٤٧ .

طوال عهده . ذكرت لنا بعض المصادر ^(١) أن مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق فقال « يا أمير المؤمنين جئتكم بوجوه أهل العراق لم أدع لهم نظيراً لتعطيهم من مال الله » فقال عبد الله « جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت » .

أما وقد صارت مكة في حالة حصار يتعذر معها الحصول على الأقوات فقد تابع ابن الزبير سياسة البخل فضع على أصحابه في أخرج الأوقات ^(٢) .

فبينما الناس يتضورون جوعاً في شوارع مكة كانت خزائنه مملوءة بالقمح والشعير والذرة والتمر وكان لا يعطي للجندي سوى نصف صاع من تمر (في اليوم) ^(٣) وكان ابن الزبير يعتقد أنه يستطيع الاطمئنان إلى أصحابه طالما كانت خزائنه عامرة فكان يقول « أنفس أصحابي قوية ما لم يفن ما عندي » ^(٤) وعندما وجد تشاقلاً من أصحابه قال « أكلتم تمرى وعصيتم أمري » ^(٥) .

ثالثاً : استسك ابن الزبير بالبقاء في الحرم : كان من الحتم من الوجهة الحربية أن يخرج ابن الزبير عن مكة ليهاجم الحجاج بعد طول السفر في الطائف أو أن يعترض طريق دخوله مكة . أما بقاءه في مكة عامة ، وداخل الحرم خاصة فقد كانت سياسة فاشلة من الوجهة الحربية فضلاً عن أنه عرض الحرم لسفك الدماء فيه وعرض نفسه وأصحابه لهلاك محقق .

رابعاً : أخطاء ابن الزبير السياسية :

(أ) على أثر مقتل الحسين بن علي قام ابن الزبير في مكة خطيباً مبيناً للناس جور بني أمية وقتلهم الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ فبايعه المسلمون على أن

(١) العقد الفريد ج١ ص٢٣١ والإمامة والسياسة ج٢ ص٢٠ .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص١٧ والبدء والتاريخ ج٦ ص١٩ والبلاذري ج٥ ص٣٦٣ .

(٣) اليعقوبي ج٢ ص١٣ .

(٤) أنساب الأشراف ج٥ ص٣٦١ وابن الأثير ج٤ ص٢٣ .

(٥) اليعقوبي ج٢ ص١٢ والبدء والتاريخ ج٦ ص١٩ .

يكون الأمر شورى بعد الفتح . فلما نجحت حركته استبد بالأمر ولم يقتصر على تجاهل بني هاشم بل اضطهدهم وبلغ به العناد أن ترك الصلاة على النبي في خطبته قائلاً : « إن له لأهيل سوء يشرئبون لذكره إذا سمعوا به » ^(١) .

وحينما امتنع ابن الحنفية وابن عباس مع آخرين عن البيعة له لأنه في فتنة ^(٢) حبسهم وعزم على إحراقهم بالنار لولا نجدة المختار بن أبي عبيد الثقفي لهم ^(٣) .

وليس من المستبعد أن يكون الحجاج قد استغل موقف ابن الزبير من بني هاشم إذ كان لا يترك فرصة إلا انتهزها . يدلنا على ذلك أن الحجاج سمع ابن الزبير يقول « ويل أمه فتح لو كان له رجال » . فقال « قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم » ^(٤) .

(ب) كان الحجاج يعرف كيف يستغل الظروف وينتهاز الفرص : سمع أن الجراح ابن الحصين بن الحارث الجعفي - الذي كان عامل ابن الزبير على وادي القرى - حدث مجاعة في عهد ولايته ففرق تراً من تمر الصدقة على الناس فلما علم ابن الزبير بذلك غضب وعندما قدم عليه جعل يضربه بدرته ويقول « أكلت تمرى وعصيت أمري » فدعا الحجاج الجراح في حصاره لابن الزبير ودعا وجوه الناس وقال له « حدثني حديث الملحد وحديثك » فحدثه والناس يسمعون فقال الحجاج « أهذا ممن يَرْجى لخير ؟ ! » ^(٥) .

تبعه مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق : ولقد كان موقف الحجاج من ابن الزبير اللائد بالحرم وما تلا ذلك من اضطرار الحجاج لمهاجمته وضرب الكعبة

(١) اليعقوبي ج٣ ص٨ والعقد الفريد ج٢ ص٢٣٤ .

(٢) المنتقى في أخبار أم القرى ص٣١ .

(٣) اليعقوبي ج٣ ص٨ والعقد الفريد ج٢ ص٢٣٤ والبدء والتاريخ ج٦ ص١٩ والمسنودي ج٢ ص٧٢ .

(٤) العقد الفريد ج٢ ص٢٣١ والإمامة والسياسة ج٢ ص٢٥ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص٣٦٣ .

بالمجنيق ماثراً لكثير من النقد لتصرف الحجاج حتى وقتنا هذا .

على أن نظرة مجردة لهذا الموقف تبين لنا أن الحجاج لا يستحق شيئاً مما وجه إليه من لوم أو نقد .

وأكبر ظننا أن الناقدين للحجاج قد استهوتهم منزلة ابن الزبير الدينية بصفة كونه أول مولود في الإسلام بعد الهجرة وابن بنت أبي بكر الصديق .

يضاف إلى ذلك ما قيل عنه من كثرة تعبه ، فتأثروا بهذا من جهة ونظروا إلى ضرب الكعبة ولم ينظروا إلى الظروف والدواعي التي دعت إلى ذلك من جهة أخرى ، فاستكبروا على ابن الزبير أن تكون عليه تبعة في حوادث مكة فآلقوها على الحجاج .

ولو ناقشوا الأمر في ضوء غير هذا ونظروا غير متأثرين بما تأثروا به وربطوا الحوادث بظروفها ، لتبين لهم أن ابن الزبير كان خارجاً على الخلافة وأهل الشام يعتقدون ذلك كما كانوا يعتقدون أنه يحل قتاله في أي زمان وفي أي مكان . يدلنا على ذلك أنهم لما علموا في دمشق أن الحجاج قد استولى على جبل أبي قبيس كبروا فرحاً وسروراً ^(١) .

ولم يكن أهل الشام وحدهم يعتقدون ذلك بل شاركهم في هذه العقيدة أهل الحجاز من كانوا يتذكرون الحديث الشريف (يلحد بمكة كبيش قریش) ^(٢) أو (ليحرقن هذا البيت على يد رجل من آل الزبير اسمه عبد الله) ^(٣) .

أما الحجاج ففضلاً عن أنه كانت له مصلحة سياسية في حرب ابن الزبير فإنه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه خارج على الخلافة ، يدلنا على ذلك أنه حينما كلمه

(١) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ٨٩ .

(٢) منتخب كنز العمال ص ٢٢٧ والعيني ج ١١ ص ٢٩١ .

(٣) الأزرقي ج ١ ص ١٢٩ وجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

جماعة من الصحابة في أن يكف المنجنيق حتى ينتهي الناس من الطواف قال : « إني والله لكاره لما ترون ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت والبيت لا يمنع خالع طاعة ولا عاصيًا ولو أنه اتقى الله وخرج إلينا فأصحر لنا فيما أن يظفر وإما أن نظفر فيستريح الناس من هذا الحصر (١) .

ولعله أخذ هذا من فعل الرسول وقوله فإن الرسول ﷺ أباح دم جماعة في فتح مكة فأخبر عن بعضهم أنه متعلق بأستار الكعبة فقال إن الكعبة لا تعيد عاصيًا ولا تمنع من إقامة حد وجب (٢) .

يؤيد ذلك أن الحجاج بعد مقتل ابن الزبير قابل أمه أسماء وقال لها : رأيت كيف نصر الله الحق ؟ وإن ابنك أُلحد في الحرم وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ (٣) .

وفضلاً عن اعتقاده الشخصي فإنه كان نائب الخليفة وقائد جيشه فكان لزاماً عليه أن يكون تحت إرادته وهو لم يدخل مكة إلا بعد استشارته وإذنه له في الحصار بل يروى أنه هو الذي أمره بالحصار (٤) .

يضاف إلى كل ذلك أن ابن الزبير أثار شعور المسلمين وأفزعههم بهدمه للكعبة وبنائها على أساس إبراهيم عملاً بحديث صح عنده سمعه من خالته عائشة (٥) وبلغ من

(١) المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٦ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠٥ وراجع الطبري ج ٣ ص ١١٩ وابن الأثير ج ٢ ص ١٢٠ وابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧١ وراجع ابن سعد ج ٨ ص ١٨٥ وابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٣٧ (الحج ٢٥) .

(٤) انظر الكتاب ص ٤١ .

(٥) راجع الأزرق ج ٨ ص ٠ ودول الإسلام للذهبي ج ١ ص ١٣٤ و امرأة الجنان ج ١ ص ١٥١ وابن كثير ج ٩ ص ٣ .

فزعهم أن خرجوا هاربين إلى الطائف ومنى^(١) .

وأما نصب المنجنيق وإصابته للبيت فإن هذا لم يكن عملاً قصده الحجاج ، ولم يرد الخط من شأن البيت وإنما كان ما فعله ضرورة من ضرورات الحرب نظرًا لتحصن ابن الزبير به ورغبة الحجاج في إخراجه منه .
وليس أدل على أن الحجاج لم يرد إهانة الكعبة من أنه جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير وأنه أمر بكنسه وتنظيفه من الحجارة والدم بعد مقتل ابن الزبير^(٢) .

(١) شذرات الذهب ج١ ص ٨١ وراجع الأزرقى - أخبار مكة ج١ ص ١٣٣ واليعقوبي ج٢ ص ٧ .

(٢) البلاذرى - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٣ وابن الأثير ج٤ ص ٢٦ وابن خلدون ج٢ ص ٢٩ .

الباب الثاني

الحجاج الوالي

الفصل الأول

حكومته في الحجاز

حال أهل مكة بعد مقتل ابن الزبير . خطبة الحجاج في أهل مكة . موقفه من عروة بن الزبير . الحجاج وابن الحنفية . تجديد ولايته على مكة . الحجاج والكعبة . ولايته للمدينة . بناؤه لمسجد في بني سلمة . وشبهه لجماعة من الصحابة . وفادته على الخليفة .

دخل الحجاج مكة وهي تضج بالبكاء على مقتل ابن الزبير ، لا لمكانته السياسية فيهم بل لصلاحه وتقواه وعكوفه على عبادة الله . تلك الأمور التي اشتهر بها ابن الزبير .

حزنت مكة لهذا الأمر الذي ظهر في نظرهم عظيمًا ، ولعل الحجاج ترقب من أهلها ثورة عليه بعد أن فتح بلدهم عنوة فكان اعتاده في مواجهة ذلك على مقدرته الخطائية بقدر اعتاده على حنكته الحربية . لذلك قام في أهل مكة خطيبًا فقال « يا أهل مكة بلغني استكباركم واستفطاعكم قتل ابن الزبير ^(١) ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها فألحد في الحرم فأذاقه الله من عذاب أليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير وإنه قد كان في الجنة وهي أشرف من مكة ولما خالف وأكل من الشجرة أخرجه منها فقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ^(٢) .

وأكبر ظننا أنه أراد أن يبين رأيه في موقف ابن الزبير مبينًا أنه خارج على

(١) ابن عساكر ج٤ ص ٥٠ وابن كثير ج٩ ص ١٢٠ .

(٢) ابن عساكر ج٤ ص ٥٠ وابن كثير ج٨ ص ٣٣١ وابن شاكر - عيون التواريخ ج٥ ص ٢٢ .

الخلافة مستحق للقتل مستدلاً على ذلك بآدم وما كان من أمره ؛ ثم بايعه أهلها لعبد الملك بن مروان ^(١) وأمر بكس المسجد من الحجارة وتنظيفه من الدم ^(٢) .

بينما كان ذلك يجرى في مكة كان عروة بن الزبير في طريقه إلى الشام . ذلك أنه لما قتل عبد الله بن الزبير ركب أخوه عروة وسار مسرعاً فوصل إلى عبد الملك قبل وصول رسل الحجاج إليه فاستأذن للدخول فأذن له عبد الملك وأجلسه معه على سريريه ثم تحدثا حتى جرى ذكر عبد الله على لسان عبد الملك فقال عروة إنه كان ، فقال عبد الملك : وما فعل ؟ قال : قتل . فخرساجداً ، فقال عروة إن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه . قال : نعم وكتب إلى الحجاج يعظم صلبه ^(٣) ويقول له « ألا خليت بينه وبين أمه ؟ » ^(٤) .

تفقد الحجاج عروة فلم يجده فاعتقد أن عروة أخذ ما كان في بيت المال وهرب به وكان الحجاج قد وجد في بيت المال عشرة آلاف درهم ^(٥) بينما كان الحجاج يعتقد أن ابن الزبير قد اكتنز الملايين ، فكتب إلى عبد الملك يقول له « إن عروة كان مع أخيه فلما قتل أخذ مالاً من مال الله وهرب به » ، فكتب إليه عبد الملك (إنه لم يهرب وقد أتاني مبايعاً وقد أحللتها مما كان وهو قادم عليك فيايك وعروة) ^(٦) .

على أن عروة ظل بالشام وقتاً ما وقيل إن الحجاج عاود عبد الملك في أمر عروة فهم عبد الملك بإنفاذه إليه فلما شعر عروة بذلك قال « ليس الذليل من قتلتموه

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٤ وابن خلدون ج ٢ ص ٣٩ والسلامي - مختصر التواريخ ص ٢٠ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩ وابن شاعر

ج ٥ ص ٣١ وكنز الدرر ج ٤ ص ١٢٧ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٧٦ .

ويروي صاحب المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٩ أن عروة أخذ أموالاً ووضعها عند قوم .

(٦) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ .

ولكن الدليل من ملكتموه ، وليس بملوم من صبر فمات ولكن المملوم الذي فر من الموت « فسمع منه عبد الملك هذا الكلام فقال عبد الملك « يا أبا عبد الله لن تسمع منا شيئاً تكرهه » (١) .

وفي اعتقادنا أن الحجاج لم يعاود عبد الملك في شأنه ولم يفكر عبد الملك في تسليمه فقد كان عروة مسالماً ، فقد أشار على أخيه بالصلح ولم تكن له مطامع سياسية فلا يخشى منه وكانت أمنيته في الحياة أن يؤخذ عنه العلم .

يروى أنه جلس هو وعبد الله بن عمر وأخواه عبد الله ومصعب فتبنى عبد الله الخلافة ، وتمنى مصعب إمارة العراقين والجمع بين سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وتمنى ابن عمر الجنة ، وأما تمنى عروة فهو أن يؤخذ عنه العلم (٢) .

وبعد مقتل ابن الزبير أوفد ابن الحنفية إلى عبد الملك رسولاً يحمل كتاباً يشرح فيه موقفه من فتنة ابن الزبير ويعرض على عبد الملك بيعته هو ومن معه ويطلب منه أن يمنح الطالبين أماناً .

وإنا لموردون هنا نص الخطاب إثباتاً لما احتوى عليه من بيان لموقف ابن الحنفية من الخلافة الأموية :

(إني اعتزلت الأمة عند اختلافها فقعدت في البلد الحرام الذي من دخله كان آمناً لأحرز ديني وأمنع دمي وتركت الناس ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكْلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ونحن عصاة من أمتنا لانفارق الجماعة وقد بعثت إليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك ميثاقاً ونحن أحق بذلك منك فإن أبيت فأرض الله واسعة والعاقبة للمتقين) (٣) .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٨٥ وابن خلكان ج ١ ص ٣٩٩ .

(٣) ابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٢٨ .

فكتب إليه عبد الملك الكتاب الآتي يمنحه فيه الأمان أينما كان ويطلب إليه أن يخرج إلى الحجاج لبيايه :

(قد بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التي معك فلك عهد الله وميثاقه أن لا تهاج في سلطاننا غائبًا ولا شاهدًا ولا أحد من أصحابك ما وفوا بيعتهم ، فإن أحببت المقام بالحجاز فلن ندع صلتك وبرك وإن أحببت المقام عندنا فأشخص إلينا فلن ندع مواساتك .

ولعمري لأن ألبأنك إلى الذهاب في الأرض خائفًا لقد ظلمناك وقطعنا رحمك فاخرج إلى الحجاج فبايع فإنك أنت المحمود. عندنا دينًا ورأيًا وخير من ابن الزبير وأرضى وأتقى^(١) . وكتب إلى الحجاج (ولا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه) وجاء في كتابه : (جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من شدة الحرب وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي) . فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبين في أيامه^(٢) .

كان عبد الملك قد عقد للحجاج على مكة حينما خرج على رأس الجيش لقتال ابن الزبير وبعد قتله جدد له الولاية ثم كافأه على خدماته فأضاف إليه الين واليمامة . أما المدينة فقد ظل طارق واليًا عليها . وحج الحجاج بالناس في هذا العام - عام ثلاث وسبعين - فعمل على جمع المسلمين تحت لواء واحد بعد أن كانوا يحجون تحت ألوية مختلفة^(٣) .

= ويروي المسعودي ج٢ ص٩٠ أن ابن الحنفية كتب يقول : إن الحجاج قد قدم بلدنا وقد خفته فأحب أن لا تجعل له سلطانًا بيد ولا لسان فكتب عبد الملك إلى الحجاج (إن محمدًا قد كتب إلي يستعفني منك وقد أخرجت يدك عنه فلم أجعل لك عليه سلطانًا بيد ولا لسان فلا تتعرض له) .

(١) ابن عبد ربه ج٢ ص٢٢٨ .

(٢) ابن عبد ربه ج٢ ص٢٢٨ والمسعودي ج٢ ص١١٤ وهي رواية تصور لنا أن عبد الملك والحجاج اجتنبا دماء الطالبين خوفًا من زوال الملك لا خوفًا من الله .

(٣) راجع اليعقوبي ج٣ ص١٠ .

قدمنا أن الأمويين كانوا يعتقدون أن التغيرات التي أدخلها ابن الزبير على الكعبة بدعة في الدين .

ذلك أن عبد الملك بن مروان ، وهو من رواة الحديث لم يصح عنده الحديث الذي رواه عبد الله بن الزبير عن خالته عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « لولا قومك حديثو عهد بكفر أو بجاهلية لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الجحلا ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا ، فإن قومك قصرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم يتموها على قواعد إبراهيم ، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا » (١) .

وفي رواية أنه قال : « فإن بدا لقومك أن يبنوها فاهلك لأريك ما تركوه منها » فأراها قريبا من سبعة أذرع (٢) .

لذلك نرى عبد الملك يأمر الحجاج - أو يقره على ضرب الكعبة بالمنجنيق في أثناء الحصار كما تقدم ، فلما آلت الأمور إلى عبد الملك كتب الحجاج إلى عبد الملك يستشيريه في أمر الزيادة التي زادها ابن الزبير ، فكتب إليه عبد الملك : (أن سد بابها الغربي وارفع بابها الشرقي واهدم ما كان زاد فيها من الحجر واكبس أرضها بالحجارة التي تفضل منها) (٣) .

فنفذ الحجاج ذلك بأن نقض منها ما كان ابن الزبير زاده مما يلي الحجر وهو ستة أذرع وشبر وكبسها بالردم الذي خرج منها وسد الباب الغربي الذي أحدثه ابن الزبير ورفع الباب الشرقي ثم كساها بالديباج (٤) .

وعلى ذلك فالكعبة الحالية مؤلفة من بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقي

(١) ابن كثير ج٩ ص٣٢٠ ، والذهبي - دول الإسلام ج١ ص٢٤ والأزرق ج١ ص١٠٨ .

(٢) الأزرق ج١ - أخبار مكة ج١ ص١٣٧ ، ١٩٥ ، والبلاذري ج٥ ص٣٧٣ والإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٨٣ .

(٣) الذهبي - تاريخ الإسلام ج٣ ص٤٥٠ واليعقوبي ج٢ ص١٨ وابن كثير ج٩ ص٢٠٢ و امرأة الجنان ج١

ص١٥١ والأزرق ج١ ص١٣٧ وابن شاذلي في إحدى روايته ج٥ ص٤٠ .

(٤) الأزرق ج١ ص١٦٨ وابن خلدون ج٢ ص٣٣٨ والهمداني ص٢٠ .

والجنوبي والغربي، وبناء الحجاج من جانبها الشمالي، ولم تنقض جميعها كما في بعض الروايات (١) .

وفي رأينا أن الحق كان في جانب عبد الملك يؤيد إلحاح الكثير من الصحابة وعلى رأسهم عبد الله بن عباس على ابن الزبير في عدم هدم الكعبة ، ولما لم يقبل منهم خرج الناس فرقا مما قد يصيبهم إلى منى والطائف (٢) .

ولقد ظلت هذه الفكرة ماثلة أمام أعين المسلمين حتى جاء العصر العباسي وفيه نرى الخليفة المهدي يهتم بنقض الكعبة وبنائها من جديد فإذا الإمام مالك بن أنس ينهاه عن ذلك بمثل ما نهى الصحابة عبد الله ابن الزبير (٣) .

ولو كان هذا الحديث المشار إليه صحيحا لأقر هؤلاء الصحابة - ومن بعدهم الإمام مالك - عبد الله بن الزبير والخليفة المهدي ولكانت الكعبة الآن على غير ما هي عليه .

ولما كانت مكة قفرة من الأنهار وكان الاعتماد في الشرب والري على الآبار اتجه الحجاج إلى هذه الناحية فحفر بئر الياقوتة بمنى وأحكمها (٤) كما أنه عمل سدا في جبل المزدلفة على يسار الذهاب إلى منى لحبس المياه على وادي مكة وجعل مفيضه في سدة خالد (٥) .

عزل عبد الملك طارق عن المدينة وأضافها إلى الحجاج ، فخرج إليها واستخلف على مكة نافع بن علقمة الكناني (٦) وسار إلى المدينة في صفر من سنة أربع وسبعين للهجرة .

(١) بلوغ الأرب في معرفة أخبار العرب ج١ ص ٢٢٢ ، الذهبي في دول الإسلام ج١ ص ٢٤٤ وابن شاکر ج٥ ص ٤٠ في روايته الأخرى .

(٢) الأزرق ج١ ص ١٣٣ والعمادي - شذرات الذهب ج١ ص ٨١ .

(٣) ابن كثير ج٩ ص ١٣٢ .

(٤) الأزرق ج٢ ص ١٨١ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٦) أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٣ .

ففرق في أهلها عشرة آلاف دينار وخطب فيهم قائلاً « أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوازل فاعذرونا » فقال رجل « لا عذر الله من يعذرك أنت أمير المصريين وابن عظيم القريتين » فقال الحجاج : صدقت ، واقترض أموالاً ممن هناك من التجار^(١) وغمر الناس بعطاياه .

مكث الحجاج بالمدينة مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ولكنها على قصرها - طبعت الحجاج بطابع لم يهمله أحد من المؤرخين .
ذلك أنهم أجمعوا على أن الحجاج نكل بجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فختم البعض في يده والبعض الآخر في عنقه بخاتم من الرصاص كما كان يفعل بأهل الذمة وأغلظ القول لأحدهم فاتهمه بالكذب^(٢) .

أجمعت المصادر على ذلك ولكنها لم تذكر لنا من أسماء هؤلاء الصحابة إلا ثلاثة هم جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد الساعدي .
وفي رأينا أن الحجاج لم ينكل بأحد من الصحابة غير هؤلاء الثلاثة وإلا لما قصرت المراجع في ذكر أسمائهم أسوةً بهؤلاء .

وإذا كانت المصادر التاريخية قد ساقَت هؤلاء الصحابة منحية باللائمة على الحجاج متهمةً إياه بعبثٍ غير مغتفر ضد صحابة الرسول ﷺ فنحن لا يسعنا أن نمر على هذا الحادث دون تعليق . فهل كان الحجاج شَغِيفاً بالتنكيل بالناس عامة وبهؤلاء خاصة !! أم كانت هناك أسباب دعت الحجاج إلى أن يعامل هؤلاء الصحابة الثلاثة هذه المعاملة ؟؟؟

طبع الحجاج في نظر المؤرخين بطابع القسوة ولكنه في نظرنا لم يكن قاسياً بل

(١) المبرد ص ٢٩٢ وابن نباتة ص ١٠٨ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٩، ٤٠ وابن شاکر ج ٥ ص ٣٩ واليعقوبي ج ٣ ص ١٧ والأتابكي ج ١ ص ١٩١ .

كان حازماً يقسو على خصومه كل القسوة ويلين لأنصاره كل اللين فكان بذلك لا يوجد مثله لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه ^(١) رائده في ذلك المصلحة العامة المطبوعة بطابع الإخلاص للدولة الأموية والأسس التي قامت عليها هذه الدولة .

وفي ضوء هذه المبادئ نرى الحجاج قد عامل أهل المدينة أحسن معاملة إذ فرق فيهم عشرة آلاف دينار واقترض أموالاً من التجار فوزعها أيضاً ، ثم لا يلبث هذا الحجاج بعينه أن يأتي بأصحاب رسول الله فينكل بهم ، ثم لا يلبث أن يعود إلى سابق عهده من غيرة إسلامية فيشيد مسجداً في بني سلمة ^(٢) .

فقسوة الحجاج على هؤلاء الصحابة ولينه فيما بين موقفين من اللين والتقوى يدفعنا إلى تبرير موقفه من هؤلاء الصحابة . فهل نستطيع أن نلتمس له السبب من موقف هؤلاء الصحابة من الدعوة الأموية ؟ حيث اعتبرهم الحجاج مسؤولين عن مقتل عثمان ^(٣) ملومين على موقفهم في صف عليٍّ مؤاخذين على نصرتهم لابن الزبير ^(٤) فتكون مواقفهم هذه كلها في صفوف خصوم الأمويين والمعارضين لهم مأخذاً أخذه عليهم الحجاج فنكل بهم ؟

على أن الذي لا شك فيه هو أن الحجاج على ما بلغت قسوته مع أهل الحجاز من مدنيين ومكيين كان في قسوته أخف مما رغبه منه أمير المؤمنين ، فقد استحققت سياسته في الحجاز أن تسمى الهويينا من عبد الملك .

ثم خرج من المدينة معتمراً إلى مكة بعد أن مكث بها مدة وجيزة لا تزيد على

(١) الذهبي ج٤ ص٨١١ وابن عساكر ج٤ ص٧٢ .

(٢) الطبري ج٥ ص٣٥ والعميني ج١١ ص٢٩٦ والأتابكي ج١ ص١٩١ .

(٣) أنساب الأشراف ج٥ ص٢٧٣ وابن الأثير ج٤ ص٢٦ وابن عبد ربه ج٢ ص٢٢٩ ودوزي - تاريخ مسلمي إسبانيا ص٦٣ .

(٤) ابن عبد ربه ج٢ ص٢٢٩ .

ثلاثة أشهر واستخلف عليها عبد الله بن قيس بن مخزومة ^(١) .

وقد بالغ المؤرخون في تصوير ضجره بأهل المدينة حيث نسب إلى أنه قال : « الحمد لله الذي أخرجني من أم تن أهلها ، أخبث بلد وأغشه لأمر المؤمنين ، وأحسدم له على نعمة الله ، والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجمعتها مثل جوف الحمار ، أعواذاً يعودون بها ورمة قد بليت يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله ^(٢) .

ومن المستبعد أن تصدر هذه العبارات من الحجاج وهو على ما ذكرنا وسنذكر من ورع وتقوى ، يدل على ذلك أن ابن خلدون أراد أن لا يتحمل تبعتها فقال « ونسبت إليه أقوال أمره فيها موكول إلى الله ^(٣) » كما أن كثيراً من المؤرخين لم يشر إليها .

ولو فرضنا جدلاً أن الحجاج قال إبان خروجه من المدينة شيئاً مما نسب إليه فأغلب ظننا أنه وجد في أهل المدينة أشخاصاً متمردين على نظام الحكم الجديد بما فيه من حزم ورئياً أحفظه عليهم أن خاصتهم كانوا يلتمسون الحظوة لدى الجماهير من التمسح بمخلفات الرسول وآثاره وكانوا يرتعون في بُجوحه من العيش بهذا السبب ، والحجاج لا يقر شيئاً من هذا بعقيدته الإسلامية الصحيحة .

ولذلك نرى هذه الطبقة - وقد ناصبت الحجاج العداء - قد استحقت أن يقول فيها ما نسب إليه .

مضى على الحجاج زمن بالحجاز وهو يعمل على تعمير البلاد فأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول ﷺ وكفل لأهل مكة موارد الماء باشتقاق الآبار وإقامة السدود ، وبنى مسجداً في بني سلمة بالمدينة وسهر على إقامة حكومة حازمة عادلة . ثم فكر بعد ذلك في الوفود على أمير المؤمنين عبد الملك ، واستخلف على مكة عبد

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص٢٧٤ وابن الأثير ج٤ ص٢٦ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص٢٧٤ وابن الأثير ج٤ ص٢٧ والمبرد ص١٢٧ وكز الدرر ج٤ ق ٢

ص١٤٥ . والرواية مصدرها واحد وهو الواقدي .

(٣) العبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ ص٤ .

الرحمن بن نافع وعلى المدينة عبد الله بن قيس ، وقصد إلى دار الخلافة في نفر من أهل الحجاز منهم محمد ابن الحنفية .

ومما لا شك فيه أن ابن الحنفية كشف لعبد الملك عما يأخذه على سياسة الحجاج والتمس منه أن يوصي به الحجاج ، يؤيد ذلك أن عبد الملك أمر الحجاج أن لا يكون له على محمد ابن الحنفية سلطان ورده مكرماً .

وسأل عبد الملك الحجاج عن استخلفه على المدينة فقال الحجاج استخلفت عبد الله بن قيس . فقال عبد الملك : استخلفته من أحق أهل بيت في قریش (١) . ثم رجع بعد ذلك بمن معه إلى الحجاز .

وفي يقيننا أن هذه الوفادة بما جرى فيها من مباحثات سياسية وإدارية كانت من الأسباب التي أدت إلى إسناد ولاية العراق للحجاج . مما سنذكره في الفصل الثاني إن شاء الله .

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٧٤ .

الفصل الثاني

ولاية الحجاج للعراق

سبب اختيار الحجاج لولاية العراق . كتاب التولية . مسيره للعراق . بيانه لسياسته في أهل الكوفة . خروج الجيش إلى المهلب . ولاية عبد الرحمن التيمي لشرطة الكوفة . ذهاب الحجاج إلى البصرة وخطبته فيها . خروجه إلى راسقباد .

استقرت الأحوال لعبد الملك بن مروان في الحجاز بعدما وقع فيه من حوادث كادت تؤدي بالدولة الأموية لولا ما أوتي عبد الملك من رباطة جأش وحسن سياسة وعظيم توفيق في اختيار الحجاج الذي أعاد السلام إلى الأرض المقدسة ووطد نفوذ الدولة الأموية فيها بالقضاء على ابن الزبير .

وبالقضاء على ابن الزبير تنفس عبد الملك الصعداء ولم يبق أمامه ما يشغل به ويطلق فكره سوى بلاد العراق مهد الثورات وموطن الخارجين على الخلافة .

فالكوفة لم تزل متأثرة بالدعوة الشيعية على الرغم من قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي بينما ظلت البصرة مقر حركة الخوارج وثوراتهم المتتالية وذلك لعدم كفاية الولاة الذين عجزوا عن حفز هم أهل العراق والقضاء على الثائرين على الخلافة ، وفشلوا في توجيه القوم التوجيه الصحيح ضد الخوارج .

ولم يكن عبد الملك يحب أن يقضي بأمر حاسم في شأن العراق طالما كان أخوه بشر واليًا عليها وبينما كان عبد الملك يفكر في أمر هذه البلاد وما آلت إليه من فوضى تهدد كيان ملكه إذ وافته الأنباء بوفاة أخيه بشر في رجب من سنة أربع وسبعين للهجرة^(١) .

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٤٤ وابن كثير ج ٩ ص ٧ والأناطكي ج ١ ص ١٩١ وروي الطبري ج ٥ ص ٣٤٤ عن الواقدي أنه مات سنة ثلاث وسبعين .

فكان في موته مخرجٌ لعبد الملك مما كان يعانيه من حرج وفرصة ليسند إدارة هذه البلاد إلى عامل يستطيع أن يضع الأمور في نصابها . ولم يتردد عبد الملك في إسناد ولاية العراق للحجاج فلقد رأى أنه لا يسد عنه خلل أهل العراق ولا يرد غارات الخوارج غيره ^(١) .

وقد أثبتت الحوادث بعد نظره فإنه وطد للدولة الأموية المنابر وذلّل لها أهل العراق .

هذا في رأينا السبب الحقيقي في تولية الحجاج للعراق ، وقد اختلف المؤرخون في الطريقة التي اتبعها عبد الملك في هذه التولية ، فقال بعضهم : ^(٢) إنه كتب إليه بعهد عليه وهو في الحجاز ، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه خرج من المدينة إلى العراق رأساً .

ويرى آخرون ^(٣) أن الحجاج ولي العراق في آخر وفادة له على عبد الملك في دمشق إذ تهيأت الفرصة لذلك بوفاة بشر بن مروان كما ذكرنا خلال هذه الوفادة .

على أننا نميل من جانبنا إلى الاعتقاد بأن العهد بولاية العراق أرسل للحجاج وهو بالحجاز وذلك لسببين :

أولهما : أن الخبر مروي في الطبري وابن الأثير وابن عساكر وابن خلدون وصاحب أنساب الأشراف - في أقرب روايته إلى الدقة - في حين أن قصة الشام لم ترد إلا في المسعودي والأبشيهي وأنساب الأشراف في رواية ظاهرة الضعف .

وثانيهما : أن أولئك الذين قالوا بتولية الحجاج العراق وهو بالشام قد أحاطوها بقصص تتحد في معناها وتختلف كثيراً في مبناها ، واختلاف القصص في ذاته من

(١) العيني ج ١١ ص ٣٠٠ وابن كثير ج ٩ ص ٧ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣ العيني ج ١١ ص ٣٣ وابن كثير ج ٩ ص ٧ وابن خلدون ج ٢ ص ٤١ والذهبي ج ٢ ص ٤٥٢ والمختصر في أخبار البشر ص ١٩٦ .

(٣) البلاذري أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٤ .

أدلة الوضع .

هذا إلى أن كل قصة بذاتها غير محتملة الوقوع فمن غير المعقول في نظرنا أن تصح القصة التي يرويها الأبشيهي^(١) من أن يرشح الحجاج نفسه لأمانة العراق فيجيبه عبد الملك قائلاً « ومن أنت لله أبوك » فيقول الحجاج : « أنا الليث الضمضام والهزير الهشام أنا الحجاج بن يوسف » فيقول له عبد الملك « من أين » ؟؟ فيقول الحجاج : « من ثقيف كهوف الضيوف ومستعملي السيوف » فيقول عبد الملك « اجلس لا أم لك فلست هناك »^(٢) .

إلى غير ذلك مما جرى على لسان كل من عبد الملك والحجاج مما لا يمكن أن يصدر عن أحدهما .

ذلك أن الحجاج لم يكن في نظر عبد الملك بالفكرة التي يصورها لنا الحديث فهو صاحب شرطته في حرب مصعب وقائده المجلى في الحجاز على ألد خصومه ، ومن غير المعقول أن يسأل الحجاج عن قبيلته فمن ذا الذي لم يكن ليعرف وقتذاك أن الحجاج من ثقيف ؟!

يضاف إلى كل ذلك أن الرواية مأخوذة عن الأبشيهي في كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » وهو كتاب لم يثبت مقامه بين مصادر التاريخ .

وفي تقديرنا أن أسلوب الرواية لا تصح نسبته إلى ذلك العصر لما فيه من ركافة التعبير والميل إلى السجع المتكلف وهو ظاهرة العصور المتأخرة .

ومقارنة بريئة بين أسلوب هذه المحاورة وأسلوب خطب الحجاج تبين لنا البون الشاسع بين الأسلوبين

(١) المستظرف ج١ ص ٥٠ .

(٢) راجع المستظرف من كل فن مستظرف ج١ ص ٥٠ ، ٥١ .

ومن غير المعقول كذلك أن تصح قصة المسعودي فقد بدأها بمحاورة بين عبد الملك والمهلب بن أبي صفرة مستبعدة الحدوث ، فكيف يعقل أن يشترط المهلب على عبد الملك أن يكون له خراج ما أجلى العصاة عنه ؟ وكيف يعقل أن يساومه الخليفة في ذلك فيعرض المهلب أن يكون له ثلثا الخراج فيأبى الخليفة ثم يعرض أن يكون له النصف ويقسم أن لا ينقص منه شيئاً ؟ ^(١) .

كيف يعقل أن تحدث هذه المساومة بين المهلب وعبد الملك ، والمهلب قد اشتهر بالطاعة ومثانة الخلق والإخلاص للخلافة ، بينما كان عبد الملك من قوة الشكينة بحيث لا يجرؤ أحد قواده على أن يوجه له هذا القول مساوفاً له في خراج أو غير خراج ؟! .

ويسترسل المسعودي في روايته فيروي لنا قصة أشبه بقصة الأبشيهي تصور لنا عبد الملك وهو يقول من للعراق ؟ فيجيبه الحجاج قائلاً : أنا لها مرة وثانية وثالثة فيقول عبد الملك له أنت زنبورها .

ومن طرائف الوضع في قصة تولية الحجاج للعراق ما جاء في بعض المصادر من أن الحجاج كتب إلى عبد الملك (إني قد ضبطت الحجاز بشامي وبقيت يميني فارغة) ^(٢) وهو تقليد واضح لما يروي عن زياد مع معاوية إذ قال له « إني قد ضبطت العراق بشامي وبقيت يميني فارغة » ^(٣) .

ولا يبعد أن يكون السبب في هذا التقليد ما يقوله المؤرخون من أن الحجاج كان يترسم خطى زياد بمثل ما كان زياد يترسم خطى عمر بن الخطاب (تشبه زياد بابن الخطاب فاشتط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك ودمر) ^(٤) .

(١) راجع مروج الذهب ج٢ ص ٩٤ .

(٢) ابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٥ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ٧ وشذرات الذهب ج١ ص ٨٥ .

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ٧ والجاحظ ج٢ ص ٥١ وابن قتيبة ج١ ص ٣٢٩ وابن كثير ج١ ص ١١٩ وابن خلكان - وفيات الأعيان ج١ ص ١٥٥ .

ومادمننا بصدد حديث الوفادات فلا بد لنا من أن نشير إلى ما أجمعت عليه المصادر من وفادة الحجاج على عبد الملك كأنها وفادة واحدة (١) وما انفرد به صاحب أنساب الأشراف من أنها كانت أكثر من وفادة (٢) .

والمعقول أن الحجاج وفد على عبد الملك بالشام بوفوده من عيون أهل الحجاز عدة مرات . منها تلك الوفادة الطبيعية التي لا بد أن تكون قد حدثت على أثر مقتل ابن الزبير ، ومن المرجح أن الحجاج اصطحب معه فيها محمد ابن الحنفية . كما أنه من المؤكد أنه وفد مرة أخرى وبصحبه إبراهيم بن طلحة حيث جرى الحديث بينه وبين الخليفة ، وإليه ينسب بعض المؤرخين ظفر الحجاج بولاية العراق (٣) .

وقد أشار المؤرخون إلى وفادة ثالثة كان من أعضائها عيسى بن طلحة وعمر بن عبد الرحمن بن عوف وأجروا على لسان أحدهما حديثاً أشبه بحديث عيسى بن طلحة ورتبوا عليه نفس النتائج (٤) .

وفي تقديرنا أن الأقوال التي وردت على لسان الوفود المختلفة إن صحت فقد كانت دليلاً جديداً على حنكة عبد الملك . إذ استطاع أن يرضي أهل الحجاز بإقضاء الحجاج عن بلادهم نزولاً ظاهرياً على إرادتهم ، بينما كان يريد أن ينتفع به في العراق حيث كانت الحال تتطلب شخصية قوية حازمة وهكذا ولي الحجاج العراق .

ويؤيدنا فيما نذهب إليه أن الخليفة كتب إلى الحجاج كتاباً بخطه جاء فيه (أما بعد يا حجاج فقد وليتك العراقين صدقة فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل أمامها أهل البصرة وإياك وهويني الحجاز فإن القائل يقول هناك ألفا ولا يقطع بها

(١) ابن عبد ربه ج١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ وثمرات الأوراق ص ٢٢٦ وابن نباتة ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) البلاذري ج ٥ ص ٣٧٤ .

(٣) راجع ابن عبد ربه - العقد الفريد ج١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٥ ، ١٠٦ وثمرات الأوراق ص ٢٢٦ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

حرفًا ، وقد رميت بك الغرض الأقصى فارمه بنفسك وأرد ما أردته بك والسلام (١) .

وفي هذا الكتاب رسم عبد الملك للحجاج الخطة التي يجب أن يسير عليها ، وبين له أن السياسة التي سار عليها في الحجاز لا تصلح للعراق وأنه ينبغي له أن يصل إلى الهدف الذي يريده منه وهو إعادة النظام وخلق روح الطاعة في نفوس المحاربين من أهل الكوفة والبصرة الذين انتهزوا فرصة موت بشر بن مروان وعادوا إلى بيوتهم بغير إذن تاركين قائدهم المهلب بـ « رامهرمز » في ميدان القتال مع الخوارج ؛ وأمره أن يبدأ بأهل الكوفة حتى تتسامع البصرة بما أصابهم فتدين لطاعته ؛ وبذلك يتم له إخضاع هؤلاء المتمردين على النظام وإرغامهم على الإقلاع عن الفوضى وإرهابهم من البداية ؛ وقد انتهج الحجاج السياسة التي رسمها له الخليفة .

مسير الحجاج إلى الكوفة وخطبته في أهلها :

خرج الحجاج من المدينة (٢) عندما أتاها كتاب ولايته على العراق في منتصف (٣)

(١) اليعقوبي ج٣ ص ١٩ وابن شاکر - عيون التواريخ ج٥ ص ٤٤ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٣٣ وابن كثير ج٩ ص ٧ وأبو الفدا ج١ ص ١٩٦ والعيني ج١١ ص ٣٠٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٠ والذهبي ج٣ ص ٤٥٢ .

(٣) الطبري في رواية أبي مخنف ج٥ ص ٤٦ .

ويروي صاحب أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٧٣ أنه دخلها في رجب بينما يروي الطبري ج٥ ص ٤٥ في رواية له أخرى وابن الأثير ج٤ ص ٣٦ وابن كثير ج٩ ص ٨ والعيني ج١١ ص ٣٠٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤١ أنه وصل الكوفة في رمضان .

وفي رأينا أن الحجاج دخل الكوفة قبل شهر شعبان لأن الحجاج نزل لاستقبال لحشد الناس إلى المهلب لحرب الخوارج في أول شعبان - الطبري ج٥ ص ٤٦ ، ولأنه كتب إلى المهلب في ٢٠ رمضان من سنة خمس وسبعين بمناهضة الخوارج - الطبري ج٥ ص ٤٦ - فأجلوهم عن رامهرمز في ٢٠ رمضان من نفس السنة . الطبري ج٥ ص ٤٦ والعيني ج١١ ص ٣٠٣ وابن كثير ج٩ ص ١١ .

سنة خمس وسبعين (١) للهجرة فوصل الكوفة حين انتشر النهار في اثني عشر ركباً (٢)

(١) الطبري ج٥ ص ٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٣٣ وابن كثير ج٩ ص ٧ والعيني ج١١ ص ٣٠٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٠ والذهبي ج٣ ص ٤٥٢ ويروي صاحب كنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١٤٥ أن ولاية الحجاج للعراق كان في سنة سبع وسبعين .

(٢) الطبري ج٥ ص ٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٢٣ وابن شاعر ج٥ ص ٤٥ وابن خلدون ج٣ ص ٤٠ وابن كثير ج٩ ص ٧ والذهبي ج٣ ص ٤٥٢ في إحدى روايته .

ويروي ابن عساكر ج٤ ص ٥٢ والذهبي في روايته الأخرى ج٣ ص ٤٥٢ أنه دخلها في ثمانية أو تسعة أما صاحب الإمامة والسياسة فينفرد برواية لا يقرها منطق الحوادث ولا يشاركه مصدر آخر فيما ذكر ذلك أنه يروي في ج٢ ص ٢٥ ، ٢٦ أن عبد الملك كتب إلى الحجاج يأمره بالسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم فتوجه ومعه ألف رجل من مقاتلة أهل الشام وحماهم وأربعة آلاف من أخلاط الناس وتقدم بألفي رجل وتحرق دخول البصرة يوم الجمعة في أول الصلاة فلما دنا من البصرة أمرهم أن يتفرقوا على أبواب المسجد . على كل باب مائة رجل بأسياهم تحت أرديتهم وعهد إليهم (أن إذا سمعتم الجلبة في داخل المسح والوقعية فيهم فلا يخرجوا من باب المسجد حتى تسبقه رأسه إلى الأرض) .

وكان المسجد له ثمانية عشر باباً يدخل منها إليه ، فافترق القوم على الأبواب فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة ودخل الحجاج وبين يديه مائة وخلفه مائة . كل رجل منهم مرتد بردائه وسيفه قد أمضى به إلى داخل أزاره وقال لهم : « إني إذا دخلت فسأكل القوم في خطبتي وسيحبسونني فإذا رأيتوني قد وضعت عمامتي على ركبتي فضعوا أسياهم واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين » .

فلما دخل المسجد وقد حانت الصلاة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس أن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عز وجل في بلاده وارتضاه أماماً على عبادته وقد ولاني مصركم وقسمه فيكم وأمرني بأنصاف مظلومكم وإمضاء الحكم على ظالمكم وصرف الشواب إلى الحسن البريء والعقاب إلى العاصي المسيء وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده وأرجو بذلك من الله عز وجل المجازاة ومن خليفته المكافأة ، وأخبركم أنه قلدي بسيفين حتى توليته إياي عليكم سيف رحمة وسيف عذاب ونقمة أما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق وأما سيف النقمة فهو هذا » .

فحبسه الناس فلما أثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبته فجعلت السيوف تبرى الرقاب ... إلى أن يقول فقتل منهم بضعا وسبعين ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد والسكك .

ويروي المسعودي ج٢ ص ٩٥ أن الحجاج سار حتى القادسية ثم أمر الجيش أن يقلل وأن يروحوا وراءه ودعا بجمل عليه قتب بغير حشية ولا وطاء ثم جلس عليه ودخل وحده .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على رواية الإمامة والسياسة لبعدها عن الصواب فوجه الخطأ فيها ظاهر من بدايتها لنهايتها . كما لا نرى أننا في حاجة إلى التعليق على رواية المسعودي فهو كما قدمنا يجعل الخروج

من الشام ولم تحدثنا المصادر التاريخية ولا هو نفسه عما فعل هذا الجيش ولم يأت له ذكر بعد .

فبدأ بالمسجد ^(١) فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء ^(٢) متقلدا سيفاً متنكباً قوساً ^(٣) وقال علي بالناس ، فقام الناس نحوه فسكت سكتة طويلة أهمهم بها وأحبوا أن يسمعوا كلامه ^(٤) .

وكثر الضوضاء وكثر الكلام فمنهم من كان يعرف أنه الأمير الجديد ^(٥) ومنهم من لم يكن يعرف ذلك فظنه وأصحابه خوارج ^(٦) - إذ إن طريقتهم في دخولهم المسجد كانت لا تختلف عن ذلك .

ولما طال السكوت قال عمير بن ضائب لحاجب بن زرارة ولعبد الرحمن بن الأشعث ولابنه محمد « ألا أحصيه لكم » ^(٧) وتناول حصباء ليحصبه فقالوا له حتى نسبح ما يقول ، فقال عمير « لعن الله بني أمية حيث يستعملون مثل هذا ، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو لما كان بشيء » ^(٨) .

وقال محمد بن عمير بن عطارد « لعن الله هذا ولعن من أرسله أرسل إلينا غلاماً

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٢ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٩ ، ويروي ابن عساكر ج ٤ ص ٥٢ وابن كثير ج ٩ ص ٧ أنه نزل عند قصر الإمارة ثم دخل المسجد كما يروي ابن عساكر ج ٤ ص ٥٢ أنه تحرى دخول الكوفة يوم الجمعة فجمع بهم ثم خطب وقد جراه في ذلك الذهبي في تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٥٢ وابن كثير ج ٩ ص ٧ ويروي صاحب أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧٣ أنه خطبهم ثم نزل فقرأ ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٣ وابن كثير ج ٩ ص ٧ .

(٣) المبرد ، وابن عساكر ج ٤ ص ٥٣ .

(٤) ابن عساكر ج ٤ ص ٥٢ والذهبي تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٥٣ وابن كثير ج ٩ ص ٧ .

(٥) المبرد ص ٢١٥ والأبشيهي ج ١ ص ٥١ .

(٦) الطبري ج ٤ ص ٤١ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣ وابن خلدون ج ٣ ص ٤١ والعيني ج ١١ ص ٣٠٠ .

(٧) ابن شاعر ج ٥ ص ٤٨ ويروي الأبشيهي ج ١ ص ٥١ أنه قال لصاحب له ألا أسبه لكم ؟ فقالوا له اكفف حق نسبح ما يقول . فأبى وقال مقالته .

(٨) ابن شاعر ج ٥ ص ٤٨ والأبشيهي ج ١ ص ٥١ .

لا يستطيع أن ينطق عيًّا ^(١) قاتله الله ما أغباه وأذمه والله لأنني لأحسب خبره كروائه ^(٢) » وأخذ حصى بيده ليحصبه بها فقال له جليسه لا تعجل حتى ننظر ما يصنع ^(٣) وقال بعض الناس أعرابي ما أبصر حجتَه ^(٤) وقال البعض الآخر « حصر الرجل فما يقدر على الكلام » ^(٥) .

وبينا هم في لفظهم وضوضائهم إذ حصر اللثام عن فيه ونهض قائماً فقال :
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني
أنظر إلى الدماء بين العمام واللحى .

هذا أوان الشد فاشتدي زيم ^(٦) قد لفها الليل بسواق حطم ^(٧)
ليس براعي إبـل ولا غم ولا بـجـزار على ظهر وضم ^(٨)
قد لفها الليل بعصلي ^(٩) أروع خراج من الـدوي ^(١٠)

مهاجر ليس بأعرابي

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٢ ص٦ .

(٢) الطبري ج٥ ص٤١ وابن الأثير ج٤ ص٣٣ وابن كثير ج٩ ص٨ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٦٧ .

(٣) ابن عبد ربه ج٢ ص٦ .

ولم يكن حصب العمال مجديدي عليهم فقد حصبوا عاملاً قبله فخرج عنهم . ابن عساكر ج٤ ص٥٢ وابن
كثير ج٩ ص٧ والذهبي ج٢ ص٤٥٣ .

ولعل العامل الذي تشير إليه هذه المصادر هو ما روي أن أهل الكوفة حصبوا عمرو بن حريث على
المنبر عقب موت يزيد بن معاوية . وكان خليفة عبيد الله بن زياد على الكوفة فلزم داره . الطبري ج٤
ص٤٠٣ .

(٤) المسعودي ج٢ ص٩٥ . (٥) المسعودي ج٢ ص٩٥ وابن شاعر ج٥ ص٤٥ .

(٦) زيم : اسم لفرس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب .



(٧) حطم : الحطم والحطمة . اسم للراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها بعضاً فلا يبقى من السير شيئاً .

(٨) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم ووقى اللحم من الأرض . (٩) العصلي الشديد القوي .

(١٠) والدوي : الفلاة المتسعة من الأرض التي تسمع لها دويًا بالليل (وإنما ذلك الدوي من أخفاف الإبل =

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجذوا
وليس القوس فيها وتر عرد^(١) مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يقع^(٢) لي بالشنان^(٣) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ،
ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر
كنانته بين يديه فعجم^(٤) عيدانها فوجدني أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي لأنكم
طالبًا أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمكم حزم السامة^(٥)
ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم كأهل قرية  كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
رَغَدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون  ^(٦) .

وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق^(٧) إلا فريت^(٨)
وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن
أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا
ضربت عنقه^(٩) .

= تنفسح أصواتها فيها (أي خراج من كل غماء شديدة .

(١) عرد : شديد .

(٢) القعقة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره .

(٣) الشنان : جمع شن - بالفتح - القرية البالية يركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفرغ فتسرع . مثل
يضرب لمن لا يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) عجم : عضها واختبرها ليعرف صلابتها من ضعفها .

(٥) السامة : شجر كثير الشوك .

(٦) سورة النحل آية : ١١٢ .

(٧) الخلق : التقدير .

(٨) فريت : قطعت .

(٩) المبرد ص ٢١٥ .

ومما فعله الحجاج من أنه دخل المسجد على الهيئة التي وصفناها وصعوده المنبر ،
يمكننا أن نقرر أن الحجاج كان موفقاً في سياسته من أول يوم دخل فيه العراق فقد
عمد إلى نوع من التأثير النفسي جذب به انتباه القوم وأرهف أسماعهم لتلك النغمة
القوية التي أعدها لهذا الموقف . بل نجح في أن أثار عند بعضهم نوعاً من الاستخفاف
والزراية ببني أمية لاختيار مثله واليًا على العراق حتى إذا بلغ الاستغراب والتهيم من
الناس مبلغه حسر اللثام عن وجهه ثم تكلم فلأ القلوب والأسماع دويًا ورنينًا .

ومن خطبته التي أوردتها المبرد وغيره من المؤرخين والأدباء يمكننا أن نلخص
ناموس الحجاج وخطته في سياسته فيما يلي .

أولاً : أبان لهم عن شخصيته القوية بعد أن أثار قدومه دهشتهم واستغرابهم ،
وأفصح لهم عن أنه لا يعوقه عن قصده شيء مهما صعب المرتقى .

ثانيًا : أنه يعرف منذ البداية أنهم مغمورون في الشر وأنهم يستحقون القتل
وبذلك يكون قد قدم العراق على علم بحال أهله .

= وهذه الخطبة قلما يخلو منها كتاب من كتب الأدب أو التاريخ فقد رواها - الجاحظ - في البيان والتبيين
ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ وابن عبد ربه ج ٣ ص ٦ ، ٧ والأصفهاني ج ١٣ ص ٣٦ والبلاذري - أنساب الأشراف
ج ١١ ص ٢٦٧ - ٢٧١ والطبري ج ٥ ص ٤١ ، ٤٢ والمسعودي ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣ ،
٣٤ والقلقشندي ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ وابن عساكر ج ٤ ص ٥٣ ، ٥٤ وابن كثير ج ٩ ص ٨ . بالفاظ تزيد
أو تنقص عن النص الذي اخترناه ، وإنما اخترنا نص المبرد لسببين .
أولهما : أن المبرد مصدر قديم وثقة في أخباره .

وثانيهما : أن نص المبرد لا يختلف كثيرًا عن النصوص التي أوردتها أدباء أو مؤرخون قدامى مثل
الجاحظ وابن عبد ربه والأصفهاني والطبري في روايته الأولى - فقد روى الخطبة بروايتين -
وأما بقية المصادر : المسعودي والبلاذري والقلقشندي وابن عساكر وابن كثير ففضلنا عن تأخر أكثرها
تزيد بعض ألفاظ مع ذكر ما أورده المبرد في ثانيا كلامها .

وينفرد ابن الأثير في أنه أدخل إحدى روايتي الطبري في الأخرى وجعلها خطبة واحدة .
وباختيارنا لنص المبرد نوافق المؤرخ الكبير ابن خلدون حيث يقول « وخير من أوردتها المبرد في كتابه
الكامل » - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٣ ص ٤١ .

ثالثًا : شرح لهم خطورة الموقف وحثهم على الجِد والاجتهاد وأعلن أنه سوف لا يسير بهم سيرًا بطيئًا لأن الضرورة الحربية تقضي بالسرعة وأنه كفيل بذلك فهو مجرب يعرف النفوس وما تنطوي عليه ، وأنه لا تنفع فيهم سياسة اللين وأن فعلهم مع المهلب وتركه في ميدان القتال معصية .

رابعًا : أنه قوي وأنه لا يخافهم وأن أمير المؤمنين ما عهد إليه بالعراق إلا بعد أن جربه فوجده صلبًا لا يلين ولا يكسر فاختره لهم لمساوئهم إذ إنهم يخبون في الفتن .

خامسًا : حرم عليهم الاجتماعات خشية أن تخل بالنظام وتكون سببًا للثورات كما يحدث في العصر الحديث وخاصة في الظروف العصيبة ، وقد سبق الحجاج في هذا نظم العصر الحديث . كما حرم عليهم التناول والإشاعات المغرضة التي من شأنها أن تخلق الفوضى وتفت في عضد المحاربين ، وبلغت العصر الحديث قضى على الطابور الخامس فيهم .

سادسًا : بين لهم الحكمة من هذه الشدة في المعاملة وهي أنه لو ترك العصاة ماجبي فيء ولا قوتل عدو ولتعطلت الثغور .

سابعًا : أعلن أنه سيعطيهم أعطياتهم ويوجههم لمحاربة العدو وأن من تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام سفك دمه ونهب ماله وهدم منزله ، وهذه العقوبة قد سبق بها الحجاج العصر الحديث حيث جعل جزاء الفار من ميدان القتال الإعدام . وقد بدت تلك الوسائل التي لجأ إليها الحجاج غريبة في نظر المسلمين في تلك العصور إذ كانت عقوبة المتخلف عن ميدان القتال في عهد عمر وعثمان وعلي خلع عمامته والتشهير به بين الناس وفي عهد مصعب بن الزبير صارت بحلق الرؤوس واللحى ثم تطورت في عهد بشر بن مروان إلى تسمير اليدين في الحائط (١) .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٤١ .

ومن الإنصاف للحجاج أن نقول إن الظرف الذي صادفه في العراق كان يستلزم المبالغة في الشدة .
وقد سار الحجاج على السياسة التي رسمها ونفذ تلك القوانين العسكرية فأحدثت أثرها المطلوب .

وبعد فراغه من خطبته التي رسم فيها سياسته قال « يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين » فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم » فلم يرد أحد السلام . فقال الحجاج « اقطع يا غلام » ثم قال مغضباً : « يا أهل العراق يا عبید العصا يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام أما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب » (١) اقرأ يا غلام فلما وصل إلى السلام لم يبق أحد بالمسجد إلا وقال وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته (٢) .

وبعد فراغه من تلاوة الكتاب قال قوموا إلى بيعتكم فقامت القبائل قبيلة قبيلة تباع وهو يستفهم عن كل قبيلة تتقدم إليه (٣) .

(١) ابن الأثير ج٤ ص٣٤ والطبري ج٥ ص٤٤ والمبرد ص٢١٦ والمسعودي ج٢ ص٩٦ وابن شاکر ج٥ ص٤٨ وابن عساکر ج٤ ص٥٤ .

وتروي أغلب المصادر المتقدمة أنه قال قبل هذه العبارة (هذا أدب ابن نهية) الطبري وابن عساکر والمبرد أو ابن فهية أو أذينة . ابن شاکر أو ابن سمية - المسعودي . ويزعم المسعودي وابن شاکر والمبرد أنه كان صاحب شرطة بالعراق قبل الحجاج .

(٢) الطبري ج٥ ص٤٤ وابن الأثير ج٤ ص٣٤ والمسعودي ج٢ ص٩٦ والمبرد ص٢١٦ .
أما بقية الكتاب فلم نهند إليها في أي مصدر من المصادر التي بأيدينا .

(٣) الذهبي - تاريخ الإسلام ج٣ ص٤٥٣ وابن عساکر ج٤ ص٥٢ ويروي الذهبي وابن عساکر ج٤ ص٥٣ قصة عن قبيلة النخع وهي أنه سأل عن كميل بن زياد فقالوا شيخ كبير فقال لا بيعة لكم عندي ولا تقربون حتى تأتوني به فأتوه به على سرير ووضعوه إلى جانب المنبر فقال الحجاج « ألا لم يبق أحد ممن دخل على عثمان يوم الدار غير هذا » ودعا بالنطع فضرب عنقه .
وفي رأينا أنها قصة موضوعة فإن كميل بن زياد أحد الخارجين مع ابن الأشعث في ثورته التي قام بها ضد الحجاج وعبد الملك ، وسيأتي ذلك إن شاء الله .

بعد ذلك أمر الحجاج بإعطاء الجند أعطيائهم ^(١) ثم دعا بالعرفاء فقال ألحقوا الناس بالمهلب وائتوني بكتبه بموافاتهم ^(٢) ولا أستبطئكم فأضرب أعناقكم ^(٣) ولا يغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهراً حتى تنقضي هذه المدة ^(٤) .

وقال ليزيد بن علاقة السكسي - صاحب شرطته - « اجعل سيفك سوطاً فن وجدته بعد ثلاثة فاقتله » ^(٥) .

وعلى أثر ذلك انصرف الحجاج من المسجد إلى قصر الإمارة فلزمه ^(٦) ، وبينما كان الحجاج ملتزماً داره كان أهل الكوفة أحد رجلين رجل يتأهب للحاق بالمهلب عملاً بأوامر الوالي الجديد ، ورجل يفكر في موقفه وآله وعصبته من هذا الطاغية الذي استهل عهده فيهم بالتهديد والوعيد ، وكان من الطبيعي أن يتبادل المتذمرون الرأي وأن يبيتوا لهم أمراً وهم المشهورون بالثورات .

ذلك أنه في اليوم الثالث اجتمعوا وكبروا تكبيراً عالياً في السوق فسمع الحجاج تكبيرهم فخرج إليهم وصعد المنبر وقال « يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساويء الأخلاق إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف ، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامي ألا يربح رجل منكم على ظلمه ويحسن حقن دمه ويعرف موضع قدمه فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدباً لما بعدها ^(٧) .

(١) المسعودي ج ٢ ص ٩٦ وابن عساكر ج ٤ ص ٥٤ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٤ والطبري ج ٥ ص ٤٢ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧١ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٤٢ والمسعودي ج ٢ ص ٩٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٤ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧١ .

(٦) ابن كثير ج ٩ ص ٩ وابن شاعر - عيون التواريخ ج ٥ ص ٥١ .

(٧) الطبري ج ٥ ص ٤٣ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ وابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣٠ وابن =

وفي تقديرنا أن الحجاج كان موفقاً في يومه هذا فلو أنه لم يجابه مقدمات الثورة بهذه الشجاعة وهذا الخزم لصغر شأنه في أعين أهل الكوفة ولاستحال عليه أن يلزمهم الطاعة وهم الذين سبق لهم أن حصبوا عمر بن حريث فلزم داره (١) .

أما الحجاج فقد أبدى من الشجاعة والقوة ما أخذ الثورة في مهدها ، وبينما كان الحجاج في المسجد جالساً يستعرض الناس بنفسه قام إليه عمير بن ضابئ الحنظلي التميمي من أشرف الكوفة ، وقال : أصلح الله الأمير أنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل وابني هذا أشد مني ، فقال الحجاج هذا خير لنا من أبيه ثم قال ومن أنت قال : أنا عمير بن ضابئ قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟؟ قال : نعم . قال : ألسـت الذي غزا عثمان بن عفان ؟؟ قال بلى قال : ياعدوا الله ، أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً ؟ فما حملك على هذا ؟ قال : إنه حبس أبي - وكان شيخاً كبيراً . قال : أوليس أبوك الذي يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصريين (٢) وإنه لقبيح بمثلي أن يكون كذاباً (٣) يا حرس اضرب عنقه . فضرب عنقه ونهب ماله (٤) .

= عساكر ج٤ ص٥٩ ، ٦٠ وابن كثير ج٩ ص٩٠ وابن شاعر ج٥ ص٥١ ، ٥٢ والجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص٣٠١ والمبرد ص٢١٦ .

(١) الطبري ج٤ ص٤٠٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص٤٤ وابن الأثير ج٤ ص٣٥ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٥ وابن خلدون ج٣ ص٤١ وابن كثير ج٩ ص٩٠ .

(٣) المسعودي ج٢ ص٩٦ .

(٤) الطبري ج٥ ص٤٤ وابن الأثير ج٤ ص٣٥ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٥ وابن خلدون ج٣ ص٤١ وابن كثير ج٩ ص٩٠ والمسعودي ج٢ ص٩٦ .

وتروى المصادر السابقة والذهبي ج٣ ص٤٥٧ أن عنبسة بن سعيد بن العاص هو الذي عرف به الحجاج بأن قال له أتعرف هذا ؟؟ قال لا . قال : هذا أحد قتلة عثمان فقال الحجاج أي عدو الله أفلا إلى أمير المؤمنين عثمان بعثت بدلاً ؟؟ ثم أمر به فضربت عنقه .

ويبدو للبعض أن يرمي الحجاج بالقسوة المتناهية في معاملة هذا الشيخ المسن وربما اتهمه آخرون بأنه كان ينتقم منه لموقفه من مقتل عثمان .

على أن الواضح أن الحجاج وإن يكن قد تأثر إلى حد ما بموقفه من عثمان فإنه أراد أن يجعل منه أمثلة وعبرة لغيره وأن يلزم أهل الكوفة الطاعة .

هذا فضلاً عن أن لتصرف الحجاج هذا سبباً آخر هو أن ابن ضابئ تعدى بالضرب على أحد العرفاء حتى أدماه حينما أمره هذا العريف بالالحاق بمعسكره فشكاه العريف للحجاج (١) فكان الأمر بينهما على ما ذكرنا .

بعد ذلك أمر الحجاج منادياً فنادى (ألا إن عمير بن ضابئ أتى بعد الثالثة وكان قد سمع النداء فأمرنا بقتله (٢) ألا فإن ذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب) (٣) .

فلما فعل ذلك خرج الناس بكثرة حتى أنهم ازدحموا على القنطرة الموصلة بين الكوفة ورامهرمز فسقط بعضهم في النهر فأمر الحجاج بإنشاء قنطرتين أخريين (٤) فكان الناس يخرجون ويرسلون إلى ذويهم أن زودونا ونحن بمكاننا (٥) .

ويمثل لنا الرهبة التي حدثت في نفوس الناس وخروجهم إلى الأزقة أصدق تمثيل قول عبد الله بن الزبير الأسدي حينما لقي صديقه إبراهيم بن عامر فسأله عن الخبر :

تجهز وأسرع والحق الجيش لا أرى سوى الجيش إلا في المهالك مذهبا
تخير فيما أن تزور ابن ضابئ عميراً وإما أن تزور المهلبا (٦)

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٤ .

(٢) ابن كثير ج ٩ ص ٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٥ وابن شاعر ج ٥ ص ٥٣ واليعني ج ١١ ص ٣٠٠ وابن خلدون ج ٣ ص ٤١ .

(٤) المسعودي ج ٢ ص ٩٦ .

(٥) المسعودي ج ٢ ص ٩٦ والمبرد ص ٢١٧ .

(٦) المبرد ص ٢١٧ والطبري ج ٥ ص ٤٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٥ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧٥ والأغاني -

وبذلك تطايرت العصاة إلى أمكنتهم التي رفضوها ولم يبق من أصحاب المهلب أحد إلا لحق به ^(١) حتى إنه لتروي بعض المصادر ^(٢) أنه خرج في تلك الليلة أربعة آلاف من مذحج فقط . فكان في قتل عمير صلاح المصريين .
 وخرج العرفاء إلى المهلب وهو برامهرمز فأخذوا كتبه بالموافاة فقال المهلب حينما رأى ذلك « قدم العراق اليوم رجل ذكر اليوم قوتل العدو » ^(٣) .

أرسل الحجاج الحكم بن أيوب الثقفي إلى البصرة عاملاً عليها من قبله وأمره أن يشتد على خالد بن عبد الله فلما بلغ خالد الخبر خرج منها قبل أن يدخلها الحكم فشيعة أهل البصرة فقسم فيهم مليوناً ^(٤) .

ولاية عبد الرحمن التميمي لشرطة الحجاج :

ولقد كانت مجافاة الحجاج لأهل الكوفة قاصرة على استنهاضهم للحاق بالمهلب . أما في شؤون الدولة الأخرى فقد جرى على استشارتهم إذ نراه يوماً يقول لأهل الكوفة « دلوني على رجل أوليه الشرطة » ف قيل له « أي الرجال تريد » ؟ قال : « أريد رجلاً دائماً العبوس طويل الجلوس . سمين الأمانة . أعجف الخيانة . لا يحنق في الحق على حرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة » فقالوا له « عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ؛ فأرسل إليه ليستعمله ، فقال « لست أقبلها إلا أن

ج ١٣ ص ٤٠ وابن شاعر ج ٥ ص ٥٤ .

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٤٤ وابن كثير ج ٩ ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٥ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٤٤ وابن شاعر ج ٥ ص ٥٥ وابن كثير ج ٩ ص ٩٠ .

ويروي المسعودي ج ٢ ص ٩٧ أنه قال من هذا الذي استعمل على العراق ؟ من هذا الذي ذكر الرجال ؟ فويل والله للعدو إن شاء الله .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٤٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن كثير ج ٩ ص ٩٠ وابن خلدون ج ٢ ص ٣ والعيني ج ١١ ص ٣٠٠ .

تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك » فقال الحجاج « يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه »^(١).

وتبدو حكمة الحجاج في الصفات التي اشترط توافرها في صاحب شرطته . إذ نراه يريد رجلاً دائماً العبوس حتى لا يطمع فيه أحد ، وطويل الجلوس حتى يمكنه أن يتفرغ لفهم القضايا فتصدر أحكامه عن روية واتزان ، وسمين الأمانة أعجف الخيانة حتى يؤتمن على الأرواح والأموال ، لا يحنق في الحق ولا يتأثر بوساطة الأشراف لديه فلا يطمع فيه أحد ؛ وبذلك تنقطع المحسوبية ويتساوى الجميع أمام القانون فتتحقق العدالة .

ويبدو بعد نظره في مسلكه إزاء عبد الرحمن . إذ إن عبد الرحمن اشترط ألا يتدخل أحد في عمله من عماله وولده وحاشيته حتى يتمكن من أداء مهمته فكان الحجاج عندما أراد فقد نادى مناديه أن الذمة بريئة من هؤلاء إذا تدخلوا في شؤونه .

ولما كان الحجاج قد كفل لصاحب شرطته كل ما أراد من ضمانات فقد استطاع صاحب الشرطة أن يكون مثلاً أعلى في إدارته فكان لا يحبس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وإذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بجديدة أو أظهر سلاحاً قطع يده ، فرمى أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد^(٢) .

وبمثل ما كان الحجاج يحسن معاقبة المسيء كان يحسن مكافأة المحسن ؛ فسرعان ما تبين له توفيق عبد الرحمن في شرطة الكوفة فضم إليه شرطة البصرة فاستتب الأمن وساد النظام .

وبعد أن وضع الحجاج الأمور في نصابها في الكوفة وأخرج أهلها للقتال خرج

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٧ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ١ ص ١٦ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٧ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ١ ص ١٦ .

إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة وكان أهلها قد علموا بما فعله بأهل الكوفة ، فخطبهم خطبة شديدة اللهجة فقال :

« أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه .

إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدفه بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو وإنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لبيه ساء أدبه . إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه ^(١) ومن كان بالبصرة من جيش المهلب فليلق به فمن وجدته بعد ثلاثة ضربت عنقه ^(٢) .

وجلس لإعطاء الناس أعطيائهم فأقى بشريك بن عمرو الإشكري وكان عريفاً ^(٣) وقيل هذا عاص فقال « أصلح الله الأمير إن بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائي قد جئت بك به لترده إلى بيت المال » فأمر به فضربت عنقه ^(٤) لاستغفائه فلم يبق بالبصرة أحد من عسكر المهلب إلا لحق به فقال كعب .

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربة تفرق منها — بطن كل عريف ^(٥)

(١) نهاية الأرب ج٧ ص ١٤٤ والقلقشندي ج١ ص ٢٢٠ وشرح العيون ص ١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٧٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٧٦ والمبرد ص ٦٦٦ .

(٤) ابن الأثير ج٤ ص ٣٦ وابن كثير ج٩ ص ١٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٢ والعيني ج١١ ص ٣٠٠ وأنساب

الأشراف ج١١ ص ٢٧٦ والطبري ج٥ ص ٤٦ .

(٥) المبرد ص ٦٦٦ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٢٧٦ .

وبذلك تسابق الناس للخروج إلى القتال فكان الرجل منهم يسارع بالخروج ثم يطلب إلى أهل بيته إسعافه واللاحاق به شأنهم في ذلك شأن أهل الكوفة .

رأى الحجاج أن يتابع سياسته في شد أزر المهلب بأن يخرج إلى مكان قريب من ميدان القتال فخرج إلى رُستقباد^(١) ومعه وجوه أهل البصرة وعندما نزلها قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « يا أهل البصرة هذا والله مكانكم جمعة بعد جمعة وشهراً بعد شهر حتى يهلك الله عز وجل هؤلاء الخوارج المظلمين عليكم^(٢) » ، وبعث بالقرار إلى المهلب بن أبي صفرة وهو برامهرمز^(٣) .

والمستعرض لسلوك الحجاج إزاء المهلب لا يسعه إلا أن يكبر في الحجاج صفات جمّة . فهو رجل قد ملكت عليه العاطفة الدينية كل حواسه ، إذ نراه يعمل بكل ما في وسعه لتأييد حملة المهلب على الخوارج وهي حملة دينية إلى جانب كونها حملة سياسية .

وهو كذلك رجل يتفانى في الإخلاص للدولة الأموية إذ ركز كل جهوده في تأييد المهلب في حربه ضد الخارجين على الدولة الأموية حتى تلتئم الوحدة السياسية للدولة ، وهو رجل يعرف أقدار الرجال إذ نراه يؤيد المهلب دون أن تحدثه نفسه بأن يعمل على عزله ليتولى هو أو أحد أقاربه قيادة هذه الحملة كما فعل خالد بن عبد الله في عزله للمهلب وتوليته لأخيه عبد العزيز قيادة الحملة^(٤) أو كما هم بشر بن مروان بعزله لولا إكراه عبد الملك له على غير ما يريد^(٥) .

(١) أنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٧ وابن خلدون ج٣ ص٤٢ وابن الأثير ج٤ ص٣٦ والطبري ج٥ ص٤٦ . ورُستقباد مكان بينه وبين الأهواز ثمانية فراسخ وبينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً - أنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٧ وياقوت ج٤ ص٣٠١ .

(٢) أنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٧ وابن خلدون ج٣ ص٤٢ وابن الأثير ج٤ ص٣٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٨ .

(٤) الطبري ج٥ ص١٦ وابن الأثير ج٤ ص١٩ .

(٥) الطبري ج٥ ص٣٦ وابن خلدون ج٣ ص٤٢ وابن الأثير ج٤ ص٣٢ .

وكانت الفرصة مواتية للحجاج ليفعل في هذا السبيل ما يريد فلو أرادها لنفسه لما مانع أمير المؤمنين في ذلك لمعرفته بكفاية الحجاج ، وخاصة بعد أن تهيأت لها أسباب النجاح بالتعبئة العامة التي أجراها الحجاج ، وما منعه عن ذلك إلا حسن تقديره للمهلب .

الفصل الثالث إصلاحات الحجاج

عنايته بالقرآن . ضربه للعملة العربية . تحويله للديوان من الفارسية إلى العربية . إصلاحاته الزراعية في عهده - بناؤه للمدن . عنايته بالأسطول .

لم يقتصر نشاط الحجاج على الميدان السياسي ؛ ولم تقف همته عند القضاء على الثورات وتسيير الجيوش للفتوحات . بل تعدى كل ذلك إلى ميدان الإصلاحات الدينية والاجتماعية ..

عنايته بالقرآن :

أما في ميدان الدين فقد أجمعوا على أن الحجاج كان في مقدمة المسلمين الذين عملوا جاهدين على المحافظة على كتاب الله وكان يقرأ القرآن في كل ليلة ^(١) كما في بعض الروايات أو يقرأ ربه كل ليلة كما في البعض الآخر ^(٢) ويروي ابن الجوزي ^(٣) أن الحجاج كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة في جوف الكعبة ؛ وفي شهر رمضان كان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء .

وبلغ من حرصه على أن يظل الكتاب الكريم بمنجاة عن أن يتطرق إلى رسمه تحريف أو أن يلبس تلاوته لحن أن أمر بمراجعة القرآن ونقط كلماته وشكله وتجزئته ثم كتابة عدة مصاحف منه وبعثها إلى الأمصار حتى لا يختلف الناس ؛ وكان سبب ذلك أن المصحف الذي كتبه الخليفة عثمان في سنة ثلاثين من الهجرة كان غير مشكول ولا منقوط .

فلما دخل في الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم وظهر اللحن على الألسنة خيف على القرآن أن يلحن في قراءته فطلب زياد بن أبيه إلى أبي الأسود الدؤلي أن

(١) السجستاني - المصاحف ج١ ص ١٢٠ والعيني ج١١ ص ٤٠٠ .

(٢) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٥٦ .

(٣) ابن الجوزي مختصر صفوة الصفوة ص ١٥١ .

يضع للناس علامات تضبط قراءتهم فَشكّل أواخر الكلمات وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته والضمّة نقطة إلى جانبه وجعل علامة الحرف المنون نقطتين ؛ ومع هذا لم تحفظ الألسنة من اللحن ، وكثر التصحيف والتحريف في القراءة .

وانتشر في زمن الحجاج بن يوسف ^(١) فهاله ذلك الأمر وصمم على وضع حد نهائي لهذه الاختلافات فطلب من كتابه أن يضعوا علامات للحروف المشتبهة فكان نقط الحروف وشكل أولها وأوسطها وآخرها ^(٢) .

بدأ نصر بن عاصم الليثي فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها حتى لا تشبه واستمر الناس زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ؛ ولكن هذا العمل لم يكن كفيلاً بعدم وقوع التصحيف ^(٣) فعهد الحجاج إلى لجنة مكونة من الحسن البصري ويحيى بن يعمر بإحداث الشكل ^(٤) .

وقد جمع الحجاج القراء والحفاظ والكتاب وطلب منهم أن يحسبوا عدد حروفه وأن يحددوا نصفه وثلثه وربعه وسبعه فقاموا بهذا العمل في أربعة شهور ^(٥) وأما الأعشار فيروى أنها من عمله وقيل إنها من عمل المأمون ^(٦) .

وبمثل ما استهدف الحجاج للنقد في سياسته وإدارته وافترت عليه في ذلك شتى المفتريات ، استهدف كذلك لشيء من الافتراء في هذه الناحية . فقد روى السجستاني بسنده أنه غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ^(٧) ولأنها تهمة

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ والتعريف بالقرآن. الشريف ص ٩٠ ، ٩٢ ونولدكه - تاريخ القرآن ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ ، والتعريف بالقرآن الشريف ص ٩٢ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٥ ونولدكه - تاريخ القرآن ج ٣ ص ١٠٣ ص ٢٦٢ .

(٤) القرطبي ج ١ ص ٥٤ .

(٥) راجع السجستاني ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ والقرطبي ج ١ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٦) القرطبي ج ١ ص ٥٤ .

(٧) راجع المصاحف للسجستاني ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ١١٧ .

خطرة لو صحت لأوجبت إخراج الحجاج من عداد المسلمين ، ولشككت في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - رأينا أن نعالج هذه الرواية الفجة لنثبت أنها محض افتراء .

فبالرجوع إلى رجال الرواية نجد أن عبد الله بن أبي داود السجستاني صاحب كتاب المصاحف - مجروح كذبه أبوه ^(١) كما وجدنا أن عباد بن صهيب وهو أحد الرواة متروك الحديث ^(٢) .

من كل هذا نستنتج أن الإسناد غير صحيح وبالتالي فحديث السجستاني غير صحيح - هذا من الناحية العلمية البحتة .

أما من حيث الوقائع فنستطيع أن نقطع بأن الحجاج لم يفعل ما أسنده إليه السجستاني ، فلو أنه تناول المصحف بالتغيير لشاع ذلك في حياته ولا تستهدف الحجاج لمحات لا قبل له بها من الصحابة والتابعين ولكانت تحت أيديهم وثيقة دامغة بكفر الحجاج ؛ ولا يمكن لنا أن نتصور أنهم خافوا بطش الحجاج فسكتوا فهذه مسألة من أهم أصول الدين لا يسكت عنها مسلم ولو كان السيف مسلطاً على رقبتة .

وإذا فرضنا جدلاً أن الصحابة والتابعين من سكان العراق خافوا بطش الحجاج فكيف يسكت غيرهم من سكان الشام وأهل الحجاز ؟ وإذا كان هؤلاء جميعاً قد جنبوا عن أن يجابهوا الحجاج في هذا الأمر الجلل فهل يعقل أن يكونوا قد سكتوا على هذا التحريف بعد وفاته ؟ وإذا كان الصحابة والتابعين وكبار علماء الدين قد سكتوا عن ذلك لأي سبب من الأسباب فما الذي أسكت الخليفة على فعلة واليه ، تلك الفعلة التي تمس الدين في الصميم ؟؟!

وإذا فرضنا أن الخليفة - لسبب لا ندريه - قد سكت على هذه المحنة الكبرى والجريمة العظمى

(١) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٤٣ .

(٢) ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ١٠ .

أفلم توهب الدولة الأموية بعد وفاة الحجاج خليفة يعرف ربه فيعود بكتابه إلى ما أنزل عليه ؟؟

وإذا كان الحجاج قد غير أحد عشر حرفًا في مصحف عثمان فهل ظل هذا المصحف مصحف عثمان أم أصبح مصحف الحجاج ؟ ولم لم يدلنا السجستاني صاحب الرواية على العهد الذي أيّدت فيه مصاحف الحجاج وأعيدت مصاحف عثمان المقروءة إلى يومنا هذا ؟؟

أما من الناحية التاريخية فنستطيع أن نقطع كذلك بأن الحجاج لم تمتد يده إلى مصحف عثمان بتغيير أو إبدال ، وإلا لجعله المؤرخون هدفًا لحملة شعواء تركز على أساس سليم . فها نحن أولاء قد رأيناهم يصبون عليه جام غضبهم لأمر قد يختلف عليها الرأي و يقيمون عليه الدنيا لأسباب لا تعدو أن تكون تافهة فكيف يعقل - والحالة هذه - أن يسكتوا عن هذا الحادث الجلل وتحت أيديهم الدليل على ما به يتهمون ؟! .

على أن قصة تحريف القرآن التي أوردها السجستاني قد آمن بها ورددها من المستشرقين نولدكه^(١) فنسب إلى الحجاج أنه قام بأعمال في توحيد القرآن الكريم مثل الأعمال التي قام بها عثمان بن عفان وأنه حاول أن يضغط على مصحف ابن مسعود الذي كان له من يقرؤه بالكوفة وقتئذ .

وفي تقديرنا أن الموقف لا يعدو أن يكون الحجاج - وهو أحد المؤمنين بصحة مصحف عثمان - قد هاله أن يرى شيعة لابن مسعود يقرؤون مصحفه على ما فيه من اختلاف عن مصحف عثمان الذي أقره جمهرة الصحابة كما أنه رأى نسخًا فجة من القرآن يقرؤها غيرهم . لذلك أمر بالعود إلى مصحف عثمان ونهى عن تلاوة أي مصحف سواه . فإذا قال أشياح ابن مسعود إنه حرف في القرآن فإنه صحيح في

(١) تاريخ القرآن ج ١ ص ١٠٣ .

نظرم لأنه حرف في مصحفهم ، وهو باطل في نظر عامة المسلمين لأنه لم يحرف في مصحف عثمان .

أما المستشرق برييه ^(١) فيقرر أن يعقوب الكندي المسيحي قد شهد أن الأمويين وجدوا في القرآن إشارات جارحة لأسرتهم وخاصة بأبي سفيان جدهم ولهذا أصدر الحجاج أمراً باسم الخليفة عبد الملك بإتلاف النسخ القديمة وكتابتها من جديد بعد حذف بعض الفقرات وزيادة فقرات أخرى تريدها الأسرة الحاكمة ؛ واستبعد برييه أن تكون التهمة التي رمي بها الحجاج على غير أساس .

وفي تقديرنا أن مستشرقاً كبيره - وضع كتاباً عن الحجاج كما تراه المصادر العربية - كان يجدر به أن يعتمد على مصدر واحد إسلامي بدل أن ينقل لنا عبارة يعقوب الكندي المسيحي !!

ولعله أدرك ضعف مركزه في هذا النقل فاستبعد أن تكون التهمة التي رمي بها الحجاج من الكندي على غير أساس .

والواقع أنها تهمة على غير أساس . وذلك أن القرآن الكريم جمع في أيام أبي بكر الصديق - الخليفة الأول - ووضعت نسخة منه عند حفصة بنت عمر كانت هي فيما بعد مصحف عثمان .

وهذا المصحف بكل ما جاء فيه هو المصحف المعروف اليوم . فلو أنه جاء بهذا المصحف إشارات جارحة وماسة بالأسرة الأموية - كما يقول الكندي - لبقيت هذه العبارات حتى اليوم والمصحف اليوم لا يحتوي على عبارة واحدة مما يشير إلى هذا الأمر .

وقد قررنا في صدر هذا البحث استحالة أن تكون يد الحجاج قد امتدت إلى

(١) الحجاج كما تراه المصادر العربية ص ٢٥٦ .

مصحف عثمان . من ذلك يُستنتج أن تهمة الكندي لا تقوم على أساس كما أن مجارة برييه له لا تقوم كذلك على أساس .
سك الحجاج للعملة :

كانت العملة الفارسية واليونانية متداولة في بلاد العرب في الجاهلية ؛ ولما ظهر الإسلام ظل العرب يتعاملون بها حتى كانت السنة الثامنة عشرة من الهجرة وقد كثرت الفتوحات في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فحاول ضرب النقود ف ضرب دراهم على نفس الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها (الحمد لله) وفي بعضها الآخر (محمد رسول الله) وفي بعض ثالث (لا إله إلا الله وحده) .

ثم جاء من بعده عثمان بن عفان ف ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » ولما استقر الأمر لمعاوية ضرب دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً ، وكذلك ضرب عبد الله ابن الزبير دراهم مستديرة بمكة ونقش على أحد وجهيها « محمد رسول الله » وعلى الآخر « أمر الله بالوفاء » ^(١) ونقش بدورها « عبد الله » وضرب مصعب بن الزبير بالعراق دراهم ^(٢) .

ولكن المعاملات في الدولة الإسلامية إلى ذلك الوقت لم تقتصر على هذه العملة بل ما زالت العملة البيزنطية والعملة الساسانية تتمتع بمكانة ممتازة في العالم العربي ولم يكسبها الصبغة الرسمية إلا عبد الملك بن مروان .

وقد أورد المؤرخون أسباباً لعمل عبد الملك هذا : فذكر فريق أن عبد الملك كتب إلى الإمبراطور جستنيان الثاني خطاباً ذكر فيه النبي ﷺ في التاريخ الهجري وبدأه بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . فاستاء الإمبراطور من هذا الخطاب وأجاب بأنه إذا تكررت هذه الإشارة فسينقش على العملة الذهبية للإمبراطورية عبارات جارحة وماسة بالإسلام .

(١) المقرئزي - النقود الإسلامية ص ٤ ، ٥ .

(٢) المقرئزي - النقود الإسلامية ص ٥ والبلاذري فتوح البلدان ص ٤٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٤ وابن

خلدون - المقدمة ص ١٨٢ .

فكبر ذلك على الخليفة عبد الملك بن مروان فأشار عليه خالد بن يزيد^(١) بتحريم دنانيرهم وضرب عملة للناس يتعاملون بها .

وذكر فريق آخر أن سبب ذلك أن عبد الملك حينما غير الطراز من الرومية إلى العربية لما ترجمت له العبارة المكتوبة عليه ، (باسم الأب والابن وروح القدس) وكتب عليه (لا إله إلا الله) استاء من ذلك ملك الروم وهدد عبد الملك بسبب النبي على النقود إلخ مما يتفق مع الرواية السابقة^(٢) .

وروى فريق ثالث أن خالد بن يزيد قال لعبد الملك « ياأمير المؤمنين إن أهل الكتب الأول يذكرون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في دراهمه » فعزم عبد الملك على ذلك ووضع السكة الإسلامية^(٣) .

وفي رأينا أن الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى ذلك هي الرغبة في التنظيم المالي وإيجاد شخصية للدولة الإسلامية ؛ وقد شجعه على ذلك استمرار نار العداء بينه وبين قسطنطين الرابع وجستنيان الثاني^(٤) .

ولعل مسألة الخطاب أو تغيير الطراز كان سبباً مباشراً للقيام بهذا العمل .

وأما ما رواه المقرئ في رأينا من الأساطير التي تعود المؤرخون أن يحيطوا بها الحوادث .

وجدَّ عبد الملك في ترويح عملة عربية خالية من كل نقش أجنبي ففرض على الناس التعامل بها وهدد من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وأوقف العمل بالنقود القديمة وسحبها وردها إلى دار الضرب لصوغها صياغة جديدة^(٥) .

(١) المقرئ - النقود الإسلامية ص ٦ والبلاذري فتوح البلدان ص ٢٤٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ .

ويروي الدميري - حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٧٨ أن الذي أشار عليه بذلك محمد بن علي بن الحسين .

(٢) الدميري - حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٧٧ .

(٣) المقرئ - النقود الإسلامية ص ٦ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم . النظم الإسلامية ص ٢٢٠ . (٥) الدميري - حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٧٨ .

وضرب عبد الملك بن مروان الدنانير عام الجماعة في دمشق من سنة أربع وسبعين من الهجرة وكتب إلى الحجاج أن اضربها قبلك ف ضرب دراهم من الفضة سنة خمس وسبعين ^(١) ؛ ولكن الضرب لم يتخذ أهمية حقيقية ويعمم في جميع النواحي إلا في سنة ست وسبعين ^(٢) .

وقد وكل الحجاج أمر ضرب عملته الفضية ليهودي يدعى سميرًا ولهذا سميت عملته بالسميرية وقد كتب عليها الحجاج « بسم الله » « الحجاج » ثم بعد سنة نقش عليها ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٣) .

وقد استهدفت نقود الحجاج السميرية لحملة الفقهاء وذلك أنهم كانوا يستنكرون أن يكتب عليها « بسم الله » في وقت هي عرضة لأن يأخذها الجنب والحائض ^(٤) . وفي رأينا أن الفقهاء الذين استنكروا العملة السميرية أفرطوا في تعصبهم ضدها . بدليل أن المعتدلين لم يكرهوها فقد دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبها بقايا الصحابة فلم ينكروا منها سوى نقشها لأن به صورة .

وكان سعيد بن المسيب يبيع ويشترى بها ولا ينكر من أمرها شيئاً ، وسئل الإمام مالك عن الدراهم والدنانير التي فيها ذكر الله عز وجل فأفتى بأن التعامل بها لا شيء فيه محتجاً بأن أهل المدينة لم ينكروا التعامل بها حين قدومها وأن ابن سيرين كان يبيع ويشترى بها . يضاف إلى ذلك أن عمر بن عبد العزيز امتنع من نحو ما عليها من الكتابة حينما أشير عليه بذلك ^(٥) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٧٣ وابن خلدون - المقدمة ص ١٨٣ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٧٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ والطبري ج ٥ ص ٨٣ والمعارف ص ١٧٦ والماوردي ص ١٤٨ وابن خلدون المقدمة ص ١٨٣ والماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٣٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ والبلاذري ص ٤٧٣ والمقرئ ص ٨ و الماوردي ص ١٣٩ ويروي أن عبد الملك هو الذي كتب عليها ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ المقرئ ص ٧ .

(٤) البلاذري ص ٤٧٣ المقرئ ص ٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ .

(٥) المقرئ - النقود الإسلامية ص ٦ .

وقد حدث في العصر العباسي - في خلافة المنصور - أن سميت نقود الحجاج بالمكروهة ورتب العلماء على هذا الأساس خلافاً لا محل له .

فقد ذكر^(١) أن المنصور لم يكن يقبل من نقود بني أمية في الخراج غير الهبيرية والخالدية واليوسفية ؛ فسميت الدراهم الأولى (التي ضربها الحجاج) المكروهة .

ثم أورد البلاذري العلة في ذلك فأشار إلى العناية التي بذلت في ضرب النقود المذكورة حتى قال : فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية..

ومن ذلك يستنتج أن تصرف المنصور ضد نقود الحجاج كان لعله مدنية بحتة هي الجودة في الصناعة ولم يكن لعله دينية . فلم يكن من العدل أن تكون أساساً لخلاف يرتبه العلماء .

وأنشأ الحجاج في الكوفة ثم في واسط داراً للضرب أوجد بها السباكين فكان يضرب المال للسلطان بما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوة والبهرجة .

ولكي يتلافى محاولات الغش والسرقة لم يكتف بمراقبة عمال الضرب مراقبة صارمة بل وسهم بعلامة في أيديهم^(٢) .

ولم يكن مع ذلك أشد المراقبين قسوة ففي عهد يزيد الثاني اشتد عمر بن هبيرة في تخليص الفضة . ثم ولي خالد القسري لهشام بن عبد الملك فاشتد أكثر من شدة ابن هبيرة حتى أحكم أمر النقود أبلغ من إحكامه ثم ولي يوسف بن عمر الثقفي من بعده فأفرط في الشدة على الطباعين وأصحاب الغيار فقطع الأيدي وضرب الأبخار^(٣) .

(١) البلاذري ص ٤٧٤ وابن الأثير جزء ٤ ص ٥٤ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٧٤ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٧٤ وابن الأثير جزء ٤ ص ٥٤ .

وهكذا كان للحجاج فضل سبق في سك العملة العربية في الدولة الإسلامية وإنشاء دار للضرب ووضع القواعد والأصول التي تسير عليها ؛ فهو رجل الدولة بإصلاحاته ولم يكن مصلحًا فحسب بل كان مصلحًا ومجددًا .

تعريب الدواوين :

كان الحجاج أول من عمل على ترجمة دواوين السواد وسائر بلاد العراق .

وذلك أنه كان بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان قد وضعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب والآخر لوجوه الأموال وكان بالفارسية واستمر ذلك إلى عصر عبد الملك بن مروان ^(١) .

وكان الحجاج لما ولي العراق استكتب زادان فروخ بن يبري ويعاونه صالح بن عبد الرحمن - مولى بني تميم - فوصل زادان صالحًا بالحجاج فأحبه الحجاج وقربه إليه .

ولما شعر بذلك صالح من الحجاج قال لزادان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولا آمن أن يقدمني عليك وأنت رئيسي والسبب في وصولي إليه فتضيع مكاتتك .

فأجابه زادان بقوله : لا تظن ذلك هو أحوج إلي منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري .

فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . فقال زادان فحول منه شطرًا حتى أرى . ففعل صالح ذلك . ^(٢) فطلب منه زادان أن يتارض . ولعله أراد بذلك أن يعرف مكانته عند الحجاج فأرسل الحجاج إليه طبيبيه الخاص فلم ير به علة وبلغ زادان ذلك فأمره أن يظهر حتى لا يكشف الأمر وقد عرف قربه من الحجاج .

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٣ .

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٣ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٣٠٨ والماوردي ص ١٩٢ .

وقتل زاذان في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من منزل إلى منزله (١) فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه فأخبره بما كان بينه وبين زاذان في نقل الديوان فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وعهد بهذا العمل إلى صالح فلما نجح صالح فيما أسند إليه قال له مردانشاه بن زاذان « قطع الله أصلك كما قطعت أصل الفارسية » .
وقد آلم ذلك الأمر الفرس وحز في نفوسهم فبذلوا لصالح مائة ألف درهم ليظهر عجزه عن نقل الديوان فأبى ونقله (٢) .

وقد تخرج على يديه كثير من الكتاب فكان عبد الحميد الكاتب يقول « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » (٣) .

وقد كان لنقل الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية فإنه عندما أصبحت العربية لغة الدواوين ساعد ذلك على تقلص نفوذ أهل الذمة وغير العرب من المسلمين بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب كما ساعد على ظهور طبقة من الكتاب العرب وتقل كثير من الاصطلاحات الفارسية (٤) .

وكان ذلك من أهم الأسس التي أقيم عليها بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها (٥) .

الزراعة :

ولي الحجاج شؤون العراق بعد فتنة ابن الزبير التي كادت تأكل الأخضر واليابس

(١) البلاذري - أنساب الأشراف جـ ١١ ص ٣٥٢ والماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٠٨ والماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٩٣ ويروي الجهشيارى ص ٢٣ أن ذلك كان في سنة ثمان وسبعين .

(٣) ابن خلدون - المقدمة ص ١٧١ - والبلاذري - فتوح البلدان ص ٣٠٩ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم - النظم الإسلامية ص ٢٢٠ .

(٥) كرد على - الحضارة العربية جـ ٢ ص ١٦٨ .

وتدك صرح الخلافة الإسلامية . ولي شؤونه والعراق يشق عصا الطاعة على الخلافة ويأبى أن يساهم مع المهلب بن أبي صفرة في حرب الخارجين على الخلافة . ولي شؤونه والخوارج في كثير من النواحي يتربصون بالخلافة الدوائر . ولي شؤونه والأقطار المتاخمة للدولة الإسلامية تنتظر الفتح .

إزاء هذه المشاكل العديدة - من داخلية وخارجية - لم يكن الحجاج يستهدف لأي لوم لو أنه أهمل شؤون العراق العمرانية ليعنى بهذه الشؤون الحيوية للدولة . إلا أن هذا البطل المنقطع النظر كان واسع الأفق عالي المهمة لا يقاس به أترابه في هذا الشأن : فلقد اتسعت همته فوسعت تجهيز الجيوش وإدارة الحروب من ناحية والقيام بشق الإصلاحات العمرانية من الناحية الأخرى .

ومما لا شك فيه أن الحجاج قد سبق عصره في طريقة تفكيره وحسن تدبيره فإذا قسناه بمن سبقه من الولاة أو الفاتحين كان مجتهدًا ، وإذا قسناه بمن أتى بعده كان مبتكرًا .

عرف الحجاج - الذي لم يألف حياة السواد من قبل - أن الدولة لا تقوم لها قائمة إلا إذا ساد الرخاء أرجاءها فاستطاع الزارع أن يدفع ما عليه للدولة من الخراج . فإذا ضنت عليه الأرض بما يريد من ثمرات ضمن هو على الدولة - مضطرًا - بما تريده من خراج . لذلك عني الحجاج بإحياء موات الأرض بأن شق القنوات وحفر الأنهار وأصلح الأرض البور وجفف المستنقعات وأكثر من الثروة الحيوانية وبذل في كل ذلك جهد الجبابة^(١) .

وكان الحجاج في إصلاحاته لا يعرف كلمة (مستحيل) . سأل دهاقين العراق سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهراً فكتب ابن أبي وقاص إلى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم فجمع الرجال لذلك فحفروا فيه حتى انتهوا إلى جبل لم يتمكن الفعلة من شقه فتوقف العمل فيه . واستمر الأمر كذلك حتى ولي الحجاج العراق

(١) راجع ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٦٠ .

فجمع الفعلة من كل ناحية وقال للقائمين بالأمر « انظروا إلى قيمة ما يأكل كل رجل من الحفارين فإن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تمتنعوا من الحفر » فأنفقوا عليه حتى استتموه فنسب الجبل إلى الحجاج والنهر إلى سعد بن حرام ^(١) .

ورأى الحجاج بأرض العراق الكثير من المستنقعات جفف القليل منها من سبقه من الولاة وقد بقي الأكثر على حاله فأمر الحجاج حسان النبطي مولى بني ضبة بتجفيف المستنقعات المحدودة المساحة فقام حسان بذلك واستخرج للحجاج أراضي صالحة للزراعة ^(٢) .

أما المستنقعات الواسعة فكان يستشير في أمر الإنفاق عليها أمير المؤمنين فقد انفجرت بثوق غمرت جزءاً كبيراً من الأرض فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه بها ويخبره أنه قدر لردمها ثلاثة ملايين من الدراهم فاستكثرها الوليد فقال له أخوه مسلمة أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ما قدر لها وأن يتولى إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج بن يوسف . فأجابه الوليد إلى ما أراد وقام بالعمل تحت إشراف الحجاج فحصلت له أرضون كثيرة فحفر النهرين المسميين بالسيين وتآلف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأرضين .

وذهب إلى تلك الجهة أناس كثيرون لزراعة تلك الجهات عندما توفرت المياه العذبة ، سيما أن مسلمة بن عبد الملك كانت له ضياع هناك ^(٣) .

وكانت بالعراق أراضٍ كثيرة تبدو عليها الخصوبة ولكن تنقصها الأيدي العاملة لذلك نراه يُقطع هذه الأرض لمن يتوسم فيه المقدرة على زرعها ممن أخلص في خدمته مكافأة له على الإخلاص من ناحية وجنيًا للخراج من ناحية أخرى . ومن أمثلة ذلك أنه أقطع بشار بن مسلم (أخا قتيبة بن مسلم) مئات من

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨٣ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٠١ والماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٧١ .

(٣) ابن خرداذبة - المسالك والممالك ص ٢٣١ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٣٠٢ .

الجربان فعمر بشار تلك الأرض بشق قناة فيها وزرعها ^(١) وأقطع خيرة بنت ضمرة القشيرية (زوج المهلب) عباسان ^(٢) .

وكان من رأى الحجاج - كما يرى ساسة اليوم - أن يساهم الشعب في جهود الإصلاح لا أن يترك الأمر كله للحكومة . لذلك نراه ينيط صيانة الجسور وترميم السدود بأصحاب الضياع التي تنتفع بها وخاصة إذا كانوا من الدهاقين الأغنياء . فإذا أهملوا ذلك ففاضت مياه الأنهار والقنوات على أراضيهم وقاموا يطالبون الحكومة بالتعويض أبى عليهم الحجاج ذلك حتى يكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم في المستقبل فيسهرّون على صيانة أراضيهم من أن تطغى عليها مياه الفيضان .

ولا قيمة لما رُمي به الحجاج من أنه كان يرضن بالتعويض على بعض الدهاقين لأنهم كانوا يناوؤن سياسته ؛ وليس لهم من الأموال ما يمكنهم من سد تلك الفتحات ^(٣) فالحجاج لا يلام على سياسته هذه من حيث المبدأ .

أما من حيث التطبيق فأكبر ظننا أن الحجاج ما كان ليمتنع عن مساعدة هؤلاء لو وثق بضيق ذات يدهم . يؤيد ذلك أن الحجاج كان لا يرضن بالمال كلما كان لازماً للمصلحة العامة أو عائداً على بيت المال بالفائدة فكان يقرض الزراع مساعدة لهم على زرع أرضهم كما يفعل بنك التسليف الزراعي اليوم . ومحال على من يفعل ذلك أن يرضن بالتعويض إذا كانت المطالبة عادلة .

وهال الحجاج إقبال الناس على ذبح البقر وما يتهدد البلاد من وراء ذلك من انقراض النسل وقلة الخيرات فحرم ذبح البقر .

وقد بدت تلك الوسيلة غريبة شاذة في نظر الناس فتألموا من ذلك كل الألم

فقال بعضهم :

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٦٩ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٧٦ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٨٤ وبريه ص ٢٦٤ .

شكونا إليه خراب السواد فحرم جهلاً لحوم البقر^(١)

والمستعرض لهذا الإجراء في ضوء الأساليب الحديثة في العمران لا يسعه إلا الإعجاب بمواهب الحجاج فيها نحن أولاء نرى اليوم حظر الذبح وسيلة من وسائل إنماء الثروة الحيوانية من لحوم وألبان ومستخرجاتها فضلاً عن أثر الحيوان في العمل في المزارع وتسميدها ، . فكان الحجاج قد سبق إلى أساليب العصر الحديث بعشرات المئات من السنين .

وهال الحجاج انصراف الناس عن الزراعة بالهجرة إلى المدن حيث تكثر البطالة وما يستتبعها من جرائم ، فضلاً عما يترتب على ذلك من بوار الأرض وما يتلوه من نقصان الخراج فأمر بإرجاع هؤلاء المهاجرين إلى قراهم واشتد في ذلك فأمر بأن يكتب على يد كل واحد منهم اسم قريته حتى لا يبرحها إلى غيرها^(٢) .

ويتحدث المصلحون في العصر الحديث عن مشروعات المياه الصالحة للشرب . وها نحن أولاء نرى الحجاج في القرن الأول الهجري قد شيد صهريجاً للمياه بالبصرة عرف باسمه ليشرب الناس منه^(٣) .

هذا ما حدثتنا به المصادر من إصلاحات الحجاج بالعراق ، ولو اتسع أفق المؤرخون لم تطغ عليهم حفيظتهم على الحجاج للمأوا عن إصلاحاته المجلدات . ولكن الحجاج كان ضحية سمعته العامة من بطش وقسوة .

والمؤرخون المسلمون قد تملكهم عليه الحفيظة فطمسوا من معالم إصلاحاته ما لو دَوَّنَ لكان منازراً لرجال الإصلاح في العصور المتأخرة ؛ ومع هذا القليل الذي أورده المؤرخون فإن الحجاج لم يفلت من تقديم .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٩٤ وابن خرداذبة ص ١٤ وياقوت ج ٥ ص ١٦٣ .

(٢) ابن عبد ربه ج ٢ ص ٧٧ والطبري ج ٥ ص ١٨٢ والمبرد ص ٢٨٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

يروى لنا المؤرخون أن تلك المجهودات لم ترجع إلى العراق رخاءه القديم وأن حالة العراق بعد موته كانت من أسوأ الحالات وأن سليمان بن عبد الملك لما ولي يزيد بن المهلب العراق نظر في نفسه وقال : « إن العراق قد أخرجها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج ^(١) » ، وأن خراج العراق قد نقص نقصاً فاحشاً .

وقد أوردوا لنا أرقاماً عن الخراج في عهد عمر بن الخطاب ومعاوية والحجاج وعمر بن عبد العزيز محاولين إثبات أن الحجاج قد أخرج العراق .

وعلى الرغم من اضطراب المصادر وخلطها في هذا الشأن . نرى لزماً علينا أن نناقش هذه الأرقام حتى نخرج منها بأن الحجاج لم يخرج العراق .

أما الاضطراب فيبدو في تفاوت الأرقام ، وإذا كان الخراج في وقت عمر بن الخطاب قد تراوح بين مائة مليون على رأي البلاذري ^(٢) ومائة وثمانية وعشرين مليوناً على رأي ياقوت ^(٣) والبشاري ^(٤) وابن خرداذبة ^(٥) وهذا فارق مستساغ إلى حد ، فإننا نراهم قد نزلوا بالخراج في أيام عمر بن عبد العزيز إلى ثمانين مليوناً على حد رواية ابن عساكر ^(٦) وابن كثير ^(٧) عن عمر بن عبد العزيز ، ويطفئ إلى مائة وأربعة وعشرين مليوناً على رواية ياقوت وابن عساكر أيضاً .

أما الحجاج فقد ذكر البشاري وابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر أنه وصل إلى

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٨٦ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٣ والعيون والحقائق ج ٣ ص ٢٥ وابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٩ ص ٢٧ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

(٣) معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٢ .

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٣ .

(٥) المسالك والممالك ص ١٤ .

(٦) التاريخ الكبير ج ٤ ص ٨٠ .

(٧) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٣٦ .

ثمانية عشر مليونًا .
 وذكر اليعقوبي ^(١) أنه وصل إلى خمسة وعشرين مليونًا وذكر البلاذري وابن
 عساكر وابن كثير في رواية عن عمر بن عبد العزيز أنه بلغ أربعين مليونًا وينفرد
 الماوردي ^(٢) بذكر رقم محترم وهو مائة وثمانية عشر مليونًا .

ولا نستطيع أن نوفق بين الحد الأدنى وهو ثمانية عشر مليونًا والحد الأعلى وهو
 مائة وثمانية عشر مليونًا إلا بافتراض الخطأ في رواية الماوردي لأنها رواية مفردة .
 بينما رواية الثانية عشر رواها أربعة هم ابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر والبشاري
 على أننا لا نستطيع أن نتابع هذا المنطق إذ إن الماوردي متخصص فيما يكتب من
 هذه الأمور .

وثمة مظهر آخر من مظاهر الاضطراب في هذه الروايات فقد حدثنا بعض هؤلاء
 المؤرخين عن خراج العراق وحدثنا البعض الآخر عن خراج السواد ؛ ونحن نعلم أن
 ولاية العراق في عهد الحجاج لم تكن كلها سوادًا . ومع ذلك فنستطيع أن نعذر من
 حدثونا عن السواد فنقرر أنهم قصدوا ولاية العراق كلها عندما تحدثوا عن السواد .

ولم تحدثنا هذه المصادر عن الأرقام التي أوردتها هل كانت هي كل ما جبي من
 العراق أو من السواد ؟ أو كانت هي ما أداه الحجاج للخليفة ؟؟ والفارق بين هذا
 وذاك أن الحجاج قد يجبي الملايين ولا يؤدي منها إلى دار الخلافة إلا النذر اليسير .
 ذلك أنه انفرد من بين الولاة جميعًا بالإنفاق عن سعة على الحروب التي لم تهدأ يومًا
 طوال عهده وكان يضطر في كثير من الأحيان إلى مضاعفة العطاء وهي حروب
 ليس من ورائها فتح ولا فيء فهي حروب داخلية قوامها إخضاع ثائرين مفلسين .
 يضاف إلى ذلك أنه كان كما رأينا معنيًا بالإصلاحات الداخلية لا يدخر وسعًا
 ولا جهدًا في سبيل إنجازها . لذلك نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هؤلاء المؤرخين

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٣٥ .

(٢) الماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٦٧ .

قد تحدثوا عما أداه الحجاج لدار الخلافة من فائض الخراج بعد أن أنفق في العراق ما أنفق .

ولم تذكر المصادر في حديثها عن الجباية عامًا معينًا ، فإذا كانت الأرقام التي ذكرتها هي ما جبي أو ما أرسل إلى دار الخلافة زمن الثورات فمن الميسور أن نصدق ذلك وأن يكون الخراج قد نقص إلى هذا الحد .

ولم يؤمن بهذه الأرقام بعض الكتّاب فإن ثاب قلو تن يقول : « وإنها قد لا تصور حالة البلاد إلا بعد الحرب الداخلية مباشرة » ^(١) والحضري بك يقول : « فإن الخراج قد نقص زمن العسف والفتن » ^(٢) .

على أنه ليس لدينا سجلات عراقية تثبت لنا مقدار خراج العراق ونفقته فقد أحرق الديوان في ثورة ابن الأشعث ^(٣) فبذلك ضاعت معالم الدخل والخراج .

على أن ما روي عن عمر بن عبد العزيز ويزيد بن المهلب بشأن خراب العراق قد صدر عن نفوس مبغضة للحجاج .

وفي تقديرنا أن رجلاً كالحجاج واجه من المصاعب ما واجه وأخضع من الفتن ما أخضع وأجرى من الإصلاحات ما أجرى كان يتحتم عليه أن لا يؤدي إلى دار الخلافة شيئًا وحسب دار الخلافة أنها تخلصت من المصاعب التي كانت تواجهها في العراق وكادت تؤدي بها لولا همة الحجاج ويقظته وحسن بلائه في الإنفاق على الجيوش واستهواء القلوب .

ومهما يكن من أمر فإننا نعتقد أن الحجاج كان من هذه الناحية موضع الرضى التام من عبد الملك بن مروان فقد أثنته جباياته كثيرة موفورة ^(٤) ولو لم يكن كذلك

(١) السيادة العربية ص ٤٣ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨١ وأبو يوسف - الخراج ص ٥٧ .

(٤) البلاذري أنساب الأشراف ج ١ ص ٣١١ وابن عبد ربه ج ٢ ص ٩٩ .

لنزعه عبد الملك في خلافته ولما أوصى به ابنه الوليد ؛ ولذا استحق هو وزياد
الثقفي مثله أن يحسد العباسيون الأمويين عليهما فقد قال أبو جعفر المنصور « الخلفاء
ثلاثة معاوية وكفاه زياد وعبد الملك وكفاه الحجاج وأنا كافي لي » (١) .

بناء المدن :

كان الحجاج مهتماً بالعمارة وتوفير الرفاهية وتقديم الحال في عهده ؛ فإنه لم يكد
ينتهي من حرب ابن الأشعث في سنة ثلاث وثمانين من الهجرة (٢) ، حتى بدأ في بناء
مدينة واسط .

ويختلف المؤرخون في السبب الذي دعاه إلى بناء هذه المدينة فيروي ياقوت ،
أن الحجاج لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة فأنس من أهلها الملل والبغض له
فقال لرجل ممن يثق بعقله : « امض وابتنع لي كرشاً من الأرض أبني فيه مدينة
وليكن على نهر جار »

فأقبل ملتسماً ذلك حتى سار إلى قرية فوق واسط بيسير يقال لها واسط القصب
فبات واستطاب ليلها واستعذب أنهارها واستمر طعامها وشرابها » (٣)

ويروى غيره أن الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان ؛ وكان فتي
من أهل الكوفة حديث عهد بعرس فانصرف من العسكر إلى ابنة عمه ليلاً ؛ فطرق
الباب طارق ودقه دقاً شديداً فإذا سكران من أهل الشام فقالت العروس لزوجها

(١) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٧٢ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٣ وياقوت معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧٩ وأبو الفدا ج ١
ص ١٩٨ وابن كثير ج ٩ ص ٥١ واليعني ج ١١ ص ٣٣٨ ويروي كل من البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٩٨
والمسعودي في التنبيه والإشراف البدء في بنائها بين سنة ٨٣ ، ٨٤ ويذكر ابن خلكان ج ١ ص ١٥٥
والقرماني أنه بديء فيها سنة أربع وثمانين ويجزم الجميع بالانتهاء منها في سنة ست وثمانين
ويذكر ابن شاعر ج ٥ ص ٨٢ وابن الجوزي في شذور العقود ص ٥٥ أنه بدأ فيها سنة خمس وسبعين
وانتهى منها سنة ثمان وسبعين .

(٣) ياقوت معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٠ .

« لقد لقينا من هذا الشامي شراً يفعل بنا كل ليلة ما ترى (تريد المكروه) » .

وقد شكوته إلى مشيخة أصحابه . فقال لها زوجها إئذني له فأذنت له فدخل وقال لها قد آن لكم ، وكانت المرأة قد بخرت منزلها وطيبته وبعد دخوله أغلق زوج المرأة الباب وقتله فلما أذن الفجر خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه : « إذا صليت الفجر فابعثي إلى الشاميين ليأخذوا صاحبهم فإذا أحضروك عند الحجاج فاصدقيه الخبر على وجهه ففعلت فأحضرت لدى الحجاج فأخبرته بحقيقة الأمر فقال للشاميين : « خذوا صاحبكم لا قود له ولا عقل فإنه قتل الله إلى النار » ثم نادى مناديه (لا ينزلن أحد على أحد واخرجوا فعسكروا) وبعث رواداً يرتادون له منزلاً حتى اهتدى إلى مكان واسط فبنى فيه (١) .

وهكذا لم يشأ الحجاج أن ينزل الشاميين الذين لم تكن لهم منازل ثابتة على الكوفيين وذلك كي يمنع الخلل ويرفع المستوى الأدبي والأخلاقي لجنوده الشاميين فأمر ببناء واسط .

ونحن نرى أن أسباباً أخرى فوق السببين السابقين اجتمعت لدى الحجاج دفعت به إلى بناء واسط :

أولاً : أن يكون الحجاج في مكان وسط بين البصرة والكوفة (٢) فاختار هذا الموقع الممتاز على الضفة الشرقية لنهر دجلة في موضع متوسط - تقريباً - بين البصرة والكوفة والأهواز إذ إنها تبعد عن كل منها نحو الخمسين فرسخاً على رواية المسعودي وياقوت (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) موير . الخلافة ص ٣٤٩ .

(٣) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٣١١ وياقوت معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧٨ وقد رجعنا إلى خريطة القيادة العليا البريطانية الصادرة في سنة ١٩٤٤ فوجدنا أن واسط تبعد عن الكوفة ٩٥ ميلاً وعن البصرة ١٥٥ ميلاً وعن الأهواز ١٧٥ .

ويجب أن يلاحظ أن هذا التقدير في نظرنا ليس دقيقًا الدقة كلها وأنه ساقه كتاب العرب على وجه التقريب ^(١) .

ثانيا : يبدو لنا أن الحجاج بعد أن أخضع الثائرين وهدأت الحال أراد أن يخلد ذكره ببناء مدينة عظيمة .

وكما اختلف المؤرخون في سبب بناء الحجاج لها اختلفوا كذلك في سبب تسميتها بهذا الاسم .

فيروي ياقوت خمسة عشر بلدًا تحمل كل منها اسم واسط ويقول إن واسط الحجاج أعظمها وأشرفها وأن سبب هذه التسمية أنه كان قبل عمارة واسط هناك موضع يسمى واسط قصب فلما عمر الحجاج مدينته سماها باسمها ^(٢) .

أما البلاذري والمسعودي ^(٣) فيعزوان تسميتها بواسطة القصب أن واسط كانت أرض قصب فسميت بواسطة القصب .

وفي رأينا أنها سميت بهذا الاسم لأن موقعها متوسط بين البصرة والكوفة والأهواز. ومهما يكن من أمر فقد كتب رائد الحجاج إليه بالخبر ومدح له الموضع فكتب إليه (اشتر لي متسعا أبني فيه المدينة) .

وكان موضع واسط لرجل من الدهاقين فساومه بالموضع فقال له الدهقان : ما يصلح هذا الموضع للأمير . فقال : لم ؟؟ فقال أخبره عن ثلاث خصال تخبره بها ثم الأمر إليه ؛ قال وما هي . ؟؟ قال : هذه بلاد سبخة البناء لا يثبت فيها وهي شديدة الحر والسّموم وإن الطائر لا يطير في الجو إلا ويسقط ميتًا لشدة الحر ، وهي بلاد أعمار أهلها قليلة . فكتب بذلك إلى الحجاج فقال الحجاج هذا رجل يكره

(١) اشترك - أرض بابل القديمة أخذنا عن الجغرافيين العرب ص ٣١٨ .

(٢) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧٨ .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٩٨ والتنبيه والإشراف ص ٣١١ .

مجاورتنا فأعلمه أننا سنحفر بها الأنهار ونكثر منها ومن الغرس فيها ومن الزرع حتى تغدو وتطيب وأما قوله أنها سبخة وأن البناء لا يثبت فيها فسنحكه ثم نرحل عنه فيصير لغيرنا وأما قلة أعمار أهلها فهذا إلى الله تعالى لا إلينا وأعلمه أننا نحسن مجاورتنا له ونقضي ذمامه بإحساننا إليه .

فأخبر الرجل الدهقان بكلام الحجاج واشتراه منه (١) .

فسار الحجاج إلى المكان الذي ستبنى فيه مدينته لينظره ؛ ومن القصص المتواتر أنه لما وصل إليه إذا براهب قد أقبل على حمار له فلما كان بموضع واسط بال حمار فنزل الراهب واحتفر ذلك البول واحتمله ورماه في دجلة والحجاج يراه فقال : عليّ به فأتى به فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : نجد في الكتب أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده . فاخط الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد في ذلك الموضع (٢) .

وغني عن البيان أن أمثال هذه النبوءات في كتابات المؤرخين العرب كثيرة وسترى أمثالها في مواطن متعددة .

ويلاحظ ذلك الأستاذ فان قلوطن فيقول : (٣) إن هذه النبوءات أمر شائع في كتابات المؤرخين العرب ينقلونها عن رهبان النصارى وعن اليهود .

وتتكون واسط من بلدين يقعان على ضفتي دجلة ؛ البلد القديمة التي كانت مقام الدهاقين على الضفة الشرقية وهي كسكر ، فبنى الحجاج مدينته على الضفة الغربية وربط بين البلدين بقنطرة من المراكب (٤) وهذا يشبه ما كان في أمر الكوفة عند بنائها فقد بنيت قرب المدينة القديمة المسماة بالحيرة .

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧٨ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٤ ، ١٨٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٣ والعيني - عقد الجمان ج ١١ ص ٣٣٨ .

(٣) السيادة العربية ص ١١١ .

(٤) اليعقوبي - البلدان ص ٣٢٢ .

المدينة اليوم واقعة على نهر بين دجلة والفرات يقال له شط الغراف (تراجع خريطة القيادة العليا =

وفي واسط الغربية بنى الحجاج مسجده وقصره والقبة الخضراء التي أطلق عليها اسم خضراء واسط (١) وأدار الحجاج سور المدينة وجعل حولها خندقين .

ويصف ياقوت بعض أبعاد العمارات فيقول إن القصر كان ذراعه أربعائة في مثلها وذراع المسجد الجامع مائتين في مائتين (٢) كما يصف لنا أيضًا السجن الذي أقامه الحجاج داخل المدينة وكان يسمى ديماس (٣) ومشرفة الفيل التي سميت كذلك لأن محمد بن القاسم - والي السند - أهدى إلى الحجاج فيلاً فحمل من البطائح في سفينة فلما صار بواسط أخرج في المشرفة التي دعيت بعد ذلك بمشرفة الفيل (٤) ونقل الحجاج إلى قصره والمسجد الجامع أبواباً من المدن المجاورة فضج أهل هذه المدن وقالوا : قد أومنا على مدننا وأموالنا فلم يلتفت إلى قولهم (٥) .

وقد نقل هذه الأبواب أبو جعفر المنصور فيما بعد من واسط وجعلها لمدينته الجديدة (بغداد) (٦) .

وقد أنفق الحجاج على قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف درهم فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن : هذه نفقة كبيرة وإن احتسبها لك أمير المؤمنين وجدها في نفسه .

فقال الحجاج : فما نصنع ؟ قال الحروب لها أجمل . فاحتسب منها في الحروب أربعة وثلاثين ألف ألف درهم واحتسب في البناء تسعة آلاف درهم (٧) .

ولما أتم الحجاج بناء القبة الخضراء جلس في صحنها ، وقال : « كيف ترون قبتي

= البريطانية طبعة سنة ١٩٤٤) ولم نستطع أن نحقق ما إذا كان دجلة يجري وقتئذ في هذا المجرى أم لا .

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٣٢٢ .

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٢ .

(٣) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ١٨٧ .

(٤) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨١ والبلاذري ص ٣٩٩ .

(٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨١ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ .

(٧) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨١ .

هذه ؟ قالوا : « ما بني لأحد قبلك مثلها » قال : « فإن فيها مع ذلك عيباً ، فهل فيكم من يخبرني به » قالوا : « لا نرى بها عيباً » فأمر بإحضار الغضبان القبعثري - وكان في حبسه - لعلمه بصراحته وجراته فألقى به يرسف في قيوده فلما دخل عليه قال له الحجاج « إني أراك قد سمعت » قال : « أيها الأمير القيد والرتعة ومن يكن ضيف الأمير يسمن » قال « فكيف ترى قبتي هذه » قال « أرى قبة ما بني لأحد مثلها إلا أن بها عيباً فإن أمني الأمير أخبرته به » قال « قل آمناً » . قال « بنيت في غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم فما لا يتمتع به من طيب ولا لذة » قال « ردوه فإنه صاحب الكلمة الحبيثة » ولكنه عفا عنه بعد ذلك ^(١)

ولما فرغ من بناء المدينة كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (إني قد اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطاً) ولذلك سمي أهل واسط بالكرشيين ^(٢) .

واتخذ المناظر بينها وبين قزوين - وكانت قزوين ثغراً حينئذ - حتى يمكن درء الخطر عن ذلك الثغر .

وبعد أن أتم الحجاج مدينته وما يلزمها وأصبح لا حاجة له بالأنباط الذين

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٩٨ وياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ . وكان إذا مر أحد من سكان واسط بالبصرة ناداه أهل البصرة (ياكركشي) فتغافل عن ذلك وكأنه لا يسمع أو أن الخطاب ليس معه . ويروي ياقوت ج ٨ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ أنه جاءه بخوارزم أحد أعيان أدبائها ؛ وسأله عن هذا المثل « تغافل واسطي » وقال له : قد أطلت السؤال عنه والتفتيش عن معناه فلم أظفر به ؛ ولم يكن لي في ذلك الوقت به علم حتى وجدته بعد ذلك فأخبرته ثم وضعته أنا ههنا .

ويفسر الأستاذ فراتياج في كتابه الأمثال العربية ج ١ ص ٢٥٠ هذا الحديث بأن الحجاج حين أرغم أهالي هذه الناحية على العمل في البناء كانوا يهربون وينامون على الحصار في الجامع فإذا دخل عليهم رجال الشرطة يصيحون بهم : يا أهل واسط فكانوا يتغافلون ويظهرون أن الخطاب ليس لهم حتى يتخلصوا بذلك من العمل فقليل هذا المثل .

استخدمهم في البناء أمر بإخراج كل نبطي بها وقال « لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة » (١) .

وقد وصف الصفدي الحارثي الحجاج بالحق لأنه بنى تلك المدينة في بادية النبط وأمرهم بعدم دخولها فلما مات دلفوا إليها من قريب (٢) .

واتخذها الحجاج مقر حكومته وأسكنها الشاميين وبعض الأسر الأجنبية وكثيراً من ترك ما وراء النهر معظمهم من بخارى جلبوا أسرى حرب (٣) وبعض وجوه المصريين (البصرة والكوفة) (٤) .

وفي تقديرنا أن الحجاج جعل من واسط مدينتين ، جعل إحداها مساكن لجند الشام بعيدين عن أهل الكوفة منعاً لما يتطرق إليهم من هؤلاء من بذور الفتنة وتوسطاً بهم بين أمهات مدن العراق الثلاثة ، الكوفة والبصرة والأهواز . حتى إذا ما قامت فتنة في إحداها هرع إليها جند الشام من واسط .

أما المدينة الأخرى - أو بعبارة أدق الحي الآخر - فقد جمع فيه الحجاج بين أهبة الإمارة بابتناء المسجد والقصر وغير ذلك من المباني ، ثم أسكنه فئات مختلفة من الناس ؛ رأى مصلحته في أن يكونوا تحت بصره في العاصمة التي اتخذها مقراً له بدل أن يقيموا بعيداً عنه في الكوفة والبصرة فيكون لهم في غيبته عنهم فرصة لتفريخ المؤامرات . ويبدو أن هذا الخليط من الناس استمر يقيم بواسط حتى كانت أيام الدولة العباسية فقال فيهم بشار بن برد :

على واسط من ربه ألف لعنة وتسعة آلاف على أهل واسط
أيلتمس المعروف من أهل واسط وواسط مأوى كل عليج وساقط !؟

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢٦ ، ج ٣ ص ٢٣٢ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٤) ابن شاعر ج ٥ ص ٨٢ .

نبيط وأعلاج وخوز تجمعوا شرار عباد الله من كل غائط (١)

ومن طريف ما يروى من القصص في هذا الشأن أن الحجاج كان معجباً بقصره فبينما هو ذات يوم في مجلسه إذ أتاه بعض خدمه فأخبره أن جارية من جواريه - وكان مائلاً إليها - قد أصابها لم فغمه ذلك ووجهه إلى الكوفة يطلب إشخاص عبد الله بن هلال الذي يقال له صديق إبليس ؛ فلما قدم عليه أخبره بذلك فقال : أنا أحل السحر عنها فحلّه عنها وزال ما كان بها فقال الحجاج : « ويلك إني أخاف أن يكون هذا القصر محتضراً » فقال : « أنا أصنع فيه شيئاً فلا ترى ما تكرهه » .

فلما كان بعد ثلاثة أيام جاء هلال بن عبد الله ودخل على الحجاج يخطر بين الصفيين وفي يده قلة مختومة فقال : « أيها الأمير تأمر بالقصر أن يمسخ ثم تدفن هذه القلة في وسطه فلا ترى فيه ما تكرهه أبداً » . فقال الحجاج : يا ابن هلال وما علامة ذلك ؟ قال : « أن يأمر الأمير برجل من أصحابه بعد آخر من أشداء أصحابه حتى يأتي على عشرة منهم فليجهدوا أن يستقلوا بها من الأرض فإنهم لا يقدرّون » .

فأمر الحجاج من حضره بذلك فكان كما قال ابن هلال .

وكان بين يدي الحجاج مِخْصَرة فوضعها في عروة القلة ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِن رَّبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٢) ثم رفع القلة فارتفعت على المِخْصَرة فوضعها ثم فكر منكساً رأسه ساعة ثم التفت إلى ابن هلال فقال له : يا ابن هلال : « خذ قلتك والحق بأهلك » قال : ولم ؟ قال : « إن هذا القصر سيخرب بعدي وينزله غيري ويحتفر محتفر فيجد هذه القلة فيقول لعن الله الحجاج إنما كان يبدأ أمره بالسحر » . فأخذها وحق بأهله (٣) .

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٣) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

ولا يبعد أن تكون هذه القصة من الموضوعات على الحجاج فإذا افترضنا صحتها فإنها تدل على أن الحجاج كان لا يؤمن بالدجل والشعوذة .

وبقيت واسط مقراً للحكومة حتى بعد موت الحجاج وصارت أعظم الأوساط الحربية في العالم الإسلامي واحتفظت بأهميتها من الوجهة « الاستراتيجية » طوال عهد الخلافة (١) .

وزادت ثروة واسط بعد عهد الحجاج ؛ وقد كان حولها قرى وبساتين كثيرة ومزارع خصبة ومروج بها النخيل الكثيرة وشجر الفاكهة .

أما السهل القريب منها فقد زرع فيه القمح الكثير وكان الناس يصيدون من دجلة كميات كبيرة من السمك .

وفي أيام ياقوت الحموي الذي زار واسط عدة مرات كانت تجارة المواد الغذائية وأسواقها رائجة رواجاً عظيماً وكانت الأغذية رخيصة حتى أن جرة الزبد كانت بدرهمين وكان يشتري الناس بدرهم اثنتي عشرة دجاجة أو أربعة وعشرين فروخاً وبنفس هذا الثمن كان يشتري الإنسان اثنتي عشرة رطلاً من السمن وأربعين رطلاً من الخبز وكذلك مائة وخمسين رطلاً من اللبن وهكذا بقية صنوف الأطعمة (٢) .

ومع هذا فإن مدينة واسط لم تسلم من أسنة أعداء الحجاج ولا من قذح الشعراء الساخرين (٣) وها هو ذا أيوب بن القرية يظهر الشفقة على الرجل الذي بنى هذه المدينة فيقول : « إنه بناها في غير بلده ويتركها لغير ولده » (٤) .

آثار واسط :

قد عنيت دار الآثار في بغداد بالتنقيب عن آثار واسط وأسفر التنقيب عن

(١) موير - الخلافة ص ٢٤٩ .

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٣ .

(٣) راجع - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٤) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٩٨ .

اكتشاف مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وحصن وسوق ؛ وقد عرضت الآثار التي استخرجت من الحفائر المذكورة في غرفتين من غرف دار الآثار العربية (ببغداد) .

ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك في أن المسجد الذي اكتشف هو المسجد الذي شيده الحجاج بن يوسف الثقفي عند تأسيس المدينة ؛ وقد أسفرت أعمال الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتيمتراً ؛ والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة (١) .

وقد بنى الحجاج مدناً أخرى فمن ذلك مدينة النيل (٢) التي بناها على النهر الذي احتفروه وسماه بهذا الاسم وفي عهده بنيت أيضاً بلدة مشهورة بنواحي خوزستان بالقرب من رستقباد سميت بمكرم نسبة إلى مكرم بن معزاء الحارثي صاحب الحجاج (٣) ، وقيل مكرم مولى للحجاج أرسله الحجاج لمحاربة خُزّاد بن إيّاس حين عصى وتحصن بقلعة تعرف به ، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفياً ليلحق بعبد الملك بن مروان فلحق به مكرم وأخذه وبعث به إلى الحجاج (٤) .

وبنى محمد بن القاسم للحجاج أثناء ولايته لفارس مدينة شيراز (٥) . وبني الحكم ابن نهيك الهجيمي في أرجان مسجد لها ودار إمارتها - وكان والي كرمان من قبل الحجاج - (٦) .

(١) مجلة الرسالة عدد ٢٤٧ من السنة السادسة (٢٨ مارس سنة ١٩٣٨) .

(٢) بليدة صغيرة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير ينخلى من الفرات حفره الحجاج

وسماه بنيل مصر - ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٦٠ والبلاذري ص ٢٩٨ .

(٣) ياقوت - معجم البلدان ج ٦ ص ١٧٦ والبلاذري ص ٣٩٠ .

(٤) ياقوت - معجم البلدان ج ٦ ص ١٧٦ والبلاذري ص ٣٩١ .

ويروى أن مكرماً لم يبن المدينة من أساسها وإنما كانت قرية قديمة لم يزل مكرم يبني ويزيد فيها حتى

صارت مدينة ومعسكراً للمسلمين . القلقشندي - صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٠ والجندي في الإسلام ص ٣٠ .

(٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٠ والاصطخري - المسالك والممالك ص ١٢٤ .

(٦) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٠٠ .

عنايته بالأسطول :

وأخيرًا نختم هذا الفصل بما قدمه الحجاج إلى الأسطول الإسلامي من خدمات فهو أول مجر لنوع من السفن وهي السفن المقيمة والمسمرة والمدهونة والمسطحة غير ذوات الجأجيء^(١) .

وبذلك أضاف الحجاج إلى العمارة الإسلامية بالخليج الفارسي أنواعًا جديدة من السفن رآها أكثر ملاءمة للظروف التي عاش فيها .

(١) ابن رسته - الأعلام النفيسة م ٧ ص ١٩٥ ، ١٩٦ والجاحظ - البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ وسفن الأسطول الإسلامي ص ١٠ ، ٢٢ .

الفصل الرابع

علاقة الحجاج بخلفاء وأمرائه بني أمية

ولي الحجاج العراق عام خمسة وسبعين وظل واليًا عليه حتى توفي سنة خمس وتسعين . فهو بذلك قد عمل لخليفته : عبد الملك والوليد .

أما ولايته لعبد الملك بن مروان فقد قامت إثر تجربة واختبار في الحجاز أنتجتا محبة وتقديرًا في العراق .

وأما ولايته للوليد فكانت وليدة وصية أوصاها عبد الملك لابنه في أخريات أيامه (١) ؛ أبلى الحجاج في حرب ابن الزبير في الحجاز أحسن البلاء وثبت يمينه دعائم الملك الأموي بالقضاء على تلك الدعوة التي كادت تودي بالدولة ، واستهدف الحجاج في ذلك لكل أنواع القذف والالتهام ، فكان جزاؤه من عبد الملك - مهما قيل في قصة إقصائه عن الحجاز من أقوال - أن عينه واليًا على أكبر ولاية إسلامية في عصره وأسلم إليه من السلطات ما كاد به الحجاج يصبح الخليفة الحقيقي في العراق .

على أن عبد الملك لم يسلم للحجاج مقاليد الأمور دون مبرر . فلقد ولي الحجاج العراق ومرجل الثورة يغلي ونار الفتن تضطرم فلم يكذب يصل إلى العراق حتى واجهه - في عاميه الأولين - ثلاث فتن هي - فتن الأزارقة والصفورية ومطرف بن المغيرة ولم تكن نارها مشبوبة ضد الحجاج - فإن الحجاج لم تربطه بالقائمين بالفتن أية رابطة - وإنما كانت مشبوبة ضد الدولة الأموية .

جرد الحجاج سلاح الحزم والعزم وواجه الموقف بجنان ثابت ويد باطشة فكان له في النهاية ما أراد فكان الحجاج بذلك عند حسن ظن الخليفة عبد الملك كما كان الخليفة عند حسن ظن الحجاج .

ذلك أنه ما كاد ينتهي من إخماد الفتن حتى وسع الخليفة من دائرة ولايته

(١) المسعودي ج ٢ ص ١١٠ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٦٢ وابن شاذان ج ٥ ص ١٧٢ .

فأصبحت في سنة ثمان وسبعين تشمل خراسان وسجستان .
لم يحدث خلال هذه الفترة بين الخليفة وواليه إلا أزمة واحدة تلك هي أزمة أنس
ابن مالك التي عكرت صفو العلاقات بينهما فترة من الزمن ولكن المياه لم تلبث أن
عادت إلى مجاريها واستمتع الحجاج من عبد الملك بما تعودته من ثقة .

ثم جاءت بعد ذلك ثورة ابن الأشعث ، وهي ثورة إذا قيست بما سبقها من
ثورات كانت هي الثورة الجدية التي تستأهل من والي العراق المزيد من الهممة
واليقظة والحزم . تلك الثورة التي أحس فيها الحجاج بأن كيان الدولة في خطر
والتي استنصر فيها هذا الثائر بملك من الملوك المعادين للدولة الإسلامية فكان لزاماً
على الحجاج أن يفرط في القسوة في معاملة الخصوم قضاءً على روح الثورة في
البلاد .

ومن هنا كانت موقعة دير الجماجم وما تلاها من أحداث رواها المؤرخون وكان
لنا فيها رأي قررناه (١) .

إلا أن الحجاج كان وقتئذ قد وصل إلى المرحلة التي تثير الحسد في نفوس
منافسيه في بلاط الخليفة لذلك نرى هؤلاء قد صوروا الحجاج لعبد الملك مسرفاً في
الدماء والأموال ، مستهيناً بسلطة الخليفة .

حدث ذلك في وقت كان فيه عبد الملك قد استتب له الأمر بالقضاء على
الثورات فتبادل والحجاج تلك الكتب التي عني المؤرخون القدامى بنقلها حرفياً
تدليلاً على ما ذهبوا إليه من غضب الخليفة على واليه في العراق من ناحية وعلى
نزعة الطغيان في الحجاج من ناحية أخرى .

والموقف في تقديرنا لم يكن يستحق تلك الأهمية التي أضفاها عليه المؤرخون .
فلقد حاول الخليفة أن يرضي خاصته بإغلاظ القول إلى واليه فإذا بذلك الوالي يدافع
عن نفسه في كل مرة دفاعاً مقنعاً فلا تلبث العلاقة بينه وبين الخليفة أن تعود إلى
سابق عهدها من الثقة فتقوم قيامة الخاصة مرة جديدة فيعيد التاريخ نفسه .

(١) راجع الكتاب ص ٢٨٥ .

على هذا الوجه كانت العلاقة بين الحجاج وعبد الملك في أخريات أيامه .

ويبدو لنا أن أخصاء عبد الملك كانوا يهاجمون الحجاج عند الخليفة متذرعين بالدين وأحكامه مصورين الحجاج لسيدته متجاوزاً الحدود الشرعية، معتمدين في ذلك على أن الخليفة الأموي يجب أن لا يرضيه بُعد واليه عن أحكام الدين ؛ وبذلك استطاعوا أن يستكتبوه تلك الكتب التي رمى فيها الحجاج بكل نقيصة من ناحية الدين وها هو ذا خطاب الخليفة للحجاج بعد موقعة دير الجماجم يقوم دليلاً على ما نذهب إليه إذ يقول :

« أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الخطأ الدية وفي العمد القود وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه فإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا المعصية وظن بأمر المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على القوم فلا تقتلن إلا جانحاً أو أسيراً .

وتطلب رضائي بالذي أنت طالبه	إذا أنت لم تطلب أموراً كرهتها
إلى الله منه ضيع الدر حالبه	وتخشى الذي يخشاه مثلي هارباً
فيا ربما قد غص بالماء شاربه	فإن تر مني غفلة قرشية
فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه	وإن تر مني وثبة أموية
فإنك مجزي بما أنت كاسبه	فلا تلمني والحوادث جمّة
يقوم بها يوماً عليك نوادبه	ولا تعد ما يأتيك مني وإن تعد
ولا تعطين ما ليس لله جانبه	ولا تدفعن للناس حقاً علمته

وإن الباحث ليجد في هذا الكتاب ما لا يمتشى مع منطق خليفة عرف بحسن

الإمام بقواعد الدين إذ كيف يتأتى أن يُقيد الحجاج نفسه فيمن قتلهم عامداً؟؟
أَيقتل نفسه؟؟ أم يكلف أحداً من رجاله بأن يقتله؟؟ وقصة إسراف الحجاج في
الدماء قصة قد تناولناها في مكانها بالبحث والتعليق ودفعنا عن الحجاج ما وجه إليه
فيها من اتهام .

وبعد فإذا كان الحجاج قد أسرف في الدماء فأكبر ظننا أن عبد الملك يجب أن
يكون آخر من يتحدث إليه أو يكاتبه في ذلك . ألم يكن هو الذي أمر الحجاج بأن
يعرض الناس على السيف فمن أقر منهم بالكفر خلى سبيله ومن لم يقر قتلته ^(١)؟؟ ألم
يشفع الحجاج لسعيد بن جبير؟؟ فأجابه عبد الملك قائلاً ^(٢) : « إني لم أبعثك مشفعاً
وإنما بعثتك مناجزاً لأهل الخلاف والمعصية » ^(٣)؟؟

ويبدو لنا أن الحجاج قد أدرك العوامل التي أملت على عبد الملك أن يكتب له
هذا الخطاب كما أدرك أن عبد الملك لا يمكن أن يعني كل ما جاء في خطابه . إذ
نراه في الرد عليه يقول : « فإن يكن قتلي للعصاة سرفاً وإعطائي أهل الطاعة تبذيراً
فليض لي أمير المؤمنين ما يريد حتى أنتهي إليه ولا أتجاوز ^(٤) » ؛ وكأننا بالحجاج يقول
لعبد الملك بلغة واضحة : أنت تأمرني بالإسراف في الدماء ثم تعود فتحاسبني على
ذلك؟؟ لتكن بعد ذلك أوامرك صريحة ألزمها ولا أعاقب منك على التزامها .

ولو أن الحجاج أسرف في الدماء - إن صح أنه أسرف - بغير أمر الخليفة لكانت
قصة القود في نظره من الأهمية بمكان ولتعرض لها في رده .

ومن عجب أن الخليفة الذي رعد وبرق في خطابه لواليه عاد فقال للكاتب :
« اكتب إليه هدى روعه . خاف أبو محمد صولتي ولن أعود لشيء يكرهه » ^(٥) .

(١) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ٩٨ وابن عساكر ج٤ ص ٦٧ والأبشهي - المستطرف ج١ ص ٥٢ .

(٢) ابن عبد ربه ج١ ص ١٨٦ ، ج٣ ص ١٨ .

(٣) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٤١ .

(٤) راجع المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ٩٨ ، ٩٩ وابن عساكر ج٤ ص ٦٧ ، ٩٨ .

(٥) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ٩٩ .

قال الخليفة ذلك على الرغم من أن الحجاج لم يجزع لكتاب أمير المؤمنين اعتقاداً منه أنه كان في جانب الحق فيما فعل وأن أمير المؤمنين ما كتب إليه ما كتب عن استقلال في الرأي وحسن علم بالأمور .

وإذا أعوزنا في هذين الكتابين الدليل القاطع على تأثر عبد الملك بن مروان بحاشيته ومدى إدراك الحجاج للحال التي كانت قائمة في بلاط الخليفة بدمشق وجدنا ذلك واضحاً في تصرف الخليفة يوم أن بعث للحجاج بكتاب شديد اللهجة على يد مولاه نباتة ، وكذلك وجدناه واضحاً في رد الحجاج على ذلك الكتاب .

ألم تر أن الخليفة كان يقدر صولة الحجاج حق قدرها فيوعز إلى نباتة قائلاً : « العجل العجل حتى تأتي العراق فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب ما يكون منه فإذا جبن عند قراءته واستيعاب ما فيه فاقطعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي به وإن هش للجواب ولم تكشفه أرنبه الحيرة فخذ منه ما يجيب به وأقرره على عمله ثم اعجل عليّ بجوابه » .

وعبارة الخليفة في ذلك واضحة لا تحتاج إلى تعليق فهذا مدى خشيته للحجاج وتقديره لسطوته في العراق .

أما رد الحجاج فقد قرر فيه - في صراحة واضحة - أن الخليفة قد وقع فيما كتب به إليه تحت تأثير حاشيته إذ يقول « وقد حجبني عن نواظر السعد لسان مرصد ونافس حقد انتهاز به الشيطان حين الفكرة فافتتح به أبواب الوسواس بما تحتويه الصدور فواغوثاه باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه واعتصاماً بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم الأيمان وصادق السنة . فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقاً نبا عنه كيده وكثر عليه تحسره الخ .

ويظهر لنا شعور عبد الملك الكامن نحو الحجاج في تعليقه على الخطاب بعد أن قرأه مبتسماً (فلما مضى فيه بدت له سن سوداء) ثم قال : صلوات الله على الصادق

الأمين (إن من البيان لسحراً)^(١) .

وخلاصة القول أن الحجاج قد تمتع في أيام عبد الملك بن مروان بكل مظاهر العز والسلطان .

هذا ولم يشب صفاء العلاقة بينهما إلا حادث فردي ذلك هو حادث أنس بن مالك ثم لم تلبث بعده المياه أن عادت إلى مجاريها .

أما تلك الكتب المتبادلة بينهما في أواخر أيام عبد الملك فقد قررنا أنها كانت نتيجة ضعف عبد الملك لحاشيته ، التي كانت تنفس على الحجاج ما أصاب من مرتبة وجاه ، وما وصل إليه من عظمة ومجد .

وقصة هؤلاء الوشاة قصة طويلة ؛ ولو صح فيها كل ما كتبه المؤرخون لكان عبد الملك ألعبوبة في يد اللائذين به يملون عليه ما يريدون ويتصرف هو على ما يشتهون .

كان عروة بن الزبير عاملاً لعبد الملك على الين فاتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوفاً من الحجاج فلما بلغ ذلك الحجاج كتب لعبد الملك كتاباً شديد اللهجة ختمه بقوله « فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام » .

فلما قرأ الخليفة الكتاب بعث به إلى عروة ثم قال له : « إن كتاب الحجاج قد ورد فيك وقد أبى إلا إشخاصك إليه » ثم قال لرسول الحجاج « شأنك به » فالتفت إليه عروة مقبلاً عليه ثم عاب استسلام الخليفة لرأي الحجاج ثم زاد على ذلك فعاب الحجاج قائلاً : « لئن كان الملك بجواز الأمر ونفاذ الرأي إن للحجاج لسلطان عليك

(١) راجع الخطابين في العقد الفريد جـ ٣ من ص ٧ - ٩ .

ويحدثنا ابن الأثير جـ ٤ ص ١٨١ أن ابنة للحجاج تزوجت بابن لعبد الملك ولكن ابن الأثير لم يحقق لنا أية بنات للحجاج تزوجت أي أبناء عبد الملك . ومن يدري ؟ فقد يكون ابن عبد الملك في هذه القصة هو الحجاج وقد يكون هذا الزواج هو الذي دعا أو عضد الحجاج على أن يهب الدار للحجاج .

ينفذ أموره دون أمورك وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه » .

قال فنظر في كتاب الحجاج مرة ورفع بصره إلى عروة تارة ثم دعا بدواة فكتب إليه كتابًا لا يعنينا عنفه وإنما يعنينا أنه احتوى تلك الألفاظ التي فاه بها عروة ^(١) .

وفي اعتقادنا أن مجال الوضع في تاريخ الدولة الأموية كان فسيحًا إذ كتب هذا التاريخ في ظل الدولة العباسية التي كان يطيب لخلقائها أن يشوهوا تاريخ الأمويين ؛ ولو استسلمنا لكل ما كتب عن الدولة الأموية عامة وعن الحجاج وعبد الملك خاصة لكان عبد الملك أضعف خليفة عرفه التاريخ ولكان الحجاج أقسى عامل ذكرت اسمه المصادر .

على أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن عبد الملك ما توفي إلا راضيًا عن الحجاج كل الرضى يؤيد ذلك أنه أوصى به ابنه الوليد خيرًا وكان يقول « الحجاج جلدة ما بين عيني » ^(٢) .

وكتب إليه مرة يلصقه بنفسه ويقول له « أوصيك بما أوصى به البكري زيّدًا » ^(٣) .

وحظى منه بكل تقدير وإعجاب وقد بلغ من إعجاب عبد الملك أن سمى أحد أبنائه (بالحجاج) وقال :

سميته الحجاج بالحجاج الناصح المغاور الرماح
نصحًا لعمري غير ذي مزاح ^(٤)

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ١٥ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٤٩ وذيل الأمالي والنوادر ص ٧١ .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١١٤ وذيل الأمالي والنوادر ص ٧١ .

(٤) أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٥٥ .

وقد أجاب الحجاج بن يوسف على ذلك بأن وهب لسميه دارًا له بدمشق تعرف بدار الحجاج^(١)

ومما دعم علاقة الحجاج السياسية بالخليفة أن الحجاج كان أديبًا فذاً فقد كان عبد الملك يحب مناقشته ويعجب بإجابته وكانت إجابة الحجاج على الدوام موضع الرضا والاستحسان .

وأمثلة ذلك كثيرة سنأتي على بعضها في حديثنا عن فصاحة الحجاج .

هذا ؛ ولم يدخر الحجاج وسعًا في توطيد الصلة بينه وبين عبد الملك فكان لا يرسل إليه إلا رسولاً أمينًا أو خادماً ذكيًا . كما أنه كان على الدوام يجيب عبد الملك إلى ما يطلب على أحسن وجه .

طلب منه عبد الملك مرة أن يرسل إليه شخصًا عالمًا بالحلل والحرام والفرائض والسنن فأرسل إليه الشعبي^(٢) .

وبلغ من إعجاب الخليفة به أن أرسله في وفادة إلى قيصر الروم^(٣) كما طلبه مرة أخرى ليعلم أولاده وليربيهم^(٤) .

ويبدو لنا أن الحجاج كان من ذلك الطراز الأول من السياسيين إذ نراه مرة يقول للخليفة « إذا أردت رجلًا عاقلًا فاصلاً كتومًا للسرتتخذة لنفسك وتضع عنده شرك وما لا تحب أن يظهر من أمرك فاستكتب محمد بن يزيد » فكتب إليه عبد الملك بحمله إليه فحمله الحجاج إليه^(٥) .

وفي يقيننا أن الحجاج لم يرشح محمد بن يزيد إلا بعد أن وثق فيه وأنه سيكون

(١) أنساب الأشراف ج١١ ص ١٥٥ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني ج٦ ص ١٦٢ وياقوت - معجم الأدباء ج١ ص ٩٦ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج١ ص ١٤٩ .

(٤) الأصفهاني - الأغاني ج١٤ ص ٩٦ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٤٢ .

وبذلك استطاع الحجاج بسياسته وكياسته أن يضع رجلاً من رجاله في مركز ممتاز في بلاط الخليفة .

وحدث أن وفد جرير الشاعر على الحجاج بواسط فمدحه واطنب ، فإذا بالحجاج يبعث بجرير إلى دار الخلافة ليمدح أمير المؤمنين ^(١) .

وفي تقديرنا أن الحجاج خشي أن يغتاب عند عبد الملك بأنه أصبح وله شاعر خاص فبادر بإيفاد جرير إلى دار الخلافة ردًا لهذه الوشاية وليدخل السرور على نفس عبد الملك .

ومن أعقد المشكلات التي اكتنفت علاقة الحجاج ببيت الخلافة موقفه من خالد ابن يزيد بن معاوية وموقف خالد منه .

كانت خلافة عبد الملك وخلافة أبيه مروان من قبل قائمة على اتقاض الفرع السفياي الذي كان يرجو أن تؤول الخلافة إلى خالد بن يزيد من بعد تنازل أخيه معاوية الثاني .

وكان من نتيجة الصراع الذي قام بين الفرعين - السفياي والحكي - موقعة مرج راهط التي رجحت فيها كفة المروانيين على كفة السفيايين . وكان خالد وقتئذ يافعًا فلما اشتد ساعده في أيام عبد الملك فرض نفسه على بلاطه أميرًا لا يستهان به من أمراء البيت الأموي ؛ وكان عبد الملك لا يملك إلا أن يدنيه من مجالسه محافظة على الكيان الأموي ، ومنطقه في تقريبه ألا خطر منه - وإن كان عقله الباطن يوحى إليه بغير ما يفعل جهرة - .

أما الحجاج فكان خير من ينتفع بهذا الظرف الذي عرف خبيئته .

حدث في أيام أن كان الحجاج بالحجاز أن خطب خالد بن يزيد رملة بنت

(١) الأصفهاني - الأغاني ج٧ ص ٦٢ والجاحظ - التاج في أخلاق الملوك ص ١٣٢ ، ١٣٣ وذيل الأماي والنوادر

الزبير ، وكان الحجاج وقتئذ يجلي الزبير عن الحجاز لحساب عبد الملك . فبعث إلى خالد بكتاب يقول فيه « ما كنت أراك تخطب لآل الزبير حتى تشاورني ؛ وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء ؟ وكذلك قال جدك معاوية وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة وشهدوا عليه بالقبيح » (١) .

والمستعرض لهذا الكتاب لا يسعه إلا أن يتساءل : هل كان الحجاج يملك أن يحتج على أحد أفراد الأسرة المالكة في خطبته لأية زوجة ؟؟ .

وكيف سلم عبد الملك بتدخل الحجاج إلى هذا الحد ؟؟

والجواب على ذلك أن الحجاج لم يكن له وقتئذ أن يتدخل في خطبة أحد أعضاء البيت المالكة لزوجته ، ولكن خطبة خالد لرملة كانت من النوع الذي يفرض على الحجاج التدخل ، فإن مثل هذه الخطبة كان من شأنها أن تفسد على الحجاج الروح المعنوية في الحجاز فكيف يحارب هو آل الزبير بينما يخطب أبناء الخلفاء منهم ؟؟ .

لذلك رأى الحجاج من واجبه أن يتدخل وأن يعمل على إيقاف هذه الخطبة للأسباب المعنوية والحربية التي رآها .

وفي تقديرنا أن الحجاج ما لبس ثوب الأسد إزاء خالد إلا إعتاداً على ما كان يعلمه عن يقين من فرقة بين خالد وعبد الملك تضمن له تأييد عبد الملك له في مسلكه .

ولعل الحجاج أراد أن يستر كامن رأيه في هذه الخطبة بأن التمس نقد خالد في هذه الخطبة بأن أشار إلى أن آل الزبير ليسوا بأكفاء لآل معاوية وأنهم قارعوا أباه على الخلافة وشهدوا عليه بكل تقيصة .

كبر ذلك على خالد فالحجاج لا يعدو أن يكون عربياً من غير قريش ، فما باله

(١) ابن شاکر ج ٥ ص ١٣٣ والأغاني ج ١٦ ص ٨٥ ، ٨٦ .

اليوم يتناول على قریش ويوجه لفرع من فروعها ما لا يجوز لعربي مها عظمت مكاتته أن يتناول إليه .

لذلك نراه يكتب إلى الحجاج (قریش تتقارع فإذا أقر الله الحق مقره كان تعاطفهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم أما قولك إنهم ليسوا بأكفاء فقبحك الله يا حجاج ما أقل علمك بأنساب قریش أیكون العوام كفؤاً لعبد المطلب حتى تزوج صفیة وتزوج رسول الله خدیجة بنت خویلد ولا تراهم أكفاء لآل أبي سفيان ؟) (١) .

هذا ؛ ولم يعبأ خالد بموقف الحجاج منه واستمر في خطبته لرملة فكانت زوجاً له . إلا أن خالدًا حفظ على الحجاج موقفه هذا فكان يناؤه ولا يترك فرصة سانحة إلا ويحاول أن ينال من كرامته وعبد الملك بين هذا وذاك حائر لا يريد أن يرجح كفة خالد لئلا يفقد ولاء الحجاج كما لا يريد أن يرجح كفة الحجاج على خالد ففي ذلك نصرة لغير قرشي على قرشي .

والخليفة بين هذا وذاك يريد أن ينتفع بمواهب الحجاج السياسية والحربية بمثل ما يريد أن ينتفع بولاء خالد وحسن مشورته .

حدث بعد ذلك أن تزوج الحجاج من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب فدخل خالد على عبد الملك يثير ثائرتة على الحجاج فغضب عبد الملك من كلام خالد وقال : « أما كان الحجاج كفؤاً لعبد الله بن جعفر ؟ » (٢) ولكن خالدًا أتى عبد الملك من ناحية حساسة فقال : « يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجاج إليهم فيسعى لحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير ، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى أني ما أحب أكثر منهم حتى قلت :

أحب بني العوام طرّاً لجهـا ومن أجلها أحببت أخوالها كلبـا

(١) ابن شاکر ج ٥ ص ١٣٣ والأغاني ج ١٦ ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) ابن شاکر ج ٥ ص ٢٦٤ والأغاني ج ١٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

فأداء الأمانة حملني على ذلك يا أمير المؤمنين فقال عبد الملك : وصلتك رحم قد أدت الأمانة وقضيت الحق . ثم كتب عبد الملك إلى الحجاج إذا قرأت كتابي هذا فطلق ابنة جعفر قبل وضع الكتاب من يدك « فلما وصل إليه الكتاب طلقها ^(١) .

وبذلك كال خالد للحجاج بنفس الكيل ولكن الفارق بين الحاليين أن عبد الملك في المرة الأولى كان لا يملك أن يمنع خالداً من الزواج سيما وأنه وافق على مقدمات الخطبة . أما في الحالة الثانية فقد رأى أن هذا الزواج يعطي للعلويين فرصة في العراق ما كان أغناه عنها ولذلك أمره بطلاقها تثبيتاً لدعائم الدولة الأموية .

على أن الحجاج - وقد أحفظه سلوك خالد قبله في هذه الحادثة - صمم على أن يتزوج من هي أمسُ بخالد رحماً من مطلقة وقد نفذ ذلك فتزوج من أم الجلاس

- (١) ابن شاکر ج ٥ ص ٢٦٥ وراجع ابن عساکر ج ٤ ص ٥٢ وابن كثير ج ٩ ص ١٢١ والمبرد ص ١٩٧ .
- ويروي ابن عبد ربه ج ١ ص ١٤٦ والأبشيهي ج ٢ ص ٢٢٠ أن الذي دخل على عبد الملك وطلب منه أن يطلق الحجاج بنت جعفر هو الوليد لا خالد ؛ ولكننا نرجح الرواية الأولى لأسباب ثلاثة .
- أولها : أن العلاقة بين الوليد والحجاج كانت ودية .
- وثانيها : كثرة المصادر التي روت أن الذي قام بهذه المهمة خالد لا الوليد .
- وثالثها : ما روته بعض المصادر : ابن شاکر ج ٥ ص ٢٦٦ وابن قتيبة ج ٣ ص ٣٠٥ والمبرد ص ١٩٧ من أن الحجاج جلس بعد الطلاق يقول في خالد مقالة سوء .
- ولعل الذي دفع بعض المؤرخين إلى أن ينسبوا هذا العمل للوليد أن ابن جعفر وفد على عبد الملك بدمشق بعد أن أمر عبد الملك بالطلاق ؛ ولم يعلم ابن جعفر بذلك واستقبال الوليد له استقبالا جافاً أنه فيه على ما فعل .
- كما يروي المبرد ص ١٩٧ أن الحجاج أكره عبد الله بن جعفر على هذا الزواج فاستأجله ابن جعفر في نقلها إليه سنة ليفكر في طريق للخلاص من هذا المأزق فهداه تفكيره إلى أن يخبر خالد بن يزيد فكتب إليه يعلم بذلك وكان عبد الملك قد أذن للحجاج في هذا الزواج . فورد الكتاب على خالد ليلاً فلم ينتظر حتى الصباح واستأذن على عبد الملك فأذن له وقال له « فيم السرى يا أبا هاشم » فقال « أمر جليل لم آمن أن أؤخره فتحدث على حادثة فلا أكون قد قضيت حق بيعتك » قال : « وما هو » ؟ فذكر له العداوة التي كانت بين آل الزبير وآل أبي سفيان وأن زواجه برملة حبيبهم إليه ثم قال « فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون وما يقال فيهم والحجاج من سلطانه بحيث علمت » فشكره عبد الملك على نصيحته وكتب إلى الحجاج يأمره بطلاق ابنة جعفر .

بنت عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص (١) .

وكذلك كان خالد بن يزيد والحجاج يتبادلان « المقابل » فكما رأى الحجاج خالدًا حاول أن يحط من قدره وكذلك كان يفعل خالد .

يروى أن الحجاج مر بخالد بن يزيد وهو جالس في المسجد وعلى الحجاج سيف محلى وهو يتبختر في مشيته فقال رجل من قريش : من هذا الخطار . ؟؟ فقال خالد : « بخ بخ هذا عمرو بن العاص » فسمعه الحجاج فرجع إليه فقال : قلت هذا عمرو بن العاص؟! والله ما سرني أن العاص ولدني ولا ولدته ولكن إن شئت أخبرتك من أنا؟؟ أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش والذي ضرب بسيفه هذا مائة ألف كلهم يشهد على أبيك بالكفر وشرب الخمر . ثم انصرف وهو يقول هذا عمرو بن العاص (٢) .

ووفد الحجاج مرة على عبد الملك فدخل عليه وعنده خالد بن يزيد فقال له خالد : إلى كم هذا البسط إلى كم هذا القتل ؟ فقال : ما دام بالعراق رجل يزعم أن أباك كان يشرب الخمر . فسكت خالد ولم يتكلم (٣) .

سبق لنا أن قررنا أن علاقة الحجاج بعبد الملك كانت نتيجة تجربة واختبار وكذلك كانت علاقة الحجاج بالوليد هي الأخرى نتيجة تجربة واختبار مرن عليهما في حياة أبيه ، كما كانت نتيجة وصية من أبيه له بالاحتفاظ بالحجاج والاستماع لنصحه . فضلاً عن أن الحجاج كانت له على الوليد شبه منة إذ كان من الذين عملوا مخلصين على أن يعهد عبد الملك لابنه الوليد دون أخيه عبد العزيز .

(١) المبرد ص ١٩٧ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٦٦ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٣ ص ١٠٥ .

(٢) ابن عبد ربه ج ٢ ص ١٠٦ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٨٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٣ والأغاني ج ١٦ ص ٨٧ ويروي ابن شاعر ج ٥ ص ١٣٧ أنه قال له « كلهم يشهد أن أباك وجدك من أهل النار ثم لم أجد لذلك عندك شكراً » .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٨٣ .

ولا نعدو الحقيقة إذ قلنا : إن الحجاج لكل هذه الأسباب عاش بمثابة الأستاذ للوليد كما عاش الوليد بمثابة التلميذ للحجاج يعمل بقوله ويستمع لمشورته : فترى الحجاج يكتب إلى الوليد عند توليته الخلافة يهنئه ويقول له « عليك بالإسلام فقوم أوده وشرائعه وحدوده ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم فإنهم قلما يؤتى الناس من خير وشر إلا أفشوه ثلاثة أيام والسلام » (١) .

وها هو ذا الوليد يكتب للحجاج يسأله طريقته في الحكم فيجيبه الحجاج قائلاً : « إني أيقظت رأيي وأمنت هواي فأدريت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وصرفت السيف إلى النطق المسيء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب » (٢) .

وبينا كان الحجاج - في حياة عبد الملك - يرمى بالإسراف في الأموال إذا بنا نراه أيام الوليد يأخذ على الوليد إسرافه ويكتب له في ذلك ينكر عليه هذا الإسراف ويبين له وجه الخطأ فيه فيقف الوليد منه موقف التلميذ من الأستاذ فيجيبه قائلاً « لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً ولأفرقنه تفريق من يموت غداً » (٣) .

ويبدو لنا أن الحجاج - بما أوتي من نفوذ في إمارته وحظوة لدى الخليفة - قد استهدف لعداوة غير واحد من أعضاء البيت المالك .

فهذا عمر بن عبد العزيز وكان والياً على الحجاز يرى في تصرفات الحجاج في العراق ما لا يتمشى ونظرية الحكم الصالح فيكتب إلى الوليد ينبهه إلى عسف الحجاج مع أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية (٤) .

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج١ ص ١٠ ، ج٢ ص ١٢ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج١ ص ١٠ والنويري ج١ ص ٤٢ .

(٣) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٢ ص ١٥٩ .

(٤) الطبري ج٥ ص ٢٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٩ والعيني ج١١ ص ٣٣٤ وراجع ابن كثير ج٩ ص ٨٨ والأنابكي ج١ ص ٢٢٢ .

ولعل عمر فعل ذلك إجابة لوعي من عقله الباطن إذ كان يأخذ على الحجاج أنه مالا عبد الملك على أبيه عبد العزيز لمصلحة الوليد .

أما الوليد فأكبر ظننا أنه كان مدرگا لما بين الحجاج وعمر لذلك نراه لا يعير كتاب ابن عمه الأهمية التي تتناسب ومقام كاتبه ؛ وعندئذ نرى الحجاج يكيل لعمر بنفس الكيل فيكتب إلى الوليد (إن من قبلي من سراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى مكة والمدينة وأن ذلك وهن) (١) .

ويقف الوليد من الحجاج موقفًا يختلف عن موقفه من عمر بن عبد العزيز يؤمن الوليد بما قاله الحجاج ويقرر في نفسه أن سياسة عمر في الحجاز لا تتناسب مع حزم الحجاج في العراق ويخرج من ذلك إلى الجزم بعدم صلاحية عمر للحجاز؛ ولكنه يريد أن يدبر أمر الحجاز قبل إخطار عمر بعزله ويريد أن يدبر هذا الأمر بمشورة الحجاج فيكتب إليه (أن أشر عليّ برجلين) فيرشح الحجاج عثمان بن حيان وخالد بن عبد الله ، فيعزل الوليد عمر ويولي بدله هذين : خالدًا مكة وعثمان المدينة (٢) .

وبذلك رجح الوليد كفة الحجاج على كفة عمر وقد ثارت حفيظته لذلك حتى قال « الحجاج بالعراق والوليد بالشام وعثمان بن حيان بالمدينة وقرة بن شريك بمصر امتلأت الدنيا - والله - جورا (٣) » .

ولعل الحجاج كان متأثرًا بهذه الخصومة يوم أن أذن له بالدخول على الوليد وهو في غلالة فدخل وعليه درع وكنانة وقوس عربية وأطال الجلوس عنده فبينما هو

(١) الطبري ج٥ ص ٢٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٩ والعيني ج١١ ص ٣٣٤ وراجع ابن كثير ج٩ ص ٨٨ والأتابكي ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٩ وابن كثير ج٩ ص ٨٨ .

(٣) المبرد ص ٢٩٤ والذهبي - دول الإسلام ج١ ص ٩١ والأتابكي ج١ ص ٩٦ وابن عبد الحكم - سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧٢ .

يحادثه إذ جاءت جارية فساررت الوليد ومضت ثم عادت فساررت ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج « أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد »؟؟ قال لا والله . قال « بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة » فأرسلت إليها أنه الحجاج فراعها ذلك وقالت « والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق » فقال الحجاج « يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعن على شرك ولا مكايذة عدوك ولا تطعنن في غير أنفسهن ولا تشغلنن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن في الأمور فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن وإكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك » .

ثم نهض الحجاج وخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت : « يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غداً بالتسليم علي » . فقال « أفعل » . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له « يا أبا محمد سر إلى أم البنين فسلم عليها » فقال « أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين » . فقال « لا بد من ذلك » .

ففض الحجاج إليها فحجبتة طويلاً ثم أذنت له فتركته قائماً ولم تأذن له في الجلوس ثم قالت « إيه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في الإسلام ؛ وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن فأضللتك رماحهم وأنجأك كفاحهم ولولا ذلك لكنت أذل من النقد ؛ وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت عنك أملك فما أحقه بأخذه عنك والقبول منك

وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل ولا مصغ إلى نصيحتك ، قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسان غزاله الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
أخرجنه عني .

فدخل على الوليد من فوره فقال : « يا أبا محمد ما كنت فيه » ؟؟ فقال « والله يا أمير المؤمنين ما سكنت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظاهرها » فضحك الوليد حتى فحس الأرض برجله ثم قال « يا أبا محمد إنها بنت عبد العزيز » (١) .

وهذه قصة لو صحت لأسفرت عما يكنه آل عبد العزيز - عمر من ناحية وأم البنين من الناحية الأخرى - من حقد على الحجاج لموقفه من أبيهم مرة ومن عمر مرة أخرى .

على أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الحجاج لم يحمل الضغن لعمر بدرجة تجعله يناصبه العدا في كل شيء فلقد رأينا الحجاج - في أخريات أيام الوليد - يعمل على أن يؤول الأمر لعبد العزيز بن الوليد بدلاً من أخيه سليمان بن عبد الملك .

ونرى من الإنصاف للموقف أن نقول إن الحجاج - فيما أشار به على الوليد - لم يكن محاييلاً آل عبد العزيز بقدر ما كان ناظرًا لمصلحته الشخصية إذ كانت الخلافة توشك أن تؤول إلى سليمان بن عبد الملك وبينه وبين الحجاج ما سرى .

ويبدولنا أن برتولد (٢) أساء فهم الموقف بين الحجاج وآل عمر بن عبد العزيز حيث قال إن عداوة عمر وبقية عائلته للحجاج كانت من أجل ميوله الكلبية .

(١) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ وابن عبد ربه ج٢ ص ١٥ وابن قتيبة ج١ ص ١٦٩ .

(٢) إسلاميكا ج٤ .

ولكن عند آخر حكومة الوليد الأول حصل الصلح بين آل عبد العزيز والحجاج بسبب أنه رغب في أن يرى ابن الوليد وأم البنين على العرش بدلاً من سليمان .

وواضح مما ذكرنا أن العداوة بينهما لم تهدأ في يوم من الأيام وأن الميول الكلبية إن كانت لها أي أثر في هذه العداوة فقد كانت أثراً ثانوياً .

أما قصة الصلح التي فهمها برتولد فهي قصة لا أساس لها إذ الواقع أن الحجاج كان يعمل لمصلحته الذاتية فجاءت خدمته لبیت عبد العزيز عرضاً .

ويؤيد دعوانا في استمرار العداوة أنه عندما مات الحجاج قال « رغم أنفي لله أن قطع مدة الحجاج ^(١) وخر ساجداً شكر الله على موته » ^(٢) .

وعندما جلس الوليد للعزاء فيه لم يتكلم عمر كما تكلم غيره حتى ألجأه الوليد إلى الكلام فقال « وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا » ^(٣) ؟؟ .

وقد ظلت حفيظة آل عبد العزيز على الحجاج قائمة على رجاله بعد موته إذ أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج لما وجده فيه من الأمانة فأشار عمر بن عبد العزيز بأن لا يستخدمه فكان له ما أراد ^(٤) ؛ وقد تحاشى عمر في خلافته أغلب العمال الذين كانوا من مدرسة الحجاج ^(٥) .

وهذا سليمان بن عبد الملك - ولي العهد يكتب إلى الحجاج الكتب الكثيرة فلا ينظر فيها ؛ فيكتب سليمان كتاباً قاسياً شديداً اللهجة يصارحه فيه بالبغض والعداوة ويتوعده بالتنكيل إذا ما ولي الأمر ؛ فيجيبه الحجاج بقوله « إنك لصبي

(١) ابن عبد الحكم - مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٢٤ .

(٢) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨ .

(٣) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٩ وراجع مناقب عمر لابن عبد الحكم ص ٢٤ .

(٤) الجاحظ ج ١ ص ٢١٠ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٨٠ والعيني ج ١١ ص ٤٠٨ وابن خلكان ج ٢ ص ٢٧٧ وشذرات الذهب ج ١ ص ١٢٤ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ٣١٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٥٨ .

حديث السن تعذر بقله عقلك وحدائث سنك فكان الجفاء من خليقتك والحق من طبيعتك أقبل بك الشيطان وأدبر وحدثك أنك لن تكون كاملاً حتى تتعاطى ما يعيبك ثم يقول في آخر الكتاب : مع أنني أرجو أن ترغب فيما رغبت فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لها ؛ وإن نفخ الشيطان في منخريك فهو أمر أراد الله نزعك منك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك ؛ ولعمري إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلها قبل وإن ترددها علي اقتطعتها دونك وأنا الحجاج ^(١) .

وفي اعتقادنا أن الحجاج لم يكن يجرؤ على مكاتبة أخ لأمر المؤمنين وولي العهد بهذه اللهجة القاسية إلا إذا كان مطمئناً كل الاطمئنان لما يفعل ؛ ومن أين له الاطمئنان إلا بوثوقه بثقة الخليفة فيه وعدم استغنائاه عنه ؟ .
ولا يصح أن يقال إن سليمان قد عاب الحجاج في خطابه عيباً فاحشاً ففعل الحجاج ما يجب على كل أبي أن يفعل ، فما هكذا تكون علاقة الولاة بإخوة الخلفاء وولاة العهد .

وترجع عداوة سليمان للحجاج فوق السبب العام - من شعور أعضاء البيت المالك بالغيرة والحسد للحجاج على نفوذه الواسع وسلطته المطلقة - إلى كتبه الكثيرة إلى الخليفة الوليد مطالباً بإرجاع أولاد المهلب إلى السجن بعد التجائهم إلى سليمان وتشدد الوليد مع سليمان في ذلك وإبائه إلا الإتيان بهم مما اضطر سليمان أن يوثق ابنه معهم في السلسلة ليدخلوا جميعاً على الوليد بهذه الصفة إشعاراً بأن سليمان قد وضع ابنه معهم على قدم المساواة مع أبناء المهلب . عسى أن يرق قلب الوليد .

وقد نجح سليمان في وسيلته هذه فقد قال الوليد : والله قد شققنا على سليمان . فأعادهم إليه وكتب إلى الحجاج (إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفف عنهم ، وائتني عن الكتابة إلي فيهم) ^(٢) .

(١) راجع ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) راجع الطبري ج ٥ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٥ ، ١١٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٧ .

آلم ذلك الحجاج فحفظها لسليمان حتى إذا ما أراد الوليد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز ودعا الناس إلى ذلك أجابه الحجاج ورحب بالفكرة وعمل على نجاحها ؛ ولكن الظروف لم تساعد الوليد على إتمام هذا العمل فقد كتب إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه وكان بالرملة فأبطأ عليه فعزم الوليد على أن يخرج إليه هو فيخلعه ؛ وبينما هو يستعد إذ وافته المنية فمات (١) .

وكان الحجاج يخشى موت الوليد وهو حي وطالما سأل الله أن يجعل منيته قبل الوليد فحقق الله رجاءه ومات قبله .

وبلغ من خشية الحجاج خلافة سليمان أن مرض الوليد مرة واشتد عليه المرض حتى أغمي عليه وسار البريد إلى الحجاج بموت الوليد فاسترجع وشد في يده حبلاً إلى أسطوانة وقال : اللهم لا تسلط علي من لا يرحم فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتي قبله . فبينما هو كذلك يدعو إذ قدم عليه البريد بإفاقة فخر الحجاج ساجداً لله وكتب إليه يهنئه ببراءته وأعتق كل مملوك له وبعث إليه بقوارير من أنبج الهند ثم شفع ذلك بأن وفد عليه في وفادة من أهل العراق .

ولقد كان الوليد على علم بموقف الحجاج من سليمان إذ قال عندما أفاق « ما أحد أشد سروراً بعافيتي من الحجاج » (٢) .

مات الحجاج ومات الوليد وولي سليمان الخلافة بعد أن أفلت الحجاج من بين يديه بالوفاة فركز سليمان الحفيظة على أسرته ، بينما قرب آل المهلب محبة لهم من ناحية وتعويضاً لهم عما أصابهم من الحجاج من ناحية أخرى .

استهل سليمان عهده بأن قبض على كثير من آل الحجاج وأسلمهم إلى يزيد بن المهلب ليستخلص منهم الأموال ويعذبهم فلم ينج منهم أحد مهما بعدت شقة السفر بينه وبين دار الخلافة .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٧ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٦٦ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٨ .

ومن الرؤوس اليانعة التي عصفت بها حفيظة سليمان على آل الحجاج الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي ^(١) - والي البصرة في عهد الحجاج - ومحمد بن القاسم الثقفي أول من رفع راية الإسلام عالية في ربوع السند ^(٢) .

ولو أن سليمان لم تسيطر عليه عاطفة الانتقام من الحجاج في شخص محمد بن القاسم لتغير وجه التاريخ الإسلامي في ربوع الهند .

وقد اشتد آل المهلب في إيذاء آل الحجاج حتى جاوزوا في الشدة كل معقول فقد قبض يزيد على أم الحجاج ^(٣) على الرغم من أنها زوج يزيد بن عبد الملك وبذلك تغلبت حجاجيتها بالبنوة على ما كان لها من مكانة بالزواج ؛ ولم يشفع لها أنها كانت زوجة لأخي الخليفة .

وقد كبر الأمر على يزيد بن عبد الملك فأتى ابن المهلب في بيته ليشفع لها ويدفع ما عليها فلم يقبل فحمل يزيد بن المهلب منه ذلك . وكان مائة ألف دينار وقيل أكثر .

ولقد أشار سلوك بن المهلب ثائرة يزيد حيث قال « أما والله لئن وليت من الأمر شيئاً لأقطعن منك عضواً » .

ويبدو أن شباب سليمان بن عبد الملك جعل ابن المهلب لا يعبأ بهذا التهديد فكان يقول في نفسه وأين هذا من الخلافة ولذلك نراه يرد عليه قائلاً « وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف » ^(٤) .

(١) ابن الجوزي - مرآة الزمان ج٩ ص٣ وابن شاكر ج٥ ص٢٨٩ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص٤٤٦ وابن الأثير ج٤ ص١٣٤ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص١٦٠ وقيل إن الذي قبض عليه أخت لأم الحجاج . نفس المصدر .

(٤) ابن الأثير ج٤ ص١٦١ .

واستمر ابن المهلب يتمتع بنفوذ كبير في عهد سليمان حتى ولي عمر بن عبد العزيز فقبض عليه يزيد وحبسه لاعتقاده فيه الطغيان والجبروت (١) ؛ فلما اشتد بعمر بن عبد العزيز المرض هرب ابن المهلب من سجنه خوفاً من سميّه واستعداداً للثورة التي أقامها في عهد يزيد بن عبد الملك تلك الثورة التي انتهت بقتله (٢) .

وهكذا كان اتساع نفوذ الحجاج في أيام الوليد وابنه عبد الملك سبباً في نكبة آلّه من بعده على يد أولئك الأمراء الذين أغضبهم الحجاج في سبيل العمل على ما فيه صالح الخلافة .

عاصر الحجاج الوليد بن عبد الملك نحو عشرة أعوام كان فيها الساعد الأيمن للخلافة فتمتع بمحبة الوليد وإخلاصه وكان الوليد يرى فيه العامل المخلص والوالي الذي لا يستغنى عنه فكان يقول « إن أبي كان يقول إن الحجاج جلدة ما بين عيني ؛ وأنا أقول إنه جلدة وجهي كله » (٣) .

وكان الوليد والحجاج يتبادلان الاحترام والتقدير .

وفد الحجاج مرة على الوليد فوجده في بعض نزهه فاستقبله فلما رآه الحجاج ترجل له وقبل يده وجعل يمشي فقال له الوليد « اركب يا أبا محمد » فقال « دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك » فعزم عليه الوليد حتى ركب ودخل الوليد داره وتفضل في غلالة وعلى الحجاج درع وكنانة وقوس عربية (٤) .

(١) الطبري ج٥ ص ٣١٢ وابن الأثير ج٤ ص ١٥٧ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٣١٧ ، ٣٤٨ وابن الأثير ج٤ ص ١٦٠ ، ١٧١ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٨ والجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ٢٣٧ ، ج٢ ص ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٤) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٩ .

وقد بلغ من تقدير الوليد للحجاج ورغبته في أن يظل رجله أن زوج ابنه مسرورًا بابنة للحجاج ^(١) .

من هذا يتبين أن الوليد كان يحب الحجاج ويحله ولم يكن الأمر بينهما على ما ذكره برييه ^(٢) من أن الوليد أبقى الحجاج متبعًا لنصيحة أبيه مع أنه كان لا يحبه ؛ ولكنه احتفظ به لأنه في حاجة إلى خدماته . ويتبين لنا أيضًا أن الوليد كان يتمتع بسعة النفوذ واتساع السلطان .

ولا تحدثنا المصادر - فيما وصلنا إليه - عن مرة واحدة كتب فيها الوليد للحجاج مثل ما كان يكتب إليه عبد الملك من كتب شديدة اللهجة عندما كانت تثيره عليه الحاشية .

ومن ذلك نستطيع أن نستخلص أن الوليد لم يتأثر في معاملة الحجاج بتلك المؤثرات التي خضع لها عبد الملك .

وإن نعجب فعجبنا للسير ولیم مویر الذي عكس القضية فقال « إن الوليد كان يكبح جماح الحجاج أكثر مما فعل سلفه !! » ^(٣) .

ولما مرض الحجاج مرضه الأخير كتب إلى الوليد كتابًا جاء فيه .

(أما بعد فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ؛ فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعى كل ممزق ؛ وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياهم وتكفيرًا لما حمل من ذنوبه) ثم كتب في آخر الكتاب :

إذا ما لقيت الله عني راضيًا
فحسبي بقاء الله من كل ميت
فإن شفاء النفس فيما هنالك
وحسبي حياة الله من كل هالك

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٩ .

(٢) حياة الحجاج كما تراه المصادر العربية ص ٢٧٢ .

(٣) الخلافة ص ٣٦١ .

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلك
 فإن مت فاذكرني بكل محبب فقد كان جماً في رضاك مسالك
 وإلا ففي دبر الصلاة بدعوة يُلَقَّى بها المسجون في نار مالك
 عليك سلام الله حيًّا وميتًا ومن بعد ما تحيا عتيقًا لمالك (١)

ثم مات بعد ذلك .

فلما مات تفجع عليه الوليد وجلس للعزاء فيه محزونًا عليه وما زال مهمومًا حتى
 دَخَلَ عليه الفرزدق - الشاعر - فرثى الحجاج رثاءً أَرْضَى الوليد وأقر عينه فقد قال :

ليبك على الإسلام من كان باكيًا على الدين من مستوحش الليل خائف
 وأرملة لما أتاهَا نَعِيُّه فجادت له بالواكفات الزوارف
 وقالت لعبديها أنيخا فعجلا فقد مات راعي ذودنا بالتناثف
 فليت الأكف الدافنات ابن يوسف يقطعن أويجشن فوق السقائف
 فما ذرفت عيناى بعد محمد على مثله إلا نفوس الخلايف (٢)

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجاج ويشنون عليه خيرًا .
 وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجاج شيئًا وألجأه إلى
 الكلام فقال « وهل كان الحجاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزِّي فيه
 ولا نُعزِّي » (٣) .

وقال الوليد « لأشفعن في الحجاج عند الله » (٤) .

ووفاءً لذكرى الحجاج أقر الوليد العمال الذين استخلفهم (٥) .

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج١ ص ١٥٦ وأبو علي القالي ذيل الأمالي والنوادر ص ١٧١ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٩ وديوان الفرزدق ص ٢١٢ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٩ ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٤ .

(٤) الجاحظ - المحاسن والأضداد ص ١٢٦ والأتابكي - النجوم الزاهرة ج١ ص ٢١٨ .

(٥) الطبري ج٥ ص ٢٦٤ .

الباب الثالث

الثورات في عهد الحجاج

الفصل الأول

ثورة ابن الجارود

خطبة الحجاج برستقباد . المناقشة بين الحجاج وابن الجارود بشأن زيادة العطاء . قيام الثورة والحرب بين الحجاج وابن الجارود . قتل ابن الجارود وتشتيت شمل أصحابه . موقف الحجاج من أنس بن مالك . ثورة الزنج .

سبق أن ذكرنا أن الحجاج عندما ذهب إلى البصرة خرج إلى رستقباد ليشد أزر المهلب في حربه مع الأزارقة ^(١) ولما كان برستقباد قام يومًا خطيبًا فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال « إن الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليتة كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون . ألا وإني أعلم بشاركم من البيطار بالفرس الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرًا ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا . ألا وإنما الدنيا عرض زائل يأكل منها البر والفاجر والآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قاهر . ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر ؛ وإعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ألا وإن الخير كله بمخافته في الجنة والشر كله بمخافته في النار . ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ^(٢) .

ألا وإن الزيادة التي زادها ابن الزبير في أعطياتكم زيادة فاسق منافق لسنا نجيزها « ^(٣) .

(١) راجع الكتاب ص ١٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ١٣١ وابن شاعر - عيون التواريخ ج ٥ ص ٥٦ .

وفي رأينا أنها مقدمة ساقها الحجاج للحديث على الزيادة في العطاء .

(٣) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٨٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن شاعر ج ٥ ص ٥٦ .

فقال عبد الله بن الجارود - وكان من أشراف البصرة - « إنها ليست بزيادة ابن الزبير وإنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر ابن مروان » فقال له الحجاج « ما أنت والكلام ؟؟ !! لتحسن حمل رأسك أو لأسلبك إياه » فقال : ولم ؟ إني لك لناصح وإن هذا قول من ورائي ^(١) . واستمرت المشادة العنيفة بين الحجاج وابن الجارود وكل منهما يجادل الآخر في أمر هذه الزيادة فالحجاج يقول إنها زيادة ابن الزبير لا يلتزم هو بها ، وابن الجارود يقول إنها زيادة أجازها عبد الملك على يد أخيه بشر وهي بذلك ملزمة للحجاج .

ويلفت النظر في هذا الموقف قول ابن الجارود « إن هذا قول من ورائي » مما يدل على أن أمر الزيادة في أعطيات الجند كان من المسائل التي بيتهها بعض أهل البصرة وأناوبوا عنهم ابن الجارود في الكلام عليها .

وفي الوقت الذي لا نخفض فيه من أمر أعطيات الجند وأهميتها في نظرهم - نستطيع أن نقرر أن الأمور لو كانت سائرة بين الحجاج وأهل البصرة على ما يرام لنوقشت مشكلة إعطاء الجند في جو أهدأ من هذا الجو ؛ ولكن أهل البصرة الناقون على الحجاج شدته وعنفه والذين تحملت نفوسهم منه قبل مجيئه للبصرة ^(٢) ما كانوا ليتركوا أمراً من الأمور يثير الجدل بينهم إلا التسوه ، وأعطيات الجند تكأة طيبة للخروج على الحجاج في أمر يبدو بعض الحق في جانب الثائرين له .

وفي رأينا أن مصعباً إن كان قد فرض زيادة في أعطيات الجند كما روت بعض المصادر من أنه زادهم في العطاء مائة مائة ^(٣) فإنها لم تكن إلا من قبيل الوعد الذي يعطيه محرج ؛ ونرجح أنه إذا كان قد أعطى مثل هذا الوعد فإنه لم ينفذه .

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٨٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٢ ص ٤٢ والذهبي ج ٣ ص ٤٥٦ .

(٢) المبرد - الكامل ص ٦٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٢ .

يدلنا على ذلك أن الجند في عهده كانت في حالة سيئة تشكو قلة المواد الغذائية فيقول بعضهم عندما نكح مصعب سكينه بنت الحسين أو عائشة بنت طلحة .

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح ما إن يريد متاعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل وتبيت قادات الجيوش جياعا (١)

فإذا فرضنا أن الجند قد زيدت أعطياتهم في عهد مصعب فإننا نرجح أن هذه الزيادة ما فرضت إلا في أيام المحنة التي كان يعانيها مصعب في أواخر أيامه ؛ ولا يبعد أن يكون فرضها استشارة لهمة الجند وحفزاً لهممهم على الاستمرار في حرب عبد الملك الذي مناهم ووعدهم الوعود الكثيرة ومعرفة مصعب لذلك (٢) .

أما مصعب وقد قتل وجاءت إلى العراق حكومة جديدة فأكبر ظننا أن هذه الحكومة لم تبدأ عهدها بإلغاء الزيادة في أعطيات الجند اجتناباً لثورة تقوم عليها قبل أن يستقر أمر العراق فتركت أعطيات الجند دون إقرار للزيادة أو عود إلى الأصل فظلت الحال كذلك إلى أن وفد الحجاج إلى العراق فواجهته هذه المشكلة .

ويبدو لنا أن ابن الجارود في يومه هذا لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان إلى مؤازرة أهل البصرة له وإن كان قد واجه الحجاج بقوله : « إن هذا قول من ورأئي » إذ نراه يسدل الستار على هذا الفصل من مأساته ويرجيء الأمر إلى أن يتدبر الموقف .

أما الحجاج فقد رأى في وقفة ابن الجارود ما يحمله على أن يمكث شهراً لا يذكر أمر هذه الزيادة لا بخير ولا بشر .
وفي خلال هذه الهدنة كان ابن الجارود يجمع إليه الأنصار والأعوان من معتنقي رأيه الراغبين في الخروج على الحجاج ، بينما كان الحجاج يستهوي البعض من أهل العراق للانضمام إلى جانبه .

(١) راجع أنساب الأشراف للبلاذري جده ص ٢٨٢ .

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذري جده ص ٣٣٧، ٣٣٩ والكامل لابن الأثير جده ص ١٠ والطبري جده ص ٧ .

فلقد أثبت مرة أخرى مشكلة الأعطيات ؛ بينما كان ابن الجارود يوجه حديثه إلى الحجاج بمثل ما سبق إذا بمصقلة بن كرب العبدي يقول « إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها وقد سمعنا ما قال الأمير فسمعا وطاعة فيما أحببنا وكرهنا » فشته ابن الجارود وقال له « يا ابن الجرملانية ما أنت وهذا » ؟؟ ومتى كان مثلك يتكلم وينطق بمثل هذا (١) ؟؟ .

أجمع القوم إلى ابن الجارود وعلى رأسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي والهذيل بن عمران البرجمي وغيرهما من أشرف أهل البصرة وصوبوا رأيه وقوله وأبانوا أنهم معه وأعوانه ؛ وقالوا إن هذا الرجل غير كاف حتى ينقصنا هذه الزيادة فهل نبايعك على إخراجك من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره فإن أبي خلعناه ، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج .

فوافق الحاضرون على ذلك وبايعوا ابن الجارود وأخذوا الموائيق والعهود بعضهم على بعض بالوفاء . وقد سر أهل البصرة بتلك الحركة ، وتوسموا في ابن الجارود القائد الكفء والشخصية العظيمة (٢) .

علم الحجاج بتلك المؤامرة الواسعة النطاق فأحرز بيت المال واحتاط فيه حتى يستعين به ولا يكون عوناً لهم في حركتهم هذه التي بدأت في ربيع الآخر من سنة ست وسبعين بقطع الجسر - وكانت خزائن الحجاج والسلاح من ورائه - فأرسل

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ج١١ ص ٢٨١ والكامل ج٣٦ ، ٣٧ وابن خلدون ج٣ ص ٤٢ .

(٢) ابن الأثير - الكامل ج٤ ص ٣٧ وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر ج٣ ص ٤٢ .

وقد ظهر ذلك على لسان بعضهم فقال رجل من بني عجل :

أخلق بعبد الله أن يسوسا	وأن يقود جحفلا خميسا
ويخلعوا الخليفة المقعوسا	إذ قلـدوا أمرهم الرئيسا
أكرم به من قائد قدموسا	نحن قتلنا مصعبا وعيسى

وكم قتلنا منهم بئسنا

البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٨٢ .

الحجاج إلى أعين صاحب حمام أعين بالكوفة - مولى بشر بن مروان - إلى ابن الجارود يستدعيه إليه فقال ابن الجارود للرسول « لا ولا كرامة لابن أبي رغال ولكن يخرج عنا مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه » .

فلما قال ذلك أبلغه أعين رسالة الحجاج شفويّاً فقال « أتطيب نفسك بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك ؛ والذي نفسي بيده لأن لم تأتني لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة حديثاً للغابرين » . فقال ابن الجارود : « لولا أنك رسول والرسول لا تقتل لقتلتك » ؛ وأمر به فضرب وأخرج .

وبدأ زحفهم نحو الحجاج - والحجاج ليس معه إلا خاصته وأهل بيته - حتى وصلوا فسطاطه فنهبوا ما قدروا عليه من متاع ودواب واحتمل أهل الين امرأته بنت النعمان بن بشير وجاءت مضر فأخذت امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عمرو^(١) .

ولعل الثوار كانوا يريدون إرهابه وتخويله حتى يخرج من العراق دون حرب فيها خروج على الخليفة ، وأكبر الظن أنهم كانوا هائبين للحجاج .

يدلنا على ذلك أنه أتاه قوم من البصرة فصاروا معه فلما كثر إقبال الناس على الحجاج خائفين من الخروج على الخليفة بالحرب في صف ابن الجارود قال الغضبان ابن القبعثري الشيباني لابن الجارود « تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك أما ترى من قد أتاه منكم ولئن أصبح ليكثرن ناصره^(٢) » ؛ فقال ابن الجارود « قد قرب المساء

(١) ابن الأثير ج٤ ص ٣٧ وابن خلدون ج٢ ص ٤٢ والبلاذري ج١١ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص ٣٧ وابن خلدون ج٢ ص ٤٣ والبلاذري ج١١ ص ٢٨٤ .

يلفت النظر في قصة الغضبان وما ورد فيها من قوله : تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك أن المصادر اختلفت في المناسبة التي أوردت فيها هذه القصة ؛ وقد انفرد المسعودي ج٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦ بأيرادها على أنها حدثت مرتين الأولى قبيل وفود الحجاج على العراق . إذ قالها الغضبان لأهل الكوفة يستحثهم على الفتك بالحجاج قبل وصوله .

وفي رأينا أن المسعودي لم يوفق في إيراد القصة في هذا المقام . إذ المتواتر وما أجمعت عليه المصادر هو أن الحجاج وصل الكوفة دون أن يعلم بأمره أحد من أهلها .

ولكننا نعالجه بالغداة » .

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الجارود ، كان الحجاج يفكر في الأمر ويشاور خاصته ؛ وكان معه عثمان بن قطن الحارثي وزياد بن عمرو العتكي فأشار زياد - صاحب شرطة البصرة - بأن يأخذ له الأمان من ابن الجارود ويخرج فيلحق بأمير المؤمنين لأن الناس قد انصرفوا عنه .

وأشار عثمان بمخالفة هذا الرأي قائلاً : أن أمير المؤمنين قد شركك في أمره وخلطك بنفسه واستنصحك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير وهو أعظم الناس خطراً فقتلته فولاك الله شرف ذلك وسناه وولاك أمير المؤمنين الحجاز ثم رفعت فولاك العراقيين فحيث جريت إلى المسدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام ؟! والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من سلطان أبداً وليتضمن شأنك . ولكنني أرى أن تمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً . فقال له الحجاج : الرأي ما رأيك . وحفظها لعثمان وحقدتها على زياد . ومن حسن فطنة الحجاج أنه لما جاءه عمر بن مسمع يقول له : قد أخذت لك أماناً من الناس جعل الحجاج يغالطه رافعا صوته لسمع الناس ويقول : والله لا أؤمنهم أبداً حتى يؤتوني بالهزيل بن عمران وعبد الله بن حكيم . وبذلك استطاع الحجاج أن يوهم سامعيه بقدرته على أخمد الثورة وأن كفته لا تزال هي الراجحة . على أنه بينما كان يفعل ذلك كان في الوقت نفسه يستشير زعماء البصرة لنجدته فقد أرسل إلى عبيد بن كعب النخري يقول له : هلم إلى فامنعني . فقال عبيد للرسول قل له : أن أتيتني منعتك . فقال الحجاج بنفسه العالية : لا ولا كرامة .

= أما المناسبة الثانية التي أوردتها المسعودي جـ ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ويتفق معه فيها الأبشيهي جـ ١ ص ٤٩ وصاحب الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٧ ، ٢٨ فهي مناسبة ثورة ابن الأشعث . وقد رأينا أن البلاذري وابن الأثير وابن خلدون قد وضعوها في ثورة ابن الجارود : وهذا في نظرنا أرجح لسببين :

الأول مكانة هؤلاء التاريخية مقارنة بمكانة أولئك .

والثاني أن القصة مستساغة الحدوث في ثورة ابن الجارود مستبعدة الوقوع في ثورة ابن الأشعث .

وبعث إلى محمد بن عمير بن عطار فقل : لاناقتي في هذا ولا جلي ؛ ولكن إن أتى منعه وهكذا لم يجبه أحد (١) .

ولما قعد هؤلاء عن تلبية طلبه أحس الحجاج بالخرج وكاد اليأس أن يتطرق إليه لولا أن صادفه ظرف لم يكن في الحسبان .

ذلك أنه بينما كان ابن الجارود وابن الهذيل وابن حكيم - زعماء الحركة - يتكلمون في رسم الخطط مر بهم عباد بن الحصين الحبطي فقال لهم : أشركونا في نجواكم . فقالوا : هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط ، فغضب وسار إلى الحجاج في مائة رجل فاطمان الحجاج وقال : ما أبالي من تخلف بعدك .

وتبدو سياسة الحجاج وبعد نظره في قوله هذا فهي جملة من شأنها أن تستهوي عبداً إذ كان أول منضم إلى الحجاج .

وسعى إلى الحجاج قتيبة بن مسلم في جماعة قائلًا : والله لا ندع قيسياً يقتل وينهب ماله (٢) ثم جاءه سيرة بن علي وأسلم بن زرعة الكلبي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف وأرسل إليه سمع بن مالك (إن شئت أتيتك وإن شئت أقت وثبطت الناس عنك) فقال له الحجاج : أقم وثبط الناس عني .

وقد أنصف الحجاج في اتباع هذه السياسة ، فتثيبت الناس عن الحجاج لا يقل أهمية عن القتال معه، ولم يأت الصباح حتى كان جمع الحجاج نحو الستة آلاف فعباهم الحجاج . وقد أربع ذلك ابن الجارود واستشار عبد الله بن ظبيان في الموقف فقال ابن ظبيان : الرأي تركته بالأمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك ، وقد ذهب الرأي وبقي الصبر .

عباً ابن الجارود أصحابه فجعل على ميته الهذيل وعلى ميسرته عبد الله بن ظبيان . أما الحجاج فجعل على ميته عباد بن الحصين وقيل قتيبة بن مسلم وعلى

(١) ابن الأثير ج٤ ص ٣٧ ، ٣٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ والبلاذري ج١١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص ٢٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

ميسرته سعيد بن أسلم . ودارت رحى المعركة مدة من الزمن كانت الغلبة في مبدئها لآل الجارود وانتهت لمصلحة الحجاج بعد أن قتل ابن الجارود^(١) .

عند ذلك نادى منادى الحجاج بأمان الناس جميعاً ألا الهذيل وابن حكيم وأن يلحق الناس بأمصارهم^(٢)

وكان من حسن سياسته عدم اتباع المنهزمين من عامة الناس فقد قال الاتباع من سوء الغلبة^(٣) .

أما زعماء الحركة - أولئك الذين اعتبرهم الحجاج مسؤولين عن هذه الفتنة فلم تأخذه فيهم رحمة ولم تنفع فيهم شفاعته - ذلك أن الحجاج كان يعتقد أنهم خرجوا عليه في أخرج الأوقات وهو مشغول بحرب الخوارج ولو نجحت فتنتهم لفسد عليه الأمر وتقوى العدو الذي كان يرقب الحالة عن كثب وينتظر هزيمة الحجاج .

تبع الحجاج هؤلاء فلم تنفع لديه الوساطات ولا الشفاعات مهما كان الشافع عظيماً فقد تقدم إلى الحجاج ثلاثة من خيرة أصحابه هم عباد بن الحصين وسعيد بن أسلم وقتيبة بن مسلم يشفعون لابن هذيل وابن حكيم معتمدين في شفاعتهم على أن لهم فضلاً عظيماً في نصرة الحجاج ، ولكن الحجاج عندما أحس بأن هؤلاء سيحدثونه في شأنهم وأنه قد لا يستطيع ردهم بادر إلى قتلهم حتى يصبح الوسطاء لديه أمام الأمر الواقع^(٤) .

وكان الحجاج يعتقد أن في قتل هذين الزعيمين قضاءً تاماً على الفتنة إذ أنه لو أبقى عليهما لألبا عليه الناس ، شجع الحجاج على ما فعل أن الهذيل كان يرى في نفسه ألا سلطان لأحد عليه وأن الحجاج كان يحفظ عليه أنه دخل عليه مرة وهو يجر ثوبه فقال : يا هذيل ارفع ثوبك ! فأجابه هذيل إن مثلي أيها الأمير لا يقال

(١) ابن الأثير ج٤ ص ٣٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص ٣٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ٣٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٢٩٢ .

(٤) ابن الأثير ج٤ ص ٣٨ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٢٩١ .

له هذا القول (١) وما كان الحجاج ليرضى وهو يعاني أزمة الخوارج أن يبقى على ظهر الوجود رجل يجابهه بهذا القول ويشترك اشتراكاً فعلياً في ثورة كادت أن تفسد الأمر على الحجاج .

ولما كان انتصار الحجاج على ابن الجارود من شأنه أن يرفع الروح المعنوية في جند الخلافة الذي كان يحارب الخوارج ويفت في عضد الخوارج الذين كانوا ينتظرون هزيمة الحجاج أمام ابن الجارود فقد أستصوب الحجاج أن يبعث إلى معسكر المهلب بالأدلة المادية على انتصاره فبعث برأس ابن الجارود ورؤوس ثمانية عشر من أصحابه إلى ميدان القتال (٢) فكان لذلك من النتائج ما توقعه الحجاج .

وأما عبد الله بن ظبيان من صاحب ميسرة ابن الجارود فقد هرب إلى عمان عند سعيد بن الجلندي الأزدي فقبل لسعيد أن ابن ظبيان رجل فاتك فاحذره فأرسل له نصف بطيخة مسمومة وقال له هذا أول شيء جاءنا من البطيخ فأكله فمات واستراح الحجاج منه (٣) .

استتب الأمر للحجاج بالبصرة وأقبل على مجلسه كثير ممن خرج عليه فكان الحجاج يعاتبهم تارة ويلومهم أخرى ويستهزئ بهم تالفة .

دخل عليه أشيم ابن شفيق الهذلي فقال له : يا أشيم أخرجت مع ابن الجارود فقال : نعم وقد أتى عفوك على ذلك (٤) .

أما موقف الحجاج من ابن عمير وابن كعب - وهما اللذان استنصر بهما الحجاج في بدء الثورة فلم يحسنا الرد عليه ورفضاً معوته - فلم تأخذ الحجاج فيهما رحمة إذ استهزا بهما أمام أصحابه ثم أمر بهما فحبسا فمات ابن كعب في سجنه (٥) وعفان محمد

(١) ابن الأثير ج٤ ص٤٣ وابن خلدون ج٣ ص٣٨ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٧٩ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص٢٨ وابن خلدون ج٣ ص٤٣ والطبري ج٥ ص٤٦ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٩٢ ،

٢٩٤ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص٢٨ وأنساب الأشراف ج١١ ص٢٩٠ .

(٤) أنساب الأشراف ج١١ ص٢٩٢ وقيل قتله . نفس المصدر ص٢٩٢ .

(٥) أنساب ج١١ ص٢٩٢ ، ٢٩٣ .

ابن عمير (١) .

وأما الغضبان بن القبعثري الذي قال لأصحاب ابن الجارود : تعش بالجلي قبل أن يتغدى بك ، فقد أمر الحجاج بسجنه ولكن عكرمة بن ربيعي كلم في شأنه روح بن زنباع ليشفع له لدى عبد الملك فشفع له وأمنه (٢) وأرسل إلى الحجاج بأمانه فدعا الحجاج به وقال له : قد سمعت وصفاً لوك . قال : القيد والرتعة ومن يكن ضيف الأمير يسمن . فقال له : أنت القائل تعش بالجلي قبل أن يتغدى بك . فقال : ما نفعت من قيلت له ولا ضرت من قيلت فيه . قال : أوتجني . قال : أوقر وحب ؟ قال : ولم لا تجني ؟ قال : لأنك أخذت مالي ووضعت شرفي . قال : فإن رددت لك مالك ورفعت قدرك ؟ قال : الرضا مع الإحسان والسخط مع الغضب . قال : لأحملنك على الأدهم قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب : قال : إنه حديد قال : لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا .

فحمل بين يديه ليطلق من حديدته فلما استقل به من حملة قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . فضحك الحجاج وعفا عنه (٣) .

انتصر الحجاج على ابن الجارود فأحمد ثورته ونكل بأنصاره ثم كتب إلى عبد الملك (أما بعد فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين أني لما أنزلت منزلي من رُستَقباد وثب عليَّ أهل العراق فخالفوني ونابدوني ودخلوا فسطاطي وانتهبت أموالي وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا ففارقني البعيد وأسلمني القريب ويثس مني الشفيق ، فشددت عليهم بسيفي ولقيتهم بشيعتي وقلت الموت خير من البراح فوالله ما رمت الفرصة حتى جعل الله لأمر المؤمنين منهم أنصارًا فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم ، وضرب الله عز وجل وجوههم فأخذوا شرقًا وغربًا ثم أني

(١) الميداني مجمع الأمثال ص ١٤٤ والمبرد ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨ وأنساب ج ١١ ص ٢٩١ .

(٣) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

أمنت الناس غائبهم وشاهدتهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارعهم والله الحمد كثيراً والسلام) .

فكتب إليه عبد الملك يقول : « أما عبد فقد بلغني كتابك وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم والسلام » (١) .

تبين من هذين الكتابين المتبادلين فطنة الحجاج وحسن تصويره للأمور بما يعتقد أن فيه إرضاء لعبد الملك وبلاغة في عرض الموقف وما عاناه في سبيل الخلافة مما جعل الخليفة يقر الحجاج على ما فعل ، ويوصيه بالشدة في معاملة أهل العراق بعد أن كبر على الخليفة قيام الثورة ضده أو ضد عامله في قطر من الأقطار سيما وأن هذه كانت أول ثورة تقوم في عهده في قطر معروف بالثورات والتقلبات .

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النمط بين عبد الملك وواليه على العراق وردت على عبد الملك شكاوى أهل العراق يجأرون إليه من ظلم الحجاج ويسندون أن أمورا يحسن بالخليفة العادل أن يجعلها موضع تحقيق على الرغم مما أحاط به عامله من مظاهر القسوة وما أوصاه به من الشدة مع أهل العراق في كتابه الأخير لذلك عمد الخليفة إلى إيفاد عبد الرحمن بن مسعود للاستماع إلى شكاوى أهل العراق ولعله أراد بذلك أن يستهوي القلوب إليه بهذا المظهر من مظاهر العدل والبعد عن التحيز .

وكان الخليفة قد شفع لديه لبعض الشائرين فحمل رسوله إلى العراق الأمر بإطلاق سراح هؤلاء .

علم الحجاج بما يحمله رسول الخليفة من أوامر تتعارض مع رغبته الخاصة في التنكيل بخصوم كاد أن يكون هو وأهل بيته أول ضحاياهم فأراد أن يضع الرسول أمام الأمر الواقع كما كانت عادته في سرعة البت في أمثال هذه الأمور فأمر قبيل

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وصول ابن مسعود بأن يقطع أيديهم وأرجلهم وبذا فوت عليهم ما كانوا يريدون (١) .

وصل عبد الرحمن بن مسعود إلى البصرة والتقى بالحجاج فذهب إلى المسجد والقوم فيه مجتمعون ، فأخذ الحجاج طريقه إلى المنبر والرسول من خلفه ، ثم صعد الحجاج المنبر وصعد ابن مسعود درجتين اثنتين ثم اتجه ابن مسعود إلى القوم وقال ألا من يطلب الحجاج بمظلمة فليقم . ولو قام رجل واحد يشكو الحجاج لفقد الحجاج ولايته على العراق ذلك أن الشكوى كانت ستترى بحق وبغير حق ورسول الخليفة واقف يستمع ويحصى على والي العراق شكوى الناس منه .

على أن الحجاج لم تكن تعوزه سرعة البديهة ولا ينقصه حزم الرأي لذلك بادر إلى إسكات ابن مسعود قائلاً : مه . فأجابه ابن مسعود (لا والله ما من مه) .

ويخيل إلينا أن ابن مسعود استعرض موقفه سريعاً فأدرك ما آل إليه أمره من حرج فوجه إلى الناس خطاباً هو أبعد يكون عما كلف به من الاستماع لشكواهم إذ قال : يا أهل العراق جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة فإياكم والشقاق والفتنة . إني قد شركت ورائي جبلاً من حديد وقوماً لهم دين وليست لهم دنيا فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم » وبذلك اعتبر ابن مسعود أن مأموريته قد انتهت فقفل راجعاً إلى عبد الملك .

خرج ابن مسعود من العراق دون أن يمكنه الحجاج من أداء مأموريته فحفظها في نفسه فقرر للخليفة أن واليه على العراق قد ظلم أهل البلاد ولم يكد الخليفة أن يتم استماعه إلى كلام ابن مسعود حتى جاءه كتاب من الحجاج مليء بالطعن على ابن مسعود إذ يقول « إنه امرؤ ظنين عليّ وإنه قد بلغني أنه أساء الثناء علي وإن شيعة ابن الزبير لن تحبني أبداً وهو من شرارها وفجارها وليس لمثله قرب ولا صدق والسلام » .

وورود هذا الكتاب على الخليفة في هذه المناسبة وبمثل هذه السرعة يقتضينا أن

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٩٥ .

نقر للحجاج باليقظة وسرعة الخاطر فلقد قَدَّر من البداية أن ابن مسعود لابد والغ في الطعن عليه لدى الخليفة فلم يشأ أن يصبر على ذلك مخافة أن يجد إلى قلب الخليفة سبيلاً فأراد أن يطعن على ابن مسعود فأصابه في ناحية حساسة من ماضيه ذلك أنه من شيعة ابن الزبير الأعداء الألداء لعبد الملك واتهمه بأنه من شرارها وفجارها وأن مثله لا يقرب ولا يصدق .

على أن تصرف الحجاج وإسرافه في الطعن السافر على ابن مسعود لم يصادف في نفس الخليفة هوى فكتب عبد الملك إلى الحجاج يدافع عن ابن مسعود قائلاً « أما بعد : فقد بلغني كتابك في ابن مسعود وليس مثله اتهم ولا ظُنُّ به ظن السوء والسلام » (١) .

بينما الحجاج سائر في سياسته مع الثائرين عاملاً على تحقيق سياسة الخليفة التي رسمها له - فإذا رابك من أهل العراق ريباً فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم - إذا به يواجه أزمة جديدة تلك هي أزمة أنس بن مالك .

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ذلك أن عبد الله بن أنس كان قد خرج مع ابن الجارود فقتل (١) .

فعندما وصل ذلك إلى مسامع الحجاج قال ولا أرى أنسا يعين علي، فلما رجع إلى البصرة بعد مقتل ابن الجارود أخذ مال أنس ، وحين دخل عليه أنس وجه إليه ألفاظاً قاسية فكان مما قاله : « لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن خبيثة شيخ ضلالة جوال في الفتن مرة مع أبي تراب ومرة مع ابن الزبير ومرة مع ابن الجارود (٢) .

والله لأجردنك جرد القضيب ولأعصبنك عصب السلمة ولأقلعنك قلع الصمغة .

فقال أنس من يعني أصلح الله الأمير قال « إياك أعني أصم الله صداك » (٣) فقال أنس : « إنا لله وإنا إليه راجعون والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت ولا أي ميتة مت » (٤) . ورجع إلى منزله .

فأخبر أولاده بما حدث فأشاروا عليه بأن يكتب للخليفة (٥) فكتب إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك أما بعد :

(١) البلاذري - أنساب الأشراف جـ ١١ ص ٢٩٨ وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٨ وابن خلدون جـ ٣ ص ٤٢ .
(٢) نفس المصادر وتروي بعض المصادر أن الخروج كان مع ابن الأشعث فقال الحجاج ومرة مع ابن الأشعث .

الجاحظ جـ ١ ص ٢٩٦ وابن كثير جـ ٩ ص ١٣٣ وابن عساكر جـ ٤ ص ٧٣ والعيني جـ ١١ ص ٤٠٩ وابن شاکر جـ ٥ ص ٢١٥ وينفرد ابن عبد ربه بأنه خرجت خارجة على الحجاج فعزم على أنس أن يخرج معه فأبى - العقد الفريد جـ ٣ ص ١٢ .

(٣) أنساب الأشراف جـ ١١ ص ٢٩٨ وابن الأثير جـ ٤ ص ٣٩ وابن خلدون جـ ٣ ص ٤٢ .

(٤) ابن عساكر جـ ٤ ص ٧٤ وابن كثير جـ ٩ ص ١٣٣ والعيني جـ ١١ ص ٤٠٩ .

(٥) أنساب الأشراف جـ ١١ ص ٢٩٨ .

فإن الحجاج قال لي هجرًا وأسمعي نكرًا ولم أكن لذلك أهلاً فخذ لي على يديه
فإني أمتُ بخدمة رسول الله ﷺ وصحبتني إياه والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته» (١) .

ولما وصل عبد الملك هذا الكتاب استشاط غضبًا وكتب إلى أنس كتابًا يترضاه
ويبين له أنه عند حسن ظنه به وأنه يعرف خدمته لرسول الله وصحبته إياه ،
وكتب إلى الحجاج كتابًا آخر ملأه بقوارص الكلم مما يجعلنا نشك في نسبته كله - مع
تسليتنا بواقعة الكتاب لما ترتب عليها من نتائج .

وإنا لموردون هنا نص الكتابين :

وكان كتابه إلى أنس (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك أمير المؤمنين إلى
أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أما بعد :

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكائتك الحجاج وما سلطته ولا أمرته
بالإشارة إليك فإن عاد لمثلها فاكتب إليّ بذلك أنزل به عقوبي وتحسن لك معونتي
والسلام) (٢) .

وكتابه إلى الحجاج (أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور ،
فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك يا ابن المستفرمة (٣) بعجم الزبيب
لأغزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الشعالب ، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك
رجعت في مخرجك من بطن أمك .

أما تذكر حال آبائك بالطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم
ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومياهم ؟؟ أنسيت حال آبائك في اللؤم

(١) ابن عساكر ج٤ ص ٧٤ وابن كثير ج٩ ص ١٣٣ والعيني ج١١ ص ٤٠٩ والذهب المسبوك ص ٧ .

(٢) ابن عساكر ج٤ ص ٧٤ وابن كثير ج٩ ص ١٣٤ والعيني ج١١ ص ٤١٠ والذهب المسبوك ص ٧ .

(٣) المستفرمة : هي التي تجعل عجم الزبيب بخرقه وتتحمل بها لقطع رطوبة المكان .

والدناءة في المروءة والخلق ؟؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقدامًا ، وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاه عنك فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدمًا فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين ممسوح الجاعرتين ؛ ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل إليك من يسحبك ظهرًا لبطن حتى يأتي بك أنسًا فيحكم فيك .

فأكرم أنسًا وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك والقه في منزله متنصلاً له وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله والسلام (١) .

وأرسل بالكتابين إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ؛ وكان مصادقًا للحجاج وقال له : دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق فابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وادفع كتابه إليه وبلغه عني السلام ؛ وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمّتك . (٢) .

فسار إسماعيل حتى وصل العراق وبدأ بأنس فأعطاه كتابه وأخبره برسالة الخليفة إلى الحجاج فلما قرأ الكتاب قال : « جزى الله أمير المؤمنين عني خيرًا وعافاه وكافأه عني بالجنة ، هذا الذي كان ظني به والرجاء منه » (٣) ؛ فقال له إسماعيل يا أبا

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٠٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩ وابن شاعر ج ٥ ص ٢١٦ ، ٢١٧ وابن عساكر ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٩٩ والعيني ج ١١ ص ٤١٠ وابن شاعر ج ٥ ص ٢١٧ وخلاصة الذهب المسبوك ص ٧ وابن عساكر ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) ابن كثير ج ٩ ص ١٣٤ والعيني ج ١١ ص ٤١٠ .

حمزة : « إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غناء ولا بأهل بيتك ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقدراً أن يضر وينفع فقاربه وداره ^(١) .

وتروي بعض المصادر أنه قال له : يا أبا حمزة إن أمير المؤمنين قد بلغ لك ما تريد واعلم أنه ليس عنده أحد يعدل الحجاج ، والصواب أن تمضي إليه فيعتذر إليك ولا تحوجه أن يركب هو إليك بأمر فيوغر ذلك صدره عليك ، وها أنا أمضي بكتابه إليك وأقرر لك ما يرضيك إن شاء الله ^(٢) .

ثم خرج إسماعيل من عنده وذهب إلى الحجاج فقال الحجاج مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه ؛ فقال له إسماعيل : وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به . فقال : وما أتيتني به . ؟؟ قال فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً ؛ فاستوى جالساً مرعوباً ؛ فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى فلما قرأ الكتاب كله قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه . فقال : لا تعجل . فقال الحجاج : كيف لا أعجل وقد كان من أمير المؤمنين ما كان ^(٣) . ؟؟ فقال له إسماعيل بل آتيك به وسار إلى أنس فأتى به ؛ فلما بصر به الحجاج رحب به ^(٤) ، وقال عجلت علينا أبا حمزة باللائمة والذي كان مني إليك كان على غير نية ولكن أهل العراق لا يحبون أن يكون لأحد عليهم سلطان ، فأردت أن أعلم مناققهم وفساقهم أني إذا أقدمت عليك فهم عليّ أهون وأنا إليهم أسرع ولك عندنا العتي ^(٥) .

(١) ابن شاکر ج ٥ ص ٢١٥ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٠٠ وابن عساکر ج ٤ ص ٧٤ وابن كثير ج ٩ ص ١٣٤ .

(٢) ابن شاکر ج ٥ ص ٢١٥ وراجع الدميري ج ١ ص ٧٠ .

(٣) ابن عساکر ج ٤ ص ٧٤ وابن كثير ج ٩ ص ١٣٦ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣ ويروي صاحب الأخبار الطوال ص ٢١٢ أن الحجاج هو الذي ذهب إلى أنس ؛ وهذا يخالف ما أجمعت عليه المصادر .

(٤) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٠٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩ .

(٥) ابن شاکر ج ٥ ص ٢١٧ والدينوري ص ٢١٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩ .

فقال أنس ما شكوت حتى بلغ مني الجهد وحتى زعمت أنا الأشرار وقد سمانا الله الأنصار؛ وزعمت أنا أهل النفاق ونحن الذين تبوؤوا الدار والإيمان، وسيحكم الله بيننا وبينك فهو أقدر على التغيير لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب؛ وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلمًا إلى مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عليك مني؛ ولم يكن لي عليك قوة فوكلتك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين فحفظ من حقي ما لم تحفظ فوالله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدام عيسى ابن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرف أنت من حقي وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين؛ وبعد فإن رأينا خيراً حمدنا الله؛ وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان.

فرد عليه الحجاج ما كان قد قبضه من ماله (١) ولم يزل مكرماً له حتى مات (٢).

وكتب إلى الخليفة خطاباً يعتذرفيه عما حدث منه في حق أنس؛ وهذا نص الخطاب:

إلى أمير المؤمنين عبد الملك: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد:

أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدمناه فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم علي بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه يذكر شتيقي وتوبيخي بأبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه، ويذكرني أمير المؤمنين جعلني الله فداءه استطالة مني على أنس بن مالك خدام رسول الله ﷺ جرأة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره وتقاته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته.

(١) ابن شاکر ج ٥ ص ٢١٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩.

(٢) ابن شاکر ج ٥ ص ٢١٨ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣.

وأمر المؤمنين أصلحه الله في قرابته من محمد ﷺ إمام الهدى وخاتم الأنبياء أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي فأمهلي ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه ؛ وما قلده الله من أمور عبادته فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وإفراج كربتي فقد ملئت رعباً وفرقاً من سطوته وفحاة نقمته .
وأمر المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات وأعلى له الدرجات أحق من صفح وعفا وتحمل وأبقى ولم يشمت فيّ عدواً مكباً ولا حسوداً مصباً ولم يجرعني غصصاً .

والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إليّ وتنويهه لي بما أسند من عمله وأوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه مجزي بالشكر عليه والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب له بالكفاية ؛ وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه نزولي عند مسرة أنس بن مالك وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين وإقلاقه إياي ودخوله بالمصيبة عليّ على ما سيعلمه أمير المؤمنين ويشهد إليه .

فإن رأي أمير المؤمنين طوقني الله بشكره وأعانني على تأدية حقه ؛ وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته ومد لي في أجله أن يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي ويطمئن به قلبي ؛ فقد ورد عليّ أمرٌ جليلٌ خطبه ، عظيم أمره ، شديد عليّ كربه أسأل الله أن لا يسخط أمير المؤمنين وأن يثبتني في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه ما يحمد به حسن رأيه وبعد همته . إنه ولي أمير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في أمره والسلام .

ويقول لنا إسماعيل إنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال : ياكاتب أفرخ روع أبي محمد فكتب إليه بالرضا^(١) .

وفي تقديرنا أن بعض فقرات هذا الكتاب قد وضع في عصر متأخر .

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد جـ ٣ ص ١٣ ، ١٤ .

ذلك أن أسلوب السجع الذي يحتويه لا يمثل روح العصر الذي ينسب إليه الخطاب ولا أسلوب الحجاج نفسه في غير هذه المناسبة سواء أكان ذلك في خطبه أم في كتبه .

يضاف إلى ذلك أن روح التمرغ التي بدت في هذا الخطاب لا تستسيغها عزة نفس الحجاج ولا إباؤه وكثيراً ما كتب إلى أمير المؤمنين معتذراً ومستغفراً ولكن في أسلوب أرفع من هذا الأسلوب .

ولعل يد الواضعين قد امتدت إلى هذا الكتاب خفضاً لشأن الحجاج بمناسبة اصطدامه مع أنس بن مالك تحمساً منهم لأنس ؛ ومن يدري فلعل أيدي هؤلاء الوُضَّاع قد امتدت كذلك إلى خطاب أمير المؤمنين الموجه إلى الحجاج - على الرغم مما نسلم به من ثورة الغضب الحادة التي أصابت عبد الملك إثر وصول كتاب أنس إليه .

وعلى الرغم من ذلك نستبعد أن يصدر هذا الكتاب - بما احتواه من لاذع الكلم - عن عبد الملك المعروف بحجم أدبه .

ثورة الزنج : (١)

كان من أثر قيام عبد الله بن الجارود بالثورة ضد الحجاج وانشغاله بإخمادها أن

(١) الزنج أصلهم من إفريقية الشرقية وكان يجلبهم التجار من موطنهم إلى البصرة حيث يباعون في أسواقها فيبتاعهم أهل البصرة لحفر النهرات وكسح السباخ والعمل في مناجم الملح وغير ذلك من المهن الشاقة والحقيرة .

وطبعي أنه لم تكن لهم مكانة في المجتمع البصري بل كان ينظر إليهم الناس نظراً إلى ماشيتهم ، فولد هذا عندهم الشعور بالحق على هؤلاء الأسياد وترتب على ذلك أنهم كانوا ينتهزون الفرص للتخلص من هذه السيادة وهذه القيود الثقيلة ؛ فاجتمعوا بفرات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير ؛ وكان عددهم قليلاً فلم يتمكنوا من القيام بثورة بل قاموا بحركة تخريب فأفسدوا الزروع والثار .

وفي ولاية عبد الله بن خالد البصرة كان قد كثر عددهم فشكا إليه الناس ما نالهم منهم ؛ فجمع لهم عبد الله جيشاً وأراد محاربتهم ؛ وعندما وصل علم ذلك مسامعهم تفرقوا ولكنه تمكن من القبض على بعضهم فقتله وصلبه .

راجع ابن الأثير ج٤ ص ٤٠ والبلاذري ج١١ ص ٢٠٤ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

انتَهز الزنج تلك الفرصة وجمعوا صفوفهم وضموإ إليهم لفيئًا من الرعاة وولوا عليهم رجلاً يسمى رباح شيرازنجي (أسد الزنج) ^(١) ؛ فغلب رباح هذا على كورة الفرات . وكان على الأبله والفرات كُراز السُّلمي الذي وصله كتاب من شيرازنجي يحقره فيه ويضع من شأنه إذ يقول له : من أمير المؤمنين رباح شيرازنجي إلى كُراز السُّلمي . أما بعد : فقد حضرت ولادة سكة أم أمير المؤمنين فأرسل إليها امرأتك لِتَقْبُلُها والسلام .

وعندما وصل هذا الكتاب كرازا هرب وخلى عمله وترك البصرة ^(٢) .

فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمر - وكان على شرطة البصرة - أن يرسل إليهم جيشًا بقيادة ابنه حفص فقتلوا حفصًا وهزموا جيشه ؛ وبذلك قويت شوكتهم .

فلما قدم الحجاج البصرة قال : يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل ^(٣) .

واتندب الناس من كل خمس من أخماس البصرة وجعل الأمير عليهم كراز السلمي ^(٤) .

ولعل الحجاج فعل ذلك ليجد كراز في قتلهم محوًا للعار الذي لحقه من كتاب شيرازنجي فقاتل الزنج حتى اضطروهم إلى الفرار إلى صحاري دورق ^(٥) . ثم اتبعهم إلى أن قتل زعيمهم شيرازنجي وجماعة كثيرة معه وقل من أفلت منهم .

وبذلك سكنت حركتهم ولم يظهر لهم أثر إلا في منتصف القرن الثالث الهجري .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٠٥ وابن الأثير ج٤ ص ٤٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٠٤ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٠٥ وابن الأثير ج٤ ص ٤٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٣ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٠٥ .

(٥) بلد بخوزستان - معجم البلدان ج٤ ص ١٠٠ .

الفصل الثاني ثبوت الخوارج الأزارقة

يجدر بنا قبل أن نتكلم عن حرب الحجاج مع الخوارج أن تقدم لذلك بمقدمة نتناول فيها الكلام عن تعريف الخوارج وانقسامهم إلى فرق .

فيقول الشهرستاني في تعريفهم : « كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا سواء أكان الخروج على الصحابة أيام الخلفاء الراشدين أم كان بعدهم على التابعين وتابعيهم من الأئمة في كل زمان » ^(١) .

ويقول البغدادي : « هم الذين خرجوا على علي لأنه رضي بالتحكيم فرفضوه كما رفضوا معاوية » ^(٢) .

وتعريف الشهرستاني تعريف عام لكل ثائر وخارج على الإمام .

وأما تعريف البغدادي فهو تعريف للطائفة المصطلح على تسميتها باسم الخوارج الذين نحن بصدد الكلام عليهم .

وقد انقسم الخوارج إلى فرق كثيرة يبلغ عددها نحو العشرين فرقة ^(٣) .

ويهمنا في كتابنا من هذه الفرق : الأزارقة . الصفرية (الصالحية والشيبية) وسبب انقسامهم أنه عندما كان الحصين بن غير محاصرًا لابن الزبير بمكة قدم إليها جماعة من الخوارج للدفاع عن الكعبة ؛ فلما وضعت الحرب أوزارها انصرف الخوارج عن مكة فعاد فريق إلى العراق سادتهم نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر وعبد الله بن صفار وعبد الله بن إباح ابن بهيس .

(١) الملل والنحل ج١ ص ١٥٥ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٥ .

ونزل فريق اليمامة ^(١) .

نزل خوارج العراق بالبصرة ثم لم يلبث نافع بن الأزرق أن اختلف مع نجدة حول بعض المبادئ وأخصها التقية والإقامة في دار الكفر وتكفير القعدة من الخوارج واستحلال قتل الأطفال .

فلما استحال التوفيق بينهما رحل نجدة إلى اليمامة فأسس فرقة النجدات ^(٢) .

وبعد ذلك بقليل رحل ابن الأزرق إلى الأهواز في شوال من سنة أربع وستين في ثلاثمائة من أصحابه وكانت فكرته في الخروج من البصرة أنها دار كفر والإقامة فيها غير جائزة وأرسل كتاباً إلى من بقي بالبصرة من الخوارج فقرأه ابن إياض ولم ير ما أتى فيه وقال : « إن القوم كفار بالنعم فقط » وقرأه ابن صفار فقال : « برىء الله منك فقد قصرت وبرىء الله من نافع فقد غلا » .

وبذلك صارت فرق الخوارج في العراق ثلاث : الأزارقة والصفيرية والإباضية ^(٣) .

مكث الأزارقة سنوات طويلة في الأهواز وما حولها يعترضون الناس ويقتلون الأطفال ويجبون الخراج نظام الحكم ما بين زبيري وأموي .

وفي سنة ثلاث وسبعين وأربع من الهجرة كان الأزارقة قد استطاعوا غزو الأهواز كلها وراء ظهورهم وصاروا بالفرات ^(٤) ؛ فلما ولى عبد الملك أخاه بشراً بالبصرة ثم جمع له العراقيين تعيينه عن وجوب العمل على القضاء على الخوارج الذين كانوا يهددون كيان الدولة كما بين له وجوب تعيين المهلب بن أبي صفرة لحربهم .

(١) راجع الطبري ج٤ ص ٤٣٦ ، ٤٣٩ وابن الأثير ج٢ ص ٣٣٦ .

(٢) المبرد ج٢ ص ١٧٧ .

(٣) الطبري ج٤ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ وابن الأثير ج٢ ص ٣٣٧ . ويروي المبرد ج٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠ إن الذي قال هذه المقالة أبو بهيس لا ابن إياض ؛ وأن سبب انفصال ابن صفار هو عدم تكفير العصاة بينما يروي البلاذري ج١١ ص ٨٣ أن سبب الانفصال هو مسألة استحلال قتل الأطفال .

(٤) المبرد ج٢ ص ٢١١ .

ولما كان بشر لا يميل إلى المهلب سيما وأن إمرته جاءت من قبل عبد الملك ، فقد رأى أن يوفق بين أمر أمير المؤمنين وبين الاستبداد بالأمر وحده فعين المهلب بن أبي صفرة قائدًا للجيش ثم كتب إلى الخليفة بالكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف فلما قدم هذا الجيش على بشر خلا بابن مخنف وأغراه بالمهلب ووجوب مخالفة أمره وإفساد رأيه (١) .

وسار الجيش قاصدًا الأزارقة فلما أحسوا بدنوا المهلب منهم انكشفوا عن العراق فتبعهم إلى الأهواز فنفاهم عنها ثم إلى رامهرمز فهزمهم فيها وأقصاهم إلى فارس ، ولم يلبث المهلب برامهرمز إلا عشرة أيام حتى أتاه نعي بشر بن مروان (٢) .

فاضطرب الجند على ابن مخنف وصاروا يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز وأراد أهل البصرة الانسلاخ من المهلب فخطبهم قائلاً : « إنكم تذبون عن مصركم وحرمكم وفيئكم » فأقام جماعة وتسلى آخرون (٣) .

وبينما كان المهلب مقيمًا برامهرمز يحاول جمع فلول الجيشين وينتظر ما تأتي به الأقدار وفد على العراق الحجاج بن يوسف واضعًا نصب عينيه أن يلحق الناس بالمهلب وأن يقسو على العراقيين ما شاءت له القسوة عقابًا لهم على فرارهم من ميدان الحرب وتركهم المهلب في ميدان القتال .

ولم يقتصر الحجاج على تجنيد الجند وإرسالهم إلى المهلب في ميدان القتال بل خرج بنفسه إلى رستقباد حتى يشرف بنفسه على حركة المهلب ثم بعث إلى المهلب وابن مخنف بكتاب قصير يقول فيه « إذا جاءكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج والسلام » (٤) .

(١) المبرد ج٢ ص ٢١٢ والطبري ج٥ ص ٣٦ وابن الأثير ج٤ ص ٣٠ .

(٢) المبرد ج٢ ص ٢١٢ والطبري ج٥ ص ٣٧ وابن الأثير ج٤ ص ٣٠ .

(٣) المبرد ج٢ ص ٢١٢ .

(٤) الطبري ج٥ ص ٤٦ .

وفي هذا الكتاب تبدو عظمة الحجاج إذ اتجه ببيعيد نظره إلى هدفه الأسمى وهو محاربة الخوارج وجعلها الكلمة الأولى والأخيرة في خطابه .

اطمأن المهلب وابن مخنف على مصير الحرب بفضل ما كان يبذله لهما الحجاج من معونة وما يؤيدهما به من جند فاستطاع المهلب أن يقوم بالهجوم فأجلاهم عن رامهرمز ولم يكلفه هذا الجلاء قتالاً شديداً فساروا حتى نزلوا بكازرون من أرض سابور والمهلب يتبعهم ماراً بأرجان وسردان ، وذلك في أول رمضان من سنة خمس وسبعين للهجرة ^(١) .

وحينما نزل خندق على نفسه وعسكره كما كانت عادته في حروبه .

أما الكوفيون بقيادة عبد الرحمن بن مخنف فلم يخندقوا على أنفسهم رغم نصيحة المهلب لهم بذلك فقد ملأهم الغرور حتى أنهم ردوا على رسول المهلب قائلين « إنما خنادقنا سيوفنا » ^(٢) .

وكانت نتيجة هذا الغرور أن الخوارج زحفوا ليلاً فوجدوا المهلب قد أخذ حذره فقالوا على ابن مخنف فقاتلوه فانهزم عنه الكثير من جيشه وثبت هو في قلة من أصحابه حتى قتل في عشرين من رمضان من سنة خمس وسبعين للهجرة ^(٣) .

هذه رواية أهل البصرة في سبب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله .

وأما رواية أهل الكوفة فهي أن الخوارج ضغطوا على المهلب ضغطاً شديداً حتى اضطروه إلى معسكره فأرسل إلى ابن مخنف يطلب منه المدد قائلاً له « إنما عدونا واحد وقد ترى ما لقي المسلمون فامدد إخوانك يرحمك الله » .

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٧ والمبرد ج ٢ ص ٢١٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٧ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٤٧ والمبرد ج ٢ ص ٢١٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ وابن شاذان ج ٥ ص ٣٩٨ .

(٣) المبرد ج ٢ ص ٢١٦ والطبري ج ٥ ص ٤٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ والعيني ج ١١ ص ٣٠١ وابن الأثير

فأرسل إليهم المدد بقيادة ابنه جعفر فلما رأى الخوارج قلة من مع ابن مخنف جعلوا تجاه المهلب جزءاً من الجيش ليشغله وليحول بين المهلب وابن مخنف ، وحملوا على ابن مخنف ، فانكشف عنه الكثير وبقي في عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه .

علم المهلب بمكيدة الخوارج فأرسل إليه فرقة من الجيش لتتقذه كان منهم جعفر ابن عبد الرحمن بن مخنف إلا أن الخوارج حالوا بينه وبين أبيه فقاتلهم حتى صرع وفي هذه الأثناء كان عبد الرحمن قد قتل ، فوجه المهلب إليهم ابنه حبيباً فكشفهم (١) .

ومما يلفت النظر أن بين الروایتين - رواية أهل البصرة من ناحية ورواية أهل الكوفة من الناحية الأخرى - تبايناً واضحاً ، فبينما يحاول رواة الكوفة إلصاق تهمة الهزيمة بأهل البصرة ويصورون أهل الكوفة أهل نجدة ومروءة نرى رواة البصرة يعززون الهزيمة إلى غرور الكوفيين واعتدادهم بأنفسهم وعدم اتباعهم لنصيحة المهلب .

وفي تقديرنا أن جيشاً مشتركاً من أهل الكوفة والبصرة في الربع الأخير من القرن الأول الهجري كان لابد له أن يلقي مثل هذا المصير ولا بد للرواة من أن يتعمد كل جانب منهم أن يلمس فخر النصر لفريقه وأن يلصق عار الهزيمة بالفريق الآخر .

فالمنافسة بين الكوفة والبصرة كانت وقتئذ قائمة على قدم وساق وفيما بين هاتين الروایتين نستطيع أن نرجح أن حملة الخوارج قد تركزت على ابن مخنف لسببين .

الأول : أن الخوارج يعلمون أن أكثرية الجيش الذي يحاربهم من أهل البصرة الذين يدافعون لا عن كيان الدولة الأموية فحسب بل عن كيان البصرة موطنهم التي كانت الهدف لإغارة الخوارج مما يستنتج منه أن الروح المعنوية فيهم كانت أقوى من الروح المعنوية في جيش ابن مخنف الذي لم يكن يدافع عن موطنه (الكوفة)

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٧ ، ٤٨ والمبرد ج ٢ ص ٢١٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ .

إذ كانت بمنأى عن غارات الخوارج وإنما قدم جنده إلى ميدان القتال صدعًا بأمر الوالي وتأييدًا لجيش المهلب .

وجيش هذه روجه المعنوية نرجح أن يستهدف لمحات الأعداء قبل أن يستهدف الجيش الأساس وهو جيش البصرة .

الثاني : يتضح من النصوص التاريخية أن جيش الكوفة كان أقل عددًا من جيش البصرة ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا قد ركبهم الغرور فلما يأخذوا بنصيحة المهلب بالخذقة على أنفسهم بينما خندق البصريون .

ومهاجمة جيش قليل العدد غير مخندق كانت أيسر وأسهل على الخوارج من مهاجمة جيش عديد قد أخذ حذره وأعد للأمر عدته .

وأيا ما كان الأمر فقد قتل ابن مخنف وكتب المهلب بمصابه إلى الحجاج فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مروان وكان بنى فنعى عبد الرحمن وذم أهل الكوفة (١) .

وبعث الحجاج على جيش الكوفة عتاب بن ورقاء وطلب منه أن يسمع ويطيع للمهلب فسأه ذلك ، ولكنه لم يجد بداً من طاعة الحجاج ولم يقدر على مراجعته (٢) .

وسار عتاب من أصبهان - وكان واليًا لها - إلى كازرون وقاتل الخوارج تحت إمرة المهلب ولكنه كان يستبد ببعض الأمور فيقضيها بدون أخذ رأيه .

كان من الطبيعي أن تثير تلك الأمور غضب المهلب فأراد أن يخفض من شأنه فاصطنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة وأغراهم بعتاب .

(١) الطبري ج٥ ص ٤٨ وابن الأثير ج٤ ص ٤٠ وابن كثير ج٩ ص ١٠ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٤٨ وابن الأثير ج٤ ص ٤٠ وابن كثير ج٩ ص ١٠ وابن شاعر ج٥ ص ٥٧ وابن خلدون

ج٢ ص ٤٣ .

وفي ذات يوم جرى بين عتاب والمهلب نقاش بخصوص أرزاق الجند أغلظ فيه كل منهما لصاحبه فرفح المهلب القضيب على عتاب فوثب إليه المغيرة بن المهلب وقبض على القضيب وقال « أصلح الله الأمير شيخ من أشياخ العرب وشريف من أشرافهم إن سمعت منه بعض ما تكره فاحتمله له فإنه لذلك أهل » (١) .

قام عتاب بعد ذلك من لدن المهلب فاستقبله بسطام بن مصقلة فشتمه ووقع فيه ، فلما رأى عتاب أن الخلاف بينه وبين المهلب قد استفحل خطره كتب إلى الحجاج يشكو إليه المهلب ويخبره أنه قد أغرى به سفهاء المصر ويسأله أن يضمه إليه . فوافق ذلك من الحجاج حاجة إليه فيما لقي أشراف الكوفة من شبيب بن يزيد ابن نعيم الشيباني زعيم فرقة الصفرية التي ظهرت في المدائن فبعث إليه ان اقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلب ، فتركه وقدم فأرسل ابنه حبيبًا على أهل الكوفة (٢) .

وبينما كانت هذه الأمور تحري في معسكر المهلب قامت ثورة ابن الجارود فانشغل بها الحجاج ولكنه على الرغم من ذلك لم يلجأ إلى سحب بعض الجند من ميدان القتال لإخضاع الثورة الداخلية تقديرًا منه لأهمية وجود الجند في حرب الخوارج من ناحية وخوفًا من انهيار الروح المعنوية في الجيش إذا شعر الجند بتفاقم الثورة الداخلية من ناحية أخرى ، وعدم الظهور بمظهر الضعف من ناحية ثالثة .

وفي ذلك ما يدل على حنكة الحجاج وكياسته الحربية .

انتهى الحجاج من ثورة ابن الجارود فعاد يركز جهوده في تأييد المهلب فكانت باكورة أعماله أن بعث برؤوس زعماء الثورة إلى ميدان القتال إيذانًا بأنه قد تغلب على الثورة نهائيًا حتى ترتفع الروح المعنوية بين الجند إلى أقصاها وحتى يدب الرعب في نفوس الخوارج الذين كانوا يتنسمون أخبار ثورة ابن الجارود راجين هزيمة

(١) الطبري ج٥ ص ٤٩ وابن الأثير ج٤ ص ٤٨ وابن شاعر ج٥ ص ٥٧ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٤٨ والمبرد ج٢ ص ٢٢٠ وابن الأثير ج٤ ص ٤١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٠ وابن كثير

الحجاج حتى تكون لهم الغلبة على المهلب .

ظل المهلب مقيماً بسابور يقاتل الأزارقة عاماً انقطعت فيه عنهم موارد فارس بسقوطها في يد المهلب ، وصاروا يعتمدون في تموينهم على كرمان البعيدة عنهم فتضايقوا . ولما اشتدت عليهم وطأة المهلب اضطروا إلى الجلاء نهائياً عن إقليم فارس راجعين إلى « كرمان » فتبعهم المهلب إلى سرجان وحاربهم فيها حتى أقصاهم عنها إلى « جيرفت » عاصمة « كرمان » فتبعهم المهلب إليها .

وقد ظل المهلب يحاربهم بأرضهم ثمانية أشهر يطاردهم من مكان إلى مكان دون أن يحرز عليهم نصراً حاسماً وقد ظلت الحال كذلك إلى أن دب النزاع الداخلي بين الخوارج فقتلوا على أنفسهم بأنفسهم ^(١) .

وبجلاء الخوارج عن فارس صارت كلها بيد المهلب وكان من الطبيعي أن يجعل عليها ولاية من قبله ولكن الحجاج بادر فبعث بعماله عليها فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إلى الحجاج (أما بعد: فدع بيد المهلب خراج جبل فارس فإنه لا بد للجيش من قوة ولصاحب الجيش من معونة فدع كورة فسا ودرا بجرد وكورة اصطخر فنفذ الحجاج ذلك وبعث المهلب بعماله عليها) ^(٢) .

طالت الحرب بين المهلب والخوارج وكان من رأي الحجاج أن لا يطاول المهلب العدو بل يسارع بالهجوم الخاطف ضد عدو كان الحجاج يستسهل الغلبة عليه ، والحجاج في ذلك يفكر بطريقته إذ كان رجلاً عملياً يحب إنجاز الأمور على وجه السرعة يشهد بذلك تاريخه في محاصرة ابن الزبير ويؤيده سلوكه في حرب شبيب وثورة ابن الأشعث مما سيكون موضع بحث خاص في هذه الرسالة .

ولقد بلغ من اعتزازه بنفسه أن طلب مصوراً من قتيبة بن مسلم في حروبه في

(١) الطبري ج ٥ ص ١٢٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٤ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٢٠ وابن الأثير ج ٢ ص ٦٤ وبيروني المبرد ج ٢ ص ٢٢٥ أن المهلب هو الذي أرسل إلى الحجاج أن يتجاوز له عن اصطخر ودرا بجرد لأرزاق الجند فأجابه إلى ما طلب .

بلاد ما وراء النهر ليدرس المواقع على الصور ويشير بالجهة التي ينبغي منها الهجوم فكان فيما أشار به موفقاً .

أما المهلب فكان يرى مطاولة العدو إضعافاً لقواه والتماساً لقيام الخلاف في صفوفه وكان في رأيه هذا معتمداً على ما خبر من شؤون الخوارج وما سبر من مبلغ قوتهم ، وقد كتب في ذلك مرة إلى الحجاج (إني منتظرهم إحدى ثلاث : موت ذريع أو جوع مضر أو اختلاف في أهوائهم) وكان اختلاف وجهة النظر بين المهلب والحجاج مثار خلاف دائم بينهما ^(١) .

وقد بلغت الحال بالحجاج أنه رمى المهلب بالجبن عن مواجهة خصمه تارة وبالمطاولة المفرضة أخرى ، فكان المهلب يجيب عن ذلك بالأدلة المادية على أنه لا يطاول الخوارج إلا تمشياً مع مقتضيات الظروف التي يلمسها عن قرب .

وقد حقق الزمن نظر المهلب إذ وقع نزاع داخلي في صفوف الأزارقة كانت نتيجته القضاء عليهم .

ويطول بنا المقام لو تعرضنا لجميع الكتب التي تبودلت بين الحجاج والمهلب ولذا نرى أن تقتصر على البعض منها على سبيل المثال .

فمن ذلك أن الحجاج أرسل إلى المهلب رجلاً من ثقيف - لم تسعفنا المصادر باسمه - فاستقبله المهلب ودعا بالغداء ، فجعل النبل يقع قريباً منهم ، والثقيفي يعجب من أمر المهلب ^(٢) .

وقد أراد المهلب بهذا أن يثبت للثقيفي أنه لا تعوزه الشجاعة اللازمة لمواجهة الخوارج إنما هو يعمل وفق سياسته التي رسمها لنفسه .

وأرسل الحجاج البراء بن قبيصة وكتب إلى المهلب يقول (أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اضطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل

(١) المبرد ج ٢ ص ٢١٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ .

(٢) المبرد ج ٢ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

هم الأرض حولك ؛ وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهم إذا قدم إليك بجميع المسلمين ثم جاهدكم أشد الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست عندي بسائغة ولا جائزة والسلام) (١) .

فأخرج المهلب بنيه كل ابن له في كتيبة وأوقف البراء على تل مشرف على مكان المعركة وأنشبهها وحى وطيس القتال من الصباح إلى الظهر ثم انصرفوا فقال البراء للمهلب : « والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس . أنت والله المعذور » .

وفي المساء نشبت المعركة ثانية وكانت حامية الوطيس قال عنها البراء : « رأيت قوماً ما يعينك عليهم إلا الله » ؛ فأحسن المهلب إلى البراء وأجازه وحمله . ثم انصرف إلى الحجاج فأخبره بعذر المهلب وقص عليه ما رأى (٢) .

وكتب المهلب ردًا على خطاب الحجاج (أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير أصلحه الله واتهامه إياي في هذه الخارجة المارقة وأمرني الأمير بالنهوض إليهم وإشهاد رسوله ذلك وقد فعلت فليسأل عماري فأما أنا فوالله لئن كنت أقدر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت بعد ذلك لقد غششت المسلمين وما وفيت لأمر المؤمنين ولا نصحت للأمير ، فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ولا مما أدين الله به والسلام) (٣) .

كما أنه أرسل بعد ذلك الجراح بن عبد الله يستبطئه في مناجزتهم ويقول له في كتاب أرسله : أما بعد فإنك جبيت الخراج بالعلل وتحصنت بالخنادر وطاولت القوم وأنت أعز ناصراً وأكثر عدداً ؛ وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبناً ولكنك

(١) الطبري ج٥ ص ١٢٠ وراجع المبرد ج٢ ص ٢١٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٢٠ وابن الأثير ج٤ ص ٦٤ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٢٠ .

ويروي أن المهلب كتب إلى الحجاج (إني منتظر بهم إحدى ثلاث : موت ذريع أو جوع مضر أو اختلاف في أهوائهم) . المبرد ج٢ ص ٢١٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٨ .

اتخذتهم أكلًا وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم فناجزهم وإلا أنكرتني والسلام .

ولما وصل الجراح إلى المهلب يئس له المهلب أنه لم يترك حيلة إلا احتالها ولا مكيدة إلا كادها وأن الرأي يجب أن يكون لمن يبصره دون من يملكه . ثم أخرج الجنود للقتال مدة ثلاثة أيام حتى عذره الجراح ورجع إلى الحجاج ووصف له ما رأى .

وكتب المهلب إلى الحجاج يقول : أتاني كتابك يستبطنني في لقاء القوم على أنك لا تظن بي معصية ولا جبنًا وقد عاتبتني بمعاتبه الجبان وأوعدتني وعيد العصا فاسأل الجراح : والسلام (١) .

وما زال المهلب يسير على طريقته في حربهم : إذا وجد فرصة في قتالهم أو في الإيقاع بينهم انتهزها حتى تحقق له ما أراد .

فقد دب النزاع في صفوفهم واختلفوا وحارب بعضهم البعض حتى فشلوا وذهبت ريحهم .

اختلاف الأزارقة :

يحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن عقلية الخوارج قبل الكلام على أسباب اختلافهم لنعرف كيف كان المهلب يستغل تلك العقلية .

فالخوارج من أشد الفرق الإسلامية دفاعًا عن اعتقادهم وحماسة لأفكارهم واندفاعًا وتهورًا فيما يدعون إليه وما يفكرون فيه .

وهم في اندفاعهم وتهورهم يستسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وجعلوها دينًا مقدسًا لا يحيد عنه مؤمن ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه إلى البهتان ودفعته إلى العصيان ، تستهويهم الألفاظ البراقة وتأخذ على مداركهم السبيل .

(١) المبرد ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ والنويري ج ٧ ص ٢٤٦ وابن أبي الحديد ١ ص ٣٩٩ .

والسبب في ذلك أن جلهم من عرب البادية فكانوا في فقر مدقع قبل الإسلام فلما جاء الإسلام لم تزد حالتهم المادية حسناً لأن كثيراً منهم استمر في البادية وأصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكير وضيق في التصور وبعد عن العلوم فتكون من مجموع ذلك فيهم نفوس مؤمنة متعصبة لما ترى ومتهورة مندفعة زاهدة لأنها لم تجد .

وقد استغل المهلب حماسهم وشدة تعصبهم لآرائهم وسذاجة تفكيرهم وضعف مداركهم ، فأرث نيران العداوة بينهم وأجج لهيب الاختلاف في صفوفهم .

فانتهاز فرصة وقوع نصال مسمومة في معسكره ، فجعل منها وسيلة لإيقاع الخلاف بينهم بتصوير هذا الحداد الذي يصنع السهام المسمومة متآمراً مع المهلب على الخوارج يبيع له السهام .

وسبكاً لذلك أرسل رجلاً إلى معسكر الخوارج فألقى كتاباً موجهًا إلى الحداد يشكره على إرسال السهام ويطلب منه الزيادة وينبئه بأنه أرسل له برفقة الكتاب ألف درهم .

فلما وجدوا الدراهم في العراء رفع الأمر إلى قطري فثارت ثائرتة ولم يخطر على باله أن قد يكون في الأمر دسياسة بل تخوّن الحداد فبعث إليه وسأله عن الكتاب والدراهم فقرر الحداد أنه لا يعرف عنها شيئاً ولكن قطرياً فرض أن الحداد يكذب عليه ولم يطاوله في السؤال والجواب بل أمر بقتله في الحال .

وبذلك خلق المهلب مشكلة في معسكر قطري إذ جاء عبد ربه الصغير - مولى بني ثعلبة - فقال لقطري : أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا برهان . ؟؟ فقال له : فما حال هذه الدراهم ؟؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذباً ويجوز أن يكون حقاً فقال قطري : قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما يراه صالحاً وليس للرعية أن تعترض عليه .

غضب عبد ربه لإجابة قطري الممتلئة اعتزازاً بالنفس وإنكاراً لحقوق الغير فحملها في نفسه فكانت نواة للنزاع بين قطري وعبد ربه .

ولما بلغ المهلب ما كان من فرقة بين قطري وعبد ربه أدرك نجاح خطته فشجعه ذلك على متابعة سياسة الدس والوقيعة بين الخوارج بعضهم بعضاً فبعث إلى قطري رجلاً نصرانياً وأمره بالسجود لقطري فإذا سأله قطري عن هذا السجود أكد النصراني أنه يسجد له .

فلما فعل ذلك ورأى الأزارقة هذا السجود لقطري قال رجل منهم إنه قد عبدك من دون الله وتلا قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ^(١) فقال قطري : قد عبد النصراني عيسى فما ضر ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذمياً ؟ فاختلفت الكلمة ^(٢) .

وبلغ ذلك أيضاً المهلب فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين إليهم فمات أحدهما في الطريق ووصل الآخر فامتحنوه فلم يجز المحنة فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة وأما الذي لم يجز المحنة فكافر . وقال البعض الآخر : هما كافران حتى يجيزا المحنة ؛ فكثرا الاختلاف وخرج قطري إلى حدود اصطخر ^(٣) ، فأقام شهراً والقوم في اختلافهم . ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق : « يا قوم إنكم أقررتم عين عدوكم وأطمعتموهم فيكم بما يظهر من خلافكم فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة » .

وقد صادفت هذه الدعوة قبولاً لدى بعض زعمائهم فخرج عمرو القنا ونادى

(١) سورة الأنبياء آية ٩٨ .

(٢) المبرد ج٢ ص ٢٢١ وابن الأثير في إحدى روايته ج٤ ص ٦٤ وابن نباتة ص ١٢٢ وابن أبي الحديد م ٤٠١ ص .

(٣) مدينة بفارس قرب مدينة برسيبوليس وهي واقعة في الشمال الشرقي من شيراز واسمها الآن تشهيل منار . ياقوت ج١ ص ١٢ .

(أيها المحلون هل لكم في الطراد) فخرجوا إليه ونشبت بين الفريقين معركة أبلى فيها المغيرة بن المهلب بلاءً حسناً ^(١) .

وبينما هم في حربهم إذ حدثت جملة من الخلافات كانت الأسباب الأخيرة لانفصالهم . وقد أعطاهم المهلب الفرصة للتادي في الجدل بالقعود عن حربهم فأصبح معسكر الخوارج مسرحاً للمجادلات التافهة في كثير من الأحيان .

فمن ذلك أن المقعطر الضبي كان عاملاً على ناحية من كرمان فخرج في سرية فقتل رجلاً من الخوارج كان ذا بأس فيهم فطلب الأزارقة من قطري أن يكتنهم من المقعطر ليققتصوا للقاتل فأبى قطري وقال : رجل تأول فأخطأ في التأويل وهو من ذوي الفضل والسابقة فيكم ^(٢) .

ومن ذلك أن عبيدة بن هلال - أحد زعمائهم - اتهم بامرأة رجل نجار رأوه يدخل منزله مراراً في غيبة صاحبه فذكروا ذلك لقطري فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ومن الجهاد بحيث رأيتم . فقالوا : إنا لا تقار على الفاحشة . ثم انصرفوا ، فأرسل قطري إلى عبيدة وأخبره بما حدث وقال له : أنا لا أقار على الفاحشة . فقال عبيدة : بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى . ؟؟

فقال قطري لعبيدة : إني جامع بينك وبينهم فلا تخضع خضوع المذنب ولا تتطاول تطاول البريء فجمع بينهم فتكلموا .

فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ إلى آخر الآية ^(٣) : فأثر

(١) المبرد ج٢ ص ٢٢٢ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٢١ وابن الأثير ج٤ ص ٦٤ في روايته الأخرى وابن شاعر ج٥ ص ٩٠ .

ويروي الطبري وابن شاعر هذا السبب لاختلافهم وأنه ترتب عليه خلع قطري من الزعامة ولا يرويان غيره .

وفي رأينا أنها جملة أسباب اجتمعت فأدت إلى خلع قطري .

(٣) سورة النور آية ١١ .

ذلك في الحاضرين وقاموا إليه فاعتنقوه وطلبوا منه أن يستغفر لهم .
وبتلك الحيلة أمكن لقطري إنقاذ عبيدة معتدًا في ذلك على سذاجة تفكير
الخوارج .

ولكن عبد ربه الصغير - وقد سبق له أن أخذ حذره من قطري في حوادث
المهلب - لم تجز عليه هذه الخدعة فقال « لقد والله خدعكم » .

فتابعه كثير منهم ولكنهم لم يظهروا وصاروا يلتمسون الأسباب للخروج على
قطري فتكلموا معه بشأن دهقان كان قد استعمله قطري فظهرت له أموال كثيرة
قائلين « إن ابن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا » فقال لهم قطري « إني
استعملته وله ضياع كثيرة وتجارات » فأوغر ذلك صدورهم .

فقالوا له ألا تخرج بنا إلى عدونا ؟ فقال لا ، ثم خرج . فقالوا قد كذب وارتد
فاتبعوه يومًا فأحس بالشر فدخل دارًا مع جماعة من أصحابه فاجتمعوا عليه
وصاحوا : اخرج إلينا يا دابة فخرج إليهم فقال : رجعتم بعدي كفارًا ؟ قالوا أولست
بدابة ؟ قال الله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ^(١) ولكنك
قد كفرت بقولك إنا قد رجعنا بعدك كفارًا فتب إلى الله . فشاور عبيدة في ذلك
فقال له : إن تبنت لم يقبلوا منك فقل : إني استفهمت فقلت أرجعتم بعدي كفارًا ؟
فقال لهم ذلك فقبلوا منه ورجع إلى منزله ^(٢) .

ولما رأى قطري كثرة اختلافهم وظهور بغضهم له عزم على أن يسايح للمقعر
الضبي ويخلع نفسه فهد لذلك بجعله أمير الجيش في الحرب فلم ترضهم إمارة المقعر .
وقال له صالح بن مخراق : ابغ لنا غير المقعر . فنهاهم قطري فقال صالح « إن
الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاص عنهم ففعل ويحجب
على الإمام أن يعفي الرعية مما كرهت » فأبى قطري أن يعزل المقعر .

(١) سورة هود آية ٦ .

(٢) المبرد ج ٢ ص ٢٢٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

فلما لم يجيبهم إلى طلبهم خلعوه وبايعوا عبد ربه الكبير^(١) وانفصل معه أكثر من الشطر جلهم من الموالي والعجم^(٢) .

ويلفت النظر في حوادث الخلاف بين الخوارج ظاهرتان .

الأولى : أن المهلب كان يعلم أولاً بأول بدخيلة النقاش الديني بين الخوارج فكان يغذي الخلاف إما بإرسال كتب أو رسل من قبله تزيد شقة الخلاف ؛ وإما بالعودة عن حرب الخوارج لثلاث تلتئم صفوفهم فيتركوا ما بينهم من خلافات أمام الخطر الخارجي .

الثانية : أنه عندما ازدادت شقة الخلاف بين الخوارج كان قطري في ناحية وعبد ربه في ناحية أخرى .

انقسم الخوارج أنفسهم إلى فريقين يتعصب كل منهما لبني جنسه فتعصب أغلب العرب لقطري لأنه عربي وتعصب أغلب الفرس لعبد ربه لأنه مولى .

ويستنتج فلهووزن^(٣) من ذلك أن العنصرية كانت العامل الأساسي فيما أصاب الأزارقة من انقسام وأنها كانت كفيلة من حيث هي بانقسام الخوارج دون حاجة إلى ما دبره المهلب .

وفي رأينا أن منطق الحوادث يوحي بأن الخلاف على الأسس الدينية ذلك

(١) كما يروي الطبري ج ٥ ص ١٢١ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٤ وابن شاکر ج ٥ ص ٩٠ وابن خلدون ج ٢ ص ١٦١ . أما المبرد ج ٢ ص ٢٢٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ فيسميانه عبد ربه الصغير ؛ وأما اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠ والبغدادى ص ٦٥ فيذهب إلى أنه كان بين الأزارقة خارجيان عبد ربه الصغير وعبد ربه الكبير وأنها خرجا على قطري في وقت واحد ولأسباب واحدة بطريقة واحدة وكان مصيرها أن جارب المهلب كلا منها فقتل عبد ربه الصغير . أما الكبير فيذهب البغدادي إلى أنه قتل بينما يذكر اليعقوبي إلى أنه فرق جمعه فقط .

(٢) المبرد ج ٢ ص ٢٢٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٣ .

(٣) أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة ص ٤١ .

الخلاف الذي أذكاه المهلب كان فاتحة الانقسام . أما العنصرية فع التسليم بوجودها فإنها كانت كامنة لم تظهر إلا عندما دفعتها الحوادث إلى الظهور .

افترق الأزارقة ، ففريق مع قطري وفريق مع عبد ربه ووقعت الحرب بين الفريقين فقتل في اليوم الأول ألف قتيل وفي اليوم الثاني أخرج العجم العرب من مدينة جيرفت فخندق قطري على نفسه خارج المدينة ^(١) .

أما المهلب فقد كتب إلى الحجاج بما كان من أمر الخوارج وما يراه من أن هذا الخلاف سيكون سبب خلافهم فكتب إليه الحجاج يطلب إليه انتهاز فرصة هذا الخلاف ومهاجمة الخوارج ؛ ولكن المهلب كان لا يرى هذا الرأي ما داموا يقتل بعضهم بعضاً وكتب بذلك إلى الحجاج ^(٢) .

وظل المهلب شهراً لا يحارب الخوارج ^(٣) ، فكر في أثناءه أنه ربما يلتئم شملهم مرة ثانية فيجتمعون عليه فلا يسهل القضاء عليهم فدرس إلى قطري ^(٤) دسيسة جعلته يترك هذا الميدان فنجح في ذلك وذهب قطري إلى طبرستان فسهل على نفسه وعلى غيره القضاء عليهم ^(٥) .

وعند ذلك ارتحل المهلب عن مكانه ونزل مكان قطري وصار يقاتل عبد ربه وأرسل يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره أنه مقيم على حرب عبد ربه ويسأله أن يوجه في أثر قطري رجلاً شجاعاً قسراً الحجاج بذلك وكتب إلى المهلب يستحثه على مناجزة القوم ويحذّر في قتاله حتى يحسم الداء وأنه على استعداد لإمداده بالرجال وأمامه الأموال ^(٦) .

(١) المبرد ج ٢ ص ٢٢٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٢١ ، ١٢٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٤ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٢٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٤ .

(٤) راجع المبرد ج ٢ ص ٢٢٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٥ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٢٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٤ .

(٦) راجع المبرد ج ٥ ص ١٢٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٤ .

فشدد المهلب الحصار على عبد ربه حتى اضطره هو وأصحابه إلى الخروج من جيرفت مجرمهم وأموالهم وما خف من متاعهم فدخلها المهلب ؛ فسار عبد ربه حتى نزل على أربعة فراسخ من جيرفت فسار المهلب في أثره والتحما في معركة أسفرت عن قتل عبد ربه وانهزام أصحابه فجلوا عن الميدان تاركين أربعة آلاف ما بين قتيل وجريح وأسير .

وبذلك تم النصر للمهلب على هذا الفريق من الأزارقة وكان ذلك سنة سبع وسبعين للهجرة ^(١) .

إرسال المهلب الرسل والكتب للحجاج :

وجه المهلب كعب بن معدان الأشقري ^(٢) ومرة بن بليد الأزدي إلى الحجاج فلما وصلا إليه تقدم كعب فأنشده قصيدة تنيف على ثمانين بيتًا يذكر فيها أيام رامهرمز وسابور وجيرفت ومطلعها :

ياحفص إني عدائي عنكم السفر وقد سهرت فأذى عيني السهر ^(٣)

فقال له الحجاج بعد أن فرغ من إنشادها « أشاعر أم خطيب ؟ » . قال شاعر فأقبل عليه الحجاج وقال خبرني عن بني المهلب فقال المغيرة سيدهم وفارسهم ، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا وجوادهم وسخيمهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم نافع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفالك بالفضل نجدة » .

(١) الطبري ج٥ ص ١٢٧ وابن الأثير ج٤ ص ٦٥ ويروي الذهبي ج٢ ص ٤٦٦ وابن شاعر ج٥ ص ٩٢ وابن كثير ج٩ ص ٢١ أن قتل عبد ربه كان في سنة ثمان وسبعين .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٢٢ والبرد ج٢ ص ٢٣١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٥ .

ويروي المسعودي من ج٢ ص ١٠٦ أن الرسول كان بشر بن مالك الجرشي بينما يروي ابن خلكان ج٢ ص ١٩٥ وابن عبد ربه ج ١ ص ١٥٠ ، ٣٠١ أن الرسول كان مالك بن بشر وأن هذا كان بعد هزيمة قطري .

(٣) راجع الطبري ج٥ من ص ١٢٢ - ١٢٥ .

فقال له كيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا .

قال فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرج فإذا أيلوا ففرسان البيات قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها . قال : فكيف كنتم وعدوكم ؟ قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يؤسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم » قال الحجاج : « إن العاقبة للمتقين » .

فكيف أفلتكم قطري ؟ قال كدنا وظن أن قد كادنا بأن صرنا منه إلى التي يحب قال . فهلا اتبعتموه ؟! قال . كان حرب الحاضر أثر عندنا من اتباع الفل . قال : فكيف كان المهلب لكم وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد . قال : فكيف كان اغتباط الناس به ؟ قال نشأ فيهم الأمن وشملهم الفضل قال : أكنت أعددت هذا الجواب ؟ قال . لا يعلم الغيب إلا الله . قال : هكذا تكون الرجال ، كان المهلب أعلم بك حيث بعثك ^(١) .

وأمر له بعشرين ألف درهم وحمله على فرس وأوفده على الخليفة عبد الملك بن مروان فأمر له بعشرين ألفاً أخرى ^(٢) .

وبعث المهلب إلى الحجاج كتاباً جاء فيه (الحمد لله الكافي بالإسلام فقهر ما سواه ، الحاكم بأن لا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد : فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسؤنا ويسؤهم منا أكثر مما يسرهم - على اشتداد شوكتهم - فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت الفرصة منهم في وقت

(١) المبرد ج٢ ص ٢٣٢ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٦ ويراجع ابن الأثير ج٤ ص ٦٦ ، ٦٧ والمسعودي ج٢ ص ١٠٦ .

(٢) ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٦ .

إمكانها وأدنت السواد من السواد حتى تعارفت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (١) .

الحجاج ينصف مواهب المهلب الحربية ويكافئه على إخلاصه وخدماته للدولة :

كتب الحجاج إلى المهلب يقول « أما بعد : فعل الله بالمسلمين خيرًا وأراحهم من بأس الجِلاد وثقل الجهاد ولقد كنت أعلم بما قبلك فالحمد لله رب العالمين.. فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيئهم ونفل الناس على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقية من القوم بقيت. فخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم إن شاء الله » .

ولى المهلب يزيد ابنه كرمان وقال له « يا بني إنك لست اليوم كما كنت إنما لك من كرمان ما فضل عن الحجاج ولن تحتل إلا على ما احتمل عليه أبوك فأحسن إلى من تبعك ثم إن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلي ، وتفضل على قومك » (٢) .

ثم قدم المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر بره وإكرامه وقال « يا أهل البصرة أنتم عبيد المهلب ثم مدحه وأنصف مواهبه الحربية فقال له أنت والله كما قال لقيط الإيادي (٣) :

وقلّ—دوا أمركم لله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه	هم يكاد حشاه يقصم الضلعا

(١) المبرد ج٢ ص ٢٣٢ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ وابن نباتة ص ١٢٤ .

(٢) المبرد ج٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٨ .

(٣) المبرد ج٢ ص ٢٣٣ وشرح العيون ص ١٢٥ وابن الأثير ج٤ ص ٦٧ ، ٦٨ وابن شاکر ج٥ ص ٩٥ وابن أبي

الحديد م ١ ص ٤٠٨ .

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا غص مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون مُتَّبِعًا طورًا ومتَّبِعًا
حق استمرت على شزر مريرته^(١) مستحکم الرأي لا قحماً ولا ضرعا^(٢)

فقال المهلب « أما والله ما كنا أشد من عدونا ولكن رفع الحق بالباطل وقهرت الجماعة الفتنة وكان ما كرهنا من المطاولة خيراً لنا مما أحببناه من المعاجلة » فقال الحجاج : صدقت . ثم طلب الحجاج منه أسماء الذين أبلوا في الحرب بلاءً حسناً فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال « إنه والله لو تقدمهم أحد لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت وما أنت أعلم بهم مني وإن حضرت وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله » .

فكافأ الحجاج أولاد المهلب كلاً منهم بزيادة ألفين في عطائه تقديرًا لحسن بلائهم .

أما بقية المحاربين ممن زكاهم المهلب فقد كوفيء كل منهم على قدر بلائه^(٣) ، وبذلك ضرب الحجاج المثل الأعلى في تقدير العاملين ووضع كل إنسان في موضعه فلا يغمط لديه حق ولا يضيع عنده عمل عامل .

وكافأ المهلب بأن عينه واليًا على خراسان وكانت هي وسجستان للحجاج منذ

(١) شزر مريرته : هذا مثل يضرب يقال شزرت الحبل إذا كررت قتله بعد استحكامه راجعًا عليه والمريرة : الحبل .

(٢) الفحم : آخر سن الشيخ ؛ والضرع : الصغير الضعيف .
ويروى أنه قام إلى الحجاج رجل فقال « أصلح الله الأمير والله لكأنني أسمع الساعة قطريًا وهو يقول : المهلب والله كما قال لقيط الإيادي ثم أنشد هذا الشعر . فسر الحجاج حتى امتلأ سرورًا . المبرد ج ٢ ص ٢٣٣ وابن شاعر ج ٥ ص ٩٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٨ .

(٣) المبرد ج ٢ ص ٢٣٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٨ .

سنة ثمان وسبعين للهجرة بعد أن عزل العامل عليها وهو أمية بن خالد بن أسيد (١) .

وبينما كان ذلك يجري في معسكر المهلب كان الحجاج قد أرسل سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان قد انتهى من حربه مع شبيب كما سيأتي وكتب إلى إسحاق بن محمد ابن الأشعث قائد الكوفيين بطبرستان يأمره بالسمع والطاعة لسفيان فانضم إسحاق لسفيان وسارا يطلبان قطريًا حتى لحقاه في شُعبٍ من شعاب طبرستان وقتلوه فتنفرق عنه أصحابه وسقط هو في أسفل الشُعب فدحرج عليه رجل من أهل البلد حجرًا كبيرًا فأصاب وركه فأوهنه وجاء نفر من أهل الكوفة فقتلوه وحملت رأسه إلى سفيان فبعث بها إلى الحجاج وأرسلها الحجاج بدوره إلى عبد الملك بن مروان (٢) .

ثم توجه سفيان بعد ذلك إلى محاربة عبيدة بن هلال ومن معه وكان قد فارق قطريًا (٣) وتحصن في قصر بقومس فحاصروهم وشددوا عليهم الحصار حتى جهدوا وأكلوا دوابهم ثم خرجوا إليه فقتلوه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج (٤) .

وقد لاقى هؤلاء قدرهم في الوقت الذي لاقى فيه رفقاؤهم حتفهم في جيرفت على يد المهلب في سنة ثمان وسبعين للهجرة (٥) .

(١) الطبري ج٥ ص ١٣٤ وابن الأثير ج٤ ص ٧١ .

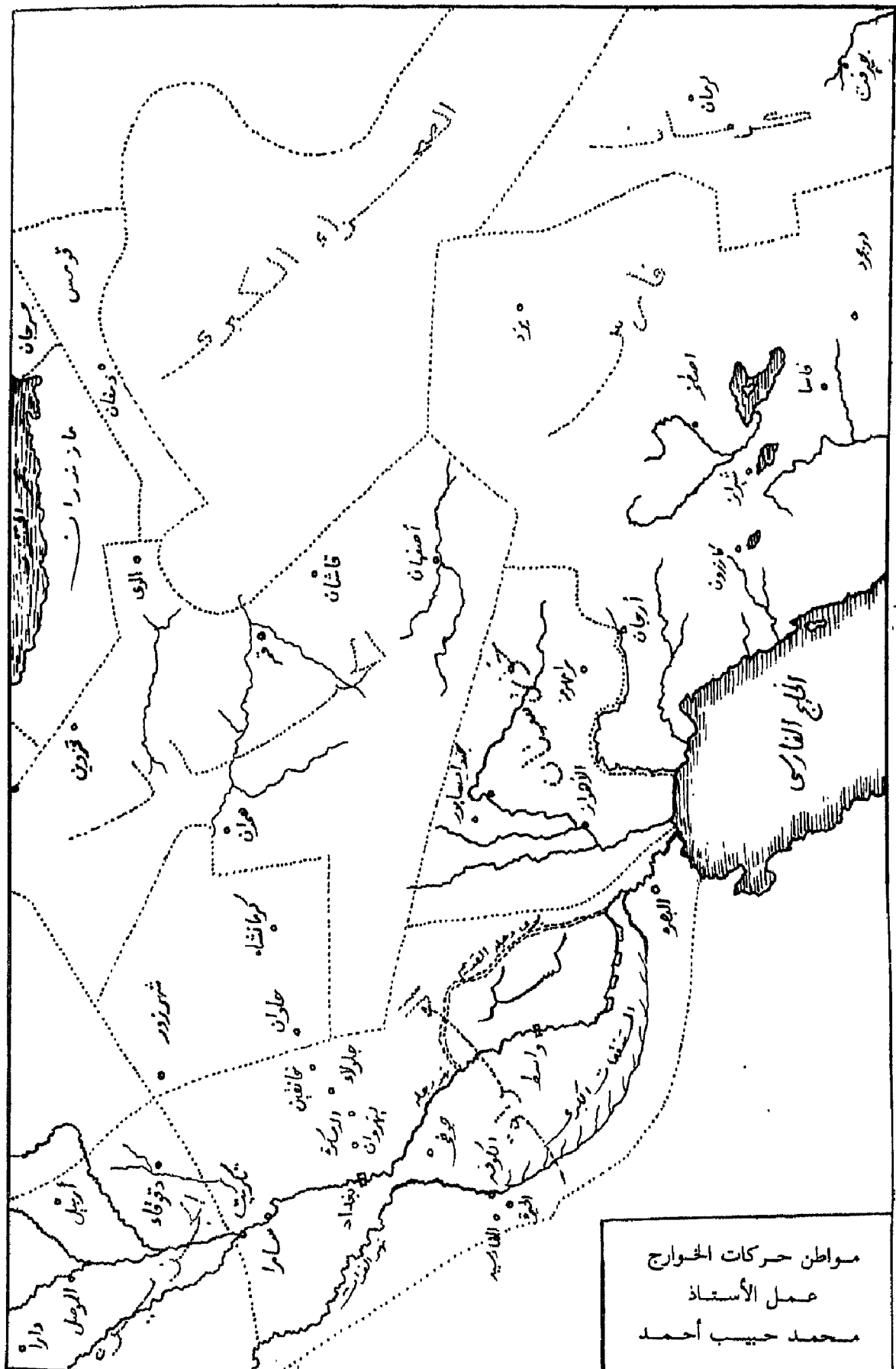
(٢) الطبري ج٥ ص ١٢٦ ، ١٢٧ وابن الأثير ص ٦٨ ، ٦٩ وابن شاعر ج٥ ص ٩٣ .

(٣) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٦٦ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٢٧ وابن الأثير ص ٦٩ وابن شاعر ج٥ ص ٩٤ .

(٥) ابن شاعر ج٥ ص ٩٣ والذهبي ج٣ ص ٤٦٦ وابن كثير ج٩ ص ٢١ وشذرات الذهب ج١ ص ٨٦ .

ويروي الطبري ج٥ ص ١٢٦ وابن الأثير ج٤ ص ٦٨ أن قتل قطري كان سنة سبع وسبعين بينما يروي اليعقوبي ج٣ ص ٢١ أن هلاكه كان في سنة تسع وسبعين .



الفصل الثالث

ثورة الخوارج الصفرية : الصالحية والشيبية

في « دارا » بين نصيبين و « ماردين » كان يعيش صالح بن مسرح التميمي زعيم فرقة الخوارج الصالحية إحدى فرق الخوارج الصفرية (١) .

وكان له أصحاب يقرؤهم القرآن ويفقههم في الدين ويقص عليهم القصص ويوصيهم بتقوى الله والانتقام من الأئمة الظالمين ووجوب جهادهم محتجاً بأن الجور قد فشا والعدل قد عفا وأن الولاة لا يزدادون إلا علواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب (٢) .

ولم يكن صالح متعجلاً للعمل فقد قيل إنه بقي عشرين سنة يعلم الناس في هدوء وسكون (٣) .

وكان أهم أنصاره ومعاونيه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني وكانت قبيلته في ذلك الوقت تسكن على الشاطيء الأيمن للفرات في صحراء الكوفة وقصد في مبدأ أمره روح بن زنباع والتمس منه أن يسأل أمير المؤمنين عبد الملك أن يجعل عطائه مساوياً لعطاء أهل الشرف فسأل روح عبد الملك ذلك فقال عبد الملك : « رجل لا أعرفه » .

فأبلغ ذلك روح بن زنباع لشبيب فقال : « يوشك أن يعرفني » (٤) .

فلما كانت سنة خمس وسبعين حج عبد الملك بن مروان وحج في هذا العام

(١) الصفرية كما عرفنا إحدى فرق الخوارج الرئيسية . ومن الصعب تعيين مؤسس هذه الفرقة شأنها في ذلك شأن معظم الفرق فقليل إنهم أتباع زياد بن الأصفر وقيل عبد الله بن صفار وقيل عبيد الله بن قبيصة وأنهم سمو بهذا الاسم لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى صفرة ألوانهم ويروى أن صالحاً كان أول من ناوأ الدولة من الصفرية - الطبري ج ٥ ص ٥٠ والبغدادى ص ٧٠ وابن شاعر ج ٥ ص ٥٨ .

(٢) راجع القصص في الطبري ج ٥ ص ٥٠ ، ٥١ وابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٩ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٥٢ .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٩٠ .

صالح بن مسرح ومعه شبيب بن يزيد وسويد .

هَمَّ شبيب بالفتك بعبد الملك وبلغ ذلك عبد الملك ، فبعد انصرافه من الحج كتب إلى الحجاج يأمره بطلبهم فضيق الحجاج على صالح - وكان صالح يأتي الكوفة فيقيم بها نحو الشهر ونحوه فيلقى أصحابه ليعلمهم ويعدهم للخروج على الأمويين - وصار يطلبه حتى نبت به الكوفة فتركها ^(١) إلى دارا .

وهناك طلب إلى أصحابه أن يستعدوا ويبيعثوا لإخوانهم ليأتوهم فتراسل أصحابه وتلاقوا وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم المحلل بن وائل يشكرى بكتاب من شبيب موجهاً إلى صالح بن مسرح يقول له فيه « أما بعد فقد علمت أنك كنت أردت الشخص وقد كنت دعوتني فاستجبت لك فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك منا أحداً وإن أردت تأخير ذلك اليوم فأعلمني فإن الآجال غادية ورائحة ولا آمن أن تخترمني المنية ولما أجاهد الظالمين فياله غبناً وياله فضلاً متروكاً .

جعلنا الله وإياك ممن يريد الله بعمله ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام والسلام عليك ^(٢) .

فكتب إليه صالح كتاباً جاء فيه (إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارك فأقبل إلينا فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ولا تقضى الأمور دونه) ^(٣) .

فلما وصل كتاب صالح إلى شبيب دعا نفراً منهم أخوه مصاد والمحلل بن وائل يشكرى وغيرهما وخرج بهم حتى قدم على صالح بدارا فلما تقابلا قال شبيب لصالح « أخرج بنا رحمك الله فوالله ما تزداد السنة إلا دروساً ولا يزداد المجرمون إلا

(١) الطبري ج٥ ص ٥٠ وابن الأثير ج٤ ص ٤١ وابن شاکر ج٥ ص ٥٩ وابن كثير ج٩ ص ١٠ والعيني ج١١ ص ٣٠١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٥٢ وابن الأثير ج٤ ص ٤٢ وابن شاکر ج٥ ص ٥٨، ٥٩ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ٤٢ وراجع الطبري ج٥ ص ٥٢ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٩ وابن شاکر ج٥ ص ٥٨ .

طغياناً « فبث رسله في أصحابه وواعدهم الخروج ليلة الأربعاء أول صفر من سنة ست وسبعين للهجرة (١) .

وفي الليلة المحددة اجتمعوا فبلغ عددهم مائة وعشرة أو مائة وعشرين ونصحهم زعيمهم بعدم قتال أحد إلا إذا أراد قتالهم (٢) وبين لهم أول شيء يجب عليهم أن يقوموا به (حتى يمكنهم الجهاد) فقال لهم : « إن معظمكم رجاله وهذه دواب لمحمد ابن مروان - أمير الجزيرة - فابدؤا بها فاحملوا عليها رجالكم وتقووا بها على عدوكم فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدواب وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة فنشروا الفزع والرعب في تلك الجهات فتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار .

علم محمد بن مروان بذلك فاستخف بهم وبعث إليهم عدي بن عميرة في ألف فساروا وكأنا يساقون إلى الموت كراهية للقتال . وفي سوق دوغان وقعت الموقعة فهزم فيها جيش عدي وهرب هو وحوى صالح ، ما في معسكره (٣) .

بلغ ذلك محمد بن مروان فغضب واستدعى خالد بن جَزء السُّلَمي وبعثه في ألف وخمسمائة واستدعى أيضاً الحارث بن جَعُونَة وبعثه في ألف وخمسمائة وقال لهما : « اخرجنا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجلا الخروج وأغذا السير فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه » .

فخرجنا وجعلنا يسألان عن صالح فعلمنا أنه توجه جهة آمد (٤) فذهبا إليه وخذنا على أنفسهما فأرسل صالح شبيباً في جماعة إلى لحرث وتوجه هو إلى خالد واقتتل

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٢ ، ٥٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٠٩ والعيني ج ١١ ص ٣٠٢ وابن شاکر ج ٥ ص ٧٢ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٥٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٠ والعيني ج ١١ ص ٣٠٢ وابن شاکر ج ٥ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٥٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٠ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٢ وابن شاکر ج ٥ ص ٧٣ .

(٤) آمد - على الضفة اليسرى للفرات .

الفريقان قتالاً عنيفاً لم يتغلب فيه صالح وقتل من عدد جيشه الضئيل ثلاثون ومن أصحاب محمد أكثر من سبعين ^(١) .

رأى صالح ذلك فاستشار أصحابه في الموقف فأشار عليه شبيب بوجوب الخروج من هذا المكان حيث العدو مخندق على نفسه فأصاب ذلك الرأي من صالح موقعاً حسناً كانت نتيجته قرار الخروج .

فخرجوا من ليلتهم سائرين فقطعوا أرض الموصل وأرض الجزيرة وانتهوا إلى الدسكرة .

وبوصولهم إلى الدسكرة ألقى مهمة حربهم على الحجاج وسرعان ما أرسل إليهم جيشاً من الكوفة يبلغ عدده ثلاثة آلاف تحت قيادة الحارث بن عميرة بن ذي الشعار .

ولما قارب الجيش الدسكرة خرج صالح نحو جلولاء وخانقين فاتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية المدبج - على تخوم ما بين الموصل وجوخي - وفي هذه القرية حدثت المعركة وكانت نتيجتها في غير مصلحة الخوارج فقد سقط زعيمهم صالح بن مسرح قتيلاً وكان ذلك في يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الأولى لسنة ست وسبعين من الهجرة - ٣ سبتمبر سنة ٦٩٥ م ، وصرع شبيب عن فرسه ^(٢) وظهرت الهزيمة في القوم فجاء شبيب إلى موقف صالح فوجده قد قتل فخشى شبيب تفرق أصحابه عنه فنادى (يامعشر المسلمين) فاجتمعوا إليه فقال لهم « ليجعل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا » .

ففعّلوا ذلك حتى دخلوا الحصن فأحاط بهم الحارث وأشعل النار في الباب -

(١) الطبري ج٥ ص ٥٥ وابن الأثير ج٤ ص ٤٣ وابن خلدون ج٣ ص ١٥٢ .

ويروي ابن شاعر ج٥ ص ٧٣ والعيني ج١١ ص ٣٠٣ وابن كثير ج٩ ص ١٣ أن عدد القتلى من جيش شبيب نحو السبعين ومن جيش ابن مروان نحو الثلاثين .

(٢) الطبري ج٥ ص ٥٥ وابن الأثير ج٤ ص ٤٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٠ والعيني ج١١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ وابن كثير ج٩ ص ١٣ .

معتقدًا أنهم لا يمكنهم الخروج منه - وقال لأصحابه : « نصبهم غذا فنقتلهم » ؛
وانصرف عنهم ^(١) .

فقال شبيب لأصحابه « ما تنتظرون فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه هلاككم »
« فقالوا مرنا بأمرك » فقال : « إن الليل أخفى للويل بايعوني أو من شئتم منكم ثم
أخرجوا بنا نشد عليهم في عسكرهم فإنهم لذلك منكم آمنون وأنا أرجو أن ينصركم الله
عليهم » قالوا : « ابسط يديك نبايعك » فبايعوه وكانوا نحو السبعين أو الثمانين ^(٢) .

وبذلك صار شبيب أميرًا عليهم وأتوا باللبود فبلوها بالماء ثم ألقوها على النار
وخرجوا قاصدين عسكر الحارث فباغتوهم ولم يشعر الحارث وأصحابه إلا بوقع
السيوف فضاربهم الحارث حتى صرع واحتمله أصحابه وانهمزوا وخلوا لهم المعسكر بما
فيه وساروا حتى نزلوا المدائن ، فكان ذلك أول جيش هزمه شبيب ^(٣) .

ارتحل شبيب بعد ذلك ومضى بهم في تخوم أرض الموصل وجوخي ثم ارتفع إلى
أذربيجان ليجمع الأنصار ولينتقم من بعض أعدائه من شيبان وعنزة وليأخذ أمه التي
كانت تسكن في تلك الناحية ^(٤) .

كان الحجاج في ذلك الوقت قد أرسل إلى سفيان بن أبي العالية يستدعيه من
طبرستان وكان قد أمره أن يحارب صاحب طبرستان بألف فارس كانوا معه .

فلما تخرجت الحالة بين جيش الدولة والخوارج كتب الحجاج إليه يأمره بأن

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٠ والعيني ج ١١ ص ٣٠٤ وابن
شاکر ج ٥ ص ٧٤ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٥٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٠ ويروى البغدادى ص ٨٩ أن
صالحًا انهزم فقط في الموقعة لرح أصابه فلما أشرف على الموت قال لأصحابه « قد استخلفت عليكم شبيبًا
لأنه رجل شجاع مهيب في عدوكم فليفته الفقيه منكم بفقهه » . ثم مات فبايعوا شبيبًا .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٥٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١١ والعيني ج ١١ ص ٣٠٤ وابن
شاکر ج ٥ ص ٧٤ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٥٧ ، ٥٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٤ ، ٤٥ وابن خلدون ج ٣ ص ١٥٢ .

يصالح صاحب طبرستان وأن يسير حتى ينزل الدسكرة حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة وحتى تأتيه خيل المناظر ثم يسير إلى شبيب .

فأقبل بالألف فارس الذين معه حتى نزلوا الدسكرة ؛ ونودي في جيش الحارث بالكوفة والمدائن أن برئت الذمة من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يواف سفيان بن أبي العالية بالدسكرة ؛ فخرجوا حتى وافوه وأتته خيل المناظر وكانوا خمسمائة عليهم سورة بن أبجر التيمي لم يتخلف إلا نحو الخمسين رجلاً منهم وبعث سورة إلى سفيان بالتوقف حتى يلحقه ؛ ولكن سفيان تعجل في طلب شبيب فصار حتى لحقه بخانقين ^(١) .

ارتحل شبيب عنهم مظهرًا كراهيته للقتال ؛ وقد أكن لهم أخاه مصادًا في منخفض من الأرض في نحو خمسين فارسًا وعندما رأوا شبيب جمع أصحابه ومضى في سفح الجبل مشرقًا قالوا : « هرب عدو الله » فاتبعوه . فقال لهم عدي بن عميرة : « أيها الناس لا تعجلوا حتى نضرب في الأرض ونسير فيها فإن يكونوا قد أكنوا لنا كينًا حذرناه وإلا فإن طلبهم لن يفوتنا » ، فلم يسمعوا منه ولم يلتفتوا إلى قوله وأسرعوا في آثارهم .

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكين عطف عليهم شبيب وخرج عليهم الكين من ورائهم فلم يحدث قتال ، وإنما كانت الهزيمة .

فقد هرب الناس وثبت سفيان في مائتي رجل فقاتلهم قتالاً شديداً حتى كاد أن يقتل في هذه المعركة ؛ ولكنه تمكن من النجاة وكتب إلى الحجاج بما حدث وعرفه بوصول الجند إلا سورة بن أبجر .

فلما قرأ الحجاج الكتاب أثنى عليه وقال : من صنع مثل ما صنع هذا وأبلى كما أبلى ؟

(١) الطبري ج٥ ص ٥٥ وابن الأثير ج٤ ص ٤٤ ، ٤٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١١ وابن خلدون ج ٣

فقد أحسن ، وعذره (١) .

وكتب إليه (أما بعد : فقد أحسنت البلاء وقضيت الذي عليك فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورًا إلى أهلك) .

كما كتب إلى سورة يلومه ويتهدده ويأمره أن ينتخب من المدائن خمسمائة ويسير بهم وبين معه إلى شبيب ففعل ذلك سورة وسار نحو شبيب وشبيب يحول في جوخي ، وسورة في طلبه حتى انتهى شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فدخلها وأخذ منها دوابًا وقتل من ظهر له فقيل لشبيب هذا سورة قد أقبل فخرج حتى انتهى إلى النهر - تلك الأرض المقدسة لدى الخوارج بما قتل فيها من شهدائهم - فصلوا وترحموا على من قتل فيها وتبرءوا من علي وأصحابه . وبث سورة عيونه فأتته العيون بمنزل شبيب وبعده أصحابه وأنهم لا يزيدون عن المائة فانتخب من أصحابه ثلاثمائة وسار بهم نحو النهروان حيث منزل شبيب وجنده ولكن شبيب كان يقطًا فعلم بالجند المقبلة فبعى أصحابه وحمل على سورة وأصحابه فهزمهم ورجعوا إلى المدائن وشبيب في طلبهم يرجو أن يدركهم قبل دخولهم المدائن ؛ ولكنهم كانوا قد سبقوا فدخلوا بيوتهم .

وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن وخرج ابن أبي عصفير أمير المدائن لرد المغيرين عليها فرماهم الخوارج بالنبل ورماهم أهل المدائن بالحجارة ؛ فلما تعذرت المدائن على شبيب جلا عنها بأصحابه ومر على جلولاء فأصاب بها دوابًا للحجاج فأخذها ثم خرج يسير في أرض جوخي ثم مضى نحو تكريت (٢) .

ونظرًا لأنه كان يغير مكانه باستمرار ولا يثبت في جهة فقد ألقى الروع والفرع في نفوس أهل المدائن حتى أنهم أرجفوا بأنه يريد أن يبيت أهل المدائن ويغير عليهم فارتحل عامة الجند ؛ وأخذوا جميعًا يرجعون إلى بيوتهم بالكوفة .

ولما بلغ ذلك مسامع الحجاج قال قبح الله سؤرة : ضيع العسكر والجند وخرج

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١١ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٦٠ - ٦٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ ، ٤٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١١ ، ٤١٢ .

يبيت الخوارج أما والله لأسوءنّه .

ودعا بالجزل وهو سعيد بن عثمان وطلب منه أن يتجهز للخروج وأمره أن لا يعجل عجلة الخرق ولا يحجم إحجام الواني الفرق ؛ فالتمس منه الجزل أن لا يبعث أحداً من الجند المهزوم لأن روحهم المعنوية ضعيفة فأجابه إلى ملتصقه وجمع له جيشاً يبلغ عدده نحو أربعة آلاف ونادى منادي الحجاج أن الذمة بريئة ممن تخلف من هذا البعث .

فخرج الجزل بهذا الجيش وسار في طلب شبيب وصار شبيب يسير مظهرًا الخوف منه متنقلًا من مكان إلى آخر إرادة أن يفرق الجزل أصحابه في الجهات المختلفة فيلقاه في عدد يسير وعلى غير تعبئة ولا استعداد ولكن الجزل قلد طريقة المهلب فأخذ يطلبهم بالنهار ويتحصن منهم بالليل .

فلما طال الأمر على شبيب جمع أصحابه وكانوا مائة وستين رجلاً وفرقهم أربع فرق وجعل على كل فرقة رجلاً من أصحابه وأمر كل قائد من هؤلاء القواد أن يهاجم الجزل من جهة عينها له فنفذوا ذلك ولكنهم لم يقدرُوا منه على شيء .

رأى الخوارج حرص الجزل فساروا في أرض جوخي وغيرها يكسرون الخراج وسار الجزل في طلبهم على تعبئة بالنهار وخندقة بالليل (١) .

طال ذلك الأمر على الحجاج الذي كانت خطته - كما رأينا فيما سبق - عدم المطاولة فكتب كتاباً قرأه على الناس (أما بعد : فإنني بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه الناس وأمرتكم باتباع هذه المارقة الضالة المضلة حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها فوجدت التعريس في القرى والتخيم في الخنادق أهون عليكم من المضي لما أمرتكم به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام) (٢) .

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ٦٢ - ٦٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ ، ٤٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٢ ، ٤١٣ وابن خلدون ج ٣ ص ١٥٣ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٦٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٣ .

فشق ذلك على الجزل وأمر الناس بالسير الجدد في قتالهم وأرجف الناس بأمره وقالوا سيعزله ؛ وما لبث أن بعث سعيد بن المجالد الحمداني بدله وطلب منه أن يزحف بالناس ولا يطاول الخوارج ولا يصنع كما صنع الجزل .

وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان وقد لزم عسكره وخندق عليهم ، فجاء سعيد حتى دخل عسكر أهل الكوفة وقام خطيباً فيهم موبخاً ومعجزاً لهم ومشجعاً على الخطة التي اتبعت ؛ فقال له الجزل : فماذا تريد أنت أن تصنع . ؟ قال : « أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل » فقال له الجزل « أقم أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم وابرز إليهم فوالله ليقدمن عليك ولا تفرق أصحابك » فقال له « قف أنت في الصف » فبرىء من رأيه .

وكان شبيب في ذلك الوقت في طريقه إلى رامهرمز وكان يأكل هو وأصحابه عندما جاء النذير بأنه محاط بالعدو ومن جميع الجهات فأتم طعامه - هادئاً - ثم خرج وحمل على الناس وجعل سعيد يدلف الخيل نحوه .

ولما رأى شبيب تفرق أصحاب سعيد عنه قال لجماعته : « استعرضوهم فوالله لأقتلن أميرهم أو يقتلني »

وحمل عليهم مستعرضاً فهزمهم وثبت سعيد فحمل عليه شبيب وضربه بالسيف فقتله . وبقتله انهزم الجيش ورجعت الفلول إلى الجزل وناداهم الجزل (أيها الناس إليّ) وناداهم عياض بن أبي لينة (إن كان أميركم القادم قد هلك فأمركم الميمون النقيب المبارك حي لم يميت) ، فقاتل الجزل قتالاً شديداً حتى حمل من بين القتلى جريحاً فحمل إلى المدائن وقدمت الفلول إلى الكوفة .

وكتب الجزل إلى الحجاج بالخبر ويدافع عن خطته ونصحه لسعيد ؛ فكتب إليه الحجاج يثني عليه ويشكره ويعلن رضاه لكل من الخطتين وأرسل إليه حيان بن أبجر ليداوي جراحته وألفي درهم لينفقها وبعث إليه عبيد الله بن أبي عصفير بألف درهم وكان يعوده ويتعاهده بالهدية .

اطمأن شبيب إلى قوته فسار نحو المدائن فلما علم أن لا سبيل له إليها فضل أن يسير نحو الكوفة فأقبل حتى انتهى إلى الكرخ فعبر دجلة إليها وأرسل إلى سوق بغداد فأمنهم لبلوغه أنهم يخافون منه وهو يريد أن يشتري هو وأصحابه دواباً وسيوفاً وأشياء تلزمهم^(١) .

ثم سار شبيب إلى الكوفة فنزل عند حمام عمر بن سعد وبلغ الحجاج ذلك فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن في ألفين وقال له « الق شبيباً فإن استطرد لك فلا تتبعه » فخرج وعسكر بالسبخة فبلغه أن شبيباً قد أقبل فسار نحوه .

فلما وصل إلى زرارة قيل له إن شبيباً قد أتاك فنزل ونزل معه جل أصحابه وأمر الحجاج عثمان بن قطن أن يعسكر بالناس في السبخة .

علم شبيب بمكان سويد فترك الجهة التي هو فيها وسار يريد الكوفة من جهة أخرى فعبر الفرات من مخاضته وأتى دار الرزق فنزلها وبلغ ذلك سويداً فأمر أصحابه بالركوب لاقتفاء آثارهم وتتبعهم وفي الوقت نفسه بلغ الذين مع عثمان .

أقبل شبيب إليهم فماج بعضهم في بعض وهموا بدخول الكوفة والعودة إلى ديارهم لولا أن علموا بأن سويداً في أثر شبيب وأنه قد لحقه وهو يقاتله^(٢) .

عندئذ عدل شبيب عن مهاجمة الكوفة وسار يقصد الحيرة وسويد في أثره لا يتركه فلما وجده قد بعد عن الكوفة تركه . وقد حدث خلال هذه المتابعة حملات من شبيب لم يفز فيها بطائل .

وقد أغار شبيب في سيره هذا على أطراف البادية فأخاف الناس وانتقم من بعض المعادين له ثم عرج على الفرات فذهب إلى الأنبار ثم اتجه شمالاً إلى أذريجان فتركه الحجاج^(٣) .

(١) الطبري ج ٥ من ص ٦٥ - ٦٩ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٣ ، ٤١٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٦٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، ٤٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٤ والعيني ج ١١ ص ٣٠٥ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٨ .

ظن الحجاج أن شبيبًا قد نأى فخرج من الكوفة إلى البصرة بعد أن استخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة .
وبينما أهل الكوفة في هدوئهم إذ جاء عروة ابن المغيرة كتاب من ماذرواسب دهقان بابل مهروذ يذكر له أن بعض التجار وجبة الخراج أخبره أن شبيبًا قد نزل خانيجار وهو على قصد الكوفة فأرسل عروة الكتاب إلى الحجاج بالبصرة فأقبل الحجاج مجددًا إلى الكوفة كي يصلها قبل شبيب وأقبل شبيب حتى انتهى إلى قرية حزلى على شاطئ دجلة فعبر منها ثم سار حتى نزل عقرقوف وقال لأصحابه « ياهؤلاء إن الحجاج ليس بالكوفة وليس دون أخذها شيء إن شاء الله فسيروا بنا نبادر الحجاج إليها » .

ولكن الحجاج كان يطوي المنازل مسبقًا شبيبًا إليها فسبقه ودخلها صلاة العصر (١) .

ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب فاستراح بها وصلى المغرب والعشاء (٢) .
ثم هجم على الكوفة بالليل وكان معه في جيشه زوجه غزالة وأمه جهيزة وغيرهما قد تقلدن السيوف واعتقلن الرماح وسار شبيب بمن معه إلى قصر الإمارة فضرب بابه بعمود ضربة أثرت بالباب (٣) وقال :

(١) ابن الأثير ج٤ ص ٤٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٤ والعيني ج ١١ ص ٣٠٥ وابن كثير ج ٩ ص ١٤ ويروي الطبري ج ٥ ص ٧١ أن الحجاج دخل الكوفة صلاة الظهر .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ وقد اختلف المؤرخون في عدد الجيش الذي دخل به شبيب الكوفة فمنهم من بالغ في العدد فوصل به إلى الألف - البغدادى ص ٩٠ ، ومنهم من انحط به إلى ما دون العشرين . البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٣ وأما ابن شاعر ج ٥ ص ٧٧ وعماد الدين صاحب شذرات الذهب ج ١ ص ٣٣ فيذكر أن دخلها بسبعين .

وإننا لنستبعد أن يبلغ جيش شبيب في هذه السنة ألفًا ذلك أنه كان لا يعد ومائة وستين ، يؤيدنا في هذا أن جيشه في سنة سبع وسبعين بلغ ثمانمائة بعد أن طاف شبيب يجمع أنصار فكرته وأعداء الحجاج وغير هؤلاء من الطامعين في مال أو ثأر أو الذين يطلبون الحجاج بتبعات .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٨ واليعقوبي ج ٣ ص ٢٠ والعيني ج ١١ ص ٣٠٥ والدميري ج ١ ص ٢١ .

عبد دعي من ثمود أصله لا بل يقال أبو أيهم يقدم ^(١) .

وطلبت غزالة الحجاج للمبارزة فلم يجيبها فقال في ذلك عمران بن حطان
السدوسي - وكان الحجاج يطلبه :-

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفيير الصافر
هلاً برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر ^(٢)

ودخلت مسجد الكوفة فخطبت على منبره وجعلت تذم بني مروان ^(٣) ، وصلت
فيه ركعتين كانت قد نذرتها قرأت فيها بالبقرة وآل عمران ^(٤) - وهما أطول سورتين
في القرآن - وقرأت وردها ؛ وشبيب واقف على الباب يحميها ^(٥) .

ثم خرج شبيب بأصحابه من المسجد بعد أن قتل كثيرًا من الذين كانوا بالمسجد
من المصلين والمعتكفين وصاروا كلما رأوا شخصًا - في تلك الليلة - قتلوه .
وبعد أن عاثوا في الكوفة فسادًا خرجوا جهة المردمة ^(٦) .

انتظر الحجاج في داره حتى جلا شبيب وأصحابه عن الكوفة لأن جيوشه كانت
متفرقة وأمر المنادي فنادى (يا خيل الله اركبي وأبشري) وهو فوق باب القصر وثم

(١) الطبري ج ٥ ص ٧١ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ .

(٢) المبرد ج ٢ ص ٦٧ وابن شاعر ج ٥ ص ٧٧ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٣ ، ٢٤ .

(٣) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٩٠ وابن كثير ج ٩ ص ١٤ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٩٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٦١ وابن خلدون ج ٢ ص ١٥٨ وابن شاعر ج ٥ ص ٧٧

والأبشهي ج ١ ص ٢٢٥ وشذرات الذهب ج ١ ص ٨٣ .

(٥) الذهبي - تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٦٦ .

(٦) الأبشهي ج ١ ص ٢٢٥ .

(٧) الطبري ج ٥ ص ٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ .

وكان دخول شبيب الكوفة وضرب باب القصر وسفك الدماء في سنة ست وسبعين ، العيني ج ١١
ص ٣٠٤ وابن كثير ج ٩ ص ١٤ والذهبي ج ٣ ص ٤٦٦ . وأما ابن شاعر وصاحب شذرات الذهب
فيذكران ذلك في حوادث سنة سبع وسبعين وهذا ما لا يمكن وقوعه في سنة سبع وسبعين لأنه لم يدخل
الكوفة ؛ وأما الطبري وابن الأثير فإنها يذكران ذلك على أنه من حوادث سنة ٧٦ ويذكران حوادث =

مصبح مع غلام له فتهافت إليه الناس ؛ ولكنه لم يفتح أبواب القصر ليلاً^(١) فبات كل قائد في جماعته حتى الصباح . فبعث بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل وزائدة بن قدامة الثقفي في ألفين وأبا الضريس مولي بن تميم - في ألف من الموالي وأعين صاحب حمام أعين - مولى بن بشر بن مروان - في ألف رجل ومحمد بن موسى ابن طلحة في ألفي رجل^(٢) ؛ وقال لهم الحجاج : « إن كان حرب فأمركم زائدة بن قدامة » .

فسار هؤلاء الأمراء حتى نزلوا أسفل الفرات فترك شبيب الوجه الذي هم فيه وأخذ طريقه نحو القادسية .

وفي الوقت الذي أرسل فيه الحجاج هؤلاء القواد وجه زحر بن قيس في جريدة من نقاوة الفرسان تبلغ ألفاً وثمانمائة وأمره باتباع شبيب ومواقته حيثما أدركه إلا أن يكون منطلقاً ذاهباً فيتركه . فالتقى زحر بشبيب بالسليحين .

ودارت رحى المعركة فانهزم زحر وأصحابه وأصابه بضع عشرة جراحة ما بين طعنة وضربة وظن شبيب أن قائد الجيش قد قتل ولكن كان قد أغمي عليه فلما كان

= أخرى على أبواب الكوفة على أنها من حوادث سنة ٧٧ ولم يذكر البغدادي واليعقوبي لذلك الحادث تاريخاً .

(١) الطبري ج ٥ ص ٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ وابن خلدون ج ٣ ص ١٥٤ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٥ . ولعله أراد بذلك أن لا يتعرض لدسيسة من جماعة شبيب إذ ربما كان خروجهم من المدينة خدعة . وليس ذلك مما يعاب على الحجاج كما لا يعاب عليه عدم خروجه لغزاة كما عيره بعض الناس بذلك . المبرد ج ٢ ص ٦٧ والمسعودي ج ٢ ص ١٠٩ وابن كثير ج ٩ ص ٢٠ فإن الحجاج كان بعيد النظر في عدم الخروج لأنه كان في قلة من أصحابه ولم يبق بالمدينة مدة تكفي لجمع الجيوش والدفاع إنما أرجأ ذلك للغداة حتى يكمل استعداداه ؛ وفي هذا دليل قاطع على بعد نظر الحجاج ، وقول عمران ووصفه الحجاج بالجبن فهو قول أحد زعماء الخوارج الذين كان يطلبهم الحجاج ؛ فأراد بذلك أن يثبت شجاعة غزاة من جهة ويشفي نفسه برمي الحجاج بالجبن من جهة أخرى .

(٢) وكان محمد بن موسى قد استعمله عبد الملك بن مروان على سجستان وكتب إلى الحجاج ليجهزه ويسيره سريعاً فأقام يتجهز ؛ وفي أثناء ذلك دخل شبيب الكوفة فقال له الحجاج : « تلقى هذه الخارجة ويكون الظفر لك فيطير اسمك وتمضي إلى عملك » فسيره معهم الطبري ج ٥ ص ٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٤٩ .

الليل وأصابه البرد قام يمشي حتى دخل قرية فبات بها وحمل منها إلى الكوفة ثم أتى الحجاج وعلى وجهه القطن فأجلسه معه على السرير^(١) وقال لمن حوله « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس وهو شهيد فليتنظر إلى هذا »^(٢) .

ولما هزم شبيب أصحاب زحر قال أصحابه له « قد هزمنا لهم جنداً انصرف بنا الآن واقرين » فقال لهم شبيب « هذه الهزيمة قد أرعبت هؤلاء الأمراء والجنود الذين في طلبكم فاقصدوا بنا نحوهم فوالله لئن قاتلناهم فما دون الحجاج مانع ونأخذ الكوفة إن شاء الله تعالى » .

ففوضوا إليه الأمر فسأل عن القوم فأخبر أنهم بروذبار - على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة - فقصدهم .

علم الحجاج بمسير شبيب إلى الأمراء فأرسل إليهم يخبرهم ويطلب منهم الاستعداد لقتاله وتجديد قيادة زائدة بن قدامة فاستعدوا وعبؤوا الجيوش وأقبل إليهم شبيب وقد رتب أصحابه وتقابل الجيشان وحى وطيس القتال وصبر زائدة للمعركة حتى قتل وقتل معه بعض الأمراء وجرح بعضهم^(٣) .

ولما قتل القائد أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعمتهم إلى بيعته فبايعه بعضهم بالليل وكان فين بايعه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقال شبيب لأصحابه « هذا ابن أحد الحكمين » فأرادوا قتله فقال شبيب « ما ذنب هذا ؟؟ وتركه .

فلما ظهر الفجر أذن محمد بن موسى بن طلحة في أصحابه - وكان لم يبرح مكانه - فقال شبيب ظننت أن حمقه وخيلاءه يحمله على هذا .

وبعد صلاة الفجر حمل على محمد وأصحابه فانهزمت طائفة منهم وثبتت معه طائفة فقاتل حتى قتل .

(١) الطبري ج ٥ ص ٧٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٠ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٧٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٥٠ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٧٤ ، ٧٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٠ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

وأراد شبيب أن يذهب إلى الكوفة لولا أن رأى أن أصحابه قد ضعفوا وبيعهم جراحات فعدل عنها وأخذ طريقه على نفر ثم على الصراة ثم إلى خانيجار فأقام بها ^(١) ؛ ولما بلغ الحجاج أن شبيباً قد أخذ طريقه نحو نفر ظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة ومن أخذ المدائن كان ما في يده من السواد أكثره ، فهاله الأمر وبعث إلى عثمان بن قطن فسرجه إلى المدائن ^(٢) .

وأرسل إلى عبد الرحمن بن الأشعث الكندي يأمره بالخروج لشبيب وأن يطلبه حيث كان وأمره أن ينتخب من الناس ستة آلاف فارس فانتخب منهم من كندة وحضرموت ستائة وطلب منه الحجاج المسارعة بالخروج فخرج وعسكر بدير عبد الرحمن وكتب إليهم الحجاج :

« قد اعتدتم عادة الأذلاء ووليتم الدبر يوم الزحف وذلك دأب الكافرين وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة ومرة بعد مرة وإني أقسم لكم بالله قسمًا صادقًا لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعًا أكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواز الجبال فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلًا وقد أعذر من أنذر .

وقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
والسلام عليكم » ^(٣) .

وأرسل الحجاج ابن الأصم مؤذنه إلى عبد الرحمن عند طلوع الشمس يأمره بالارتحال والمناداة في الناس ببراءة الذمة من كل من تخلف ، فأذعن عبد الرحمن للأمر وخرج بالناس حتى مر بالمدائن فنزل بها يومًا وليلة اشترى فيها أصحابه ما يلزمهم وزار الجزل فأوصاه الجزل بالاحتياط وحذره من متابعة شبيب .

(١) الطبري ج ٥ ص ٧٥ ، ٧٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٥١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٧٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٥١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٦ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٧٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٦ وراجع ابن الأثير ج ٤ ص ٥١ وابن خلدون ج ٣ ص ١٥٥ .

واصل عبد الرحمن سيره إلى شبيب فلما دنا منه سار شبيب إلى دقوقاء وشهرزور فتبعه عبد الرحمن حتى إذا وصل التخوم لتلك الأرض قال : « هذه أرض الموصل فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم أو فليدعوا » .

علم الحجاج بقرار عبد الرحمن فكتب إليه (أما بعد فاطلب شبيبًا واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده والسلام) .

وعرج شبيب في اتجاه جلولاء وتحرك عبد الرحمن ثانية في طلبه وصار شبيب يراوعه ويخادعه فيتركه يسير وراءه حتى إذا ما دنا منه سار نحو العشرين فرسخًا فنزل في أرض خشنة غليظة .

وهو في ذلك يحاول أن يصادف من عبد الرحمن غرة ولكن عبد الرحمن كان حذرًا يقظًا ففي الليل كان يخندق على نفسه وفي النهار يعيء الجيش ويستعد ، ومازال شبيب على هذا الحال في السير حتى أنهك جيش ابن الأشعث وأحفى دوابه ولقي منه كل بلاء .

ومع ذلك استمر عبد الرحمن في متابعته فمر شبيب بهم على خانتقين وجلولاء وسامرا ثم أقبل إلى السبت وهي قرية من قرى الموصل ليس بينها وبين الكوفة إلا نهر يسمى نهر حولايا - وجاء عبد الرحمن فنزل عواويل من النهر لأنه وجدها مثل الخندق والحصن الحصين .

كان عيد النحر قد أقبل فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يقول له « هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم فهل لكم في المواعدة حتى تمضي هذه الأيام » ؟؟ ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك - وكان يحب المطاولة فكتب - عثمان بن قطن أمير المدائن - إلى الحجاج يقول له « أما بعد فإن عبد الرحمن قد حفر جوخي كلها خندقًا واحدًا وكسر خراجها وخلي شبيبًا يأكل أهلها والسلام » .

فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى عبد الرحمن فيعزله ويتولى قيادة الجيش بدله وأرسل مكانه على المدائن مطرف بن المغيرة .

فسار إلى عبد الرحمن وعزله عن إمرة الجيش وتولى هو قيادته فأراد أن يناجز الخوارج في الحال فلم يساعده الجو إذ كانت الرياح تهب شديدة على الجيش فأقام يوماً وليلة بعد قدومه حتى هدأت الرياح ثم عبأ جيشه وزحف به على شبيب وتقدم شبيب بأصحابه للقتال وكانوا نحوًا من مائة وثمانين رجلاً ودارت رحى معركة أسفرت عن هزيمة جيش عثمان وقتله ووقع ابن الأشعث من فوق فرسه فأنقذه بعض الجنود فسار حتى نزل دير اليعار .

وقُتِلَ من كنده في ذلك اليوم مائة وعشرون ومن سائر الناس ألف وقتل معظم العرفاء وأمر شبيب أصحابه أن يرفعوا السيوف عن الناس ودعوتهم إلى البيعة فأتاه قوم فبايعوه ^(١) .

وبات عبد الرحمن تلك الليلة بدير اليعار فأتاه فارسان فصعدا إليه وقام آخر قريبًا منها وخلا أحدهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه ثم نزل هو وأصحابه فتبين أن ذلك الرجل هو شبيب وأنه كان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبة ^(٢) .

وسار عبد الرحمن في آخر تلك الليلة عن هذا المكان ونزل بدير أبي مریم فاجتمع الناس إليه وقالوا له « إن سمع شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنية قد ذهب الناس وتفرقوا وقتل خيارهم فالحق أيها الرجل بالكوفة » فرجع إلى الكوفة ودخلها متخفيًا من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه ^(٣) .

شبيب بالمصيف :

وأما شبيب فإنه أراد أن يستريح من شدة القتال وشدة الحر فأقام الصيف في الجبال على « ماه يهرذان » مدة ثلاثة أشهر وفي أثناء تلك الأشهر الثلاث كثر أتباعه فذهب إليه الكثيرون ممن ينبغي المال أو الشأ .

(١) الطبري ج ٥ من ص ٧٩ - ٨٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٢ ، ٥٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) الطبري ج ٥ من ص ٨٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٨٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٣ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٨ .

وبعد انتهاء المدة خرج شبيب في ثمانائة رجل وقصد المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة وجاء شبيب حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج : « أما بعد : فياني أخبر الأمير أصلحه الله أن شبيباً قد أقبل حتى نزل قناطر حذيفة ولا أدري أين يريد » .

فلما قرأ الحجاج كتاب بابل مهروذ قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم أو لأبعثن إلى قوم هم أسمع وأصبر على الألواء والغیظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم » ^(١) .

فعملت هذه الكلمة عملها في النفوس من حيث إنهم لا يريدون أن يدخل عليهم أحد من أهل الشام ، وقاموا من كل جانب قائلين « نحن نقاتلهم ونرضي الأمير فليندبنا إليهم فإننا حيث سره » .

وقام إليه زهرة بن حوية ذلك الشيخ الطاعن في السن ووجه نصيحته للحجاج مبيناً أن سبب الهزائم هو إرسال الناس فرقاً فرقاً ولكن يجب أن يستنفر الناس كافة وأن يكون القائد ثباً شجاعاً مجرباً للحرب ممن يرى الفرار هضماً وعاراً والصبر مجداً وكرماً .

فقال له الحجاج فأنت وذاك فاخرج فقال زهرة : « أصلح الله الأمير : إنما يصلح للناس في هذا الأمر رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس وأنا لا أطيق من هذا شيئاً وقد ضعفت وضعف بصري ولكن أخرجني مع الأمير في الناس فأكون معه وأشير عليه برأيي » . فشكره الحجاج وأثنى عليه وقبل منه نصيحته ونادى في الناس بوجوب سيرهم جميعاً .

فانصرف الناس يتجهزون ولا يدرون من أميرهم ؟؟

هذا ما فعله مع أهل العراق ، ولكنه في هذه المرة لم يطمئن إليهم لسابق تقاعسهم فكتب إلى عبد الملك يخبره أن شبيباً قد شارف المدائن وأنه يريد الكوفة وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة ويطلب أن يبعث إليه جنداً من

(١) الطبري ج ٥ ص ٨٤ ، ٨٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٨ .

أهل الشام يقتاتلون الخوارج ويأكلون البلاد ^(١) ، وأرسل في الوقت نفسه أيضاً إلى عتاب بن ورقاء وهو مع المهلب في حرب الأزارقة على جيش ابن مخنف يستدعيه كما عرفنا ذلك فيما سبق .

فأجاب عبد الملك بن مروان طلبه وأرسل إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف وحبیب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين ^(٢) .

أمر جيش الكوفة :

فجمع الحجاج أشراف الكوفة واستشارهم فيمن يتولى أمر هذا الجيش ففوضوا إليه الأمر فيمن يراه فأخبرهم أنه قد أرسل إلى عتاب بن ورقاء يستدعيه وأن موعد وصوله الليلة أو غداً فظهر سرور أهل الكوفة من هذا الاختيار وقال شيخهم زهرة ابن حوية « رميتهم بحجرهم والله لا نرجع إليك حتى نظفر أو نقتل » ^(٣) .

كان في هذه الأثناء قد فشا الخبر بقرب وصول جيش شامي فتقدم قبصة بن والقي التغلبي بنصيحة إلى الحجاج بشأن إخوانه القادمين فقال :

« إن الناس قد تحدثوا أن جيشاً قد وصل إليك من أهل الشام وأن أهل الكوفة قد هزموا وهان عليهم الفرار فقلوبهم كأنها ليست فيهم فإن رأيت أن تبعث إلى أهل الشام ليأخذوا حذرهم ولا يبيتوا إلا وهم محتاطون فإنك تحارب جؤلاً قلباً طمعاً رجالاً وقد جهزت إليهم أهل الكوفة ولست واثقاً بهم كل الثقة وإن شبيباً بينما هو في أرض إذا هو في أخرى ولا آمن أن يأتي أهل الشام وهم آمنون فإن يهلكوا نهلك ويهلك العراق » فقال الحجاج « لله أبوك ما أحسن ما رأيت وما أصح ما أشرت به » .

(١) الطبري ج ٥ ص ٨٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٨ . ٤١٩ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٨٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٨٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ .

وبعث من فوره إلى الجيش الشامي كتابًا يقول فيه : « أما بعد فإذا حاذيتهم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار وخذوا طريقكم على عين التمر حتى تقدموا الكوفة إن شاء الله وخذوا حذرکم وعجلوا السير والسلام » فأقبل القوم سراعًا وقدم عتاب في نفس الليلة التي عينها الحجاج فأمره الحجاج بالخروج بالناس فخرج وعسكر بحمام أعين^(١) .

أقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذا فقطع فيها دجلة ثم سار ونزل مدينة بهرسير الدنيا فلم يكن بينه وبين مطرف إلا جسر على النهر فقطعه مطرف^(٢) وأرسل إلى الحجاج « إن شبيبًا قد أطل عليّ فابعث إلى المدائن بعثًا » .

فبعث إليه سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف في مائتي فارس^(٣) . وأرسل مطرف إلى شبيب يطلب منه رجالاً يدارسهم القرآن وينظر فيما يدعون إليه . وبعد مفاوضات في شأن البعث أجابه إلى طلبه وأرسل إليه قعنب وسويد والمحلل .

ودارت مناقشات مدة أربعة أيام لم يصلوا بها إلى نتيجة ترضي الطرفين وفشلت المفاوضات . فلما تبين لشبيب أن مطرفًا غير متابع له ولا داخل معه تهيأ للسير إلى عتاب وإلى أهل الشام^(٤) .

وهذه الحركة التي قام بها مطرف لا نعرف على التحقيق المقصود منها : هل كان يريد أن يشغلهم عنه ؟؟ أم أنه كان يطمع في استمالتهم إلى جانبه ليتقوى بهم فيقوم بمحركة كالتى قام بها فيما بعد ؟؟

ووثق مطرف أن الحجاج لا بد عالم بما كان بينه وبين شبيب فخرج نحو الجبال بأصحابه وأخبرهم بذلك ما عدا سبرة فإنه كتم عنه الأمر إلى أن وصل إلى دسكرة

(١) الطبري ج ٥ ص ٨٦ ، ٨٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ وراجع ابن الأثير ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٨٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٦ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٩٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٢ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٨٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٦ .

الملك فأعلمه بما يريد ودعاه لأمره فأظهر سيرة أنه معه ، ولما خرج من عنده بعث إلى أصحابه فجمعهم ورجع بهم إلى الكوفة (١) .

ومها تكن نية مطرف في مفاوضته لشبيب فالواقع أن الجيش الشامي استفاد من تصرف مطرف إذ شغل شبيب بالمفاوضة عن مقابلته الجيش الشامي وهو في طريقه إلى الكوفة .

وقد عبر عن ذلك في حديث أفضى به لأصحابه فكان مما قاله : « إن هذا الثقفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام وذلك أني هممت أن أخرج في جريدة خيل حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام رجاء أن أصادف غرتهم قبل أن يحذروا وكنت ألقاهم منقطعين عن المصر ليس عليهم أمير كالحجاج ولا لهم مصر كالكوفة يعتصمون بها » .

ولما انتهت المفاوضات كانت أوائل الجيش الشامي قد دخلت عين التمر وكان عتاب قد سار بخمسين ألفاً منهم أربعون ألفاً من مقاتلة أهل الكوفة وعشرة آلاف من شبابهم ممن نشط للجهاد ورجب فيه حتى نزل سوق حكمة ، وقد هددهم الحجاج وتوعدهم قائلاً « يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتاب بن ورقاء بأجمعكم لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا . ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة . ألا وإن للناكل الهارب الجفوة والهوان والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينكم كنفاً خشناً ولأعركنكم بكلكل ثقيل » (٢) .

جمع شبيب أصحابه بعد أن عرفهم الموقف وقال يامعشر المسلمين : « إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان وأكثر من ذلك وأقل منه قليلاً فأنتم اليوم

(١) الطبري ج٥ ص ٩٣ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٨٧ ، ٨٨ وابن الأثير ج٤ ص ٥٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ .

مئون ومئون ألا وإني مصل بكم الظهر ثم سائر بكم «
 فصلى الظهر ثم نودي في الناس (يا خيل الله اركبي وأبشري) فخرج في أصحابه
 فأخذ البعض يتخلف في الطريق فلما رأى شبيب ذلك أخذ يقص عليهم القصص
 ويذكرهم بالآخرة ويزهدهم في الدنيا ليتشجعوا ولا يكون لديهم رهبة ولا خوف من
 هذا الجيش الكبير وما زال سائرًا حتى أشرف على عتاب بن ورقاء وعسكره فنزل
 وصلى المغرب (١) .

معركة سوق حكمة :

كان عتاب قد عبى أصحابه وصفهم ثلاثة صفوف صف لأصحاب السيوف وصف
 آخر لأصحاب الرماح والصف الثالث للرماة .

كذلك رتب شبيب جيشه الذي وصل إلى ميدان القتال وهو ستائة وقد تخلف
 عنه ربعمائة فجعل مائتين في الميسرة ومائتين في القلب ومائتين في المينة .

ونشبت المعركة في تلك الليلة حين أضاء القمر فدارت الدائرة على عتاب وفر
 من جيشه كثيرون كان من بينهم عبد الرحمن بن الأشعث في ناس كثير .

وتخرج موقف عتاب فلم يبق معه إلا القليل فقاتل بهم ساعة حتى قتل ، وبعد
 ذلك أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى البيعة فبايعه الناس خوفًا ولكنهم
 هربوا من ليلتهم وحوى شبيب ما في عسكرهم ثم أقبل إلى الكوفة (٢) .

وفي طريقه إلى الكوفة مر على سورا فقال لأصحابه أيكم يأتييني برأس عامل
 سورا ؟؟ فخرج جماعة من أصحابه إلى عامل سورا ودبروا مكيدة وخديعة خدعوا
 بها الناس بأن قالوا : أجيئوا الأمير فقال الناس أي الأمراء ؟؟ قالوا : أمير خرج من
 قبل الحجاج يريد هذا الفاسق - يعني شبيبًا - : فاغتر بذلك العامل منهم ثم إنهم

(١) الطبري ج٥ ص ٨٨ وابن الأثير ج٤ ص ٥٦ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٩ والعيني ج ١١ ص ٣٠٧ .

(٢) الطبري ج٥ من ص ٨٩ - ٩١ وابن الأثير ج٤ ص ٥٦ ، ٥٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٠ وابن خلدون

شهروا سيوفهم وحكموا حين وصلوا إليه وضربوا عنقه وقبضوا على ما كان في بيت المال ولحقوا بشبيب وأخبروه بالأمر فقال عن المال « لقد أتيتونا بفتنة المسلمين هلم الحربة يا غلام ، فمزق بها البدور وأمر فنخست الدابة التي عليها المال فصار يتناثر من بدوره حتى وصل الصراة فقال : إن كان قد بقي شيء فاقدفه في الماء^(١) » واستمر شبيب في مسيره حتى نزل موضع حمام أعين .

كان في ذلك الوقت قد وصل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي فبين معهما إلى الكوفة فشدوا ظهر الحجاج واستغنى بهم عن أهل العراق الذين برهنوا على منتهى الجبن^(٢) .

وحينما وصلته أخبار هزيمة عتاب صعد المنبر فقال « يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد منكم النصر اخرجوا عنا ولا تشهدوا معنا قتال عدونا الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب »^(٣) .

وما كاد الحجاج ينتهي من خطبته هذه حتى قدم سبرة بن عبد الرحمن من الدسكرة فلما علم بغضب الحجاج لم يرد أن يقابله وجهاً لوجه فدخل على سفيان بن

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٢ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢١ .

ولقد كانت هذه العبارة . « لقد أتيتونا بفتنة المسلمين » ، وما تبع ذلك من ترك المال يتناثر من البدور ثم قذف باقيه في الماء - مشاراً لتعليق بعض الكتّاب - راجع تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٤٧٢ فتحدثوا - معتدين عليها - عن زهد الخوارج وتقصّهم .

على أننا لا نستطيع أن نوفق بين موقف شبيب إزاء هذا المال وما جرى بعد ذلك من أنه عند إخماد ثورته كان عسكره أكثر عسكر خلق الله خيراً . الطبري ج ٥ ص ١٠٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٦١ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٠ ولعل شبيباً أراد في هذا الموقف أن لا يشغل الناس بالمال وهم مقبلون على موقعة فاصلة .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٩٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢١ وابن خلدون ج ٣ ص ١٥٧ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٩٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٠ وابن كثير ج ٩ ص ١٧ .

الأبرد وقص عليه قصته وأخبره بطاعته وفراقه مطرفاً وأنه من الذين لم يشهدوا قتال عتاب بل لم يشهد هزيمة في موطن من مواطن أهل الكوفة كما أن الذين معه لم يشهدوا هزيمة قط ومازالوا على الطاعة لم يدخلوا فتنة .

فدخل سفيان على الحجاج فأخبره بقصة سبرة فقال صدق وبر . قل له فليشهد معنا قتال عدونا فخرج إليه سفيان وأعلمه بذلك ^(١) .

وأخذ الحجاج في إعداد العدة لقتال شبيب دون الاعتماد على أهل العراق فدعا الحارث بن معاوية بن أبي زرعة الثقفي فأرسله في ناس من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب وجماعة كانوا عمالاً في نحو مائتي رجل من أهل الشام وبلغ عدد الجميع نحو الألف خرج بهم الحارث حتى نزل زارة .

ولما وصل علم ذلك إلى مسامع شبيب الذي كان سريعاً في حركاته ومحبةً لمعالجة الجيوش فرادى أسرع إلى الحارث بن معاوية حتى إذا ما وصل إليه حمل عليه فقتله وانهزم أصحابه وجاء المنهزمون فدخلوا الكوفة ^(٢) وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً إليها .

وفي اليوم الثاني أخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك وخرج أيضاً أهل الكوفة فأخذوا بأفواه سككهم خوفاً من موجدة الحجاج وعبد الملك بن مروان وجاء شبيب فنزل السبخة وأسس بها مسجداً .

وفي اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد - أحد مواليه - بهيئة عظيمة وأخرج غلاماً له معه فقال أصحاب شبيب هذا الحجاج فحمل عليه شبيب فقتله وقال حين قتله : إن كان هذا الحجاج فقد أرحتم منه ؛ ثم أخرج الحجاج غلاماً آخر له اسمه طهمان في مثل تلك العدة والحالة فقتله شبيب وقال مثل مقالته السابقة ^(٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٣ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٩٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٨ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢١ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٩٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٥٨ .

خروج الحجاج لشبيب :

عند ذلك رأى الحجاج أن يخرج بنفسه لقتال شبيب على رأس الجيش الخارج ليقوي عزيمة الجند وليشهد قتال الذين فرت منهم الجيوش وقتلوا عدداً من الأمراء والقواد فخرج عند ارتفاع النهار راكباً إلى السبخة ولما رأى شبيباً نزل ورسم الخطة التي يجب أن تتبع في قتال العدو^(١) .

فجعل سبرة بن عبد الرحمن على أفواه السكك في جماعة الناس ودعا بكرسي فقعد عليه ثم نادى (يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم غصوا الأبصار واجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة) .

فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وأقبل إليهم شبيب في ستائة فارس حتى إذا ما دنا عبيء أصحابه ثلاثة كراديس وقال لقائد إحداها احمل عليهم في خيلك فحمل عليهم فثبت أصحاب الحجاج وصاروا يطعنونهم قُدماً حتى انصرف القائد بكردوسه فصاح الحجاج هكذا فافعلوا وقدم كرسيه حتى يضغطوا على العدو ولا يتقهقروا فأمر شبيب قائد الكردي الثاني بالحملة عليهم ففعلوا به مثل فعلهم بزميله وصاح بهم الحجاج هكذا فافعلوا وقدم كرسيه . ثم إن شبيباً حمل عليهم بكردوسه الثالث فصنعوا به ما صنعوا بقائديه .

فلما رأى شبيب ذلك أراد أن يسلك معهم خطة أخرى . تلك هي أنه أمر سويداً - أحد قواده - أن يحمل على الآخذين بأفواه السكك فإذا ما تمكن من إزالتهم عن مواضعهم أتى الحجاج من ورائه ، بينما يأتيه شبيب من الأمام . على أن خطة شبيب هذه كان مقدراً لها الفشل : ذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلثمائة رجل رداءً له ولأصحابه لئلا يؤتوا من الخلف .

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٥٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢١ والعيني ج ١١ ص ٣٠٧ وابن كثير

وبينما كان سويد يقوم بمحاولته هذه دون أن يعلم بما أعد الحجاج له زُمي من فوق البيوت وأفواه السكك بالحجارة فرجع (١) .

أدرك شبيب خطورة الموقف فجمع أصحابه ليحمل بهم جميعًا وقال لهم (يا أهل الإسلام إنما شرينا الله ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جنب الله الصبر الصبر شدة كشداتكم في مواطنكم الكريمة » .

ولما رأى الحجاج تجمع شبيب بأصحابه قال لأصحابه : « يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ثم ورب السماء ما شيء دون الفتح » .

فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه فوثبوا في وجهه وما زالوا يطاعنونه بالرماح ويدفعونه وأصحابه حتى بلغوا المسجد الذي أسسه شبيب واستولوا عليه فقال الحجاج يا أهل الشام هذا أول الفتح .

وصعد الحجاج فوق المسجد وصعد معه جماعة نحو العشرين من أصحاب النبال وعند ذلك أمر شبيب فرسانه بالترجل فأمر الحجاج برشقهم بالنبال إن قربوا منهم واشتد القتال في ذلك اليوم الذي ظهرت فيه عبقرية الحجاج الحريية ووطن نفسه فيه على هزيمتهم (٢) .

وفي هذا الوقت أتى الحجاج خالد بن عتاب - من أعيان أهل الكوفة فكان بذلك لا يرغب الحجاج في اشتراكهم في القتال ولفراره عن أبيه - يلتصق من الحجاج أن يقاتل الخوارج حتى يثار لأبيه وأبأن أنه لا يتهم في نصيحته واستأذن في أن يغير عليهم من خلفهم فأذن له الحجاج فأتاهم من خلفهم في جماعة من أهل الكوفة فقتل مصادًا أخا شبيب وقتل امرأته غزالة (٣) وأضرم النار في عسكره

(١) الطبري ج٥ ص ٩٤ ، ٩٥ ابن الأثير ج٤ ص ٥٨ وابن الحديد م ١ ص ٤٢١ وابن كثير ج٩ ص ١٨ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٩٥ وابن الأثير ج٤ ص ٥٨ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٢ والعيني ج١١ ص ٣٠٧ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٩٥ ، ص ٩٦ ابن الأثير ج٤ ص ٥٨ ، ص ٥٩ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٢ والعيني ج١١ ص ٣٠٧ وابن كثير ج٩ ص ١٨ .

ويروي البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص ٩٠ أن غزالة أمه .

بلغ ذلك الخبر مسامع الحجاج وشبيب فأما الحجاج فقد كبر تكبير النصر وأما شبيب فركب هو وأصحابه بعد أن كانوا راجلين فقال الحجاج لجنده شدوا عليهم فإنه قد أتاها ما أرعبهم فحملوا عليهم فكانت الهزيمة لشبيب .

فقد ولى جماعة من أصحابه الدبر وتخلف هو في حامية من الناس ولكنه لم يلبث أن ولى الدبر هو أيضاً فنادى الحجاج (أن دعوه في حرق الله وناره) .

وكانت تلك الواقعة في سنة سبع وسبعين للهجرة (١) .

وبذلك انتصر الحجاج وجاء فدخل الكوفة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « والله ما قوتل شبيب قبلها ولّى والله هارباً وترك امرأته يكسر في أستها القصب » .

وأراد الحجاج أن يقضي على شبيب قضاءً مبرماً فنادى يوم الهزيمة من جاءنا فهو آمن فتفرق عن شبيب عدد كبير ثم بعث إلى عماله أن دسوا لأصحاب شبيب أن من جاءنا منهم فهو آمن .

ونظرًا لأن الكثير منهم سئم القتال وعرف أن لا فائدة ترجى من شبيب تركه ودخل في أمان الحجاج وخشي الحجاج أن يستطيع شبيب جمع أنصار جدد فأرسل في أثره حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف من أهل الشام وحذرهم من البيات وطلب منهم أن ينازلوه في أي مكان وجد لأن الهزيمة محققة له إذ إن حده قد فل ونابه قد قصم بقتل أخيه وزوجه وتفرق الكثير من أصحابه عنه .

فسار حبيب حتى نزل الأنبار وبلغ شبيب ذلك فأقبل إليهم حتى إذا دنا من عسكرهم نزل فصلى برجاله المغرب (٢) .

(١) الطبري ج٥ ص ٩٥ ، ٩٦ وابن الأثير ج٤ ص ٥٨ ، ٥٩ والعيني ج١١ ص ٣٠٨ وابن كثير ج٩ ص ٢٠ وابن شاعر ج٥ ص ٧٩ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٠٠ وابن الأثير ج٤ ص ٥٩ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٢ .

رتب حبيب أصحابه فجعلهم أرباعًا وطلب من كل ربع منهم أن يمنع جانبه وأن لا يعين فريق فريقًا وأفهمهم أن الخوارج لابد أن يبيتوهم .
وقد كان ، فبيتهم شبيب ولكنه أتاهاهم وهم مستعدون فحمل على ربع منهم فقاتلوه فما زلت قدم إنسان عن موضعه فترك هذا إلى ربع آخر فكان الأمر كذلك ثم الثالث ثم الرابع وفي كل الأحوال لم يفز بطائل فطاف بهم ونازلهم راكبًا ورجلاً واشتد القتال حتى بلغت القلوب الحناجر وصار الرجل يضرب بسيفه فلا يصنع شيئًا من شدة الإعياء .

وقتل في تلك الليلة نحو الثلاثين من الخوارج والمائة من جيش حبيب .
ولما يؤس شبيب من النجاح أمر أصحابه بالركوب وترك القتال وسار بهم فقطعوا دجلة وأخذوا في أرض جوخي ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط ثم ساروا إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم ارتفعوا إلى كرمان ليأخذوا فترة استجمام وراحة (١) .

إرسال الحجاج سفيان بن الأبرد إلى شبيب :

أراد الحجاج أن يجهز على شبيب ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه ، فلديه أهل السمع والطاعة الذين هزموا شبيبًا الذي طالما فر منه أهل الكوفة ، وهذه قوته قد انحلت .

فنادى بخروج الناس وقسم فيهم أموالاً عظيمة وأعطى الجرحى وكل ذي بلاء وطلب إلى سفيان بن الأبرد أن يسير بهم إلى شبيب .

شق ذلك على حبيب وقال للحجاج « تبعث سفيان إلى رجل قد فللته وقتلت فرسانه »؟؟ ولكن الحجاج لم يتراجع في أمره وأمضاه فسار سفيان نحو شبيب .

(١) الطبري ج٥ ص ١٠٠ ، ص ١٠١ وابن الأثير ج٤ ص ٥٩ ، وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٢ وابن خلدون ج٢ ص ٢٥٨ .

وقد تحرينا أن نورد رواية أبي مخنف في سبب هزيمة شبيب دون رواية عمر بن شبة لأن الأولى في نظرنا منسجمة في منطقها مرتبة في حوادثها فضلاً عن الثقة بأبي مخنف في الأخبار الكوفية .

لم يكتف الحجاج بهذا بل كتب إلى عامله بالبصرة - الحكم بن أيوب الثقفي - يأمره أن يرسل رجلاً شجاعاً شريفاً من أهل البصرة في أربعة آلاف ويلحق بسفيان ابن الأبرد وأن يسمع له ويطيع ، فبعث الحكم زياد بن عمرو العتكي فلم يصل إلى سفيان حتى كان سفيان قد التقى بشبيب بجسر دجيل الأهواز فانضم إليه ونشبت بين الفريقين معركة تكررت فيها الحملات حتى قيل إنها بلغت ثلاثين حملة لم يتزحزح أهل الشام في واحدة منها .

على أن شبيباً وأصحابه أبلوا في الموقعة بلاءً ظن سفيان معه أنه سيعجز عن القضاء عليه واستمرت المعركة مائة حتى أقبل الظلام فانصرف شبيب وأصحابه ؛ وأمر سفيان أصحابه بعدم اتباعهم .

وأمر شبيب أصحابه أن يعبروا جسر دجيل حتى إذا أصبحوا باكروهم ، فعبروا أمامه وتخلف في أخراهم وبينما كان يعبر شبيب على الجسر اضطربت به فرسه فسقط في الماء ولم يستطع النهوض لثقل سلاحه فغرق قائلاً (ذلك تقدير العزيز العليم)^(١) وكان ذلك في سنة سبع وسبعين للهجرة^(٢) .

وهنا نتساءل : هل كان غرقه هذا بسبب خيانة من بعض عسكره لأنه قد أصاب من عشائريهم وسادات قومهم فأرادوا أخذ الثار في هذه الساعة فقطعوا الجسر فالت به السفينة ففزع حصانه وغرق ؟؟؟ أم كان السبب في هذا هو ما حصل من فرسه من أنها نزت على فرس أخرى ماذيانية كانت أمامها فاضطربت الماذيانية ونزل

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٢ ، ١٠٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٠ ، ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٣ والعيني ج ١١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ وابن كثير ج ٩ ص ٢٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٠٢ في أقسوى روايته وابن الأثير ج ٤ ص ٦٠ والعيني ج ١١ ص ٣٠٨ وابن شاعر في إحدى روايته ج ٥ ص ٧٩ وابن كثير ج ٩ ص ١٩ .
ويروى أن هلاك شبيب كان في سنة ثمان وسبعين . الطبري ج ٥ ص ١٠٢ في روايته الأخرى واليعقوبي ج ٣ ص ٢٠ والذهبي ج ٣ ص ٤٦٦ وابن شاعر في الرواية الأخرى ج ٥ ص ٧٩ .

حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء (١) ؟؟

وفي رأينا أن قصة المؤامرة أقرب إلى منطق الحوادث من قصة الماذيانة .
ذلك أنا لو فرضنا هذا الحادث العرض البحت كان هو السبب الوحيد في
سقوطه في الماء لنزل بعض رجاله المخلصين لإنتقاذه على الرغم من ظلام الليل فهو
أميرهم ومفروض عليهم الفناء في الدفاع عنه .

أما وقد أصابه هذا الحادث دون أن يتقدم أحد لإنتقاذه فعنى ذلك أن الجماعة
المحيطة به عن قرب كانت لا ترغب في نجاته مما يؤيد قصة المؤامرة ، وكذلك نرى
أن قصة قطع الجسر كانت إيداناً من الموتورين منه بقيام المؤامرة ضده .

كل هذا يرجح في نظرنا قصة المؤامرة فإنه فوق إصابته من عشائر بعضهم استثنى
قربته من القسوة التي كانت متبعة ضد الكفار (٢) فحققوا عليه كما حققوا عليه تركه
الأسرى يذهبون عندما يقولون لا حكم إلا لله .

ولا ننسى قوة سلطانه التي أثارت حفيظة أمثال ثابت بن مصقلة الذي جادل في
أثناء معركة السبخة وكان ممن يعبرون الجسر مع شبيب (٣) .

ومهما يكن من الأمر فقد انتهى شبيب ؛ وعندما سمع أهل الشام الخوارج
يقولون غرق أمير المؤمنين عبروا إلى عسكرهم فلم يجدوا فيه أحداً فنزلوا فيه وغنوه
فكان أكثر عسكر خلق الله خيراً (٤) .

(١) الطبري ج٥ ص ١٠٣ وابن الأثير ج٤ ص ٦١ وابن كثير ج٩ ص ٢٠ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٤ . وابن
شاعر ج٥ ص ٧٧ والذهبي ج٣ ص ٤٦٥ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٧٣ ؛ ١٠٤ وابن الأثير ص ٤ ، ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٤ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٩٩ وابن الأثير ج٤ ص ٦٠ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٠ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٠٤ وابن الأثير ج٤ ص ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٣٠ .

وقد أحاط الناس موت شبيب بقصة يزعمون فيها أن أهل الشام شقوا بطنه وأخرجوا قلبه فكان مجتمعًا كأنه صخرة وأنه كان يضرب به الأرض فيثب قامته إنسان (١) .

كما أحاطوه بأساطير أرجعوها إلى ما قبل ولادته (٢) .

وبهلاك شبيب تخلص الحجاج من عدو خطير قوي الإرادة صلب العزيمة دؤب قواد الدولة وعاث فيها فسادًا وبعث الفرع والرعب في قلوب الناس وبموته اطمأن الناس وانتظمت حالة البلاد للحجاج وتفرغ للفتح الخارجي .

(١) الطبري ج٥ ص ١٠٤ وابن الأثير ج٤ ص ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٤ والعيني ج ١١ ص ٣٠٩ وابن شاكراً ج٥ ص ٧٨ وابن عبد ربه ج ١ ص ٤٤ .

(٢) فن ذلك أن أمه حين حملت به رأت في المنام أنه خرج منها شهاب من نار فذهب ساطعًا في السماء وبلغ الآفاق كلها فبينما هو كذلك إذ وقع في ماء كثير فخبأ ، وأنه ولد في يوم السبت ١٠ من ذي الحجة من سنة خمس وعشرين للهجرة فاستنتج من ذلك أنه لا يموت على فراشه ولا يعمل فيه السيف وأنه سيكون عبًا لسفك الدماء وأن أمره سيكون عظيمًا . الطبري ج٥ ص ١٠٤ ، ١٠٥ وابن الأثير ج٤ ص ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص ٤٢٤ والعيني ج ١١ ص ٣٠٩ وابن شاكراً ج٥ ص ٧٨ .

الفصل الرابع ثورة مطرف بن المهيرة

عرفنا فيما سبق المغيرة بن شعبة أحد الدهاة الأربعة وإخلاصه في خدمة دولة بني أمية في عهد معاوية ومركزه فيها .

وقد ورث بنوه هذا الإخلاص وهذا المركز ، ولما قدم الحجاج العراق لم يغمطهم حقوقهم بل عرف لهم نبلهم وصلاحتهم ومنزلتهم من قومهم فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحمزة على همدان (١) .

فساروا في الناس سيرة حسنة ياجزال الثواب للمحسن وتشديد النكير على المسيء فاستتب الأمن وسارت الأمور في مجراها الطبيعي لا يزعجهم مزعج حتى قام مطرف بثورة ضد الدولة كانت سبباً في قتل نفسه وحبس أخيه حمزة .

كان مطرف كأييه وأخويه من أحسن العمال وأخلصهم ، وليس أدل على ذلك من النهج الذي رسمه لنفسه عند توليته المدائن فقد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة فإن عملت بما أمرني به فأنا أسعد الناس وإن لم أفعل فنفسي أوبقت وحظ نفس ضيعت . ألا أني جالس لكم العصرين فارفعوا إليّ حوائجكم وأشيروا علي بما يصلحكم ويصلح بلادكم فإني لن آلوكم خيراً ما أستطعت » ثم نزل فجلس في الإيوان .

وقد أرضى ذلك النهج أهل المدائن فقد أقبل إليه حكيم بن الحارث الأزدي - أحد أشراف الأزدي - وقال له : « أصلحك الله إني كنت منك نائياً حين تكلمت وإني

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٢ وابن خلدون ج ٢ ص ١٥٩ وابن شاذان ج ٥ ص ٧٩ .

أقبلت نحوك لأجيبك فوافق ذلك نزولك . إنا قد فهمنا ما ذكرت لنا أنه عهد إليك فأرشد الله العاهد والمعهود إليه وقد منيت من نفسك العدل وسألت المعونة على الحق فأعانك الله على ما نويت إنك تشبه أباك في سيرته برضى الله والناس (١) .

وقد استمر مطرف في عمله على النهج الذي رسمه لم يكدر صفوه مكدر حتى أقبل شبيب ونزل بهرسير الدنيا وصار بينه وبين مطرف جسر دجلة فقطعه مطرف وأرسل إلى الحجاج يخبره بمشارفة شبيب للمدائن ويطلب منه مدداً .

فأرسل إليه الحجاج أربعمائة من المقاتلة تحت قيادة سيرة بن عبيد الرحمن وعبد الله بن كنان (٢) .

وأرسل مطرف إلى شبيب يقول له : أن ابعث رجالاً من صلحاء أصحابك أدارسهم القرآن وأنظر ما تدعون إليه .

فأجابه شبيب بالموافقة على شرط أن يبعث إليه مطرف أولاً رجالاً من أصحابه يكونون رهينة لدى شبيب حتى يرجع إليه البعث (٣) .

فقال مطرف لرسول شبيب : قل له : كيف آمنك على أصحابي إذا بعثتهم الآن إليك وأنت لا تأمنني على أصحابك؟ فرد شبيب بقوله : إنك قد علمت أننا لا نستحل الغدر في ديننا وأنتم تفعلونه .

ومن العجب أنه بعد هذه الإجابة يرسل إليه مطرف جماعة من خيرة رجاله !!

فلما وصلوا إلى شبيب أرسل إليه كبار قواده للمفاوضة (٤) .

(١) الطبري ج٥ ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٠٧ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٠٨ وابن الأثير ج٤ ص ٥٦ وابن شاکر ج٥ ص ٧٩ وابن خلدون ج٣ ص ١٥٩ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٠٨ .

وبدأت المناظرة فسألهم مطرف عما يدعون إليه وعن سبب نقيمتهم على قومهم فقالوا : إنا ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله وإن الذي نقمناه على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية (١) .

فقال مطرف : ما دعوتكم إلا إلى حق ولا نقمتكم إلا جوراً ظاهراً وأنا لكم على هذا متابع فتابعوني إلى ما أدعوكم إليه يجتمع أمري وأمركم وتكون يدي وأيديكم واحدة ، فقالوا : هات ما تذكر فإن رأينا حقاً أجبنك . قال : فياني أدعوكم إلى قتال هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم وندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضونه لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعانوكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون (٢) .

فقالوا : هذا مالا نجيبك إليه .

وكان موقفهم هذا عادياً إذ كان في ذلك ما يهدر زعامة شبيب وكانوا قد ارتضوه خليفة عليهم ودعوه بأمر المؤمنين وهو مثلهم الأعلى ، فقاموا من عنده ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بمقالة مطرف فردم إليه ثانية يناظرونه (٣) بما عرف عنهم من لباقة وقوة حجة ومكثوا على ذلك أربعة أيام (٤) .

وفي اليوم الرابع قال لسويد بن سليم ، قد فهمت ما ذكرت أرجع يومك هذا حتى ننظر في أمرنا فرجع ودعا مطرف إلى اجتماع خاص من ثقاته ونصائحه وبسط لهم الموقف قائلاً :

(١) الطبري ج٥ ص ١٠٨ وابن الأثير ج٤ ص ٦٢ وابن شاعر ج٥ ص ٧٩ وابن خلدون ج٣ ص ١٥٩ .

(٢) نفس المصادر .

(٣) راجع الطبري ج٥ ص ١٠٩ ، ١١٠ وابن الأثير ج٤ ص ٦٢ وابن خلدون ج٣ ص ١٦٠ .

(٤) الطبري ج٥ ص ٨٧ وابن الأثير ج٤ ص ٦٢ .

يا هؤلاء إنكم نصحاء وأهل مودتي ومن أثق بصلاحه وحسن رأيه والله ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً أنكرها بقلبي وأغيرها ما استطعت بفعلي وأمرني فلما عظمت خطيئتهم ومر بي هؤلاء القوم يجاهدونهم لم أر أنه يسعني إلا مناهضتهم وخلافهم إن وجدت أعواناً عليهم وإني دعوت هؤلاء فقلت لهم كيت وكيت وذكر ما دار في الحديث وأنهم لوتابعوه على رأيه لخلع عبد الملك والحجاج ، واستشارهم فيما يفعل : فأشاروا عليه بإخفاء هذا الكلام وعدم اطلاع أحد عليه ما عدا يزيد مولى المغيرة بن شعبه فإنه قال : والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليزادنَّ على كل كلمة عشر أمثالها ولو كنت في السحاب هارباً لالتمسك الحجاج حتى يهلكك فالنجا النجا^(١) من مكانك هذا فإن أهل المدائن من هذا الجانب ومن ذاك الجانب وأهل عسكر شبيب يتحدثون بما كان ولا تسمي من يومك هذا حتى يبلغ الخبر الحجاج فاطلب داراً غير المدائن . فوافقه أصحابه على رأي يزيد فسار عن المدائن إلى الجبال^(٢) .

والمستعرض لموقف مطرف لا يسعه إلا أن يتساءل : ما الذي دفع مطرفاً إلى أن يساجل جماعة شبيب في مبادئهم الدينية ؟ أكان جاهلاً بمبادئ الخوارج ؟؟ هذا ما لا نستطيع أن نسلم به . أم أنه كان يريد كسب الوقت ريثما يتم وصول المدد الذي ينتظره من الحجاج ؟؟ هذا ما لا نستبعده .

ثم رأينا مطرفاً بعد ذلك يقترح أمام رسل شبيب في سياسة الحجاج وعبد الملك فيألى أي حد كان في ذلك جاداً ؟ وهل كان حقيقةً من الناقين في نفسه على سياستها وأنه « ما زال لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً ينكرها بقلبه ويغيرها ما استطاع بفعله وأمره » ؟؟

(١) الطبري ج ٥ ص ١١٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٢ وابن خلدون ج ٣ ص ١٦٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١١٠ والجبال قسم عظيم من بلاد الفرس بين طبرستان وأذربيجان شمالاً وأرض الجزيرة والعراق غرباً وأوزستان وفارس جنوباً وقهستان شرقاً وهو الآن العراق المعجمي - أمين واصف - معجم الخريطة ص ٣٠ .

فإذا كان كذلك فلم لم يفكر في الخروج قبل ذلك الوقت ؟ أم أن موقفه هذا كان من قبيل إطالة المساجلات بينه وبين جماعة شبيب ؟؟ وإذا كان كذلك فيجدر بنا أن نتساءل عن العلة في أنه خرج على الحجاج بعد ذلك .

أكبر ظننا أن مطرفاً لم يخرج على الحجاج إلا مضطراً بعد أن وجد نفسه أمام الأمر الواقع عندما استشار أصحابه فقال له يزيد مولى أبيه : « إن الحجاج لا يخفى عليه مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليُزادَنَّ على كل كلمة عشر أمثالها وإنه ليلتمس أن يصل إليك ولو كنت في السحاب » .

عندئذ تحقق مطرف من سوء مصيره لو بقى في المدائن فخرج منها إلى الجبال التماساً للنجاة .

وكان من الأمور المسلم بها أن لا يفهم جماعته بما عزم عليه حتى لا يتفرقوا عنه فأخبرهم أن هناك أموراً وحوادث تستدعي خروجهم إلى الدسكرة في هذه الليلة ، ولما وصلها لم يجد بداً من إعلامهم بما يريد فجمعهم وخطبهم مذكراً بالجهاد وفضله وحثاً على التعاون والتقوى ومشهداً الله على خلع عبد الملك والحجاج والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه فبايعه البعض على ذلك ورجع عنه البعض الآخر (١) .

وكان ممن رجع عنه سبرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن كنانة ومن معها من الجند - بعد أن أظهرها له الرضى عن ذلك - وأتيا الحجاج فوجداه قد نازل شبيباً فشهدا معه وقعة شبيب بقيادة سفيان بن الأبرد (٢) .

سار مطرف بمن بقي معه من الدسكرة متجهاً نحو حلوان وكان عاملها في ذلك الوقت سويد بن عبد الرحمن السعدي فأراد أن يسلم من قتاله وفي الوقت نفسه

(١) الطبري ج٥ ص ١١١ وابن الأثير ج٤ ص ٦٢ وابن خلدون ج٣ ص ١٦٠ وابن شاذان ج٥ ص ٨٠ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١١١ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج٣ ص ١٦٠ .

يعذر عند الحجاج فجمع له سويد أهل البلد والأكراد فوقف هو بأهل البلد بجانب البيوت وأوقف الأكراد على منعطفٍ مؤدٍ إلى البلد .

وأرسل إلى مطرف يقول له : إن كنتم تريدون بلادنا فسننعم وإن كنتم لا تريدونها فاخرجوا عنها فإننا لا نجد بداً من أن يرى الناس ويُسَمَّعَ بأننا قد خرجنا إليكم .

فبعث مطرف إلى قائد الحجاج بن جارية الحثعمي بعدم القتال والحضور إليه فحضر ولزموا الطريق التي رسمها لهم سويد فساروا حتى وصلوا إلى المنعطف الذي قد رابط به الأكراد فمنعواهم من السير ودارت رحى معركة انهزم فيها الأكراد وقتل منهم عدد كبير (١) .

واستمر مطرف في طريقه حتى دنوا من همدان فتركها وأخذ طريقه إلى جهة اليسار - ماه دينار (٢) - حتى لا يتهم أخوه حمزة عند الحجاج وكتب إليه من ماه دينار يطلب منه أن يمهده بالمال والسلاح فأمدّه بما طلب في السر .

ولكن ذلك كان لا يخفى على الحجاج (٣) .

وبعد أن قدم إليه حمزة المساعدة سار إلى قم وقاشان وأصبهان وبعث عمالاً له على تلك النواحي (٤) وكتب إلى صديقيه سويد بن سرحان الثقفي وإلى بكير بن هارون البجلي يدعوها للانضمام إليه ومعاونته في حركته فأجاباه إلى ذلك (٥) .

هال تقدم مطرف البراء بن قبيصة - عامل الحجاج على أصبهان - فكتب إلى الحجاج يطلب منه إرسال جيش كثيف لاستئصال هذا الشائِر لأن جمعه قد كثر ،

(١) الطبري ج٥ ص ١١١ ، ١١٢ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج٢ ص ١٦٠ .

(٢) ماه دينار . هي مدينة نهاوند وقيل هي كورة الدينور .

(٣) راجع الطبري ج٥ ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١١٣ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج٢ ص ١٦٠ .

(٥) ابن الأثير ج٤ ص ٦٣ وراجع الطبري ج٥ ص ١١٣ ، ١١٤ .

فرد عليه الحجاج يطلب منه أن يعسكر بمن معه حتى يأتيه عدي بن زياد فيسمع له ويطيع وجعل الحجاج يسرح له الجند على البريد حسبما اتفق العدد فمرة عشرة وأخرى عشرين حتى سرح له نحو خمسمائة وكان البراء في ألفين (١) .

وبينما كان ذلك يجري بين البراء والحجاج أدرك الحجاج بثاقب نظره خطر بقاء حمزة بن المغيرة عاملاً على همدان بالقرب من الديار التي اعتمى فيها أخوه مطرف وخشي الحجاج أن يتابع حمزة إمداد أخيه بالمال والسلاح .

ومن يدري فقد يمدد بالرجال بل قد يبالغ حمزة في تأثره لأخيه فيخرج في رجاله على الحجاج منضماً إلى أخيه في ثورته فتتفاقم الثورة ويستعصي على الحجاج القضاء عليها .

إزاء كل هذه العوامل قرر الحجاج أن يكفي نفسه شرحمة فعمل على عزله وحبسه . وكان الحجاج لبقاً في تصرفه مع حمزة . ذلك أنه أظهر له قبول عذره حينما اعتذر إليه عما قام به من مساعدة أخيه في أول الأمر بالمال والسلاح وظل الحجاج يماكره ويكيد له حتى تمكن مما أراد (٢) .

وتفرغ للقضاء على مطرف فكتب إلى عدي بن زياد الإيادي وهو على الري يأمره بالمسير إلى مطرف ويأمره بالمرور على البراء بن قبيصة بجي ثم السير معاً حتى يلتقيا بمطرف وحين اللقاء فالأمير عدي حتى يقتل هذا الخارج ثم يرجع إلى عمله . وبمجرد وصول الكتاب أخذ عدي في التجهز ف ضرب البعث على ثلاثة أرباع أهل الري حسب أمر الحجاج .

وما مضت جمعة حتى تكامل العدد وسار إلى جي حيث وافى بها البراء بن قبيصة في تسعمائة من أهل الشام فيهم عمر بن هبيرة (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١١٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج ٣ ص ١٦٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١١٤ ، ١١٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١١٥ وابن الأثير ص ٦٣ . ويروي ابن شاذان ج ٥ ص ٨٠ أن عمر بن هبيرة كان هو القائد .

وعسكر الجميع بجي يومين للاستراحة ثم نهضوا بمن معهم من الجيش البالغ عدده ستة آلاف (١) .

ولما بلغ مطرفاً مسيرهم إليه خندق على أصحابه خندقاً لم يزالوا به حتى قدموا عليه فلما دنوا خرج عدي فعباً أصحابه وصفهم للقتال وكذلك فعل مطرف بأصحابه .

حاول مطرف أن يجتذب إليه هذا الجيش الذي سيره عليه الحجاج فإذا لم ينجح في ذلك فلا أقل من أن يضعف الروح المعنوية في ذلك الجيش .

ولجأ في ذلك إلى أسلوب غير غريب عليه ذلك أنه أخرج بكير بن هارون البجلي فقال لهم « خبروني عن عبد الملك بن مروان وعن الحجاج بن يوسف أستم تعلمونها جبارين مستأثرين يتبعان الهوى فيأخذان على الظنّة ويقتلان على الغضب ؟؟ » .

ولكن خاب ظنه إذ أجاب القوم (ياعدوا الله كذبت ليسا كذلك) (٢) .
ولما لم تفد تلك الوسيلة لم يكن بد من القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نتيجته انهزام أصحاب مطرف وقتله هو وجماعة كثيرة من أصحابه . قتله عمر بن هبيرة الفزاري واحتد رأسه فأرسل بها عدي إلى الحجاج فتقدم بذلك عند الأمويين .
ثم انصرف عدي عائداً إلى الري (٣) .

وبذلك انتهت ثورة مطرف بن المغيرة التي قتل فيها نفسه إذ هم بأمر لم يكن له كفوّاً ، فقد سولت له نفسه الخروج على الخليفة الشرعي فكان في ذلك هلاكه في سنة (سبع وسبعين للهجرة - ٦٩٦ م) .

(١) الطبري ج٥ ص ١١٦ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١١٧ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١١٨ وابن الأثير ج٤ ص ٦٣ وابن خلدون ج٣ ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

اتساع نفوذ الحجاج وتاريخه بعد الانتهاء من حرب الخوارج إلى قيام ثورة ابن الأشعث

ولايته خراسان وسجستان . توليته خراسان للمهلب ، وسجستان لابن أبي بكر . الحرب بين ابن أبي بكر والترك . هزيمة ابن أبي بكر . الحجاج يخبر عبد الملك بالموقف . الخليفة يفوض إليه الأمر في إرسال جيش .

ما كاد الحجاج ينتهي من الانتصار على أعداء الدولة من الخوارج إلا وجاءه من عبد الملك تقليد ولايتي خراسان وسجستان فوق أعماله السابقة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين للهجرة بعد أن عزل الخليفة عنها واليها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد (١) .

وفي رأينا أن عبد الملك أصاب هدفين بهذه التولية فهو قد كافأ الحجاج على حسن بلائه ضد الخوارج إذ مزقهم شرمزق حتى أوشكوا على الفناء ، وتابع شبيبا الذي دوخ جيوش الدولة حتى أهلكه ، وخافه العصاة .

فكان من حسن السياسة أن يوليه الخليفة إقليمين جديدين ليستتب للخلافة الأمر فيهما وهو في الوقت ذاته كان مرغما على تغيير والي خراسان نظرا لفشله في سياسته الداخلية والخارجية ، أما في سياسته الداخلية فقد ثار عليه بكير بن وساج فخضع له وصالحه على أنه يقضي عنه أربعمائة ألف درهم كان قد استدناها بكير وأن

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٧١ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٦ . ويروي صاحب أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٠ ، ٣١١ أن الحجاج بعث عبيد الله بن أبي بكر ليطلبها له . وكان عليها أمية ابن عبد الله . فكل ابن أبي بكر عبد الملك بشأنها فأجابته بقوله : لست بنازع أمية عن الثغرين للحجاج . وكان له محبا . ، ولكن إن شئت ولينك إياها .

فقال ابن أبي بكر : ما كنت لأخون الحجاج وقد أرسلني ووثق بي . ثم إن عبد الملك استقصر أمية وأمره واستبطأه في جباية الأموال وأتته جبايات الحجاج كثيرة موفرة ، فكتب إلى الحجاج بولاية الثغرين وبعث بعده عليها .

وهذه القصة لا تتفق ومنطق الحوادث .

يصل أصحابه ويوليه أي كور خراسان شاء ولا يسمع قول بحير بن ورقاء الصرمي - صاحب شرطة أمية - فيه .

فوفي له أمية بما شرط ثم رجع ثانية فسمع قول بحير فيه وقتله (١) .

والذي تولى قتله بحير ، وكاد يعظم الأمر بين بني تميم بسبب هذا لولا تدخل رجال من عقلاء القوم فحسموا الأمر (٢) .

وكان أمية مكروهاً لكبره وزهو به بنفسه وكان يقول : ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي (٣) .

وأما في سياسته الخارجية فقد عبر أمية نهر بلخ للغزوفحوصر حتى جهد هو وأصحابه ثم عادوا إلى ديارهم دون أن يغنموا بل كادوا يهلكون (٤) .

تكاثرت أخطاء أمية في نظر عبد الملك وأراد أن يستريح من هموم خراسان وسجستان فعزل أمية وضم عمله إلى الحجاج .

تقليد المهلب خراسان وابن أبي بكرة سجستان :

لما انتهى الحجاج من أمر شبيب ومطرف خرج من الكوفة إلى البصرة فقدم عليه المهلب وقد أباد الأزارقة فأجلسه ودعا أصحاب البلاء فصار المهلب لا يذكر له بلاء رجل إلا صدقه وأحسن عطاءه . ثم قال الحجاج : هؤلاء أصحاب الفعّال وأحق بالأموال وهؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء (٥) .

ولما كان الحجاج قد أضيفت إليه ولايتا خراسان وسجستان فقد رأى أن يكافيء المهلب على حسن بلائه في حرب الأزارقة بإسناد ولاية خراسان إليه . بينما أسند ولاية سجستان إلى عبيد الله بن أبي بكرة .

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ١٢٨ - ١٣٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٠ ، ٧١ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) الطبري ج ٥ من ص ١٤٣ - ١٤٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٥ ، ٧٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٦ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٣٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٧١ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٦ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ١٣٣ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٦ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٣٤ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ١ ص ٣١٠ .

وللطبري في هذا الشأن روايتان : تذهب إحداها - وهي رواية أبي مخنف - إلى أن الحجاج ولي المهلب سجستان مع خراسان فقال له المهلب ألا أدلك على رجل هو أعلم مني بسجستان وقد كان ولي كابل وزابل وجي خراجهم وقاتلهم وصالحهم ؟ قال الحجاج له بلى فمن هو ؟ قال عبيد الله بن أبي بكرة فأجابه الحجاج إلى ما قال وبعث إلى سجستان ابن أبي بكرة ^(١) .

وهذه الرواية - على قوة سندها - بعيدة الاحتمال إذ لا يعقل أن يتخلى المهلب طواعية - لا - بل يرجو الحجاج أن يخليه عن ولاية كان يستطيع أن يديرها مع الأخرى ولو أستعان في ذلك بأحد أولاده أو أخصائه إذا كانت إدارتها متعبة له . على أننا نستبعد على الحجاج أن يسند إدارة هاتين الولايتين بالذات إلى عامل واحد من عماله مهما امتازت خدماته سيما وهو السيء الظن بعماله وقد كان المهلب خارجاً من حروب الأزارقة منتصراً فلربما تحدثه نفسه بالخروج على الحجاج إذا ما رأى نفسه يحكم هاتين الولايتين الكبيرتين فكان الحجاج من خيرة الناس الذين يأخذون للأمر أهبطه قبل وقوعه .

لكل ذلك نرجح الرواية الثانية للطبري التي تذهب إلى أن الحجاج ولي المهلب سجستان وابن أبي بكرة خراسان فكره المهلب سجستان وأراد أن تكون خراسان فلقى رئيس شرطة الحجاج - عبد الرحمن بن عبيد - فشرح له الموقف وقال « أنا أعرف بخراسان من ابن أبي بكرة وابن أبي بكرة أقوى على سجستان مني فكلم الأمير يحولني إلى خراسان ويحوّله إلى سجستان وكلم رئيس الديوان يعينني » .

فدخل على الحجاج ونالا منه ما أراد المهلب فكانت له خراسان غير أن الحجاج أخذه بمليون من الدراهم كانت متأخرة ^(٢) عليه من خراج الأهواز أيام أن كان عاملاً عليها ^(٣) .

(١) الطبري ص ١٢٥ وأنساب ج ١١ ص ٣١٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٣٥ ويروي ابن كثير ج ٩ ص ٣١ ، ٤٢ أن الحجاج أغرمه ذلك لأنه اعترض على التولية .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٣٥ وابن كثير ج ٩ ص ٣١ ، ٣٢ .

فأرسل المهلب ابنه حبيباً إلى خراسان قبله وقد أعطاه الحجاج عشرة آلاف درهم وبغلة خضراء قوية واستمر عشرة أشهر قبل أن يصل والده إليه ثم ذهب المهلب إلى ولايته في سنة تسع وسبعين للهجرة (١) .

وسار ابن أبي بكرة إلى ولايته بمجرد التولية إلا أنه لم يقيم بشيء ضد زنبيل (٢) ملك الترك حتى انتهت تلك السنة وفي سنة تسع وسبعين قام بحرب ضد ملك الترك وكان سبب ذلك أن ملك الترك منعه الإتاوة التي كانت مقررة عليه بمقتضى معاهدات سابقة وكان زنبيل يدفعها أحياناً ويمتنع عن دفعها أحياناً فلما منعها من ابن أبي بكرة كتب بذلك إلى الحجاج فأجابه الحجاج بوجوب حربه واحتلال أرضه وهدم قلاعهم وقتل مقاتلتهم (٣) .

فخرج ابن أبي بكرة بمن معه من أهل الكوفة والبصرة وكان قائد أهل الكوفة شريح بن هانيء الحارثي وكان هو على أهل البصرة والإمرة له فسار متوغلاً في بلاد زنبيل فأصاب من الغنائم الشيء الكثير .

وبينا هو في طريقه أشار عليه شريح بن هانيء بالرجوع والاكتفاء بما أصابوا وبما أصاب العدو من خوف وفزع فكان مما قاله له : « إن الله عز وجل قد غنمنا وساننا وأذل عدونا فارجع بنا من مكاننا ونحن وافرون معافون فإني أتخوف إن كبرت زنبيل وأهل بلده والتمست فتح مداينهم وقلاعهم في غزوة واحدة أن لا تطيق ذلك » .

فأجابه ابن أبي بكرة : اصبر أيها الرجل ودع هذا . فقال شريح : إنه لا يطاع

(١) الطبري ج٥ ص ١٣٦ وابن الأثير ج٤ ص ٧١ وابن حنبل ج٢ ص ٤٦ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٣٦ وابن الأثير ج٤ ص ٧٢ وهو زنبيل كما ذكر ذلك المسمودي في مروج الذهب ج٢ ص ٩٧ وكما حقق ذلك في مؤتمر المستشرقين العاشر بكنجهام - انكلترا - وهو اسم شخص ولقب للملك الذي كان من الأتراك هو وجنوده ، أما الشعب فكان من الفرس وليس اسمه زنبيل كما تذكر أغلب المصادر .

(٣) ابن جرير ج٥ ص ١٣٧ وابن الأثير ج٤ ص ٧٢ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣١١ والمعيني ج١١ ص ٣١٢ .

لقصير أمر وإنك لتعمل في هلاك جندك ونفسك (١) .

وقد دعا شريح إلى إبداء هذه المشورة لقائده ما كان معروفاً من أمور زنبيل من أنه يترك الجيوش تتوغل في شعاب البلاد ثم يفاجئهم بعد أن يأخذ عليهم السبل جميعها .

تابع ابن أبي بكرة مسيره وهو لا يقاتله أحد ولا يعترضه في طريقه معترض حتى صار بينه وبين كابل ثمانية فرسخاً .

وعندئذ شعر ابن أبي بكرة ومن معه بمحنة تطويق من الترك عليهم فسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا فأرسل ابن أبي بكرة إلى شريح : إني مصالح هؤلاء على مال ويخلوا بيني وبين الخروج ، فقال له شريح إنك لا تصالحهم على شيء إلا حسبته السلطان عليكم في أعطياتكم . فقال ابن أبي بكرة : لو منعنا العطاء ما حيننا كان أهون علينا من هلاكنا (٢) .

وأرسل إليهم فصالحهم على خمسمائة ألف درهم وقيل سبعمائة ألف وعدة من وجوه من معه وثلاثة من ولده يكونون عنده رهائن وألا يغزوهما ما كان والياً (٣) .

فقال له شريح اتق الله عز وجل وقاتل هؤلاء القوم ولا تشتري الكفر بالإيمان وزيادة خمسمائة ألف أو سبعمائة ألف وتدفع قومًا من المسلمين لمشركين ثم تشتري عليهم أن لا تقتلهم ولا تجبيهم خراجًا هربًا من الموت الذي أنت صائر إليه ؟ هذا ، وأنت لا تدري ما يكون من سخط الحجاج (٤) .

وبعد أن نصح شريح هذه النصيحة وطَّن نفسه على الموت متعرضاً للشهادة التي

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٢ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ والبلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٢ والعيني ج ١١ ص ٣١٢ وابن شاكر ج ٥ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٣ والبلاذري فتوح البلدان ص ٤٠٦ ويروى الطبري ج ٥ ص ١٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ رواية السبعمائة ألف فقط .

(٤) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٣ .

يطلبها من زمن بعيد^(١) .

ولما رأى ابن أبي بكرة أن شريحاً سيقا تل ما من ذلك بد أرسل إلى زنبيل يقول له : إني على صلحك وما فارقتك عليه وهذا رجل من أصحابي قد عصاني ولست أنصره .

وخرج شريح بجاعة معه وصار يرتجز ويقول :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا قد عشت بين المشركين أعصر
ثمت أدركت النبي المنذرا وبعده صديقه وعرا
ويوم مهران ويوم تسترا والجمع في صفيهم والنهرا
وياجيرات مع المشقرا هيهات ما أطوله هذا عمرا^(٢)

وقا تل حتى قتل ومعه جماعة من أهل المصريين ومن أهل الشام جماعة^(٣) .
وخرج ابن أبي بكرة من بلاد زنبيل سالكاً مفازة بست فهلك كثير من الناس
جوعاً وعطشاً^(٤) فلم يصلوا إلى بست إلا وقد وصل عددهم خمسة آلاف وكانوا
يبلغون نحو العشرين ألفاً^(٥) وكان الخمسة آلاف في حال سيئة من الجوع حتى إنه لما
استقبلهم المسلمون بالطعام بعد خروجهم من أرض العدو صاروا يلتهمونه بشراهة
فإذا ما انتهى أحدهم من الأكل مات .

ولما رأى المسلمون ذلك امتنعوا عن إطعامهم الطعام واكتفوا بإعطائهم قليلاً من
السمن حتى لانت أمعاؤهم وقد مات ابن أبي بكرة كمدا وحسرة على ما أصاب
المسلمين وقيل إنه اشتكى أذنه فمات^(٦) وأستخلف على الناس ابنه أبا بردعة .

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٣ والطبري ج ٥ ص ١٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ وفتوح البلدان ص ٤٠٦ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٤ والطبري ج ٥ ص ١٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ .

(٣) الطبري أنساب الأشراف ص ٣١٣ .

(٤) فتوح البلدان ص ٤٠٧ .

(٥) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٤ ، ٣١٥ وفتوح البلدان ص ٤٠٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ والطبري

ج ٥ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٦) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣١٧ ، ١٣٨ .

وبلغ الخبر الحجاج فهاله الأمر وكتب إلى المهلب يطلب منه أن يرسل إلى سجستان من قبله رجلاً فبعث وكيع بن بكر فقدم على أبي بردة فأهدى له ثلثمائة ألف درهم وهدايا أخرى وأقام أبو بردة بسجستان حتى قدم عبد الرحمن بن الأشعث فولاه كرمان (١) .

وفي الوقت نفسه كتب الحجاج إلى عبد الملك يقول له : أما بعد فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل وقد أجتراً العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم وغلبوا على حصونهم وقصورهم .
وقد أردت أن أوجه إليهم جيشاً كثيفاً من أهل المصريين فأحببت أن استطلع رأي أمير المؤمنين في ذلك فإن رأى لي بعثة ذلك الجند أمضيته وإن لم يرد ذلك فإن أمير المؤمنين أولى بمجندته مع أني أخوف إن لم يأت زنبيل ومن معه من المشركين جند كثيف يستولوا على ذلك الفرع كله (٢) .

فرد عليه الخليفة بالموافقة قائلاً : أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان وأولئك قوم كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله ثوابهم ؛ وأما ما أردت أن يأتيك رأيي فيه من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك الفرع الذي أصيب فيه المسلمون أو كفها فإن رأيي في ذلك أن تمضي رأيك راشداً موفقاً (٣) .

فأخذ الحجاج في إعداد جيش لمحاربة زنبيل فأعد جيشاً عظيماً بلغ عدده أربعين ألفاً (٤) عشرون من أهل الكوفة ومثلهم من أهل البصرة واختار أهل الغنى والشجاعة

(١) البلاذري أنساب الأشراف ج١١ ص ٣١٧ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف ج١١ ص ٣١٨ والطبري ج٥ ص ١٣٨ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٤٠ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣٧١ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٧٤ وابن خلدون ج٣ ص ٤٦ والعيني ج١١ ص ٣١٣ وابن كثير ج٩ ص ٣٩ .

ويروى البلاذري ج١١ ص ٣١٩ أن عدد الجيش كان أربعاً وعشرين ألفاً ويروي اليعقوبي ج٣ ص ٢٢ أن عدده كان عشرة آلاف .

يقبل منه الخراج^(١) ؛ وأرسل إليه الرهائن التي كانت بيده فلم يقبل منه عبد الرحمن الصلح وأمر الجيش بأن يسير للقتال وجعل على مقدمته القاسم بن محمد الذي أمر بأن يغير على زنبيل في مكانه الذي هو به .

فلما علم بذلك زنبيل تحول من مكانه بناءً على إشارة عبيد بن أبي سبيع - الذي كان مقيمًا بسجستان - فقد قال لزنبيل : قد جاءك أغدر العرب وأشدّهم أبهة وكبرا .

فلم يجد الجيش إلا عجائز وشيوخاً^(٢) ؛ وصار زنبيل يدع الأرض لابن الأشعث رستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً طمعاً في أن ينال من هذا الجيش ما نال من غيره ؛ ولكن ابن الأشعث كان حذراً يقظاً فكان من حسن قيادته أنه كلما احتل بلدًا أقام عليه عاملاً ووضع معه حامية من الجند ووضع البرّة فيما بين كل بلد وبلد حتى يضمن ارتباطاته واتصالاته ووضع الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف ؛ وما زال ابن الأشعث سائرًا على هذه الخطة حتى وجد أنه قد حاز أرضاً عظيمة من أرض زنبيل وغنم أموالاً جزيلة فحبس الناس عن التوغل حتى تتعود عساكره طبيعة تلك البلاد ويتقنوا بما فيها من الحاصلات ؛ وفي الوقت نفسه يأخذ الجيش فترة راحة واستجمام ثم بعد ذلك يعود إلى الحرب في العام المقبل فينتقصون أرض الترك شيئاً فشيئاً ثم يستريحون وفي العام الذي بعده جزءاً وهكذا في كل عام فترة حرب وفترة راحة واستجمام حتى يستولوا عليها كلها .

وكان ذلك لاعتقاد عبد الرحمن أنه لا يمكن غزو تلك البلاد مرة واحدة^(٣) .

وتنفيذاً لهذه السياسة رتب العمال في المقاطعات فأنزل أخاه القاسم الرخج ونزل هو بست^(٤) وكتب إلى الحجاج يخبره بما فتح الله عليه من البلاد وبما صنع الله

(١) الطبري ج٥ ص ١٤١ وابن الأثير ج٤ ص ٧٤ ويروي البلاذري ج١١ ص ٣٢٣ أن ذلك لم يكن مكتوبة وإنما قابل ابن الأشعث في أول قدومه ونزوله بست .

(٢) البلاذري ج١١ ص ٣٢٢ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٤١ ، ١٤٢ وابن الأثير ج٤ ص ٧٤ والعيني ج١١ ص ٣١٤ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣٢٣ .

(٤) البلاذري أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٣٢ .

للمسلمين وبهذا الرأي الذي رآه ^(١) .

وهنا نرى الحجاج يكتب إلى ابن الأشعث خطاباً ثم لا يلبث أن يردفه بشأن ثم بثالث .

كتب له في الخطاب الأول يلزمه أن يعدل عما رآه من راحة الجند ويتهمه بأنه قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً وأنه لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين وأن رأيه الذي رآه رأي مكيدة لم يحمله عليه إلا ضعفه والتيث رأيه ويأمره بالوغل في أرض العدو متابعاً القتال إلى النهاية ^(٢) .

ثم يعود الحجاج فيعدل عن هذا الرأي في خطابه الثاني فيقول لعبد الرحمن مر من قبلك من المسلمين فيلحروا وليقيموا فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم ^(٣) .

ثم لا يلبث الحجاج أن يعود إلى قراره الأول بصورة أشد مما كان فيأمر ابن الأشعث بالسير للقتال ويهدده بالعزل وتولية إسحاق بن محمد قيادة الجيش إن لم يفعل ^(٤) .

وفي تقديرنا أن الحجاج عندما وصله كتاب ابن الأشعث أثاره أن يرى حملة مجهزة ذلك التجهيز مكونة من خيرة المجاهدين المسلمين ينتهي أمرها بأن لا تفتح من أرض العدو إلا قدرًا يسيرًا ثم يستحب قائدتها الراحة والدعة فكتب لابن الأشعث ما كتب تحت تأثير هذه العاطفة ولم يلبث الحجاج أن رأى أنه يواجه رجلاً لا يستهان به وتحت إمرته جند لا يستهان بهم وهم بعيدون عن مقر الحجاج الذي

(١) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٣ والطبري ج ٥ ص ١٤٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ والعيني ج ١١ ص ٣١٤ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٤ والطبري ج ٥ ص ١٤٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٧ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٤٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٧ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ١٤٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٧ وابن شاعر ج ٥ ص ١٢٤ .

أصبح لا يدري مدى تأثير ابن الأشعث فيهم فرأى أن يقره على رأيه الذي رآه من إعطاء الجند فترة للراحة والاستجمام وبذلك كتب الخطاب الثاني .
ولم تمض فترة طويلة بعد ذلك حتى رأى الحجاج أنه قد تورط في كتابه الثاني وأنه قد يترتب عليه من النتائج ما لا يرضاه وأن نفس ابن الأشعث يعظم أمره ويزداد اعتداده بنفسه عندما يعلم أن الحجاج قد نزل عند رأيه فرأى أن يصر على خطة الكتاب الأول ثم بالغ في تهديد ابن الأشعث حتى لا يعطيه فرصة للتفكير فهدده بالعزل وتولية إسحاق قيادة الجيش إن لم يطع الأمر ويخرج لقتال زنبيل .
وتأييداً لهذا التهديد بعث الحجاج إسحاق بن محمد بن الأشعث أخا عبد الرحمن في جند ثالث .

أغضب ذلك عبد الرحمن وقال يكتب إليّ ابن أبي رغال بمثل هذا يرميني بالجبن ؟ هو والله الجبان وأبوه من قبله (١) .
وعزم على خلع الحجاج فجمع الناس وخطبهم قائلاً : أيها الناس إني والله لكم ناصح ولصالحكم محب وفيما يعمم نفعه ناظر .

وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة للحرب منكم فرضوه لكم رأيًا ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحًا وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي الأرض التي هلك فيها إخوانكم بالأمس وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيت وأبى إذا أبيتم (٢) . فثار إليه الناس وقالوا . بل نأبى على

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٤ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٤٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ والبلاذري ج ١١ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ والعيني ج ١١ ص ٣١٧ وابن شاعر ج ٥ ص ١٢٤ .

ويروي ابن كثير ج ٩ ص ٢٥ أنه قال بعد قوله « والتي هلك فيها إخوانكم بالأمس » . وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد فانظروا أمركم . أما أنا فلست بمطيعه ولا أنقض رأيًا رأيته بالأمس » .

عدو الله ولا نسع له ولا نطيع فإن ابن أبي رغال لا يريد بنا خيرًا (١) .

أثار عبد الرحمن شعور القوم بهذه الكلمات وفي الوقت نفسه ملك قيادهم فقد ضرب لهم على الوتر الحساس فصور لهم الحجاج بصورة من يريد هلاكهم وجعل نفسه تحت إرادتهم وأنه الحريص على أرواحهم ، ولقد قال عبد الرحمن ما قال وهو يعرف بغضهم لهذه الحرب الشاقة في البلاد البعيدة وكرههم للحجاج الذي كان دائمًا لا يكاد ينتهي من حرب حتى يبدأ حربًا جديدة والويل لمن يتخلف .

ولما رأى عبد الرحمن ذلك وظهرت نواياهم واضحة جلية أراد أن لا يخرج عن طاعته أحد وأن يفسدهم جميعًا على الحجاج فافتعل كتابًا على الحجاج في تولية قوم وعزل آخرين .

أما الألوية الجديدة فقد عقدها لمن وثق به وبذلك أصاب هدفين :

أحدهما : أنه شكك الناس في الحجاج ونفر أصحابه والمخلصين له منه وكان هؤلاء الذين عزلوا وجوهًا وأشرفًا (٢) .

وثانيهما : أنه اختار أصحابه للمناصب .

وبذلك أشعل ابن الأشعث نار الثورة وقام الخطباء يؤججون نارها فقام عامر ابن وائلة الكناني فقال : أما بعد : فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك ، إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم في بلاد كثيرة اللغوب واللصوب فإن ظفرتم فغنتم أكل البلاد وحاز الأموال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتم ولا يبقى عليهم ، اخلعوا عدو الله

(١) البلاذري ج ١١ ص ٣٢٥ .

(٢) البلاذري ج ١١ ص ٣٢٥ والطبري ج ٥ ص ١٤٧ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ وابن شاعر ج ٥ ص ١٢٣ وابن كثير

ج ٩ ص ٣٥ .

فإني أشهدكم أني أول خالع . فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله .

وقام بعده عبد المؤمن بن شبت بن ربعي التيمي - وكان على شرطة ابن الأشعث - فقال : عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجرمكم تجمير فرعون الجنود ^(١) ، فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث . ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم . بايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم (الحجاج) فانفوه عن بلادكم ^(٢) .

فقام الناس إلى عبد الرحمن يبايعونه فيقول لهم تبايعون على خلع عدو الله الحجاج وعلى نصرتي وعلى جهاد عدو الله وعدوي معي حتى ينفيه الله عز وجل من أرض العراق . فبايعه الناس على ذلك ولم يذكروا خلع عبد الملك ^(٣) .

وبذلك قامت هذه الثورة الخطيرة التي أفزعت عبد الملك بن مروان وجعلته ينزل عن سريره ويرسل إلى خالد بن يزيد ليستشيره في الأمر . وقبل أن تتكلم عن الثورة والحروب التي نشبت بسببها يحسن بنا أن تقدم لهذا التأثير لتعرف شخصيته والأسباب الحقيقية لثورته :

فهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي من سلالة ملوك كندة إحدى القبائل اليمنية الشهيرة التي حكمت اليمن وبعض بلاد الحجاز قبل الهجرة بنحو مائة وثلاث وسبعين سنة ؛ وجده الأشعث بن قيس أحد زعماء الردة بعد وفاة الرسول بحضرموت وقد سار إليه المهاجر بن أبي أمية وتمكن من إخماد حركته فعاد

(١) البلاذري ج ١١ ص ٣٢٥ والطبري ج ٥ ص ١٤٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٤٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ .

(٣) البلاذري ج ١١ ص ٣٢٦ والطبري ج ٥ ص ١٤٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٧ .

إلى حظيرة الإسلام ^(١) وأبلى بلاءً حسنًا في فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب ^(٢) وولاه عثمان أذربيجان فلما مات عثمان كتب إليه علي يعرفه بخروج طلحة والزبير عليه ويدعوه إلى طاعته ؛ فحاول أن يلحق بمعاوية لولا أن أصحابه أشاروا عليه أن لا يفعل ذلك فدخل في طاعة علي ^(٣) .

ولما دعا أهل الشام في معركة صفين إلى الاحتكام إلى كتاب الله كان الأشعث هو الرسول بين علي ومعاوية ^(٤) وأحد المشيرين على علي بقبول التحكيم وقد أخذ علي بقوله ^(٥) . وهو أحد الذين أبوا إلا أن يكون الحكم الذي من جهة علي هو أبو موسى الأشعري ، وأيضًا هو من الذين صوبوا وجهة نظر عمرو بن العاص في نحو « أمير المؤمنين » من صحيفة التحكيم ^(٦) .

ووالده محمد بن الأشعث أحد الذين استحثوا مصعب بن الزبير على المسير لقتال المختار بن أبي عبيد الثقفي حينما تفاقم خطره وعظم أمره ، فأرسله مصعب إلى فارس ليأتيه بالمهلب لقتال العدو - وكان المهلب قد كره الخروج - فلما وصل إليه محمد بن الأشعث لم يجد بداً من الحضور إزاء وساطة محمد فحضر وقاتل المختار ومعه محمد . وقد قاتل محمد حتى قتل ^(٧) .

ولما قدم الحجاج العراق زوج ابنه محمدًا ميمونة بنت محمد بن الأشعث لشرفها بنسبها ولاستالة قومها إليه .

وبدأت علاقة الحجاج بعبد الرحمن بن الأشعث طيبة فقد جعله من خواصه

(١) المعارف ص ١٤٥ والطبري ج ٥ ص ٣٧٥ (المطبعة الحسينية) .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٣٠ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٨١ ، ٨٢ .

(٤) الطبري ج ٦ ص ٢٨ وابن الأثير ج ٣ ص ١٦١ .

(٥) الطبري ج ٦ ص ٢٨ والإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠٧ .

(٦) ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٢ والطبري ج ٦ ص ٢٩ .

(٧) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٨٢ - ٣٨٤ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ١٥٩ .

المقربين إليه وأجزل له العطاء فهل كان ذلك لصلة المصاهرة وحبًا لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله كما يقول صاحب الإمامة والسياسة ^(١) أم لأمر آخر .؟؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف أخلاق عبد الرحمن بن الأشعث .
فعبد الرحمن كان معتدًا بنفسه شاعنًا بأنفه متكبرًا غادرًا لا يرضى لأحد ذمامًا يرى أنه ليس لوال عليه سلطان فكان يبغض الحجاج وكان الحجاج يعرف فيه تلك الأخلاق ويقول : أما والله يا عبد الرحمن إنك لتقبل علي بوجه فاجر وتدبر غي بقفا غادر ^(٢) .

وقال الحجاج يومًا وعنده عامر الشعبي وقد أقبل عبد الرحمن : انظروا إلى مشية المقت !! والله لممت أن أضرب عنقه ^(٣) ، أو « ما رأيته قط إلا أردت قتله » ^(٤) .
فلما سلم عبد الرحمن عليه قال له الحجاج : إنك لمنظراني؟؟ فقال عبد الرحمن : ومخبراني أصلح الله الأمير . ثم صار يقول : أنا منظراني . أنا منظراني ^(٥) ؟؟ .

وتبين لنا تلك العبارة ما في نفس كل من الرجلين من الكراهية للآخر ، وقد قال عبد الرحمن للشعبي حينما حدثه بحديث الحجاج والله لأحاولن إزالة سلطانه إن طال بي وبه بقاء ^(٦) .

وفي رأينا أن الحجاج حاول ياجزال العطاء له أن يستميله إليه ويستل ما في نفسه في بدء الأمر أن تصلح أخلاقه ، فلما لم تفد تلك الوسيلة رأى أن يحاول التخلص منه بتوجيهه في مختلف الحروب فإن هلك فقد كفاه الله شره وإن انتصر كانت ثمرة النصر للحجاج وهو في كلا الحالين رابح في صفقته .

(١) ج٢ ص ٢٩ .

(٢) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٢٩ .

(٣) أنساب الأشراف ج١١ ص ٣١٩ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٧٤ .

(٥) أنساب الأشراف ج١١ ص ٣١٩ .

(٦) الطبري ج٥ ص ١٤٠ والبلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣١٩ وابن الأثير ج٤ ص ٧٤ .

فقد ولاه محاربة شبيب وأخرجه في جيش عتاب بن ورقاء وولاه محاربة هيمان ابن عدي السدوسي حين عصى بكرمان وها هو ذا يوليه قيادة حملة كبيرة ضد الترك ..

وليس مسلك الحجاج في ذلك بمستغرب ، فهي طريقة العظماء للتخلص من منافسيهم .

ألم نر في العصر الحديث أن السلطان محمود الثاني عندما ضجر بمحمد علي وخشي ازدياد نفوذه أرسله في حمله إلى بلاد العرب كان يستطيع أن يوفد فيها أي قائد تركي سواء ؟ وما كانت فكرة السلطان في القرن التاسع عشر تختلف عن فكرة الحجاج الذي عاش قبله باثني عشر قرنًا فكلاهما كان يود الخلاص من منافسه .

إذن فلم يخطئ الحجاج في تولية ابن الأشعث قيادة تلك الحملة فإن سياسته كانت من النوع الذي لا يدركه من كانوا دونه في التفكير السياسي .

أما أسرة ابن الأشعث فقد فزعت من هذه التولية فأتوا إلى الحجاج فقالوا « أصلح الله الأمير إنا أعلم به منك فإنك غير عالم به ولقد أدبته بكل أدب فأبى أن ينتهي عجه بنفسه ونحن نتخوف أن يفتق فتقًا أو يحدث حدثًا يصيبنا فيه منك ما يسوؤنا » فقال الحجاج « القول كما قلت والرأي كالذي رأيتم ولقد وليته على بصيرة فإن يستقم فلنفسه نظر وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يهدى إن شاء الله ^(١) .

وقال عمه إسماعيل للحجاج : « لا تبعثه فإني أخاف خلافه والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانًا » ، فقال الحجاج : هو لي أهيب وفيما لديّ أرغب من أن يخالفني أو يخرج يدًا عن طاعتي ^(٢) .

فزى أن الحجاج كان يعتقد أن عبد الرحمن لا يخرج عن الطاعة وأنه ضعيف

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٣٠ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٤٠ وابن الأثير ج٤ ص ٧٨ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣٢٠ وابن كثير ج٩ ص ٣٢ .

عن القيام بأية حركة معادية ولم يكن يخطر بباله أن ابن الأشعث ستحدثه نفسه بالخروج ولو كان يعتقد ذلك أو يظنه لما أخرجه .

ولكن ابن الأشعث كان مصرًا على خلع طاعة الحجاج كما تحدثنا بعض المصادر ^(١) وليس ما حدث من المكاتبات هو السبب الوحيد في غضب عبد الرحمن وثورته فإن كتب الحجاج إلى عبد الرحمن كانت كما قال ابن شاکر ^(٢) للحمل له على محاربة زنبيل والإيغال في بلاده .

ولكن ابن الأشعث اتخذها تكأة وسلمًا لإظهار الدفين في نفسه ، وقد تمكن من استمالة العراقيين إليه بما بثه من الدعايات وما افتعله من الكتب على الحجاج وبذلك نجح في أن يقيم تلك الثورة الخطيرة كما نجح في أخذ البيعة لنفسه .

وكان أشد الناس حماسة للثورة اليينون من أهل الكوفة فإنهم كانوا ينتظرون قحطانيًا يعيد الملك فيهم وقد عقدوا آمالهم على هذا القحطاني المنتظر ^(٣) .

فلما خرج عبد الرحمن بن الأشعث وخلع عبد الملك باصطخر - من بلاد فارس - وسمى ابن الأشعث نفسه بناصر المؤمنين تحمسوا له وانضوا تحت لوائه ^(٤) وأخبروه أنه القحطاني الذي تنتظره اليينية وأنه يعيد الملك فيها .

ولما قيل له إن القحطاني على ثلاثة أحرف قال أنا اسمي (عبد) وأما الرحمن فليس من اسمي ^(٥) وقد أطلقت بنت سهم في إحدى قصائدها على ابن الأشعث هذا اسم المنصور عبد الرحمن ^(٦) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٠ . (٢) عيون التواريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢١٧ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٥ .

وكانت فكرة قحطاني منتظر ومهدي منتظر قد راجت في ذلك الوقت وكما كان اليينون ينتظرون قحطانيًا كان السفينانيون ينتظرون سفينانيًا والكلبيون ينتظرون كليبيًا . وهكذا شاعت هذه الإسرائيليات .

(٤) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٧١ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٥ .

(٥) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٧١ .

(٦) البلاذري - أنساب الإشراف ج ١١ ص ٣٣٤ .

الفصل السادس الحرب بين الحجاج وابن الأشعث

ذكرنا فيما سبق أن الجند بايعوا ابن الأشعث على خلع الحجاج وحربه حتى يخرج من أرض العراق .

وبعد المبايعة والتوثق من أمر الجند عزم ابن الأشعث على المسير إلى العراق . وقبل أن يسير إلى العراق قام بأعمال تدلنا على أن آمال عبد الرحمن وما وطَّن نفسه عليه كانت أعظم من خلع الحجاج لكنه أضمر ذلك في نفسه وتركه للظروف . واستعدادًا للأمر عقد صلحًا مع زنبيل على أنه إن نجح في حركته هذه فلا خراج على زنبيل أبدًا وإن هزم لجأ هو ومن معه إليه فمنعهم^(١) .

وكتب إلى المهلب يسأله خلع الحجاج فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة : ثم قال : ما أعجب . هذا يدعوني إلى الغدر من بعض ولدي أكبر منه !! . وقال لرسوله : قل له اتق الله في دماء المسلمين .

وبعث المهلب بكتابه إلى الحجاج^(٢) .

كما كتب الحجاج إليه يشير عليه بالطريقة التي يراها في مقابلة هذه المجموع الزاخرة فيقول له في كتابه : إن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره وإن لأهل العراق شره في أول مخرجهم ودهم صباية إلى نسائهم وأبنائهم فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهلهم فلا تستقبلهم وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم ويتنسبوا أولادهم فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم فيتفرقوا عن ابن الأشعث ثم واقع من حاربك منهم

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٧ ، والطبري ج ٥ ص ١٤٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ وابن شاعر ج ٥ ص ١٢٣ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ وابن كثير ج ٩ ص ٣٦ .

(٢) - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٩ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٢٥ .

فإن الله عز وجل ناصرك عليهم ^(١) .

ولما قرأ الحجاج كتابه لم يعمل بمقتضاه بل اعتقد أن المهلب غير ناصح له فقال ما لي نظر ولكن لابن عمه نصح ^(٢) .

وسنرى فيما يأتي أن نظرية المهلب كانت تجربة قائد عرف نفسية أهل العراق فكانت بذلك صادقة كما أنه كتب لابن الأشعث وهو لا يزال بسجستان : إنك يا ابن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ فالله الله يا ابن أخي انظر إلى نفسك فلا تهلكها واتق الله عز وجل في دماء المسلمين فلا تسفكها والبيعة فلا تنكثها والجماعة فلا تفارقها فإن قلت أخاف الناس فالله أحق أن تخافه والسلام ^(٣) .

وكان عبد الرحمن خلال مسيره نحو العراق ولى على الولايات عمالاً يشق بهم ويخلصهم فأمر على بست هميان بن عدي السدوسي وعلى زارنج عبد الله بن عامر التيمي ^(٤) وفي أثناء سيره عزل عن كرمان عامل الحجاج وولاه عمرو بن لقيط الغنبري وولى فارس حريثة بن عمرو التيمي ^(٥) .

وبذلك العمل ضمن ابن الأشعث خط الرجعة إذا ما هزم كما اطمأن إلى مساعدة هؤلاء العمال بما لديهم من الجنود والأموال ثم سار وبين يديه الدعاة يدعون له والشعراء ينشدون القصائد منددين بالحجاج وأعماله ومشجعين الجيش . فن هؤلاء

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ وابن كثير ج ٩ ص ٣٦ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٦ والطبري ج ٥ ص ١٤٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ وابن كثير ج ٩ ص ٣٦ والعيني ج ١١ ص ٣١٦ وابن نباتة ص ١٢٥ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٥ وابن كثير ج ٩ ص ٣٦ .
ويروي صاحب أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٢ أنه كتب له يقول : تركت قتال المشركين وأقبلت لقتال المسلمين أما تذكر بلاء الحجاج عندك حين جمع لك الجندين جميعاً ؟؟

(٤) الطبري ج ٥ ص ١٤٧ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٨ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٤٨ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ .

أعشى همدان الذي يقول :

شطت نوى من داره بالإيوان	إيوان كسرى دي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان	أن ثقيفًا منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان	أمكن ربي من ثقيف همدان
يوما إلى الليل يسلي ما كان	إننا سمونا للكفور الفتان
حين طغى في الكفر بعد الإيمان	بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالزبي من قحطان	ومن معد قد أقى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الأركان	فقل للحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وحمدان	والحي من بكر وقيس عيلان
إنهم ساقوه كأس الذيفان	وملحقوه بقرى ابن مروان ^(١)

إلى غير ذلك من القصائد الحماسية التي تستفز الهمم وتثير النفوس^(٢) .

ولما دخل الناس فارس تشاوروا في الأمر وأيقنوا أنه لا يمكن فصل قضية الحجاج من قضية عبد الملك فقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك وساروا إلى عبد الرحمن ليستشيروه في الأمر .

وكان من الطبيعي أن تصادف هذه الفكرة قبولاً حسناً فإننا نعتقد أن ذلك هو الذي كان يريده ومن يدري فلعله أوعز بهذه الفكرة لأصدقائه وأخصائه ليبثوها في الناس فإذا ما صادفت قبولاً عرضوا الأمر عليه !!
وكان أول من خلع تيجان بن أبحر وقال : أيها الناس إني قد خلعت أباذبان كخلعي قيصي هذا .

فخلعه الناس إلا القليل منهم وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله

(١) الطبري جده ص ١٤٨ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ وأبو الفد ج ١ ص ١٩٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) راجع الطبري جده ص ١٥٢ ، ١٩٠ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٢ ، ٣١٩ .

وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين (١) .

كانت هذه الحركة قد وصل خبرها للحجاج عن طريق المخلصين له فقد حضر لديه أبي بن شقيق بن ثور وأخبره بما رأى من أمر ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقصة ابن الأشعث وأرسل بالكتاب هذا الرسول الذي شاهد الحوادث (٢) وبعث معه كتاباً كان قد ورد على الحجاج من عبد الرحمن الذي تمثل في آخره بهذه الأبيات :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم	حرباً تفرّق بين الجيرة الخلط (٣)
وهل سموت بجرار له لب	جمّ الصواهل بين الجم والفرط (٤)
وهل تركت نساء الحي ضاحية	يستوقدن لهيب النار بالغبط (٥)

وتحت هذه الأبيات بيت آخر على غير الروي وهو :

خلع الملوك وسارت تحت لوائه : شجر القرى وعراعر الأقوام (٦)

فرد عبد الملك على الحجاج : أما بعد فياني أجبت عدو الرحمن بلا حول ولا قوة إلا بالله ولعمر الله لقد صدق وخلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين عرياناً وإني أرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يد أمير المؤمنين وما جوابه عندي في خلعه إلا قول القائل .

أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالواني ولا الفزع الغمر

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٨ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) البلاذري ج ١١ ص ٣٣٣ .

(٣) جزم : بطنان . بطن في قضاة والآخر في طيء ، والخلط جمع خليط وهو الشريك والقوم الذين أمرهم واحد .

(٤) لب : صياح وضجيج . جمّ الصواهل : أي كثير الخيول الصواهل . والجم والفرط موضعان بفارس .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٤٨ م ١٤٩ والمبرد ص ١٥٥ والبلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٣ والأغاني ج ١٩ ص ١٨ .

(٦) المبرد ص ١٥٥ .

أظن صروف الدهر بيني وبينكم ستحملكم مني على مركب وعر
 ألم تعملوا أني تخاف عزائي وأن قناتي لا تلين على الكسر (١) ؟؟
 فليت شعري أسما عدو الرحمن لدعائم الدين يهدمها أم رام الخلافة أن ينالها
 وأوشك أن يوهن الله شوكته ؟

فاستعن بالله واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محستون (٢) .

وجعل في طي جواب الحجاج جواباً لابن الأشعث يقول له فيه .

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظاً ويأبى من سفاهته كسرى
 أظن صروف الدهر بيني وبينهم ستحملهم مني على مركب وعر
 وإني وإياهم كمن نبه القطا ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
 أناة وحلماً وانتظاراً بهم غذاً فإنا بالواني ولا الفزع الغمر (٣)

أفزع ذلك الحدث عند الملك بن مروان مع رباطة جأشه فنزل عن سريره
 واستدعى خالد بن يزيد وأقرأه كتاب الحجاج فرآه فزعاً فقال ياأمير المؤمنين إن
 كان هذا الحدث من سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته (٤) .

ولعل سبب ذلك أن خراسان كانت بها عصبية كثيرة من العرب وبها الفرس
 الذين يحاولون إزالة سلطان الأمويين أو لعل خالد بن يزيد - وهو يقول ما قاله
 لعبد الملك - كانت تطوف بذهنه تلك النبوءة التي كانت شائعة في ذلك العصر وهي
 أن أعلاما سوداء ستخرج من خراسان تقضي على سلطان الأمويين (٥) .

(١) راجع المسعودي ج٢ ص ٩٧ والأغاني ج١٩ ص ١٤٠ .

(٢) الأغاني ج١٩ ص ١٤٠ والمسعودي ج٢ ص ٩٧ والمبرد ص ١٥٥ .

(٣) المبرد ص ١٥٥ والأغاني ج١٩ ص ١٨ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٤٩ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣٣٧ وابن الأثير ج٤ ص ٧٩ والعيني ج١١ ص ٣١٦
 وابن كثير ج٩ ص ٣٦ .

(٥) المبرد ص ٥٧٥ وابن كثير ج١٠ ص ٥١ وابن عبد ربه ج٢ ص ٢٦٤ .

ثم خرج عبد الملك إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن أهل العراق قد استطالوا عمري واستعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك ^(١) .

ونزل وصار يرسل الجنود تباعًا إلى الحجاج فكان يرسل في كل يوم المائة والخمسين والعشرة وهكذا

وأما الحجاج فإنه خرج إلى البصرة وعزم على لقاء ابن الأشعث ولم يأخذ برأي المهلب الذي سبق أن أشار عليه أن لا يقابله ، وأخذ برأي سفيان بن الأبرد الكلبي فجاوز الحجاج البصرة بأهل الشام حتى نزل تستر ^(٢) .

وكانت أخبار ابن الأشعث تأتي الحجاج كل يوم بنزوله ورحيله فكان الحجاج يكتب إلى عبد الملك بأخبار ابن الأشعث في أي كورة نزل ومن أي كورة ارتحل وأي الناس سارع بالدخول في طاعته ^(٣) فقد كان الناس ينضمون إليه في أثناء مسيره حتى قيل إن جيشه بلغ ثلاثًا وثلاثين ألفًا من الفرسان ومائة وعشرين ألفًا من الرجال ^(٤) .

ولما نزل الحجاج تستر الأهواز قدم بين يديه مقدمة التقت بمقدمة عبد الرحمن ابن الأشعث فدارت بين الفريقين معركة انهزمت فيها مقدمة ابن الأشعث فطيرت أخبار ذلك إلى الحجاج منبئة بقتل أكثر مقدمة جيش ابن الأشعث ^(٥) .

ولما رأى ابن الأشعث ما حدث لمقدمة جيشه . جمع الناس وعبأهم ثم أمرهم

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٧ والمسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٧ ، وتستر . مدينة بخوزستان . أمين واصف - معجم الخريطة ص ٢٨ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٤٩ .

(٤) العيني ج ١١ ص ٣١٦ والذهبي - تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٦٢٣ والأتابكي ج ١ ص ٢٠٤ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٥٠ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

بالعبور إلى جيش الحجاج فأقحم الناس خيولهم في دجيل حتى صاروا إلى مقدمة الحجاج فحمل عليهم أصحاب ابن الأشعث حملة شديدة بعددهم الكبير وأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم فهزموا هزيمة منكرة وقتل منهم عدد كبير وكان ذلك في يوم الجمعة عشرة من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين للهجرة .

وسميت تلك الموقعة بموقعة تستر^(١) .

وقد قتل ابن الأشعث الأسرى وكان فيهم رجل من همدان فقال لابن الأشعث أنا خالك فقال ابدؤا بخالي فقدم وقتل^(٢) .

وأنت الهزيمة الحجاج وهو يخطب الناس في هزيمة مقدمة ابن الأشعث ويقول : احمدا الله عز وجل على هلاك عدوكم . فقال لهم عند ذلك : أيها الناس ارتحلوا إلى البصرة : إلى معسكر ومقاتل وطعام ومادة فإن هذا المكان الذي نحن به لا يحمل الجند ؛ فرحب الناس بذلك ، وقال : لله در المهلب أي صاحب حرب هو لقد أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل^(٣) !!

ثم انصرف راجعاً وجعل سفيان بن الأبرد في مؤخرة الجيش وكلفه بأن يهدم القناطر ويقطع الجسور تعطيلاً لجيش ابن الأشعث عن متابعته^(٤) .

وتبعته خيول ابن الأشعث فكلموا أدركوا منهم شاذاً قتلوه ومضى الحجاج حتى نزل الزاوية^(٥) لسبع بقين من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين .

ودخل ابن الأشعث وجنده البصرة^(٦) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٥٠ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٨ وابن شاعر ج ٥ ص ١٢٥ .

(٢) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٠ والطبري ج ٥ ص ١٥٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ .

(٣) العيني ج ١١ ص ٣١٨ والطبري ج ٥ ص ١٥٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٩ .

(٤) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٢ .

(٥) الزاوية . موضع قرب البصرة . ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧١ .

(٦) الطبري ج ٥ ص ١٥٠ وأنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٢ .

ولما دخل ابن الأشعث البصرة بايعه جميع أهلها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك (١) .

ولعل السبب في مسارعة أهل البصرة إلى متابعة ابن الأشعث على حرب الحجاج وخلع عبد الملك أن الحجاج كان قبيل ذلك أنفذ في البصرة أمرًا أهاج عليه الرأي العام . ذلك أن عماله كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا فلحقوا بالأمصار فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فيلخرج إليها ؛ فخرج هؤلاء فعسكروا لا يدرون أين يذهبون وصاروا ينادون قائلين يا محمداه - استغاثة مما لحقهم من الحجاج - وكان قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيكون لما حل بهم فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك (٢) .

موقعة الزاوية :

كان الحجاج لما نزل الزاوية خندق على جيشه كما خندق ابن الأشعث على جنده وقامت الاستعدادات على قدم وساق من الطرفين فالحجاج كانت تأتيه الأمداد كل يوم من الشام وابن الأشعث ينضم إليه الناس ملبين دعوته .

(١) الطبري ج٥ ص ١٥١ وابن الأثير ج٤ ص ٧٩ وابن خلدون ج٣ ص ٤٨ والعيني ج١١ ص ٣١٨ وأنساب الأشراف ج١١ ص ٣٤٢ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٣٧ والطبري ج٥ ص ١٨٢ في رواية أبي مخنف وابن الأثير ج٤ ص ٧٩ وابن خلدون ج٣ ص ٤٨ .

ويروي لنا الطبري رواية أخرى ج٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ويتابعه في بعض أجزائها ابن الأثير ج٤ ص ٧٩ والبلاذري ج١١ ص ٣٤١ .

وتتلخص هذه الرواية في (١) أن الحجاج نزل راستقباد وابن الأشعث هو الذي نزل تستر و (٢) أن المعركة دارت في يوم ٩ من ذي الحجة بدلاً من ١٠ في الرواية الأولى و (٣) أنه لما وصل إلى علم أهل البصرة أن الحجاج قد هزم أراد عبد الله بن عامر بن مسمع عامل الحجاج على شرطة البصرة أن يقطع الجسر دون الحجاج فرشاه الحكم بن أيوب عامل الحجاج على الصلاة والصدقة - بمائة ألف درهم فكف عن ذلك و (٤) أن الحجاج فرق في جيشه مائة وخمسين ألف درهم مع ضماهم إياها . ويروي العيني ج١١ ص ٣١٨ انه فرق خمسين ألف فقط .

وذات يوم أشار أحد أصحاب عبد الرحمن عليه بوجوب معالجة الحجاج قبل أن يكثر جمعه فوافق ابن الأشعث على ذلك وعبا جيشه وخرج لقتال الحجاج . وكان الحجاج أيضاً قد رتب نفسه على مقابلة هؤلاء وحث أصحابه على الصبر وبين لهم أنهم على الحق وأن ابن الأشعث على باطل (١) .

وبدأ القتال في أول المحرم من سنة اثنتين وثمانين . ودارت رحى معركة من أشد المعارك وأعنفها وصار الشاميون يتلقون ضربات العراقيين حتى كلوا ونفذ صبرهم . وتقهقروا إلى خنادقهم فقاتلوهم عليها ودخلوا عسكرهم وانهزمت عامة قريش على الرغم من أنها كانت تحارب دفاعاً عن عبد الملك كما انهزمت ثقيف على الرغم من أنها كانت تنصر الحجاج .

وفي هذا الموقف الحرج تظهر شجاعة الحجاج واضحة جلية ، فإنه لما رأى أن أهل الشام قد انهزموا وتقوضت صفوفهم وتقهقروا حتى دنوا منه جثا على ركبتيه وأنتضى نحو شبر من سيفه وقال : لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ، فأيقن أصحابه عند ذلك أنه لا يريد أن يفر فرجعوا إليه ونظموا صفوفهم ووقفوا بجانب أميرهم .

وحمل سفيان على مينة ابن الأشعث فهزمها وتبع ذلك انهزام جيش ابن الأشعث كله فقد اختل نظامه وقتل منه خلق كثير (٢) .

وسار ابن الأشعث بعد الهزيمة إلى الكوفة مستخلفاً عبد الرحمن بن العباس بن الحارث بن عبد المطلب قائلاً له : قاتل بالناس فإن عندهم قتالاً شديداً ولهم نشاط فياني منصرف إلى الكوفة وممدك بالرجال (٣) .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ والعيني ج ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ والطبري ج ٥ ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٨ .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان ابن الأشعث صائب الرأي في ترك جيشه وزهرة رجاله منهزمين أمام الحجاج والسفر في قلة إلى الكوفة ؟؟
 وهل كان هذا نتيجة لمشورة بين أصحابه عرض عليهم فيها وجهة نظره فأقروه عليها ؟؟

وهل كان بالكوفة وقتئذ من الأمور ما يستوجب من ابن الأشعث أن يترك الجيش في أزمة ويسارع بالذهاب إليها ؟؟

إن الذي لا شك فيه أن ابن الأشعث لم يكن صائب الرأي في ذلك ، فقائد الجيش المنهزم يجب عليه أن لا يهجر جيشه حتى ولو أسلم قياده لأخلص القواد ، فغياب القائد العام يحط من الروح المعنوية في الجيش ويخلق القيل والقال .

وكان من واجب ابن الأشعث أن يلزم مكانه إلى جانب الجند الذين كانوا يضحون بأرواحهم تحقيقاً للمبادئ التي بثها فيهم .

ويروي لنا الهيثم بن عدي أن عبد الرحمن - قبل أن يسير إلى الكوفة - دعا خاصته وأعلمهم أنه يريد الكوفة ^(١) (لأمر سنذكرها في مكانها) .

ومعنى ذلك أن ابن الأشعث لم يستشر أصحابه بل وضعهم أمام الأمر الواقع إذ أبلغهم فحسب أنه مسافر إلى الكوفة .

وفي هذا ما يؤخذ على عبد الرحمن إذ انفرد بالتفكير والتدبير في أمر كان من الواجب أن لا يحدث إلا برضى واضح من خاصته أولئك الذين سيتركهم من خلفه يسهرون على مصالحه ويحققون أغراضه .

أما حكمة ذهابه إلى الكوفة - على رأيه - فلا تخرج عن أمرين :

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٥ .

أولها : أن مطر بن ناجية الرياحي وثب بالكوفة ، فآلم ابن الأشعث أن يكون قد فتح بابًا دخل مطر منه وأن يكون مطر قد قدر على الوثوب بابن الأشعث فيكون له معه صوت فأراد أن يلحقه فيحول بينه وبين إرادته (١) .

وثانيهما : أن ابن الأشعث كان يرجو أن يجند الكوفيين نصرة لرأيه فيعود بهم إلى ميدان القتال عله ينتصر على الحجاج .

أما في قصة مطر فكان الأجدد بابن الأشعث أن يهزم الحجاج أولاً ثم يواجه مطرًا بعد ذلك ولا يترك الميدان الأساس للمعركة وينصرف بنفسه إلى حل مشكلة فرعية لا تقدم ولا تؤخر في مجريات الحرب مع الحجاج .

وأما تجنيده الجند فقصة فيها نظر إذ إن زهرة الجيش الكوفي كانت تقاتل في صفوفه منذ زمن بعيد .

ولما قرب ابن الأشعث من الكوفة وأحس بخروج أهلها لاستقباله أراد أن لا يسوء تقديرهم له ولحركته منذ البداية فقال لأبي الزبير الهمداني - وكان جريحاً - : إن رأيت أن تعدل عن الطريق فلا يرى الناس جراحتك فافعل فإني لا أحب أن يستقبلهم الجرحى ؛ وكان أن عدل أبو الزبير عن الطريق الذي سلكه ابن الأشعث إلى المدينة (٢) .

وعندما خرج الناس لاستقباله صار أصحابه يقولون : إن الله أخزى الحجاج وفرق جمعه (٣) .

وكان لهذه المقالة أثر فعال في نفوس أهل الكوفة إذ مال إليه الناس من كل

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٨ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ والطبري ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٦ .

مكان وفي مقدمتهم همدان أخوال ابن الأشعث وتفرق الناس عن ابن ناجية ^(١) ثم أقبل حتى نزل عند دار فرات بن معاوية وقال : والله لا أبرح ولا أدخل منزلي حتى أستدرك مطراً ^(٢) .

حركة مطر بن ناجية الرياحي :

والآن يحسن بنا أن نتكلم عن حركة ابن ناجية .

كان مظهر عامل الحجاج على المدائن ^(٣) ولما بلغه أن ابن الأشعث قد هزم الحجاج بتستر أراد أن ينتهزها فرصة فأقبل إلى الكوفة - وكان الحجاج قد خلف عليها حين خرج لقتال ابن الأشعث عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي - وصعد منبرها وقال : إن ابن الأشعث قد هزم أهل الشام فهاجموا فخرج من عندنا منهم .

فكثر أعوانه ومتابعوه وحاصروا القصر الذي فيه ابن الحضرمي فأطل أصحاب ابن الحضرمي من أعلى القصر على مطر وأصحابه وفاوضهم في أن يتركوهم يخرجون من الكوفة فخرجوا .

وصار ابن ناجية سيد الكوفة وفرق في الناس الذين التفوا حوله أموالاً فأعطى كل واحد مائتي درهم لاستمالتهم إليه ^(٤) .

فلما هزم ابن الأشعث بالزاوية قام ابن ناجية خطيباً فقال : إن محمداً قد هزم وأنا لكم مكانه أقوم مقامه ، فبايعه نفر قليل من قومه .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٥٦ والطبري ج٥ ص ١٥٥ وراجع ابن الأثير ج٤ ص ٨٠ وابن خلدون ج٣ ص ٤٨ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٥٦ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٥٣ والطبري ج٥ ص ١٥٤ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٥٣ والطبري ج٥ ص ١٥٤ وراجع ابن الأثير ج٤ ص ٨٠ .

فلما رأى ذلك دخل القصر ثم خرج بالعشي فقال لهم : أيها الناس إن محمداً لقي الحجاج بالزاوية إلى جانب البصرة فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم تحاجزوا ونظروا فإذا بابن الأشعث مفقود لا يدرى أفي الأحياء هو أم في الأموات ، فثار الناس عند ذلك إلى عبد الرحمن بن عباس فبايعوه وقد حصر الحجاج وظهر عليه فقوموا فبايعوا له فإنه رجل من قريش من بني هاشم من أهل بيت نبيكم ﷺ (١) .

فبايعه عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن المغيرة بن شعبة ثم دخل القصر بعد ذلك وأمر ابن أبي ليلى أن يأخذ البيعة من الناس فقال صدقة وتوبة ابنا عبيد الله ابن حر الجعفي : ما هذه البيعة ؟؟ نحن على بيعتنا الأولى التي بايعنا بها صاحبنا حتى ننظر ما صنع . وتبعهم في هذا الرأي الكثير من الناس .

ويروى أن صدقة وتوبة حصبا ابن أبي ليلى وقامت ضجة وطلب الناس منه النزول من على المنبر فنزل .

سمع بهذه الضجة ابن ناجية فسأل عنها ف قيل له : لقد اختلف الناس . فأراد أن يهديء ثائرهم فخرج إليهم وقال لهم : « إنما أنا رجل منكم فمن استقمتم له ورضيتم به وبايعتموه بايعته فهدأت العاصفة » (٢) .

وبينا كان ذلك يجري بين ابن ناجية وأهل الكوفة كان ابن الأشعث في طريقه إليها فلما وصل إليها وعلم الناس أنه لم يفقد - كما كان يشيع ذلك عنه ابن ناجية وأعوانه - انضمت إليه أغلبية الناس ولم يبق مع ابن ناجية إلا طائفة محدودة من بني تميم لم تستطع الدفاع عنه .

وطلب عبد الرحمن من الناس الكف عن القتال وطلب منهم أن يأتوه به سليماً فوضعت السلايل على القصر وأتوه به فقال ابن ناجية له : استبقني فيأني أفضل

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

فرسانك وأعظمهم غناءً عنك ، فأمر به فحبس ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه وأخذ البيعة منه .

وبذلك انتهت حركة ابن ناجية التي لم تستمر مدة طويلة وقد أخضعت بسهولة ودخل عبد الرحمن القصر وأتاه الناس من كل أوب (١) .
عبد الرحمن بن عباس والحجاج :

واصل ابن عباس قتال الحجاج - بعد مسير ابن الأشعث إلى الكوفة - ثلاثة أيام (٢) كما في بعض الروايات أو خمسة (٣) كما في البعض الآخر .

وفي آخر ليلة من هذه الليالي - التي سميت بليلة الهرير لشدة القتال فيها بين الفريقين إذ كان الحجاج يريد أن يفتح الطريق إلى البصرة ليدخلها وأهل البصرة يمنعون - لجأ الحجاج إلى وسيلة فرق بها جمعهم وشتت شملهم فرفع راية الأمان وأمر مناديه أن ينادي أصحاب ابن الأشعث قائلاً : ثكلتكم أمهاتكم علام تقتاتلون وقد ترك صاحبكم القتال ومضى .

فدخل عدد كبير في أمانه ولبي نداءه وأمر جيشه أن لا يتبع المنهزمين (٤) ، وبذلك هزم ابن عباس وسار هو ومن معه إلى الكوفة حيث لحقوا بابن الأشعث ودخل الحجاج البصرة (٥) .

وطلب الحجاج من جنده أن لا يدخلوا المدينة حتى لاتنتهك الحرمات ونزل هو دار المهلب بن أبي صفرة فرأى عندها جماعة من النسوة فقال : إن هؤلاء النسوة لجأن

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٦ ، والطبري ج ٥ ص ١٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٩ ، والعيني ج ١١ ص ٣٢١ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٤) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٩ .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ والعيني ج ١١ ص ٣٢١ والطبري ج ٥

إلى وخشين أن يدخل عليهن فليرجعن فنحن أغير عليهن من أزواجهن (١) .

وقد خطب في جنده قائلاً : إن الله عز وجل لم ينصركم يا أهل الشام على عدوكم لأنكم أكثر عددًا وأظهر قوة لقد كانوا أثرى منكم وأقوى وهم في بلادهم ومادتهم تأتيهم من مصرهم وبيوتهم فهم يستندون إلى ذلك ويعتصمون به ولكنكم كنتم أهل الطاعة وكانوا أهل المعصية فنصركم الله عز وجل بغير حول منكم ولا قوة فاحمدوا الله عز وجل على نعمه فلا تبغوا ولا تظلموا وإياكم أن يبلغني عن رجل منكم دخل بيت امرأة فلا يكون له عقوبة عندي إلا السيف أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة ولا أصبر على الفاحشة (٢) .

وقد ذكر الطبري (٣) في رواية له عن ضمرة بن ربيعة عن الشيباني ، وتقل عنه ابن الأثير (٤) أن الحجاج قد أمر - يوم الزاوية - مناديًا فنادى أن لا أمان لفلان ولا لفلان وسمى رجالاً ، فاعتقد الناس أن الجميع آمن ما عدا من سباهم الحجاج فاجتمع لديه منهم أحد عشر ألفًا فقتلهم .

أما البلاذري (٥) فيروي لنا قصة إعلان الأمان ولا يقرر أن الحجاج خدع أحدًا بهذا الأمان .

وفي رأينا أن الحجاج لم يخدع يوم الزاوية أحدًا بأمان فإن جميع المصادر - من ذكرت قصة الأمان ومن لم تذكر - لم تسم لنا واحدًا قتل يوم الزاوية مخدوعًا بأمان وإن كان قد قتل أحدًا فقد قتل قومًا لا أهمية لهم ممن استلزمت ضرورة الموقف قتلهم .

(١) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٠ .

(٣) ج ٥ ص ١٨٢ .

(٤) ج ٤ ص ٨٠ .

(٥) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

ومن غير المعقول أن يقتل هذا العدد الجم ولا تذكر لنا على الأقل عددًا من الزعماء والرؤوس مع أنه قد جرت عاداتها أن تذكر أمثال هؤلاء .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج مازال في حرب مع ابن الأشعث ويريد أن يلتف الناس حوله ومثل هذا يفرقهم عنه ، وفوق كل ذلك أن الحجاج قد خطب خطبة أعلن فيها عفوه عنهم .

وهذا نص خطبته - على ما رواها البلاذري - يؤيد لنا أن الحجاج لم يخدع أحدًا بأمان : إنكم خالفتم وعصيتم وأخللتم بأنفسكم فعفوت عنكم وقد قدرت ، وأنا أقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لأقتلن مقاتلتكم ولأضربنكم بأموالكم ^(١) .

وإن الباحث لا يسعه إلا الإعجاب بما أبداه الحجاج في خطبته لأهل الشام ، وبتلك الأخلاق النبيلة والنصائح الغالية التي هي جديرة بأن تكون نبراس كل فاتح فقد أمر جيشه أن لا يتبع المنهزمين لأن الاتباع من سوء الغلبة . ثم أمر جنوده أن لا يقتحموا بيوت أهل البصرة حتى تحفظ الأعراض وتضان الكرامات ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل توعد المخالف بالسيف .

ويمجد بنا أن تقارن بين موقف الحجاج هذا وموقف ابن الأشعث في حادث مشابه في أثناء حملته هذه لنتبين الفارق بين الرجلين .

ذلك أنه لما خرج ابن الأشعث كان معه أبو حزابة فروا بدسبتي وبها مستراد الضيافة وكان لا يبيت عندها أحد إلا بمائة درهم فبات عندها أبو حزابة ورهن عندها سرج فرسه حتى يأتي بما وجب عليه . وفي الصباح وقف لعبد الرحمن وعرفه بقصته فأمر له بفك سرجه وأعطاه ألف درهم .

وقد بلغت تلك القصة الحجاج فاستغلها وقال : أيجهر في عسكريه بالفجور

(١) أنساب الأشراف ج ١١ ص ٣٥٨ .

ظفرت به والله ؟؟ !! (١)

وبعد أن استقرت للحجاج الأمور بالبصرة وولى الحكم بن أيوب الثقفي عليها خرج قاصداً الكوفة لإخراج ابن الأشعث منها فاعترضته جيوش ابن الأشعث تحت إمرة عبد الرحمن بن عباس تجاه القادسية وسأيرته حتى نزل دير قرّة ونزلت جيوش ابن الأشعث دير الجماجم (٢) .

موقعة دير الجماجم (حرب المائة يوم) :

اجتمع لعبد الرحمن بن الأشعث في هذا المكان مائة ألف من يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم (٣) .

فلما رأى الحجاج كثرة جيش عبد الرحمن وازدياده يوماً بعد آخر بن يأقي إليه من الثغور ومختلف الجهات كتب إلى عبد الملك يستغيث به فأجاب عبد الملك رغبته ملبيّاً وأرسل له الإمدادات المتوالية (٤) .

وبعد أن تجمع لكل منها جيش كبير وخندق كل منها على عسكريه نشبت معركة دير الجماجم في أول ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين للهجرة وصاروا يقتتلون كل يوم ، ودام القتال على هذا الحال مدة طويلة قتل فيها كثير من الناس (٥) .

(١) الأغاني ج١ ص ١٩٤ ويروي صاحب أنساب الأشراف ج١١ ص ٣٥٥ قصة مثل هذه لأبي حزابة نفسه بكرمان وعند امرأة يقال لها ماهبوش وكان قد رهن سرجه لديها على خمسين درهماً .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٥٥ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٧ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .
ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف السالك إلى البصرة ودير قرّة بإزاء دير الجماجم على طرف البر .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٥٥ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٧ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .

(٤) للمسعودي ج٢ ص ٩٧ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٧ .

(٥) الطبري ج٥ ص ١٥٥ ، ١٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٧ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .

أثارت تلك الحروب الحالة في مركز الخلافة (دمشق) فأراد رؤوس قريش وأهل الشام أن يضعوا حدًا لهذه الدماء فذهبوا إلى الخليفة وقالوا له : إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه عنهم فإن خلعه أيسر من حربهم ، وتحقن بذلك الدماء (١) .

فقبل عبد الملك رأيهم وأرسل إلى العراق رسولين من أقرب الناس إليه وهما ابنه عبد الله وأخوه محمد بن مروان ومعهما جند كثيف وقال لهما اعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وإجراء الأعطيات عليهم مثل أهل الشام ، ونزول عبد الرحمن أي بلد شاء فإذا نزله كان واليًا عليه ما دام حيًا وعبد الملك بن مروان خليفة .

فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلنا الحجاج وولي العراق محمد بن مروان وإن لم يجب أهل العراق ولم يسمعوا لهذا فالحجاج أمير الجماعة وأنتا تسمعان له وتطيعان (٢) .

كان من الطبيعي أن يشق هذا الأمر على الحجاج وأن يؤلمه لأنه يدل على فشله في السياسة ، وبالتالي على عدم الرضى من الخليفة الذي أخلص له الحجاج كل الإخلاص .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج كان يريد أن يؤدب أهل العراق الشاقين عصا الطاعة الخارجين على الخلافة ، ويرى أنهم إذا أجيبوا إلى ذلك تطلعو إلى ما فوقه وهو خلع عبد الملك ، وتاريخ أهل العراق شاهد بذلك .

فكتب إليه يقول : والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلًا حتى

(١) الطبري ج٥ ص ١٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٧ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ وابن كثير ج٩ ص ٤١ والعيني ج١١ ص ٣٢٢ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك . ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشر على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص فلم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ إن الحديد بالحديد يفلح . خار الله لك فيما ارتأيت والسلام ^(١) .

فلما وصل الكتاب عبد الملك لم يتراجع في تنفيذ الخطة التي وضعها وأرسل بوجوب تنفيذ رأيه .

فاجتمع عبد الله ومحمد والحجاج ونادى عبد الله : يا أهل العراق أنا عبد الله بن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وهو يعرض عليكم كذا وكذا وذكر ما كتب له به أبوه وقال محمد وأنا رسول أمير المؤمنين إليكم بذلك ^(٢) .

كان هذا الأمر مدعاة للتفكير فأجابوا : ننظر في أمرنا ونرجع العشية .

وعقد ابن الأشعث مؤتمراً من جميع القوم وتكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فقد أعطيتم أمراً انتهازكم اليوم إياه فرصة ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة وأنتم اليوم على النصف فإن كانوا اعتدوا عليكم بالزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فوالله لازلتهم عليهم جرءاء ولازلتم عندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم .

فأجابه الناس جميعاً بالإباء وقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلّة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة . لا ، والله لا تقبل وأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماعم أجمع من خلعه إياه بفارس ^(٣) .

(١) الطبري ج٥ ص ١٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٥٧ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ ، ٨٢ وابن كثير ج٩ ص ٤٢ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٥٧ وابن الأثير ج٤ ص ٨١ ، ٨٢ وراجع ابن كثير ج٩ ص ٤٢ .

والناظر إلى موقف ابن الأشعث وإبداء رأيه بقبول ما عرضه عبد الملك يستغرب هذا السلوك منه ، فابن الأشعث منذ أن كان بفارس طامع في الخلافة وغير قانع بخلع الحجاج ^(١) ، يضاف إلى ذلك أنه يرى أنه أرفع نسبا من بني مروان وبالتالي أولى منهم بالخلافة ^(٢) . فكيف والحالة على ما نرى يقف ابن الأشعث فيدعو علنا لقبول ما عرضه عبد الملك مع أن ذلك العرض فيه بقاء لعبد الملك في كرسي الخلافة ؟؟ وبالتالي فيه ضياع لآمال ابن الأشعث فيها ؟؟

أكان ابن الأشعث يعتقد أن أهل العراق سوف لا يرضون بما يعرضه عبد الملك فأراد أن يبعد عن نفسه شبهة الأنانية ؟؟ وأن لا يعرض نفسه لتبعة رفض ما عرضه عبد الملك فيما لو استمرت الحرب بينهما وهزم جيش العراق ؟ إذا صح أحد الأمرين أو كلاهما كان ابن الأشعث بعيد النظر يعرف كيف يستغل عواطف الجماهير في الوقت المناسب .

وهناك احتمال ثالث هو أن يكون ابن الأشعث قد قال ما قال عن نية صادقة .

وفي تقديرنا أنه عندئذ يكون قد قنع بما أصابه أهل العراق من هذه الحرب وهو رفع أعطياتهم إلى مستوى أعطيات أهل الشام ونزع ذلك الوالي القاسي ، فيكون له بذلك على أهل العراق يد وتكون له عند الخليفة منزلة ، ربما كانت أجدى في نظره من حرب لا تعرف عاقبتها .

بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان ما أجمع عليه أهل العراق فقالا للحجاج : شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنما أمرنا أن نسمع لك ونطيع فقال الحجاج لهما : قد قلت لكما إنه لا يراد بهذا الأمر غيركما (يقصد آل مروان)

(١) راجع الطبري ج٥ ص ١٥١ والعيني ج ١١ ص ٣١٩ وابن شاذان ج ٥ ص ١٢٥ .

(٢) راجع الطبري ج ٥ ص ١٥٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٢ .

وإنما أنا أقاتل عن سلطانكما وإنما سلطاني سلطانكما (١) .

وخرج للقتال ودارت رحاه وصاروا يتقاتلون كل يوم وتدور المعارك إلا أنها لم تك معارك فاصلة فهذا يغلب مرة وهذا أخرى فيقرب خندقه (٢) ؛ والحجاج في هذه الأثناء يمثل بهذه الأبيات .

كيف يرجون سقاطي بعدما	جلل الرأس مشيب وصلع
رب من أنضجت غيظاً قلبه	قد تمنى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه	عسراً مخرجـه ما ينتزع
مزبد يهدر ما لم يرني	فإذا أسمعته صوتي اتقمع (٣)
ويبرئ نفسه من التبعة ومن هذه الدماء وأنه مظلوم وليس بظالم فيقول :	
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم	فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم ؟!
متى تجمع القلب الذكي وصارماً	وأنفأ حميّا تجتنبك المظالم (٤)

استمر الحال على ذلك مدة طويلة وطال الأمر حتى قيل إنه وقعت بضعة وثمانون وقعة والحجاج صابر لا يتزعزع عن مكانه على الرغم من كثرة العدو ووفرة موارده .

فإن موارد العراقيين كانت تأتيهم من الكوفة وسوادها بكثرة . بينما كان جيش الحجاج في ضيق من العيش لقلة موارده ونظراً لبعدهم عن مراكز تموينهم ارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً وفقدوا بعض الأصناف مثل اللحم فلم توجد بالكلية (٥) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٥٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٨١ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٥٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٨١ وابن كثير ج ٩ ص ٤٢ والعيني ج ١١ ص ٣٢٣ .

(٣) ابن عساكر ج ٤ ص ٧٠ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) ابن عساكر ج ٤ ص ٧٠ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٥٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٢ وابن كثير ج ٩ ص ٤٢ والعيني ج ١١ ص ٣٢٣ .

طال القتال ورأى الحجاج أن حالة التموين تسير من سيء إلى أسوأ ، ففكر في حيلة بها يتمكن من إنهاء هذه الحروب فهداه تفكيره إلى أن يحمل على كتيبة القراء من جيش ابن الأشعث حملة قوية فيهزمها ؛ وذلك لأن الناس كانوا يتبعونهم وهم الذين كانوا يحرضونهم على القتال وهم فوق ذلك مثل الجبال الراسية فكل الكتائب تتراجع إلى الوراء ما عدا كتيبتهم مها اشتدت الحملة عليها بينما هم إذا حملوا تكون حملتهم بجد واجتهاد فتعزم ما أمامها (١) .

فعبأ لها ثلاث كتائب وأعدّها إعداداً تاماً تحت قيادة الجراح بن عبد الله الحكمي ، فتقدمت هذه الكتائب إلى كتيبة القراء وحملت كل كتيبة من هذه الكتائب الثلاث مرة فلم يبرح القراء مكانهم وصبروا ثم قال زعيم القراء : احمّلوا حملة صادقة ولا تردوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم . فصدق القراء الحملة وأزالوا الكتائب الثلاث عن محلها وفرقوها فرقاً ، ولكن فرقة من هذه الفرق قامت بحركة التفاف حول كتيبة القراء تمكنت بها من قتل قائدهم جبلة بن زحر وقطع رأسه والإتيان بها إلى الحجاج (٢) .

فسر الحجاج وأصحابه بذلك وبشرهم بالنصر فقال لهم : يا أهل الشام أبشروا هذا أول الفتح لا والله ما كانت فتنة قط فخبث حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل الين وهذا من عظمائهم (٣) .

وهي عبارة تدل على دهاء الحجاج ، فهرج أهل الشام وصاروا ينادون (يا أعداء الله قد هلكتم وقد قتل طاغوتكم) .

وبينما أهل الشام في فرح لمقتل جبلة كان أهل العراق في حزن كأن الواحد منهم

(١) راجع الطبري ج ٥ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٢ وابن كثير ج ٩ ص ٤٢ .

(٢) راجع الطبري ج ٥ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٩ ؛ ويروي ابن كثير ج ٩ ص ٤٠ أن جبلة بن زحر قائد كتيبة القراء كان قتله يوم الزاوية .

(٣) راجع الطبري ج ٥ ص ١٥٨ ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٢ ، ص ٨٤ ، ٨٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٩ .

قد فقد أباه أو أخاه بل كان قتله أشد عليهم في ذلك الموطن ، وظهرت الكآبة في وجوه القراء ودب فيهم الفشل فلا يقدر الواحد منهم على الكلام .

رأى أبو البختري الطائي - أحد القراء - ذلك فأراد أن يجدد فيهم الروح المعنوية وأن يثبتهم فبين لهم أن جبلة كأي شخص منهم قد أتاه أجله وكل واحد منهم معرض لذلك ^(١) ، ولكن مقالته لم تؤثر فيهم .

ثم قدم عليهم بسطام بن مصقلة ابن هبيرة الشيباني من الري يحارب في صفوفهم فتشجعوا وقالوا : إنه يقوم مقام جبلة .

فساء ذلك أبو البختري وقال : قُبِّحَتم : إن قتل رجل واحد منكم ظننتم أن قد أحيط بكم ؟ ! فإن قتل الآن ابن مصقلة ألقم بأيديكم إلى التهلكة وقلتم لم يبق أحد يقاتل معه ؟ ما أخلقكم أن يخلف رجاؤنا فيكم ^(٢) .

استمر القتال بين الفريقين بعد ذلك أيامًا - بالمبارزة - حتى كان يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة لسنة ثلاث وثمانين للهجرة ^(٣) ؛ وقد مل الناس المبارزة فنشبت معركة قاتل فيها أهل العراق قتالاً شديداً حتى أمنوا الهزيمة ، وبينما هم في أمنهم إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلي - صاحب مينة الحجاج - إلى الأبرد بن قرة - صاحب ميسرة ابن الأشعث - وقاتله قتالاً يسيراً انهزم بعده ابن قرة وولى الدبر فظن الناس أنه قد صولح فتقوضت الصفوف وتفرق الناس .

رأى ابن الأشعث ذلك فصار ينادي إليّ عباد الله أنا ابن محمد ، فأتاه نفر يسير فحمل عليهم أهل الشام حملة المنتصر فدخلوا معسكرهم وكبروا فيه ؛ وفي الوقت ذاته نصح له بعض أخصائه بأن ينصرف حتى لا يؤسر فانصرف هو ومن معه .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٦٤ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٦ وشذرات الذهب ج ١ ص ٩٣ .

ويروي الذهبي ج ٤ ص ٦٣٠ أنها كانت سنة ٨٢ .

وبذلك انتهت معركة دير الجماجم التي استمرت مائة يوم فقد بدأت في أول ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين وانتهت يوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة نفسها .

وقد ترك الحجاج جند ابن الأشعث يتفرق وأمر جنده أن يتركهم وبعث منادياً ينادي (من رجع فهو آمن ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن) (١) .

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل كما رجع عبد الله بن عبد الملك إلى الشام وترك العراق للحجاج يتصرف فيها كما يرى بعد أن هزم ابن الأشعث ، ورجع الحجاج بجنده إلى الكوفة (٢) .

وهنا تروى لنا بعض المصادر (٣) . أن الحجاج عزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة ، بينما يروي البعض الآخر (٤) أنه أنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة ؛ ويعدون ذلك من المساويء التي لا تغتفر ويشنع بذلك ابن الأثير بقوله : وهو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم وهو إلى الآن لا سماً في بلاد العجم ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة (٥) .

وفي رأينا أن رواية الطبري هي التي تتفق مع ما عليه الحجاج من الصفات . ودليلنا على ذلك ما أورده البلاذري بمناسبة دخول الحجاج البصرة بعد هزيمة أهل العراق في الزاوية من نهى الجند عن نزولهم على أهل البصرة (٦) .

(١) راجع الطبري ج٥ من ص ١٦٥ - ١٦٩ وابن الأثير ج٤ ص ٨٦ وابن كثير ج٩ ص ٤٩ وابن خلدون ج٣ ص ٤٩ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٦٩ وابن الأثير ج٤ ص ٨٦ وابن خلدون ج٣ ص ٤٩ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٧٠ .

(٤) ابن الأثير ج٤ ص ٨٦ وابن خلدون ج٣ ص ٤٩ .

(٥) ابن الأثير ج٤ ص ٨٦ .

(٦) تقدم في ص ٢٦٦ .

ولما رجع الحجاج إلى الكوفة بعد دير الجماجم خطب في أهل الكوفة خطبة بين لهم فيها سوء مذهبهم وعدم استقرارهم على حال وأثنى على أهل الشام لطاعتهم فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى الخاخ والأصاخ ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرّخ فحشاكم نفاقاً وشقاقاً وأشعركم خلاقاً أخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومأمراً تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة أو تعظّم واقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان ؟؟

ألستم أصحابي بالأهواز حين رمت المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لودا وتنهزمون سراعاً . ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطائها . لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حين عضكم السلاح وقصعتمكم الرماح . ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم .

بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

يا أهل العراق الكفرات بعد الفجرات والغدر بعد الخترات والنزوة بعد النزوات . إن بعثتم إلى ثغوركم غلّتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وأويتموه ونصرتوه ورحبتوه ؟؟

يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أنصاره وأتباعه ؟؟

يا أهل العراق . ألم تنهكم المواعظ ؟؟ ألم تزجركم الوقائع ؟؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال يا أهل الشام : إنما أنا لكم كالظلم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر

ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب .
يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء والعدة والحذاء ^(١) وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال
نابغة بني جعدة .

وإن تـــــــداعىكم حظهم : ولم ترزقوه ولم نكـــــــذب
كقول اليهود قتلنا المسيح ولم يقتلـــــــوه ولم يـــــــصلب ^(٢)

ثم بدأ بأخذ البيعة منهم للخليفة عبد الملك بعد أن نكثوها بخروجهم مع ابن
الأشعث وفي أخذه للبيعة أجلس بجانبه أحد خواصه وهو مصقلة بن كرب العبدي
وكان خطيباً فضلاً عن أنه كان أول من ناصر الحجاج في ثورة ابن الجارود وقال
له : اشم كل امرئ بما فيه ممن كنا أحسننا إليه ، فاشتمه بقلة شكره ولؤم عهده ومن
علمت فيه عيباً فعبه بما فيه وصغر إليه نفسه ^(٣) . وكان لا يبايع أحداً إلا إذا قال
له أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال نعم بايعه وإلا قتله ^(٤) .

ويذهب صاحب الإمامة والسياسة إلى أن الحجاج عندما رأى كثرة الأسرى
أراد أن يعرف الخوارج - الفرقة الخاصة - من غيرهم لأن الخارجي لا يشهد على
نفسه بالكفر ، وكانت بقيتهم لا تزال باقية فلجأ إلى طريقة الإشهاد على النفس
بالكفر فمن شهد لم يكن خارجياً ومن لم يشهد فهو خارجي يستحق القتل من
الناحيتين الدينية والسياسية .

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ج٢ من ص ١١٧ - ١١٩ وراجع السعدي ج٢ ص ٩٧ ، ٩٨ وابن عساكر ج٤
ص ٥٥ ، ٥٦ وابن عبد ربه ج٢ ص ١٣٠ والنويري - نهاية الأرب ج٧ ص ٢٤٥ .

(٢) السعدي ج٢ ص ٩٨ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٦٩ .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٦٩ وابن الأثير ج٤ ص ٨٦ وابن خلدون ج٣ ص ٤٩ والذهبي ج٤ ص ٦٢٧ .

ويروي ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٨ - أن الخليفة عبد الملك هو الذي كتب إلى الحجاج في
أسرى دير الجماجم أن يعرضهم على السيف فمن أقر منهم بالكفر بخروجه يترك سبيله ومن زعم أنه مؤمن
يضرب عنقه .

أما من الناحية الدينية فإن من القواعد المقررة والأصول المسلم بها أن الخروج على الخليفة الشرعي لا يصح إلا إذا كفر^(١) .

ومن خرج بغير كفر يكون باغيًا يجب قتله ، وإذا رجع إلى حظيرة الجماعة والإمام الذي خرج عليه تجب استتابته .

ولم يكن الحجاج بجاهل لتلك القواعد ففي مناظرته لسعيد بن جبير التي رواها لنا صاحب الإمامة والسياسة^(٢) . يقول : أنا أقتل من شق عصا الطاعة وفارق الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها : ويقول في مقام آخر : إنهم ظالمون حين خرجوا من جمهور المسلمين^(٣) .

وقد ظهر ذلك على لسان أحد شعراء ابن الأشعث فوصف الحجاج وأصحابه بأنهم أهل الحق ورمى خصومهم بالفسق وقرر أن قتلاهم قتلى ضلال وفتنة وأنهم قد خرجوا عن الدين^(٤) .

وأما من الناحية السياسية فإننا نرى الحجاج وقد ظفر بخصومه الذين أثاروا عليه ثورة كادت لا تؤدي بولايته على العراق فحسب بل بكيان الدولة الأموية بأجمعها ، كان واجبا عليه أن يقسو كل القسوة على من ظفربهم وخاصة أنهم من أهل العراق الذين أثاروا عليه وعلى الدولة الحروب والفتن طوال عهده .

يزيد في جرم هؤلاء أن خاصتهم خرجوا من الكوفة والبصرة تثبيتاً لولايته وتوطيداً لنفوذ الإسلام فإذا بهم ينقلبون عليه دعاة ثورة جامحة .

ولو فعل الحجاج كل ذلك من تلقاء نفسه لما صح أن يكون موضع لوم فما بالنا

(١) راجع شرح عبد السلام على الجوهرة ص ١٥٤ .

(٢) ج ٢ ص ٤٣ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٤ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ١٧٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٦ وابن شاکر ج ٥ ص ١٥٦ م ١٥٧ والعيني ج ١١ ص ٣٣٠ .

به وهو يعمل بتعاليم الخليفة الواضحة حيث كتب إليه في حادث سعيد بن جبير :
إني لم أبعثك مشفقاً وإنما بعثتك منفذاً ومناجراً لأهل المعصية والخلاف (١) .

ولا نستطيع أن نوجه اللوم للحجاج على قتل كثير من قتلهم عقب موقعة دير
الحجاج فقد كان هؤلاء ممن تم تاريخهم على عداء للدولة الأموية فمنهم كميل بن زياد
الذي كان من خواص علي بن أبي طالب وله موقف مشهور من الخليفة عثمان بن
عفان وظل على سياسته هذه يناوئ الحجاج ويغلظ إليه حتى يوم قتله (٢) .

ومنهم عمران بن عصام الضبعي كان الحجاج قد أكرمه وقربه لأمير المؤمنين ولم
يدخر وسعاً في مرضاته فكافأه عمران بالخروج والتادي في العصيان إلى حد أن
الحجاج طلب منه أن يتوب فلم يقبل (٣) .

بينما يقوم الحجاج بهذا العمل في الكوفة كانت فلول ابن الأشعث قد انقسمت
على نفسها فمنهم من دخل في طاعة الحجاج ومنهم من استمر على متابعة ابن
الأشعث . وقد تفرق هؤلاء ، فسار محمد بن سعد بن أبي وقاص بطائفة كبيرة إلى
المدائن وسار عبد الرحمن بن أبي سمرة إلى البصرة وأخذها من نائب الحجاج فيها وهو
الحكم بن أيوب بن أبي عقيل ثم لحق به ابن الأشعث إليها فقال له : إني لم أرفقك
وإنما أخذتها لك .

كان من الطبيعي بعد أن يوطد الحجاج الأمن في الكوفة أن يسير إلى فلول ابن
الأشعث ليضرب الضربة الأخيرة فبدأ بالمدائن لقربها من الكوفة . ولأنها مفتاح
الكوفة فلا ينبغي أن يخرج إلى البصرة مخلفاً وراءه من يستطيع التغلب على الكوفة
في غيبته بل كانت الحكمة الحربية أن يبدأ بالمدائن ، فخرج إليها وأعد المعابر لعبور
الناس إلى ابن أبي وقاص .

(١) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٤١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٦٩ ، ١٧٠ وابن كثير ج٩ ص ٤٦ ، ٤٧ وابن الأثير ج٤ ص ٨٦ وراجع التنبيه
والإشراف ص ٢٧٥ .

(٣) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٨ وراجع ابن كثير ج٩ ص ٥٢ والأغاني ج١٦ ص ٥٩ .

وبينما كان الحجاج في طريقه إليها خرج من المدائن ولحق بزعيمة ابن الأشعث بالبصرة فحول الحجاج نظره إليها .

موقعة مسكن :

فخرج ابن الأشعث إلى مسكن على دجيل وأتاه أنصاره وأعوانه الذين كانوا متفرقين حينما علموا أنه مستعد لموقعة الحجاج فاجتمعوا وعنف الناس بعضهم بعضاً على الفرار ووطد الكثير منهم العزم على الموت فخندقوا على أنفسهم وأحاطوا أنفسهم بالمياه ورتبوا أن يكون القتال من جهة واحدة . وأتاهم الحجاج ونشبت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين للهجرة .

واستمرت خمس عشرة ليلة قتل في نهايتها زياد بن غنيم القيني - وكان على مسالح الحجاج - فأضعف قتله أصحاب الحجاج وفترت همته ، ولكن الحجاج بما جبل عليه من فطنة ولباقة لم ينم تلك الليلة فبات طول ليله يسير فيهم مشجعاً ومبيناً أن النصر قريب منهم وأنهم أهل الطاعة وابن الأشعث وأصحابه أهل المعصية وإن عادة الله فيهم حسنة ما صدقوه في موطن قط إلا أعطاهم الله النصر .

وعبأ جيشه ورتبه وقت السحر ، وفي الصباح الباكر نشب القتال وحمى وطيسه وقدم على الحجاج في ذلك الوقت عبد الملك بن المهلب وبه تغير الموقف وأصبحت كفة الحجاج هي الراجحة ولم تلبث أن تغلبت وفازت وهزم ابن الأشعث وقتل من جيشه زعيان هما أبو البختری الطائي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

وثبت في الموقف بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف وطنوا أنفسهم على الموت وقال لهم بسطام : لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجونا منه فررنا ولكننا قد علمنا أنه نازل بنا فأين المحيد عنه ؟؟ يا قوم إنكم محقون فقاتلوا على الحق والله لو لم تكونوا على حق لكان موت في عز خيراً من حياة في ذل .

فقاتلوا قتالاً شديداً كشفوا فيه جيش الحجاج مراراً حتى قال الحجاج : علي بالرماة لا يقاتلهم غيرهم ، فحضر الرماة وأحاط بهم الحجاج من كل جانب فقتلوا ولم ينج من الأربعة آلاف إلا القليل .

وبذلك انتهت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين ^(١) .

مصير ابن الأشعث :

وبعد انتهاء الواقعة وطد ابن الأشعث العزم على أن يذهب لصديقه زنبيل - ملك الترك - ويترك القتال بعد ما رأى من قوة الحجاج ومضاء عزيمته فسار إلى سجستان ، وما كان الحجاج ليتركه فقد أرسل في أثره ابنه محمداً وعمارة بن تميم اللخمي بجيش - على أن تكون القيادة لعمارة - فأدرك عمارة مؤخرة ابن الأشعث عدة مرات قاتله فيها ^(٢) .

وما زالت المطاردة متواصلة حتى وصل ابن الأشعث إلى كرمان وكان عليها عامل من قبله فأكرمه .

ولكن شيخاً من عبد القيس يدعى معقلاً أنبه على جنبه وخوره وضعف

(١) الطبري ج٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ وابن الأثير ج٤ ص ٨٦ ، ٨٧ وابن خلدون ج٣ ص ٤٩ ، ٥٠ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٨ .

ويروي الطبري ج٥ ص ١٨٣ وابن الأثير ج٤ ص ٨٧ رواية أخرى في سبب هزيمة مسكن تخالفها في أن السر في هزيمة ابن الأشعث لم يكن بسبب قوة الحجاج وإنما بسبب أن شيخاً دلهم على طريق من وراء الكرخ في أجرة وضحاح من الماء نظير أربعة آلاف درهم يأخذها فبيتهم الحجاج وأرسل إليهم سرية تبلغ أربعة آلاف أعملت فيهم السيف في منتصف الليل . ولم يتمكن أصحاب ابن الأشعث من القتال لأنهم كانوا قد هزموا الحجاج في اليوم السابق لهذه الليلة ، فباتوا آمنين وألقوا السلاح . فن غرق منهم أكثر من قتل - لأن دجلاً عن يسار الجيش ودجلة أمامه - ونجا ابن الأشعث في عدد قليل وأن معركة مسكن استمرت شهراً أو دونه .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٧١ ، ١٧٢ وابن الأثير ج٤ ص ٨٧ وابن كثير ج٩ ص ٤٧ .

عزيمته ^(١) . فسار منها مفوزاً في صحرائها حتى وصل مدينة زارنج فأغلق عاملها الأبواب في وجهه ووقف عليها ابن الأشعث مدة رجاء افتتاحها فلم يتمكن فواصل سيره إلى بست فاستقبله عاملها وأنزله عنده . ثم أراد أن يأمن عند الحجاج ويتقرب إليه فانتهاز فرصة تفرق أصحاب ابن الأشعث عنه وقبض عليه وأوثقه ^(٢) . فعلم بذلك زنبيل فبعث إلى العامل يهدده ويتوعده فجبن العامل وطلب الأمان من زنبيل فأمنه ودفع عبد الرحمن إلى زنبيل فأخذه وأكرمه ووفى له بما عاهده عليه فبقي عنده حتى استدعاه جماعته لمواصلة القتال عند زارنج كما سيأتي ^(٣) .

هذا ما كان من أمر ابن الأشعث . وأما جيشه فتختلف الروايات في سيره ، فيروي أبو مخنف أنه سار مع ابن الأشعث إلى سجستان جماعة قليلة . وبقي معظم الفل المنهزم من الجنود والرؤوس والقادة الذين ناصبوا الحجاج العداء في المواطن كلها ولم يقبلوا أمانه .

(١) راجع الطبري ج٥ ص ١٧٢ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٧٢ وابن الأثير ج٤ ص ٨٨ وابن كثير ج٩ ص ٤٨ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٧٣ وابن الأثير ج٤ ص ٨٨ وابن كثير ج٩ ص ٤٨ وابن خلدون ج٣ ص ٥٠ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٨ ، ١٢٩ وينفرد صاحب الإمامة والسياسة ج٢ ص ٣٧ ، ٣٨ برواية بعيدة عن التصديق . تتلخص في أن ابن الأشعث بعد انهزامه ألقى الحجاج من أخبره أن ابن الأشعث قد اتخذ طريقه إلى خراسان فدعا الحجاج ابن عم له كان يعرفه بالإخلاص فقطع معه ليلاً وأرسله في طلب ابن الأشعث وطلب منه أنه إذا أدركه هو أو من معه لا يتركه على قيد الحياة أو يأتي به أسيراً . وسار ابن الأشعث حتى لحق بخراسان راجياً النجاة من الحجاج . ولم يشعر ابن الأشعث إلا وقد لحقه خيل ابن عم الحجاج فاستغاث بقصر فدخله فحصره ابن عم الحجاج فيه وأحاط به من كل جانب حتى ضيق عليه ودعا بالنار ليحرقه عليه .

فلما رأى ابن الأشعث أن لا محيص له ولا ملجأ وخاف النار رمى بنفسه من فوق القصر وطمع في أن يسلم ولا يشعر به أحد فيدخل في غمار الناس فيخفى أمره ولكنه سقط فانكسرت ساقه وانخذل ظهره ووقع مغشياً عليه . فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه وقد أفاق بعض الإفاقة ولا يقدر على النهوض . فأتوا به ابن عم الحجاج ولما رآه بتلك الحال أيقن أنه لا يبلغ الحجاج حتى يموت فأمر بضرب عنقه وأخذ رأسه إلى الحجاج - وتلك كانت نهاية ابن الأشعث .

بقي هؤلاء جميعًا تحت قيادة عبد الرحمن بن عباس وساروا في أثر ابن الأشعث حتى وصلوا إلى سجستان وانضم إليهم من أهل سجستان كثيرون فبلغ عدد الجيش نحو الستين ألفًا فحاصروا عامل مدينة زارنج الذي امتنع على ابن الأشعث - وكتبوا إلى ابن الأشعث يخبرونه بعددهم ويطلبون منه الحضور للسير إلى خراسان فإن بها عشائهم فحضر إليهم وهم على حصار - عبد الله بن عامر - عامل زارنج ، وما زالوا يشددون الحصار عليه حتى استنزلوه فأمر عبد الرحمن به فضرب وحبس (١) .

وصل إليهم في ذلك الوقت الجيش الشامي بقيادة عمارة اللخمي فأرأوا أن يتركوا له سجستان ويتوجهوا إلى خراسان وعرضوا هذا الرأي على ابن الأشعث فلم يرق في نظره وقال لهم : إن بها يزيد بن المهلب وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه ولو دخلتوها وجدتموه إليكم سريعًا ، ولن يدع أهل الشام اتباعكم فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام وأخاف أن لا تنالوا ما تطلبون .

فأبوا عليه وقالوا إن خراسان بلاد واسعة نأخذ أي جهة شئنا ومن يتبعنا منهم أكثر ممن يقاتلنا فمكث بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك أو نرى رأيًا .

فوافق على رأيهم وساروا إلى خراسان وفي طريقهم إليها - في هرات - خرج عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة في ألفين وأخذ طريقًا غير طريق ابن الأشعث فانتهاز ابن الأشعث ذلك فرصة ليحل نفسه من تبعاتهم وتورطه معهم في الموقف فأبان لهم أنه لا يستطيع أن يسير معهم لأنهم لم يصدقوا معه في موطن قط وقد عرضوه للهلاك مرارًا حتى إذا صار في مأمن لدى صاحبه زنبيل أتوه بمجموعهم وأغروه باجتماع كلمتهم فقبل العودة .

وها هي ذي بوادر تفرقهم بدأت تظهر . ولذلك سينصرف إلى زنبيل فن أحب

(١) الطبري ج ٥ ص ١٧٢ ، ١٧٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٨ والعيني ج ١١ ص ٣٢٨ وابن كثير ج ٩ ص ٤٨ .

أن يتبعه فليتبعه ومن أراد الذهاب إلى خراسان فليذهب متهيئاً للجميع الخير والتوفيق (١) .

فسارت معه طائفة وتفرقت أخرى وبقي معظم الجيش مع عبد الرحمن بن عباس وأصبح هو الزعيم بعد ابن الأشعث فبايعوه واستمروا في طريقهم إلى خراسان ووجدوا في طريقهم الرقاد الأزدي - عامل ليزيد بن المهلب - فقتلوه فسار إليهم يزيد بن المهلب (٢) .

ويروي المدائني رواية تخالف رواية أبي مخنف في :

١ - أن ابن سمرة لم يذهب مع ابن عباس إلى سجستان بل سار بعد هزيمة مسكن مباشرة إلى هرات ودم ابن الأشعث وعابه بفراره .

٢ - أن ابن عباس سار إلى خراسان في عشرين ألفاً .

٣ - وأن ابن المهلب أرسل إلى ابن عباس يقول له : قد كان لك في غير هذه البلاد متسع عند من هو أقل مني شوكة فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان فإني أكره قتالك وإن أردت مالا أرسلت إليك . فأعاد ابن عباس الجواب بقوله : إنا ما نزلنا لمحاربة أحد ولكننا نريد أن نريح ثم نرحل عنك .

ثم أقبل على جباية الأموال وبلغ ذلك يزيد فقال : من أراد أن يريح ثم يسير لم يجب الخراج ، وأرسل أمامه المفضل في جيش وسار في أثره وكرر عليه الطلب في أن يخرج وقال له : إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وإن أردت زيادة زدناك فاخرج عني فإني لا أريد قتالك : فأبى ابن عباس إلا القتال وأرسل إلى جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه فأخبر بعضهم يزيد بذلك فقال

(١) الطبري ج٥ ص ١٧٤ وابن شاعر ج٥ ص ١٢٩ وابن خلدون ج٣ ص ٥٠ والعيني ج١١ ص ٣٢٨ وابن كثير ج٩ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٧٤ وابن الأثير ج٤ ص ٨٨ وابن خلدون ج٣ ص ٥٠ .

يزيد : جل الأمر عن العتاب أتغدى بهذا قبل أن يتعشى بي (١) .

وفي رأينا أن رواية أبي مخنف هي الراجحة لأنه لا يتصور أن ابن عباس يقتل رجلاً من الأزد - هو ما اتفق عليه المصدران - ثم يصبر يزيد على ذلك - على رواية المدائني - وتصور لنا بقية الرواية جبن يزيد وأنه أجبر على القتال .

وفوق ذلك لم يذكر لنا شيئاً عن ابن الأشعث هل خرج من سجستان حينما ذهبت إليه فلول جيشه أم لم يخرج ؟؟ .

حدث بين يزيد بن المهلب وعبد الرحمن بن عباس قتال يسير انهزم بعده أصحاب ابن عباس وصبرت معه طائفة مدة ثم انهزموا جميعاً ولحق ابن عباس بالسند وأمر يزيد أصحابه بالكف عن اتباعهم ودخل يزيد معسكرهم فأخذ ما كان فيه وأسر أسرى كثيرين أرسلهم إلى الحجاج (٢) .

ولما أراد يزيد بن المهلب إرسال الأسرى إلى الحجاج قال له أخوه حبيب بأي وجه تنظر إلى اليمنية وقد أرسلت موسى بن طلحة ؟ فقال له يزيد : إنه الحجاج ولا يتعرض له : فقال حبيب : وطن نفسك على العزل ولا ترسله فإن له عندنا يدًا . فقال يزيد وما هي ؟؟ قال ألزم المهلب في مسجد الجماعة بمائة ألف (٣) فأداها طلحة عنه .

فأطاعه ولم يرسل عبد الله بن فضالة لأنه من الأزد وأرسل بقية الأسرى (٤) .

(١) الطبري ج٥ ص ١٧٤ ، ١٧٥ وابن الأثير ج٤ ص ٨٨ وابن خلدون ج٣ ص ٥٠ والعيني ج١١ ص ٣٢٩ وابن كثير ج٩ ص ٤٩ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٧٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨٩ وابن خلدون ج٣ ص ٥٠ والعيني ج١١ ص ٣٢٩ وابن كثير ج٩ ص ٤٩ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ٨٩ وابن خلدون ج٣ ص ٥١ .
ويروي الطبري ج٥ ص ١٨٠ مائتي ألف .

(٤) الطبري ج٥ ص ١٧٦ وابن الأثير ج٤ ص ٨٩ وابن خلدون ج٣ ص ٥١ .

وقع في يد الحجاج بعد موقعة مسكن كثير من الأسرى أرسلهم إليه يزيد بن المهلب كما ذكرنا ، وجابه الحجاج الموقف مرة جديدة فيها هو ذا قد نكل بكثير من خصومه بعد موقعة دير الجماجم فإذا بسرب جديد يأتيه بعد مسكن فماذا هو صانع به ؟؟!

لا تزال الأسباب التي ذكرنا بعد موقعة دير الجماجم قائمة وهام خصومه والمتآمرون عليه وعلى الخلافة قد جيء بهم أسرى . فهل كان للحجاج أن يعفو وأن يصفح ؟؟

لم يكن منطق الحوادث ولا حالة الحجاج النفسية تسمح بمثل هذا لذلك عمد الحجاج إلى اجتثاث الفتنة من جذورها فقتل زعماء الفتنة والمساعدین عليها وأصحاب الرأي فيها .

وفي تقديرنا أنه لم يَعد هؤلاء إلى غيرهم فلقد أجمعت المراجع على أسماء بذاتها وروت لكل واحد من هؤلاء قصة بذاتها مع الحجاج ناقشه فيها وعيره بموقفه في صف ابن الأشعث وذكره بماضيه الذي لا يتناسب مع هذا الخروج ^(١) .

ولو كان الحجاج قد قتل أكثر من هؤلاء لما ترددت المصادر في ذكر أسمائهم جرياً على عادتها من محاولة النيل من الحجاج لكل صغيرة تحدث منه . بل إننا لنعجب لهذه المصادر التي تذكر أنه قتل صبرا - بعد فتنة ابن الأشعث - الآلاف بل مئات الآلاف دون أن تستطيع هذه المصادر بذاتها أن تعين لنا إلا نفراً محدوداً لا يتجاوز عدده البضعة عشر .

على أن اضطراب المصادر في تحديد عدد من قتلهم الحجاج صبراً وتأرجحهم بين ثلاثة آلاف على قول صاحب البدء والتاريخ ^(٢) أو مائة وثلاثين ألفاً على ما رواه

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ١٧٨ - ١٨٢ وابن الأثير من ص ٨٩ ، ٩١ والكامل ص ٦٥٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٥١ .

(٢) ج ٦ ص ٣٥ .

ابن كثير والعيني ^(١) أو مائة وعشرين أو مائة وثلاثين على التردد في رواية رواها الطبري ^(٢) يفصح لنا عن رغبة الرواة في التشنيع على الحجاج . ومن يدري فلربما أدخلوا في حسابهم هذا جميع من قتلوا مع الحجاج في حرب ابن الأشعث ، وهل يستبعد أن يكون هذا العدد شاملاً لكل من فني في العراق بسبب الحجاج وحروبه ؟ وإذا صح في الأذهان أن مثل هذا العدد قد فني على أي وجه من الوجوه الثلاثة فهل كان من المعقول أن يسكت عنه مؤرخان عظيمان كابن خلدون وابن الأثير ؟؟؟

وهل كان أبو مخنف يغيب عنه هذا فلا يذكره فيروي الطبري عن غيره رواية تحمل على الشك ؟؟

على أن المؤرخين الذين بالغوا في عدد من قتلهم الحجاج رأوا أن يتابعوا الحملة عليه بأن نسبوا إلى عبد الملك كتاباً يأخذ فيه على الحجاج إسرافه في الدماء والأموال ^(٣) .

ولعلمهم فعلوا ذلك تأييداً للحملة التي شنوها عليه وقد تكلمنا على هذا الكتاب في موضعه من هذه الرسالة .

وسنذكر من قتلهم الحجاج من الأسرى الذين أرسلهم إليه يزيد بن المهلب ، مما يتبين معه أن الحجاج لم يقتل إلا زعماء الفتنة الذين لم يؤمل فيهم إلا كل شر وعفا عن الزعماء الذين رجا فيهم الخير وأمل فيهم الطاعة وعدم مفارقة الجماعة . فقتل عمرو بن موسى بن عبيد الله بن معمر وهو صاحب شرطة ابن الأشعث وقد قال للحجاج إنها كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها وقد أمكنك الله

(١) ابن كثير ج٩ ص ٥١ والعيني ج١١ ص ٣٣٠ .

(٢) ج٥ ص ١٨٣ .

(٣) السعودي ج٢ ص ٩٥ وابن عساكر ج٤ ص ٦٧ ، ٦٨ والأبشهي ج١ ص ٥٢ .

منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين ، فقال الحجاج : أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفي منها الأبرار .

وأما اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك ثم نحى ولكنه قتل بعد ذلك .

والهلقام بن نعيم وقد سأله الحجاج عن سبب خروجه فلم يتردد في أن يقول : إنه كان يرجو أن يقضي على الحجاج فيصبح هو واليًا على العراق لابن الأشعث .

وعمر بن قرة الكندي وقد عميره الحجاج بأنه كان يفضي إليه بأنه يرغب عن ابن الأشعث وعن الأشعث قبله فإذا به يخرج مع عبد الرحمن ^(١) .

ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ^(٢) ، وقد بين الحجاج سبب قتله إذ قال له قبيل قتله : يا ظل الشيطان وأعظم الناس تيهًا وكبرًا تأبى بيعة يزيد وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم صرت مؤذنًا لابن كنانز عبد بني نصر - يقصد عمر بن أبي الصلت ؟ ^(٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٧٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ والطبري ج ٥ ص ١٨١ في غير رواية أبي مخنف وابن كثير ج ٩ ص ٤٩ في إحدى روايتيه وفي رواية أبي مخنف ج ٥ ص ١٧٦ وابن كثير ج ٩ ص ٤٩ في الرواية الأخرى أنه لم يرسل مع الأسرى .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٨١ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ ، ويروي صاحب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٩ أنه قال له : يا ظل الشيطان - ألسنت صاحب كل موطن ؟ أنت صاحب الحرة ويوم الزاوية ويوم دير الجماجم .

وأما قصة أذانه لابن كنانز : فهي أن الحجاج لما هزم العراقيين في دير الجماجم فر كثير منهم إلى عمر بن أبي الصلت بالري ، وكان قد تغلب عليها أثناء الفتنة - فأرادوا أن يدبروا مكيده يحطون بها عند الحجاج ويمحون عن أنفسهم عثرة الجماجم فألحوا على عمر بخلع الحجاج وقتيبة بن مسلم وساعدهم في ذلك والده - ولما علم بذلك قتيبة سار إليه فتركه هؤلاء الذين طلبوا منه هذا العمل وخرج عمر وأبوه من الري وتوجها إلى طبرستان ودخل قتيبة الري وكتب إلى الحجاج أن ابن أبي الصلت قد ذهب إلى طبرستان : فكتب الحجاج إلى الإصبهني يطلب منه إن يرسلها له على قيد الحياة إن تمكن من ذلك فإن لم يتمكن بعث برؤوسها بعد قتلها . فصنع الإصبهني طعمًا فقتل عمر وبعث أباه على قيد الحياة وقيل قتلها وبعث برؤوسها - الطبري ج ٥ ص ١٨٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٢ .

وعبد الله بن عامر ، وقد قال للحجاج : لا رأت عيناك الجنة إن أفلت ابن المهلب بما صنع : فقال له الحجاج : وما صنع فقال :

لأنه كاس في إطلاق أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضرا
وقى بقومك ورّد الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا
فأطرق الحجاج مليا ووقرت تلك الكلمة في نفسه ، ولكنه قال له ما أنت
وذاك ؟؟ ^(١) .

وكان ذلك من الأسباب التي دعت الحجاج إلى عزل آل المهلب وحبسهم فيما
بعد .

وفيروز حصين ويروى أن الحجاج قال لحاجبه : إذا دعوتك بسيدهم فأتني
بفيروز حصين : ثم قال لحاجبه : جئني بسيدهم فأتاه بفيروز فقال له الحجاج أبا
عثمان فوالله ما لحك من لحومهم ولا دمك من دمائهم . قال فتنة عمت الناس فكنا
فيها ^(٢) قال اكتب لي أموالك قال ثم ماذا ؟؟ قال اكتبها أولاً قال : وأنا آمن على
دمي ؟ قال اكتبها ثم انظر . قال اكتب يا فلان ألف ألفي ألف وذكر ما لا كثيرا
فقال الحجاج له فأين هذه الأموال ؟ فقال عندي . قال فأدها قال وأنا آمن على
دمي ؟ قال والله لتؤدينها ثم لأقتلك قال فيروز والله لا تجمع بين مالي ودمي ثم
أمر به فنحي ^(٣) .

ثم أتى به فقال له أنت الجاعل على رأس الحجاج مائة ألف درهم قال قد فعلت
فقال الحجاج لأمهّدتك ثم لأحملنك ^(٤) وأمر به فعذب فكان مما عذب به أن كان يشد
عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يمر على جسده حتى يخرق ثم ينضح عليه الخل

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ ، ٩٠ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨١ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٨١ وابن الأثير ج ٤ ص ٨٩ .

(٤) المبرد ص ٦٥٥ والمعارف ص ١٤٧ وكان سبب ذلك أن الحجاج لما واقف ابن الأشعث برستقباد أمر مناديه

والملاح ، ولما أحس فيروز بالموت قال للموكل بعذابه : إن الناس لا يشكون أني قد قتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدي إليكم أبدا فأظهروني للناس ليعلموا أني حي فيؤدوا المال .

فأعلم الحجاج بما قاله فأمر بإخراجه إلى باب المدينة فصاح في الناس : من عرفني فقد عرفني ومن أنكرني فأنا فيروز حصين : إن لي عند أقوام مالا فن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل فلا يؤذين أحد منه درهما ، ليبلغ الشاهد الغائب ، فأمر الحجاج بقتله فقتل (١) .

وأعشى همدان وهو الذي كان من جيش ابن الأشعث بمثابة الداعية ، والعامل على رفع الروح المعنوية فيه فقد سار أمام الجيش ينشد أشعارا ملهبة للحماس كلها تقدير لحركة ابن الأشعث ودم للحجاج وعبد الملك (٢) فقال له الحجاج أأست القائل لابن الأشعث :

أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا
نبئت أن بني يــــو سف خر من زلـقي فتبـسا

ثم قال : كلا يبا عدو الله ، عبد الرحمن هو الذي خر من دلو فتب وخار فانكب ، ورفع الحجاج بها صوته واهتز منكباه وتغير لونه (٣) قال له الأعشى : أيها الأمير أنا القائل :

= أن ينادي فيقول من أتاني برأس فيروز فله عشرة آلاف ففصل فيروز من الصف وقال : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين وقد عرفتم مالي ووفائي من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف - المبرد ص ٦٥٥ .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٠ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٠ ويذكر المبرد ص ٦٥٥ أنه لم يشد في القصب الفارسي إلا بعد أن أحل الناس من أمواله وودائعهم .

(٢) راجع الطبري ج ٥ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٨ والأغاني ج ٥ ص ١٤٥ .

(٣) ابن شاعر ج ٥ ص ١٥٥ والأغاني ج ٥ ص ١٥١ .

أبى الله إلا أن يتم نـوره
ويظهر أهل الحق في كل موطن
وينزل ذلاً بالعراق وأهله
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة
إلى أن يقول :

فقتلهم قتلى ضلال وفتنة
وما زاحف الحجاج إلا رأيت
وإلى أن يقول :

ليهنأ أمير المؤمنين ظهوره
نزوا يشتكون البغي من أمرائهم
وجدنا بني مروان خير أئمة
وخير قریش في قریش أرومة
ثم يعود إلى ذكر أهل العراق .

كذاك يضل الله من كان قلبه
وقد تركوا الأهلين والمال خلفهم
يناديهم مستعبرات إليهم
أنكثا وعصيائنا وغدرًا وذلة

ثم يذكر شؤم ابن الأشعث وشؤم جده من قبل فيقول :

لقد شأم المصريين فرخ محمد
كما شأم الله النجير^(١) وأهله

ويطفيء نار الفاسقين فتخمدا
ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
كما تقضوا العهد الوثيق المؤكدا
إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وجيشهم أمسى ذليلاً مطردا
معانأ وملقى للفتوح معودا

على أمة كانوا بغاة وحُـدا
وكانوا هم أبغى البغاة وأعدا
وأفضل هذا الناس حلماً وسؤدا
وأكرمهم إلا النبي محمداً

مريضاً ومن والى النفاق وألحدا
وبيضاً عليهن الجلابيب خردا
ويذرين دمعا في الخدود وإثمدا
أهان الإله من أهان وأبعدا

بحق وما لاق من الطير أسعدا
بجدٍ له قد كان أشقى وأنجدا

(١) النجير : حصن باليمن قرب حضرموت منيع لجأ إليه أهل الردة مع الأشعث بن قيس - ياقوت معجم البلدان ج ٨ ص ٢٦٨ وشؤم الأشعث عليهم أنه غدر بقومه وسلم الحصن ومن فيه واستثنى أفراداً وقب نسي =

ولما فرغ من إنشاده قال بعض الحاضرين قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله فقال الحجاج أتظنون أنه أراد المدح لا والله ولكن قال هذا تأسفاً لغلبتكم إياهم وأراد أن يحصن أصحابه . ثم قال . أتظن يا عدو الله أنك تخدعني بهذا الشعر (١) ؟؟ ليس عن هذا سألتك أنشدنا قولك بين الأشج وبين قيس باذخ : فأنشده . فلما قال بخ بخ لوالده وللمولود . قال الحجاج : والله لا تبخبخ بعدها لأحد أبداً وأمر بضرب عنقه (٢) .

وكما أن الحجاج قتل هذه الرؤوس فقد عفا عن الذين أمن شرهم وغائلتهم والذين صدقوه القول فقد عفا عن الشعبي - فقيه أهل العراق - وكان من الخارجين مع ابن الأشعث .

وقلنا إن الحجاج بعد انتهاء دير الجماجم أمر مناديه أن يقول : من لحق بقتيبة ابن مسلم بالري فهو آمن ، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري فذكره الحجاج يوماً وسأل عنه فعلم بلحقه بالري فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه فأرسل إليه فلما قدم على الحجاج لقيه يزيد بن أبي مسلم - حاجب الحجاج - وكان صديقاً للشعبي - فقال الشعبي : أشر علي . فقال يزيد : لهفي يا شعبي على العلم الذي بين دفتيك وليس هذا بيوم شفاعة بُؤ للأمير بالشرك والنفاق (٣) واعتذر ما استطعت (٤) .

= نفسه فوكل الأمر فيه إلى الخليفة فحقن دمه .

(١) الطبري ج٥ من ص ١٧٨ ، ١٧٩ وابن الأثير ج٤ ص ٩٠ ، ٩١ والعيني ج١١ ص ٣٢٩ وابن شاکر ج٥ ص ١٥٧ - ١٥٩ والأعاني ج٥ ص ١٥١ ، ١٥٢ ابن الأثير ج٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٠ وابن الأثير ج٤ ص ٩١ .

ويروى أن الحجاج قال له ألت القائل : وإذا سألت المجد أين محله : فالمجد بين محمد وسعيد : بين الأشج وبين قيس باذخ : بخ بخ لوالده وللمولود ابن شاکر ج٥ ص ١٥٩ والمسنودي ج٢ ص ١٠٨ والأعاني ج٥ ص ١٥٢ .

(٣) المسنودي ج٢ ص ١٠٣ والإمامة والسياسة ج٢ ص ٣٨ .

(٤) المسنودي ج٢ ص ١٠٣ والإمامة والسياسة ج٢ ص ٣٨ والطبري ج٥ ص ١٧٧ وابن الأثير ج٤ ص ٩٢ وابن كثير ج٩ ص ٤٩ وابن خلدون ج٣ ص ٥١ .

ونترك الشعبي يتحدث عن تلك المقابلة قال : وأشار علي بمثل ذلك نصحائي وإخواني فلما دخلت على الحجاج رأيت غير ما ذكروا لي . فسلمت عليه بالإمرة وقلت أيها الأمير قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً قد والله تمردنا عليك وحرصنا وجهدنا فاكنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا : فقال الحجاج : والله لأنت أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، وقد أمنت ^(١) .

ياشعبي : كيف وجدت الناس بعدنا : قال : أصلح الله الأمير قد اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الحجاب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً . قال الحجاج عندئذ : انصرف يا شعبي . فانصرفت ^(٢) .

فترى أن الشعبي يصف الحجاج بأنه ليس ذلك الوحش القاسي الذي صوره الناس له قبل دخوله ، وعفا عنه لصدقه .

ولم يقتصر العفو على الشعبي لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم فيروى أنه أقي بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما إن لي عندك يداً ، قال : ما هي قال : ذكر ابن الأشعث يوماً أملك بسوء فنهيته فقال الحجاج ومن يعلم ذلك ؟ قال : هذا الأسير الآخر فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج : لم لم تفعل كما فعل ؟ قال : ينفعني الصدق عندك ؟ قال : نعم ، قال : منعني البغض لك ولقومك . فقال الحجاج : خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه ^(٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٧٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٢ وابن شاکر ج ٥ ص ١٢٠ وابن كثير ج ٩ ص ٤٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٥١ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٧٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٢ والمسعودي ج ٢ ص ١٠٣ وابن كثير ج ٩ ص ٤٩ ، ٥٠ وعيون الأخبار ج ١ ص ١٠٤ والإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٩٢ وابن عساكر ج ٤ ص ٦٢ وعيون الأخبار ج ١ ص ٩٨ .

مقتل سعيد بن جبير :

ومن ذيول ثورة ابن الأشعث قتل سعيد بن جبير في شعبان من سنة أربع وتسعين (١) .

وقد أثار قتله ثائرة الناس واستفزعوا قتله وعدّوه من المساويء التي لا تغتفر للحجاج وما زال هذا اعتقاد العالم الإسلامي إلى اليوم ، وأطنب المؤرخون في ذكر قتله ووضعوا حول قتله قصصًا كثيرًا (٢) .

فمن هو سعيد بن جبير ؟؟؟

هو أبو عبد الله وقيل أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء المكي الكوفي . كان من أكابر أصحاب ابن عباس ومن أئمة العلماء في التفسير والفقه وأنواع العلوم في الطبقة الثانية من التابعين ، ويروى أنه كان يقرأ القرآن في الصلاة ما بين المغرب والعشاء بل ربما قرأ القرآن كله في ركعة واحدة وأنه مات وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه (٣) .

كان في مكة وقت أن قدمها الحجاج وبعد قتله لابن الزبير أخذ منه البيعة لعبد الملك بن مروان ثم لما قدم الحجاج العراق أخذ منه البيعة ثانية وولاه إمارة الصلاة ثم ولاه القضاء ولكن أهل الكوفة ضجوا وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضى

(١) الطبري ج٥ ص ٢٦٠ والعيني ج١١ ص ٣٣٥ وابن شاکر ج٥ ص ٢٤٧ وابن كثير ج٩ ص ٩٦ وأبو الفدا ج١ ص ١٩٨ والمسعودي ج٢ ص ١١١ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٠ .

وتروي بعض المصادر أن قتله كان في شعبان من سنة خمس وتسعين - العيون والحداث ج٣ ص ١٣ ودول الإسلام للذهبي ج١ ص ٤٧ .

(٢) منها أن الحجاج حينما قتله اختلط عقله - ابن كثير ج٩ ص ٩٧ والطبري ج٥ ص ٢٦٢ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٠ وابن شاکر ج٥ ص ٢٥٣ .

وأن الحجاج رآه بعض الناس في المنام بعد موته فقال قتلتني الله بكل قتيل قتلة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة - الذهبي ج٤ ص ٨٤٧ وابن خلکان ج١ ص ٢٥٨ .

(٣) ابن كثير ج٩ ص ٩٦ وابن شاکر ج٥ ص ٢٤٧ وابن خلکان ج١ ص ٢٥٨ .

الحجاج أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمره أن لا يبرم أمراً إلا برأي سعيد بن جبير ثم أعطاه مائة ألف درهم فرقها في ذوي الحاجات ، وجعله في سبيله - وكلهم من رؤوس العرب .

وما زال الحجاج يعرف لسعيد فضله ومكانته العلمية على الرغم أنه من الموالي . ولما خرج ابن الأشعث بالحملة الموجهة إلى زنبيل ملك الترك جعله الحجاج على نفقات الجند (١) .

فلما خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج كان سعيد من الذين خرجوا معه وخلع طاعة الحجاج (٢) وفي إحدى المواقع أسر سعيد بن جبير فلما أتى به للحجاج قال له الحجاج : ويحك يا سعيد أما تستحي مني ألا استحييت من المراقب لي ولك والحافظ علي وعليك ؟ فقال سعيد أصلح الله الأمير وأمتع به هي بليّة وقعت وعذاب نزل والقول كما قال الأمير وكما نسبه إليه وأضافه إليه إلا أنني أتيت رجلاً قد أزهى وطنى ولبسته الفتنة وركب الشيطان كتفيه فإن تعاقب فبذنب وإن تعف فسجية منك . فقال له الحجاج فإننا قد عفونا عنك وسردك إليه مرة أخرى ثم كتب كتاباً وأرسل به سعيداً فلما كان سعيد بالطريق حرق الكتاب وقدم على عبد الرحمن فأخبره الخبر (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٠ وابن كثير ج ٩ ص ٩٨ والعيني ج ١١ ص ٣٣٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ . ويروي صاحب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٠ ، ٣٢ أن الحجاج أرسله لابن الأشعث بكتاب ردّاً على خطاب من ابن الأشعث إلى الحجاج يوبخه ويبين له مساوئه - راجع الكتاب في الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٢ - فلما وصل سعيد لابن الأشعث جزع وخاف منه لأنه فقيه أهل العراق فلم يظهر سعيداً للناس وأخفى أمر الكتاب وصار يحتلي به ويعمل على أن يخلع سعيد طاعة الحجاج ليقوي عضده ، وكان سعيد لا يرى الخروج على الحجاج ولكن ابن الأشعث ألح عليه وذكر له مساوئ نسبها للحجاج حتى دخل معه على كره منه ويروي صاحب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧ أن سعيد أخرج مع ابن الأشعث وهو جد كاره .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٦٠ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

وبقي معه وما زال مع ابن الأشعث حتى حدثت موقعة دير الجماجم وهزم فيها عبد الرحمن وقتل فيها من قتل وهرب من هرب فكان سعيد من الذين أفلتوا وتوجهوا إلى أصبهان فكتب الحجاج إلى عاملها بالقبض عليه فلم يرق ذلك في نظر العامل وأرسل إلى سعيد يعرفه ويطلب منه أن يخرج من البلاد في السر فخرج وسار إلى أذربيجان وطال عليه القيام بها فاغتم فخرج إلى مكة مستخفياً وأقام بها .

فلما ولي خالد القسري مكة ^(١) أشار بعض الناس على سعيد بالهرب فقال : قد استحييت ولا مفر من قدر الله : وكان قد ولي المدينة عثمان بن حيان المري - بدل عمر بن عبد العزيز - فصار يرسل أهل العراق إلى الحجاج ، وسار على هذه الطريقة خالد القسري ^(٢) فأرسل عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وعمرو بن دينار وطلق ابن حبيب ومجاهد فعفا الحجاج عن عطاء وعمرو لأنها مكيان ومسات طلق في الطريق وحبس مجاهد حتى مات الحجاج ^(٣) .

وأما سعيد فقتل كما سيأتي ويروى أن الحجاج كتب إلى الوليد يخبره أن أهل العراق أهل الشقاق والنفاق قد لجؤوا إلى مكة فكتب الوليد إلى خالد القسري بالقبض عليهم وإرسالهم إلى الحجاج فقبض عليهم وأرسلهم إلى الحجاج ^(٤) كما يروى أن خالدًا هدد من وجد سعيد في داره بهدمها وهدم دار من جاوره وضرب لذلك أجلاً مدته ثلاثة أيام ^(٥) .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان الحجاج جادًا في طلب سعيد بن جبير

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ والعيني ج ١١ ص ٢٣٤ وابن خلكان ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) العيني ج ١١ ص ٢٣٤ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ في إحدى روايتيهما .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٦١ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ والعيني ج ١١ ص ٢٣٤ .

(٤) العيني ج ١١ ص ٢٣٤ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ في روايتيهما الأخرى والطبري ج ٥ ص ٢٦١ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ والأتابكي ج ١ ص ٢٢٨ .

(٥) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤١ وراجع ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٩ .

قاصداً قتله لخروجه مع ابن الأشعث أم أن ظروف الحوادث قد جاءت به وتطور الحديث بينهما إلى ما استلزم من الحجاج أن يقتله ؟؟؟ وفي رأينا أن الحجاج لم يجد في طلب ابن جبير للأسباب الآتية .

أولاً : أن الثورة انتهت في سنة ثلاث وثمانين للهجرة والقبض عليه كان في سنة أربع وتسعين وفي هذه المدة كان سعيد يختلف إلى مكة في العام مرتين للاعتار مرة وللحج مرة أخرى ، وإلى الكوفة للتحديث فيها ^(١) فلو كان الحجاج يريد قتله لكان من السهل عليه ذلك .

ثانياً : أن الحجاج لما وصل إليه سعيد قال : لعن الله ابن النصرانية - يعني خالد القسري - أما كنت أعرف مكانه ؟! بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة ^(٢) .

ثالثاً : ما سبق لنا من أن الحجاج كتب إلى عبد الملك من أن سعيد أنكر الخروج .

رابعاً : أما قصة أن الحجاج كتب إلى الوليد : أن أهل العراق قد لجؤوا إلى مكة ويطلب إرسالهم فإنها لا تستلزم أن يكون ابن جبير هو المطلوب بالذات ولا تعدو أن تكون مقابلة بالمثل فإن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يشكو إليه ظلم الحجاج وعسفه وطغيانه فأراد الحجاج أن يقابل ذلك بالمثل ويبرهن للوليد أن سياسة عمر بن عبد العزيز سياسة فاشلة وأن هذه السياسة اللينة سببت الهجرة من العراق هرباً من الانخراط في سلك الجيوش الفاتحة ^(٣) .

ولما أرسل سعيد بن جبير إلى الحجاج تألم من ذلك ثم قال له : ياسعيد ألم أقدم

(١) ابن كثير جـ ٩ ص ٩٨ .

(٢) الطبري جـ ٥ ص ٢٦٢ وابن الأثير جـ ٤ ص ١٣٠ وابن كثير جـ ٩ ص ٩٧ والعيني جـ ١١ ص ٣٣٥ والعيون والحقائق جـ ٣ ص ١٣ .

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٢٩ والطبري جـ ٥ ص ٢٥٦ وابن كثير جـ ٩ ص ٨٨ .

مكة فأخذت منك البيعة ؟ قال بلى . قال : أما قدمت الكوفة فأخذت منك البيعة ووليتك إمامة الصلاة ؟ قال بلى .

ألم أولك القضاء فضج الناس وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك ؟ قال بلى .

أما جعلتك من ساري وكلهم من رؤوس العرب ؟ قال بلى . أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها ؟ قال بلى ؟ (١) .

وهكذا صار يعاتبه كما يعاتب الرجل ولده كما يقول الذهبي في تاريخه (٢) فقال سعيد إني امرؤ من المسلمين يصيب مرة ويخطيء أخرى ، فطسبت نفس الحجاج واطمأنت ورجا أن يتخلص من أمره (٣) .

ثم عاوده مرة أخرى فقال له : فما الذي أخرجك علي ؟ قال سعيد كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث لأنه عزم علي . فغضب الحجاج وقال هيه رأيت لعزمة عدو الرحمن عليك حقاً ولم تر لله ولا لأمر المؤمنين ولا لي عليك حقاً ؟! (٤) تنكث بيعتين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك (٥) اضربا عنقه فإياه عنى جرير بقوله .

يارب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج (٦)

(١) العيني ج ١ ص ٣٣٤ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٩ وابن خلكان ج ١ ص ٢٥٧ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٦٢ والبرد ص ٢٨٥ والذهبي ج ٤ ص ٨٤٥ وراجع الطبري ج ٥ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٨٤٧ .

(٣) العيني ج ١ ص ٣٣٥ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٥٢ والطبري ج ٥ ص ٢٦٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ وابن كثير ج ٩ ص ٩٧ والعيون والحدائق ج ٣ ص ١٣ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٢٦٢ خلاصة الذهب المسبوك ص ٨ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ٢٦٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ والعيني ج ١ ص ٣٣٥ وابن كثير ج ٩ ص ٩٦ والعيون والحدائق ج ٣ ص ١٣ .

(٦) الطبري ج ٥ ص ٢٦٢ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٥٣ .

وتروي روايات كثيرة في كيفية قتله . فمن ذلك أنه قال له ياسعيد اختر أي قتلة . قال القصاص أمامك فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة . قال فتريد أن أعفو عنك ، قال : إن كان العفو من الله فنعم أما أنت فلا براءة لك ولا عذر ، قال : اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج سعيد من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فقال : ردوه وسأله عن سبب ضحكك ، فقال : عجبت من جرأتك وحلم الله عليك ^(١) فقال الحجاج إنما أقتل من شق عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها اضربوا عنقه ، فقال سعيد حتى أصلي ركعتين فاستقبل القبلة وهو يقول (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين) فقال الحجاج اصرفوه إلى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغياً بينهم فإنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة فقال سعيد (فأينما تولوا فثم وجه الله) المكافئ بالسرائر فقال الحجاج : لم نوكل بالسرائر وإنما وكلنا بالظواهر فدعا سعيد الله بأن يجعله آخر قتيل يقتله الحجاج ^(٢) .

وإلى جانب هاتين الروایتين توجد روايات أخرى كثيرة تنزل إلى مرتبة الخرافة ^(٣) .

= ويروى أنه ناظره وسأله عن أشياء كثيرة تتعلق بالرسول والخلفاء الأربعة وعبد الملك بن مروان وعن سبب عدم ضحكك كما أن الحجاج دعا بالنأي والعود ونفخ في النأي فبكى سعيد فسأله الحجاج عن سبب بكائه وجمع الحجاج الذهب والفضة والحرير ووضعها أمام سعيد وسأله عنها إلى غير ذلك مما ضربنا صفحاً عن ذكره لاعتقادنا عدم صحته - راجع الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ وابن شاکر ج ٥ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ وابن خلکان ج ١ ص ٢٥٧ .

(١) ابن شاکر ج ٥ ص ٢٥٠ وابن خلکان ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٣ وراجع ابن سعد الطبقات ج ٦ ص ١٨٤ والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٩ وابن خلکان ج ١ ص ٢٥٧ ويروي ابن كثير ج ٩ ص ٩٨ أن صرفه عن القبلة كان حديثاً دار حول قتله لا حول صلاته .

(٣) راجع ابن عساکر ج ٤ ص ٧٩ وابن كثير في رواية أخرى له ج ٩ ص ٩٧ وخلاصة الذهب المسبوك ص ٨ .

وفي رأينا أن الرواية الأولى هي الصحيحة إذ إنها تتفق مع منطق الحوادث فضلاً عن إجماع جبهة المؤرخين عليها .

على أن ابن كثير^(١) لما رأى كثرة الروايات وما قيل حول مقتله قال : ورويت آثار غريبة حول مقتله أكثرها لا يصح .

من ذلك يتبين لنا أن الحجاج لم يتجن على سعيد بن جبير ولم يقتله إلا عندما اشتط سعيد وقال إنه كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث ، فكأنه أحق بالخلافة من عبد الملك بن مروان القرشي^(٢) وذلك أمر لا يرضاه الحجاج ولا يقره ورأى الحجاج أنه قد نكث بيعتين .

ويتبين لنا أن الحجاج كان لا يريد أن يقتله من لعنه لخالد ولسكوته عليه تلك المدة الطويلة ومن كتابه إلى عبد الملك بن مروان عقب موقعة دير الجماجم بأن سعيداً أنكر الخروج .

نهاية ابن الأشعث :

ذكرنا الحوادث التي أعقبت ذهاب ابن الأشعث إلى زنبيل بطائفة من أصحابه ورأينا الحجاج في العراق يقتل بعض الخارجين ويعفو عن البعض الآخر ويؤنا رأينا بإسهاب في موقفه ثم تكلمنا عن سعيد بن جبير وأن قتله لم يكن إلا في أواخر حياة الحجاج .

ولابد لنا من العود لنعرف نهاية « ناصر المؤمنين » كما أسمى نفسه و« القحطاني المنتظر » كما كان يسميه الينيون .

(١) البداية والنهاية ج٩ ص ٩٩ .

(٢) وقد علق ابن كثير ج٩ ص ٥٤ على مبايعة سعيد وأمثاله من الفقهاء لابن الأشعث وهو كندي وخلع عبد الملك وهو من صلبة قریش بقوله : كيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين فيعزلونه وهو من صلبة قریش ويباعون لرجل كندي على بيعته لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟؟ ولهذا كانت زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير .

ذلك الذي أشعل ثورة كادت تؤدي بالدولة الأموية لولا حزم الحجاج وصموده وضعف عبد الرحمن وفراره .

فبعد هزيمته في مسكن اتجه نحو الشرق فأشار عليه علقمة بن عمرو الأودي بعدم الذهاب إلى ملك الترك فإن الحجاج لا بد أن يتتبعهم مرغبا زنبيل تارة ومهددا له أخرى حتى يسلمهم ، ورأى أن يدخل هو ومن معه مدينة فيتحصنون بها ويمتنعون فيها ومن أتاها قاتلوه فإذا ماتوا كانوا كراما .

فأبى ابن الأشعث عليه ذلك وقال له : لو دخلت معي إلى زنبيل لأكرمتك وآسيتك : فأبى ذلك عليه علقمة وفارقه في خمسمائة كانوا معه تعاهدوا على الامتناع على الحجاج وجعلوا عليهم مودودا البصري وأقاموا حتى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخمي - وكان الحجاج قد أرسله في أثر عبد الرحمن كما عرفنا ذلك فيما سبق - فقاتلوه وامتنعوا عليه حتى أمنهم فخرجوا إليه فوفى لهم بالأمان ^(١) .

أما عبد الرحمن فقد سار إلى ملك الترك وطبعي أن الحجاج لم يكن ليتركه فقد كتب الكتب الكثيرة بشأنه إلى زنبيل يطلب منه عبد الرحمن ويحلف له بالله الذي لا إله إلا هو إن لم يرسله ليبعثن إليه مليونا من الرجال المقاتلة وأنه قد أرسل عمارة ابن تميم اللخمي في ثلاثين ألفا من فرسان أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا إمام ضلالة يحبون الحرب للحرب ^(٢) .

وكان بجانب زنبيل في ذلك الوقت رجل من بني تميم هو عبيد بن أبي سبيع وكان زنبيل يحبه ويسمع لمشورته فصار يخوف زنبيل من الحجاج وقال له : أنا آخذ

(١) الطبري ج٥ ص ١٨٨ وابن الأثير ج٤ ص ٩٥ وابن خلدون ج٣ ص ٥٢ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٨ وابن الأثير ج٤ ص ٩٥ والعيني ج١١ ص ٢٤٣ وابن شاعر ج٥ ص ١٦٤ واليعقوبي ج٣ ص ٢٤ .

ويروي صاحب الأخبار الطوال ص ٣٠٩ أن عبد الملك - لا الحجاج - هو الذي كتب إلى ملك الترك يخبره بشقاق عبد الرحمن وخلعه للطاعة ويسأله أن يرده عليه فقال ملك الترك لطراخته (الطراخنة : الأمراء والقواد) إن ابن الأشعث هذا رجل مخالفه للملوك فلا ينبغي أن أؤويه .

لك عهدًا من الحجاج ليكفن الخراج عنك سبع سنين على أن تدفع له عبد الرحمن ^(١) فقال له زنبيل إن فعلت ذلك فإن لك عندي ما سألت .

فكتب عبيد إلى الحجاج أن زنبيل لا يعصيه أبدًا وإنه لن يدع زنبيل حتى يبعث إليه بابل الأشعث وخرج ابن أبي سبيع إلى عمارة مخفياً حتى لا يسمع بخروجه ابن الأشعث فيوجس خيفة فيهرب وتفاوض معه في شأن ابن الأشعث وأسفرت المفاوضة عن جعل يأخذه ابن أبي سبيع لنفسه قدره مليوناً من الدراهم والكف عن زنبيل ^(٢) .

وكتب عمارة بذلك إلى الحجاج فرد الحجاج قائلاً : أعط عبيدًا وزنبيل ما سألاك : فاشترط زنبيل أن لا تغزى بلاده لمدة عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين ^(٣) تسعمائة ألف درهم في كل عام ^(٤) .

فأحضره زنبيل ومعه ثلاثين من أهل بيته ^(٥) وقد أعد لهم الجوامع والقيود فوضع في عنق عبد الرحمن جامعة وفي عنق القاسم بن الأشعث جامعة وقيد الباقي .

وقال لأصحاب ابن الأشعث تفرقوا حيث شئتم ، وأرسل ابن الأشعث ومن معه إلى عمارة . ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقى نفسه من فوق قصر بالرخج فأت ^(٦)

(١) الطبري ج ٥ ص ١٨٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٥٢ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦٤ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٩ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٨٩ والعيني ج ١١ ص ٣٤٤ ويروي البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٠٧ أن المدة تسع سنين أو سبع سنين .

(٤) الطبري ج ٥ ص ١٨٩ والبلاذري فتوح البلدان ص ٤٠٧ .

(٥) الطبري ج ٥ ص ١٨٩ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦٤ والعيني ج ١١ ص ٣٤٤ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٥ وقيل إنهم كانوا ثمانية عشر . الطبري في رواية أخرى ص ١٨٩ وقيل إنهم كانوا أربعين أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) الطبري ج ٥ ص ١٨٩ والعيني ج ١١ ص ٣٤٤ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦٤ وراجع ابن الأثير ج ٤ ص ٩٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٥٢ .

قائلاً : لا أترك الحجاج يلعب بي لعب الهرة بالفأر^(١) فاحتزت رأسه وأتي بها إلى عمارة مع الأسرى الذين ضرب أعناقهم وأرسل برؤوسهم إلى الحجاج وهكذا أرسل رأس ابن الأشعث إلى عبد الملك وقد أرسلها عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بمصر .
وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

هيهات موضع جثة من رأسها رأس بمصر وجثة بالرخج

وكان موت ابن الأشعث على الراجح في سنة خمس وثمانين من الهجرة^(٢) .

وبمقتل ابن الأشعث رأس الثورة هدأ خاطر رجل العراق الحديدي الإرادة الذي كان لا يمل فإنه لم يكد يستريح من الخوارج وحروبهم المستمرة حتى قامت ثورة ابن الأشعث التي هزت الخليفة عبد الملك ، فقد خرج فيها أهل العراق كما رأينا مجتمعين رأيهم على خلع الخليفة وحاربوا عامله الحجاج مدة ثلاث سنين تقريباً تعرض فيها للخلع مرة وللهلاك مرات .

وبعد أن قضى عليها عمل كما يعمل كل قائد محنك على الترويح عن نفوس الناس بالتوسعة في النفقة عليهم بعد أن أحرزوا النصر في ميادين القتال حتى يشعر الناس ببرد الراحة والاطمئنان ، فسعى به بعض الناس عند الخليفة بأنه يبذر في الأموال فكتب إليه الخليفة يلومه على ذلك ويقول : أما بعد فقد بلغني أنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في جمعة وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر فعليك بتقوى الله في الأمر كله .

(١) البدء والتاريخ ج٦ ص ٣٥ وقيل إنه كان مريضاً ومات فاحتز زنبيل رأسه وأرسل بها إلى عمارة . المصادر السابقة . ولكن الذهبي يقول إن أبا مخنف كذاب في أنه سمع من مليكة بنت يزيد أنه مات في حجرها ج٤ ص ٦٣٤ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٩ ، ١٩٠ وابن الأثير ج٤ ص ٩٥ وابن شاکر ج٥ ص ١٦٤ والذهبي ج٤ ص ٦٣٤ وابن خلدون ج٣ ص ٥٢ ويروى أن موته كان في سنة أربع وثمانين - التنبيه والإشراف ص ٢٧٣ والأتابكي ج١ ص ٢١٨ والطبري في رواية له ضعيفة ج٥ ص ١٩١ وابن خلدون في رواية أخرى له ج٣ ص ٥٢ ويروي يعقوبي ج٣ ص ٢٤ أن موته كان في سنة ثلاث وثمانين .

وَوَفَّرَ خَرَاَجَ الْمُسْلِمِينَ وَفِيئَهُمْ
وَكُنْ لَهُمْ حَصْنًا يَحِيرُ وَيُنْعِ
فَرَدَ عَلَيْهِ الْحِجَا جَ قَائِلًا :

لَعَمْرِي لَقَدْ جَاءَ الرَّسُولُ بِكِتَابِكُمْ
كِتَابٌ أَتَانِي فِيهِ لَيْنٌ وَغَلْظَةٌ
وَكَانَتْ أُمُورٌ تَعْتَرِينِي كَثِيرَةٌ
إِذَا كُنْتُ سَوْطًا مِنْ عَذَابٍ عَلَيْهِمْ
وَكَانَتْ بِلَادٌ جِئْتُهَا حِينَ جِئْتُهَا
فَقَاسَيْتُ مِنْهَا مَا عَلِمْتُ وَلَمْ أَزَلْ
وَكَمْ أَرْجَفُوا مِنْ رَجْفَةٍ قَدْ سَمِعْتُهَا
وَكَانَتْ إِذَا هُمَا بِإِحْدَى هَنَاتِهِمْ
فَلَوْ لَمْ يَزِدْ عَنِي صُنَادِيدُ مِنْهُمْ

قِرَاطِيسٌ تَمْلَى ثُمَّ تَطْوِي فَتَطْبَعُ
وَذَكَرْتُ وَالذِّكْرَى لَذِي اللَّبِّ تَنْفَعُ
فَأَرْضُخْ أَوْ أَعْتَلْ حِينَئِذَا فَاْمْنَعُ
وَلَمْ يَكْ عِنْدِي بِالْمَنْفَاعِ مَطْمَعُ
بِهَا كُلُّ نِيرَانٍ الْعَدَاوَةِ تَلْمَعُ
أَصَارِعُ حَتَّى كَدْتُ بِالْمَوْتِ أَصْرِعُ
وَلَوْ كَانَ غَيْرِي طَارِمًا يَرُوعُ
حَسَرْتُ لَهُمْ رَأْسِي وَلَا أَتَقَنَّعُ
تَقْسِمُ أَعْضَائِي ذُّئَابًا وَأُضْبِعُ

فَلَمْ يَسْعَ الْخَلِيفَةُ إِزَاءَ هَذَا الرَّدِّ الْمَقْنَعِ إِلَّا أَنْ يَسْلِمَ بِصَحَّةِ نَظَرِيَّتِهِ وَيَقُولَ لَهُ أَعْمَلُ
بِرَأْيِكَ (١) .

وَفَادَةُ الْحِجَا جَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ :

وَوَفَدَ الْحِجَا جَ بَعْدَ نِهَآيَةِ هَذِهِ الْحُرُوبِ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِدَمَشَقٍ وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَفَادَةُ
طَبِيعِيَّةً بَعْدَ هَذِهِ الْحَرْبِ الطَّوِيلَةِ وَلِيَجِدَّ دَوْلَاهُ وَإِخْلَاصَهُ لِإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَسْتَمِرَّ
الثَّقَةُ بَيْنَهُمَا مُتَبَادِلَةً .

وَقَدْ اصْطَحَبَ الْحِجَا جَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الْوَفَادَةِ أَشْرَافَ الْمَصْرِيِّينَ فَكَانَتْ مَظَاهِرَةً
قَصْدَ بِهَا الْحِجَا جَ إِصَابَةِ هَدَفَيْنِ : أَمَّا الْأَوَّلُ : أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَ عِظَمَاءَ الْعِرَاقِ - وَمِنْهُمْ مَنْ
سَاهَمَ فِي ثَوْرَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ - عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَقْدَمُونَ لَهُ الطَّاعَةَ وَيَجِدُّونَ لَهُ
الْبَيْعَةَ .

(١) ابْنُ عَسَاكِرٍ ج ٢ ص ٦٦ وَابْنُ كَثِيرٍ ج ٩ ص ١٢٦ ، ١٢٧ وَابْنُ الْبَلَاذَرِيِّ - أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ ج ١١ ص ٢١٧ ،

وأما الثاني : فهو أن الحجاج أراد أن يظهر أمام أمير المؤمنين بمظهر الرجل الذي يملك ناصية الحالة في العراق على رضى من أهله (١) .

وقد كان له ما أراد إذ إن زياد بن عمرو العتكي كان من خطباء الوفد فقام في حضرة الخليفة وقال يا أمير المؤمنين : إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم (٢) .

ويروى أن الحجاج قدم العراق وليس على قلبه أثقل من زياد بن عمرو العتكي فلما قال هذه المقالة لم يكن على قلبه أخف منه .

وقد تبسط الخليفة مع وفد العراق فجعل يسألهم عن حال البصرة والكوفة فقال محمد بن عمير إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وسفلت عن الشام ووبائها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها .

وقال خالد بن صفوان الأهتمي : نحن أوسع منهم برية وأسرع منهم في السرية وأكثر منهم قنڈًا وعاجًا وساجًا ، ماؤنا صفو وخيرنا عفو لا يخرج من عندنا إلا سائق وقائد وناقص .

وقد أدلى الحجاج برأيه في هذا الموضوع فقال : أصلح الله أمير المؤمنين . إني بالبلدين خبير وقد وطئتهما جميعًا فقال له : قل فأنت عندنا مصدق : قال : أما البصرة فمعجوز شمطاء زفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة .

فقال عبد الملك فضلت الكوفة على البصرة (٣) .

(١) راجع الأغاني ج١٦ ص ١٥٦ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ٦٦ والبلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٠٠ والأبشهي ج١ ص ٢٣١ وابن عبد ربه ج١ ص ١٧٠ .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٦ والهمداني البلدان ص ١١٣ - ١١٤ .

ثورة ابن الأشعث والموالي :

أجمعت المصادر على اشتراك الموالى في ثورة ابن الأشعث وأنهم حاربوا في صفوفه بأعدادهم الكثيرة حتى لقد قيل إنه في دير الجماجم كان عددهم نحو المائة ألف^(١) ؛ ولم يختلف المؤرخون إلا في تحديد النصيب الذي ساهم به الموالى في هذه الثورة ؛ فذهب المؤرخون المسلمون إلى القول بأنهم ناصروا ابن الأشعث - أي أنهم لم يكونوا من العوامل التي بعثت الثورة - بينما نرى أن فون كريم^(٢) وثان فلوطن^(٣) قد ربطا الثورة بمحاولات الموالى الخروج على الحجاج الذي فرض عليهم من الالتزامات المالية والقيود الاجتماعية ما جعلهم أحط من العرب وكأنهم لم يعتنقوا الإسلام من ناحية أخرى .

وقد تصدى فلهوزن^(٤) للرد على فون كريم حيث قال : حقيقة كانت لهم مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام ؛ ولكنهم كانوا في الدرجة الثانية فقط فالحركة لم ترتفع منهم بل من الجيش العراقي في سجستان الذي ضم إليه الجيوش الأخرى من الأقاليم الأخرى .

وخلاصة القول . إن من الثابت تاريخياً أن الموالى اشتركوا في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية وفي رأينا أن الموالى - بالظروف التي أحاطت بهم - كان يتحتم عليهم أن يشتركوا - لا في ثورة ابن الأشعث فقط - بل في كل ثورة يمكن أن تقوم ضد الحكومة المركزية . ذلك أن منطقهم ومنطق الحوادث التي أحاطت بهم كان يحكم عليهم أن يسلكوا هذا السبيل .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ٨١ والعيني ج ١١ ص ٣٢٢ وابن شاکر ج ٥ ص ١٢٧ وابن كثير ج ٩ ص ٤١ .

(٢) تاريخ الثقافة ص ٢٤ وحضارة الشرق ج ١ ص ١٧٢ (عن فلهوزن) .

(٣) السيادة العربية ص ٤١ ، ٤٢ .

(٤) الدولة العربية وسقوطها ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

كان المولى قبل الدولة الأموية يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم ويتعصب كل منهم للقبيلة التي ينتمي إليها ^(١) .

وكانت القبيلة تعد المولى واحداً من أفرادها لقوله عليه الصلاة والسلام (مولى القوم منهم) ^(٢) .

وكان الخلفاء والأمراء يثقون بهم ثقة كبيرة فيعهدون إليهم بأمورهم وشؤونهم ؛ وكانوا يتولون كثيراً من مناصب الدولة ^(٣) .

فلما جاءت الدولة الأموية وشغلت بالفتن الداخلية قلت الفتوحات الخارجية وقلت معها الغنائم فاتجه المسلمون العرب إلى تملك الأرض بطريق الشراء أو الهبة وبذلك أصبحت هذه الأرض عشرية لا خراجية - والزكاة أقل من الخراج .
يضاف إلى ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد الأصليين في الإسلام بسبب زيادة الخراج أو الشدة في جبايته وما تلا ذلك من أن أرضهم أصبحت في نظرهم عشرية لا خراجية .

ويبدو لنا أن الجباة ساروا في الجباية وقتئذ وفق هذا المنطق فقل إيراد الدولة من هذا المصدر . فضلاً عن ذلك فإن هؤلاء قد ارتفعت عنهم الجزية نتيجة لإسلامهم .

بهذه العوامل الثلاث تأثر بيت المال وقل إيراده قلة واضحة وليت الأمر اقتصر على ذلك بل مما زاد المشكلة تعقداً أن الدولة الإسلامية كانت تواجه من الالتزامات - في قمع الفتن الداخلية وجمع الأنصار وتنظيم الإدارة - ما أرهق ميزانيتها وسار بالحالة كل يوم من سيء إلى أسوأ حتى جاء الحجاج بن يوسف فعالج الأمر بحزمه ، ففرض

(١) فجر الإسلام ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ والتبذل الإسلامي ج٤ ص ٤٩ .

(٢) ابن عبد ربه ج٢ ص ١١١ .

(٣) الأغاني ج١٠ ص ١٦٣ .

الخراج على تلك الأرض التي ملكت بطريق الشراء أو الهبة .

وأعاد نظام الخراج إلى الأرض التي أسلم أصحابها ^(١) وفرض الجزية على المسلمين الجدد ^(٢) وألزمهم بالعودة إلى قراهم ^(٣)

بدا كل ذلك في نظر الموالي عصفاً بحقوقهم فأدى بهم إلى الحفيظة على الدولة الأموية وهو هو بعينه الذي جعلهم يتطلعون إلى نشوب أية ثورة على الحكومة عسى أن يكون في هذه الثورة أو تلك مخرجٌ لهم مما يعانون ، وهذا هو أيضاً ما دفعهم إلى الاشتراك في ثورة ابن الأشعث عسى أن ترجح بهم كفة الثائر فيكون لهم عليه يد .

أما منطق الدولة الأموية عامة ومنطق الحجاج خاصة فيتلخص فيما يلي .

أولاً : اتسعت رقعة الملك الإسلامي فاتسعت بذلك ميزانية المصروفات بينما كان إعفاء الموالي من الجزية والخراج يحد من أبواب الإيراد فواجهت الدولة مشكلة كبرى إزاء هذه الطبقة من الشعب لا يقابلها شيء من الضرائب على هؤلاء وخاصة بعد أن انتقلوا من الأرض التي كانوا يزرعونها ويدفعون عنها الخراج إلى الإقامة في المدن .

ثانياً : بإقامة هؤلاء في المدن لم يكن لهم من مرتزق إلا أن يحاولوا كتابة أنفسهم في ديوان العطاء واضعين أنفسهم تحت إمرة الدولة ؛ ولكن الدولة لم تكن بحاجة إليهم لوفرة ما لديها من أصحاب العطاء من العرب فكأنهم بذلك قد عملوا على إرهاب ميزانية المصروفات في وقت تضاءلت فيه ميزانية الدولة بتركهم الأرض .

ثالثاً : لوحظ تهافت الفرس على الدخول في الإسلام مما شك معه أن تكون هذه الجموع الغفيرة قد أسلمت عن إخلاص للعقيدة الدينية واشتبه في أنهم إنما فعلوا ذلك تخلصاً من الجزية .

(١) فان برشم - الملكية العقارية ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٣٥٩ وابن الأثير ج٤ ص ١٨٢ وابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها ص ١٥٦ .

(٣) راجع ابن عبد ربه ج٢ ص ٧٧ والطبري ج٥ ص ١٨٢ وابن الأثير ج٤ ص ٧٩ والمبرد ص ٢٨٥ .

إزاء هذه العوامل مجتمعة لم يكن بد من أن يلجأ الحجاج إلى محاولة زيادة الإيراد بأن يرجع هؤلاء إلى قراهم حتى لا تزدهم بهم المدن ويختل الأمن لكثرة العاطلين وحتى لا يتأثر ديوان العطاء بما يفرض لأشخاص لا حاجة للجيش بهم .

أما عودتهم إلى قراهم ففيها مصلحة مزدوجة . فيها إيراد للدولة بما يدفع لها من خراج الأرض وفيها منفعة للموالي أنفسهم إذ تعود عليهم الزراعة بالربح الوفير بدلاً من التسكع في المدن .

وفضلاً عن كل ذلك فإن من مصلحة الدولة أن لا تبور الأرض ، إذ الزراعة عصب من أعصاب الحياة فضلاً عن أن أرباحها تسمح لصاحب الأرض بأن يدفع الضرائب في يسر إذا ما أحسن القيام عليها .

وأما لجوء الحجاج إلى فرض الجزية على الموالي فأكبر ظننا أنه جعلها اختباراً لصحة إسلام من أسلم فمن دفع الجزية وبقي على إسلامه كان مسلماً حقاً ومن ارتد كان إسلامه تخلصاً من الجزية .

على أن الوقت لم يتسع للحجاج لإجراء التجربة إلى نهايتها .

وفي تقديرنا أن ثورة ابن الأشعث لو لم تقم وأن الموالي لو لم يشتركوا فيها لكان للحجاج رأي آخر في فرض الجزية على من أسلم .

وأما جعله الخراج على الأرض التي كانت بيد العرب المسلمين أو من أسلم حديثاً فأكبر ظننا أيضاً أن الحجاج نظر إلى أن هذه الأرض فتحت عنوة وقهراً فبعضها جلا عنه أهله حتى خلصت للمسلمين فصارت وفقاً يوضع عليها الخراج ولا يسقط بإسلام أصحابها ، وبعضها الآخر أقام عليها أهلها ونزلوا عنها للمسلمين في شرط الصلح فهذه كذلك يوضع عليها الخراج ولا يسقط بالإسلام ولا يجوز بيعها في كلتا الحالتين (١) .

(١) الماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٤٠ ، ٢٤١ .

ولعل الحجاج قد أخذ في ذلك بنظرية أن السواد وقف على كافة المسلمين وقفه عمر بن الخطاب وأقره في أيدي أربابه بخراج يؤدونه فلا يجوز بيعه ولا يسقط عنه الخراج إذا أسلم أصحابه (١) .

ثورة ابن الأشعث ومسيحيو ، ويهود النجرانية :

كان الحجاج قد اتهم المسيحيين واليهود المقيمين بالنجرانية بمالأة ابن الأشعث ومساعدته فأرجع حالتهم من حيث الجزية إلى ما كانت عليه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وتتلخص قصة هؤلاء في أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد وفد عليه العاقب والسيد - سيدا أهل نجران - وسألاه الصلح عن أهل نجران فصالحهما على ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب .

واشترط شروطاً أخرى منها ألا يأكلون الربا ولا يتعاملوا به (٢) واستمر ذلك مدة حياة الرسول ولما استخلف أبو بكر كتب لهم عهداً مثل عهد الرسول ؛ وفي عهد عمر تقضوا شرط عدم التعامل بالربا وفي الوقت نفسه كثروا فخافهم على الإسلام فأجلاهم عن أرضهم واشترى منهم عقاراتهم وكتب كتاباً إلى أهل الشام والعراق أن يوسعوهم وإذا اعتلوا أرضاً فهي لهم مكان أرضهم بالين فصاروا إلى الكوفة ونزلوا في مكان سمي بالنجرانية ودخل معهم اليهود الذين كانوا يقيمون في نجران في الصلح وكانوا كالأتباع لهم (٣) .

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان شكوا إليه كثرة ما يدفعونه فأنقصهم مائتي حلة .

(١) نفس المصدر ص ١٦٦ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٧٠ ، ٧١ وثن كل حلة أوقية والأوقية وزن أربعين درهماً . نفس المصدر ص ٧٠ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٧٢ ، ٧٣ ويروي أنهم كانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا وتباغضوا فأتوا =

ولكن علي بن أبي طالب أرجعهم إلى عهد عمر ؛ وكان صاحب النجرانية بالكوفة يرسل رسله إلى يهود نجران المقيمين بالشام فيجبون منهم مالا لتسديد المطلوب منهم ومساهمة منهم في الضريبة المفروضة على الجميع .

وقد انتهزوا فرصة قيام معاوية بن أبي سفيان أو يزيد ابنه فشكوا إليه ضعفهم وتفرقهم وأن منهم من مات ومنهم من أسلم وأظهروا له عهد عثمان فرفع عنهم مائتي حلة ؛ وبذلك صاروا يدفعون ألفاً وستائة حلة .

وبقي الحال كذلك إلى ثورة ابن الأشعث فاتهمم الحجاج بمالأة ابن الأشعث ومساعدته فأرجع جزيتهم إلى ما كانت عليه في عهد عثمان بن عفان (ألف وثمانائة حلة) واستمروا يدفعونها إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فشكوا إليه نقصانهم وفناءهم وإلحاح الأعراب بالإغارة عليه وتحميلهم إياهم المؤمن المجحفة بهم وظلم الحجاج لهم فأمر بإحصائهم فوجد أنهم قد صاروا إلى العشر من عدتهم الأولى فقال : إن هذه جزية على الرؤوس وليست على الأرض وجزية الميت والمسلم ساقطة عنهم . فجعل جزيتهم مائتي حلة فقط ^(١) .

حرب الحجاج مع الكرد والديالمة :

كانت ثورة ابن الأشعث تصحبها ثورتان : الأكراد في الشرق والديالمة في الشمال فقد انتهز الأكراد فرصة انشغال الحجاج بقمع ثورة ابن الأشعث وعاثوا في البلاد فساداً فبعث الحجاج إليهم عمرو بن هانيء العبسي في جيش من أهل دمشق فقتل عدداً كبيراً منهم ^(٢) .

ولم تحدد لنا المراجع تاريخ هذه الثورة أكثر من أنها كانت في أيام خروج ابن الأشعث .

= عمر فقالوا أجلنا وكان عمر قد خافهم على الإسلام فأجلاهم فرجعوا عن قولهم وطلبوا البقاء فأبى - نفس المصدر ص ٧٣ .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

وقد خرجوا ثانية في سنة تسعين وغلبوا على أرض فارس ^(١) فألزمهم الحجاج الطاعة بأن جند كل محتلم من الشبان وسمي هذا الجيش بأبي ييب لأن أهاليهم وأمهاتهم كانوا يأتونهم وقد جرد الشخص منهم من ملابسه فيضمونه ويقولون له بأبي - وولى قيادة هذا الجيش بلالاً الضبي ^(٢) وقد أشرف الحجاج على هذا البعث فخرج إلى رستقباد ^(٣) .

وأما الديلمة . فقد كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية الديلم وكان المسلمون يرابطون بها بصفة دائمة وبشكل دوريات ينام البعض بينما يحرسه البعض الآخر وقد كان هؤلاء المرابطون من أشد الناس استبسالاً وأكثرهم استعداداً للموت لما كانوا يعرفونه من الأحاديث المروية بشأن الرباط في هذا الثغر من أن ثوابهم يعدل ثواب شهداء بدر ^(٤) .

واستمر الأمر كذلك إلى سنة إحدى وثمانين للهجرة حيث رابط في ذلك الثغر محمد ابن أبي سبرة الجعفي ورأى ذلك فسأل عن سببه فأخبروه بخوفهم من دخول العدو المدينة فقال : قد أنصفوكم افتحوا لهم الأبواب ولا تخافوا ، ففتحوها . وبلغ ذلك مسامع الديلم فساروا إليهم وبيتوهم فهاج الناس وعند ذلك أمر ابن أبي سبرة بغلق الأبواب عليهم وعلى عدوهم فأغلقت ودارت رحى القتال فلم يفلت من الديلم أحد وأبلى ابن أبي سبرة في تلك الليلة بلاءً عظيماً واشتهر اسمه وعرفت مكانته .

ولم يحاول الديلم مفارقة أرضهم طالما كان ابن أبي سبرة بالثغر فقد أصبح فارسه المطاع ^(٥) .

(١) الطبري ج٥ ص ٢٣٠ وابن الأثير ج٤ ص ١١٤ .

(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج١ ص ٢٧٤ والأصفهاني - الأغاني ج٤ ص ١٥٥ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٢٣٠ وابن الأثير ج٤ ص ١١٤ .

(٤) الهمداني - البلدان ص ٢٨٣ .

(٥) ابن الأثير ج٤ ص ٧٧ والأتابكي - النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٠٣ .

إلى أن قامت ثورة ابن الأشعث فخرجوا فأرسل إليهم الحجاج عمرو بن هانيء العبسي - بعد إخضاعه ثورة الأكراد - في اثني عشر ألفاً فانتصر عليهم وأعاد الأمن إلى نصابه (١) .

ووفد على الحجاج جماعة منهم فخيرهم بين الإسلام أو الجزية فأبوا فأمر الحجاج أن تصور له الديلم سهولها وجبالها وعقاربها وشعابها ، فصورت له فدعا من قبله من الديلمة فقال لهم : إن بلادكم قد صورت لي فرأيت سهولة غزوها فأجيبوا إلى ما دعوتكم إليه قبل أن أسير الجنود فأقتل المقاتلة وأسبي الذرية : فطلبوا منه المصور الذي فيه رسم بلادهم .

وعند رؤيته قالوا : إن الصورة صحيحة ولكن لم يصوروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والشعاب وستعلم ذلك لو تكلفته (٢) فلم يبال الحجاج بتخويفهم وأرسل إليهم ابنه محمدًا على رأس جيش ولكنه لم ينتصر عليهم انتصارًا حاسمًا . ثم ابنتى محمد مسجدًا لأهل قزوين كتب عليه اسمه (٣) ولما بنى الحجاج واسطًا اتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين إيزانًا بأن بلادهم في خطر - دخنت المناظر كلها إن كان نهارًا وأشعلت النيران إن كان ليلاً فتجرد الخيل إليهم (٤) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

(٢) الهمداني - البلدان ص ٢٨٣ .

(٣) الهمداني - البلدان ص ٢٨٢ وياقوت معجم البلدان ج ٧ ص ٨١ وراجع الأغاني ج ٥ ص ١٣٩ ، ج ١٤ ص ٤١ .

(٤) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٢ .

الباب الرابع

الفتوحات في عهد الحجاج

الفصل الأول

آل المهلب في خراسان وفتوحاتهم

المهلب والي خراسان . فتوحاته . وفاته . تولية يزيد ابنه . عزله . تولية المفضل . حربه مع موسى بن خازم . قتل ابن خازم . عزل المفضل . حبس الحجاج لآل المهلب .

سبق أن ذكرنا أن المهلب بعد أن فرغ من أمر الأزارقة ولاء الحجاج خراسان في سنة ثمان وسبعين للهجرة وأنه قد سار إليها في سنة تسع وسبعين ^(١) .

وما كان ذلك الرجل الحربي ليقنع بأن يكون واليًا ويستكين ، ففراه في سنة ثمانين يقطع نهر بلخ (جيحون) وينزل « كش » فيجعلها مقرًا له يوجه منها الجيوش للفتح ؛ فخرج منها جيشان أحدهما تحت إمرة ولده حبيب والآخر تحت إمرة ولده يزيد .

أما جيش يزيد فسبب خروجه أن المهلب بينما هو مقيم بكش إذ أتاه ابن عم ملك الختل ودعاه إلى غزو الختل فأرسل المهلب معه ابنه يزيد فنزل بعسكره في ناحية ونزل ابن عم ملك الختل في ناحية ولما رأى السبل (ملك الختل) ذلك أراد أن يكيد مكيدة يدس بها بين الجيشين المتحالفين عسى أن يتمكن من القبض على ابن عمه فبيت ابن عمه وكبر في عسكره فظن هذا أن العرب قد غدروا به وأنهم خافوا من غدره حين اعتزل عسكرهم فاختل النظام في معسكره ؛ وبذلك أسر السبل ابن عمه وقتله في قلعته .

(١) تقدم ص ١٩٢ .

فلما علم بذلك يزيد بن المهلب أتى القلعة وحاصرها من كل ناحية فصالحه الملك على فدية يؤديها إليه على أن يرجع عنهم فقبل ذلك يزيد وتركهم راجعاً إلى أبيه .
وأما حبيب فقد أرسله المهلب إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري في أربعين ألفاً وبدأ القتال بينهم على شكل مبارزة تبين فيها تغلب العرب فرجع الأعداء إلى بلادهم ونزل جماعة منهم في قرية للتحصن بها فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف وقاتلهم فظفر بهم^(١) .

وأما المهلب نفسه فقد فتح خجندة فأدت إليه الفدية^(٢) ؛ وأقام المهلب بكش سنتين فقبل له لو تقدمت إلى السند وما وراء ذلك قال : ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين^(٣) .

ثم صالح أهل كش ونسف على فدية يؤديونها إليه^(٤) . وتسلم المهلب وهو بكش كتاب ابن الأشعث السابق الذي يخبره بمخلع الحجاج والدعوة إلى مساعدته^(٥) . كما أتاه خبر وفاة ابنه المغيرة في رجب من سنة اثنتين وثمانين وكان قد استخلفه على مرو فأرسل يزيد بدله على مرو وكتب الحجاج إلى المهلب يغزيه في المغيرة^(٦) .

وحدث للمهلب وهو بكش أن اتهم قومًا من مضر فحبسهم فلما صالح أهل كش على الفدية خلى سبيلهم فكتب إليه الحجاج (إن كنت قد أصبت بحبسهم فقد أخطأت في تخليتهم وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم) فقال المهلب : خفتهم فحبستهم فلما أمنت تركتهم^(٧) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٩ ودحلان الفتوحات الإسلامية ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٣ .

(٣) دحلان ج ١ ص ١٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ والطبري ج ٥ ص ١٣٩ .

(٤) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٣ دحلان ج ١ ص ١٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ والطبري ج ٥ ص ١٣٩ .

(٥) دحلان - الفتوحات الإسلامية ج ١ ص ١٧٢ والطبري ج ٥ ص ١٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ .

(٦) الطبري ج ٥ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٧) الطبري ج ٥ ص ١٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ٧٤ .

وفاة المهلب :

ولم يلبث المهلب بعد وفاة المغيرة كثيرًا حتى مات فقد مرض في طريقه من كش إلى مرو بزاغول من مروالروذ ومات بها في ذي الحجة من سنة اثنتين وثمانين^(١) فصلى عليه حبيب وكتب يزيد إلى الحجاج بوفاة أبيه واستخلافه إياه فأقره الحجاج^(٢) .

ورأينا في ثورة ابن الأشعث أنه حارب عبد الرحمن بن عباس حينما حاول أن يستولي على خراسان وهزمه وأرسل بالأسرى إلى الحجاج .

وفي سنة أربع وثمانين فتح قلعة ينزك ببادغيس وأخذ ما فيها من الأموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيمًا وإجلالًا ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح^(٣) .

ولم يزل يزيد عاملاً على خراسان من قبل الحجاج حتى عزله في سنة خمس وثمانين .

ويختلف الرواة في سبب عزله فيروي علي بن محمد عن المفضل بن محمد : أن الحجاج في وفادته على عبد الملك عقب انتهاء ثورة ابن الأشعث مر في رجوعه بدير فنزله فأخبر أن في هذا الدير شيخًا من أهل الكتاب عالمًا ، فدعاه الحجاج وسأله قائلاً : هل تجدون في كتبكم ما نحن فيه وأنتم ؟؟ قال نعم نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن قال أفسمى أم موصوفًا ؟؟ قال : كل ذلك موصوفًا بغير اسم واسم بغير صفة قال فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟؟ قال : في زماننا ملك أقرع من يقيم لسبيله يصرع . قال ثم من ؟ قال اسم رجل يقال له الوليد قال ثم من ؟

(١) الطبري ج٥ ص ١٦١ وابن الأثير ج٤ ص ٨٣ وابن خلكان ج٢ ص ٣٥٤ وابن خلدون ج٣ ص ٥٣ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص ٨٤ ويروي الطبري ج٥ ص ١٦٢ أنه كتب إلى عبد الملك بوفاة أبيه واستخلافه إياه وذلك مستبعد لأن الوالي المباشر هو الحجاج .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٨٦ وابن الأثير ج٤ ص ٩٤ ودحلان ج١ ص ١٨٠ وابن خلدون ج٣ ص ٥٣ .

قال اسم نبي يفتح به على الناس : قال أتعرفني ؟؟ قال قد أخبرتك بك ثم سأله عن يليه بعده قال رجل يقال له يزيد قال في حياتي أم بعد مماتي ؟؟ قال لا أعرف فسأله عن صفته قال يغدر غدرة لا أعرف غير هذا .

ويحدثنا الراوي أن الحجاج وقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب وسار وهو خائف من قول الشيخ فلما وصل إلى العراق كتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق فكتب إليه عبد الملك يفهمه أنه قد عرف مراده إذ إنه ما استعفى إلا ليعرف رأي أمير المؤمنين فيه (١) .

وبينا الحجاج في يوم خال إذ دعا عبيد بن موهب فذكر له قصة الراهب وأنه فكر في يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن نمير ويزيد بن دينار فرأى أن مكانتهم لا تؤهلهم لذلك وأنه ليس إلا يزيد بن المهلب فأجمع رأيه على عزله ولكنه تريث حتى قدم عليه الخيار بن سبرة من فرسان المهلب فسأله عن يزيد فأخبره بحسن طاعته وسيرته فقال له كذبت اصدقني عنه فقال الله أجل وأعظم قد أسرج ولم يلجم ، وحينئذ كتب الحجاج إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب بأنهم من شيعة ابن الزبير فرد عليه عبد الملك بأن ذلك ليس نقصاً فيهم وأن وفاءهم لآل الزبير يدعهم إلى الوفاء لي فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم (٢) .

فكتب إليه عبد الملك قد أكثرت لي في آل المهلب فسم لي رجلاً يصلح لخراسان فسمى له مجاعة بن سعر السعدي فلم يوافق عبد الملك فعرض عليه قتيبة بن مسلم فوافق عليه (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٩١ ، ١٩٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٤ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦٠ ، ١٦١ وابن خلدون ج ٢ ص ٥٤ وابن كثير ج ٩ ص ٥٥ وابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٩٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٥٤ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦١ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٩٢ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٤ . ويريوي ابن كثير ج ٩ ص ٥٦ وابن شاعر ج ٥ ص ١٦١ أن الحجاج وقع اختياره على المفضل فوافق عبد الملك عليه .

وقيل إن الحجاج كتب إلى يزيد يأمره بغزو خوارزم فلم يلب الطلب محتجاً بأنها قليلة السلب شديدة الطلب فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه والاستخلاف على خراسان فكتب إليه بأنه يريد أن يغزو خراسان فأمره الحجاج بعدم غزوها لأنها كما وصف فلم يطعه وغزاها فصالح أهلها وأتى منها بأسرى وكرّ راجعاً إلى مرو فأصاب الناس برد شديد لأن الزمن كان زمن شتاء فأخذ الناس ثياب الأسرى فلبسوها وتركوهم بلا ثياب مما كان سبباً في موتهم^(١).

فكتب إليه الحجاج بالقدوم عليه فلم ير بيلد إلا فرشوا له الرياحين^(٢) فنقم الحجاج عليه ذلك فكان ما بين الحجاج وأمير المؤمنين من المكاتبة بشأنه.

ويروي أبو مخنف أن الحجاج بعد أن فرغ من ابن الأشعث وخضع العراق والمشرق كله له لم يبق له هم إلا يزيد بن المهلب ولم يكن يتخوف أحد بعد ابن الأشعث سوى يزيد هذا فأخذ في مواربته ليخرجه من خراسان بسهولة حتى لا يمثل رواية ابن الأشعث من جديد فكان يبعث إليه ليأتيه فيعتل عليه بالعدو وحرب خراسان. ثم يذكر كتابه إلى عبد الملك بن ذم آل المهلب إلى آخر رواية علي ابن محمد^(٣).

وفي رأينا أن رواية الراهب موضوعة فإننا نعتقد أن الحجاج ما كان يتأثر بتلك الخرافات وقد رأينا موقفه حينما نزلت الصواعق في حصار ابن الزبير بمكة^(٤).

وقد حارب ابن الأشعث في يوم الأربعاء وهو يوم يتطير الناس منه^(٥) وقد

(١) الطبري ج٥ ص ١٩٣ وابن الأثير ج٤ ص ٩٧ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٤ وابن خلدون ج٣ ص ٥٤.

(٢) الطبري ج٥ ص ١٩٤ وابن الأثير ج٤ ص ٩٧ وابن كثير ج٩ ص ١٣١.

(٣) الطبري ج٥ ص ١٩٤ وابن الأثير ج٤ ص ٩٦.

(٤) تقدم ص ٥٤.

(٥) الطبري ج٥ ص ١٦٨ وابن كثير ج٩ ص ١٣١.

ركب نعلًا محجلًا ولم يبال بقول أصحابه له : أن الأعاجم تتطير أن تركب في مثل هذا اليوم مثل هذا ^(١) إلى غير ذلك من أفعاله التي يستنتج منها أن الحجاج كان رجلا قوي العقيدة لا يتأثر بالأساطير .

لذلك نستبعد أن يكون قد جرى بينه وبين الراهب ما ذهبت إليه الرواية .

وقد جرت عادة الكتاب أن يصوغوا مثل هذه القصص إذا تحدثوا عن كبريات الحوادث أو عظماء الرجال . على أن القصة قد وضعت بإتقان على نمط ما يقوله الكهان من التعمية في الألفاظ والدلالات والإبهام وحيكت حياكة يصدق من سمعها أنها من قول راهب .

وسواء أصحت زيارة الحجاج للراهب أم لم تصح فإن عزل يزيد بن المهلب راجح إلى عدة أسباب اجتمعت لدى الحجاج خوفته من يزيد وغدره فعزله حتى لا يعيد ثورة كثورة ابن الأشعث التي كد فيها الحجاج وتعب وهو اليوم يريد أن يتفرغ للغزو الخارجي حتى تستفيد الدولة ويستفيد الإسلام فائدة جديدة .

وتتلخص هذه الأسباب فيما يلي :

أولاً : ما حدث بين الحجاج ويزيد بصدد غزو خوارزم فإنه خالفه بالخروج إليها ثم لم يتخذ لجيشه ما يقيه من زمهرير الشتاء وكذلك موقفه من كتاباته المتكررة إليه .

ثانياً : أن يزيد تصرف في الأسرى الذين أسرهم من جيش عبد الرحمن بن عباس فأطلق سراح بعضهم وقد رأينا فيما سبق أن الحجاج حينما قال له أحد الأسرى :

وقى بقومك ورد الموت أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضرا

تأثر ووقرت تلك الكلمة في قلبه .

(١) ابن أبي الحديد ١٦ ص ٤٢١ وراجع الطبري ج ٥ ص ٩٩ وابن كثير ج ٩ ص ١٣١ .

ثالثًا : أن الحجاج كتب إلى يزيد يأمره بقتل بعض المشاغبين من بني الأهم فكتب إليه يزيد : إن بني الأهم أصحاب مقال وليسوا بأصحاب فعال : ولم يفعل بصددهم شيئًا فآلم الحجاج منه ذلك الموقف (١) .

رابعًا : أن العدیل بن الفرخ العجلي ذهب إلى يزيد بن المهلب بخراسان فمدح ابن المهلب وذم الحجاج بحضرته فسرره ذلك المدح وأجازه (٢) .

هذه الأمور أغضبت الحجاج وجعلته يعتقد أن ابن المهلب غير مأمون في ولايته وجعلته لا يبقى على آل المهلب فيولى المفضل خراسان مدة قصيرة ثم يعزله .

ولما وافق عبد الملك على عزل يزيد كره الحجاج أن يكتب إليه بعزله فكتب إليه يأمره باستخلاف المفضل وقدمه فاستشار يزيد حصين بن المنذر فأشار عليه بعدم الذهاب والكتابة إلى عبد الملك لأنه حسن الرأي فيه فلم يقبل يزيد منه ذلك الرأي ولكنه تباطأ في التجهيز والخروج .

آلم هذا الموقف الحجاج فأرسل إلى المفضل يخبره بأنه قد ولاه خراسان فاستحث المفضل أخاه على الخروج بسرعة وبذلك تمكن الحجاج من إخراج يزيد من خراسان فخرج يزيد في ربيع الآخر من سنة خمس وثمانين (٣) .

ولما ولي المفضل أمر خراسان غزا باذغيس ففتحها وأصاب منها مغنًا عظيمًا قسمه بين الناس فكان نصيب الواحد ثمانمائة درهم ثم غزا أجرون وشومان فغنم وظفر

(١) الأغاني ج١٣ ص ٥٨ .

(٢) الأغاني ص ٢٠ ج١٣ .

(٣) الطبري ج٥ ص ١٩٢ ، ١٩٣ وابن خلكان ج٢ ص ٣٥٥ وابن خلدون ج٣ ص ٥٤ والمعيني ج١١ ص ٢٧٧ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٤٣٧ ويروي ابن شاعر ج٥ ص ١٦٠ أن عزل يزيد كان في سنة أربع وثمانين .

وقسم الغنائم بين المسلمين ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان كلما جاءه شيء أو أصاب مغنماً قسمه (١) .

مقتل موسى بن عبد الله بن خازم :

قبل أن نتكلم عن قتل المفضل لموسى بن عبد الله بن خازم يجدر بنا أن نرجع إلى الوراثة لنعرف موسى بن عبد الله بن خازم .

كان عبد الله بن خازم والياً على خراسان لعبد الله بن الزبير منذ سنة خمس وستين للهجرة فلما قتل مصعب بن الزبير استقل عبد الله بن خازم بولايته وقد خرج عليه بجير بن ورقاء التيمي فكانت بينهما حروب محلية .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى عبد الله بن خازم يقطعه البلاد سبع سنين مقابل البيعة (٢) له فكتب إليه : ما كنت لأنكث بيعة ابن حواري رسول الله ﷺ وأبايع ابن طريده : فكتب عبد الملك بالولاية إلى بكير بن وشاح - خليفة ابن خازم على مرو - فخلع بكير ابن خازم وأخذ السلاح وبيت المال ودعا أهل مرو إلى بيعة عبد الملك فبايعوه وبلغ ابن خازم ذلك فخاف أن يأتيه بكير فيجمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور فخرج إلى ابنه موسى بالترمز فأتبعه بجير فقتله بقرية على ثمانية فراسخ من مرو (٣) .

وبذا أصبح بالولاية رجلان بجير يطلبها لنفسه ثمرة الانتصار على ابن خازم وبكير يطلبها لنفسه كعهد الخليفة وظهرت المنافسة بينهما فكتب أهل خراسان إلى عبد الملك بن مروان بأنها لا تصلح إلا برجل من قریش فولى عبد الملك عليها أمية

(١) الطبري ج٥ ص ١٩٤ وابن الأثير ج٤ ص ٩٧ ودحلان ج١ ص ١٨٠ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٤ وابن خلدون ج٣ ص ٥٤ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢١ وابن الأثير ج٤ ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٢٢ وابن الأثير ج٤ ص ٢١ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٢ .

ابن عبد الله بن خالد^(١) وبينما كان ذلك يجري إذ استمر موسى بن عبد الله بن خازم على خروجه فحاربه أمية وانضم إليه الترك - ليعينوا أهل ترمذ على أخذ بلدهم لأن موسى كان قد طردهم منها - ولكن موسى تمكن من الانتصار على الحلفاء^(٢) .

عزل أمية عن خراسان ووليها الحجاج فولاهها للمهلب بن أبي صفرة ولكنه لم يتعرض لموسى لأنه كان يعتقد أن في قتله قضاءً على آل المهلب في خراسان .
فالحجاج لم يول المهلب إلا لحنكته الحربية فإذا ما استتبت الأمور فقد أصبح ولا حاجة له في آل المهلب وإذا ما انتهى من مشكلة ابن خازم فهو لا بد من مقيل بني المهلب ومعين مكانهم رجلاً من قيس .

توفي المهلب وولي أمر خراسان من بعده ابنه يزيد . وفي أيامه ازدادت مكانة موسى في بلاد ما وراء النهر وقد انضم إليه الأتراك وكثير من العرب تحت إمرة حريث وثابت ابني قطبة الخزاعي لما كان بينهما وبين آل المهلب من عداوة^(٣) .

ولكن هذا الحلف لم يلبث أن تفكك وحارب الحلفاء بعضهم بعضاً كما فعلت المؤامرات فعلها فقتل حريث في الحرب وقتل ثابت غيلة ، وعاد طرخون ملك الترك إلى بلاده^(٤) .

ثم عزل الحجاج يزيد وولى مكانه أخاه المفضل فرآها فرصة سانحة لمهاجمة ابن خازم وقد انفض من حوله الناس واعتصم فيما وراء النهر ويحظى بذلك عند الحجاج فسير إليه عثمان بن مسعود وأيده بأخيه المدرك بن المهلب استقدمه من بلخ

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٨ ، ٣٩ وفتوح البلدان ص ٤٢٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) راجع الطبري ج ٥ ص ١٩٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٨ ، ٩٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٥ وابن كثير ج ٩ ص ٥٦ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٩٩ وابن الأثير ج ٤ ص ٩٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٥ .

(٤) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ١٩٩ ، ١٠٠ وابن خلدون ج ٣ ص ٣٦ والطبري ج ٥ ص ١٩٨ - ٢٠٤ والبلادري - فتوح البلدان ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

حيث كان واليًا . فعبروا إليه النهر في خمسة عشر ألفًا فضيقوا عليه المسالك ومكث مدة يعاني آلام الحصار .

ولما رأى موسى ذلك قال لأصحابه اخرجوا بنا مستيتين واقصدوا الترك - حلفاء ابن المهلب - وخلف النضر بن أخيه سليمان على المدينة وأمره أنه إذا قتل لا يسلم المدينة إلا لمدرِك بن المهلب .

فخرجوا لقتال الترك ودارت رحى معركة تغلب فيها الحلفاء وقتل موسى بن عبد الله بن خازم وكتب المفضل إلى الحجاج بالفتح ^(١) . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وهو يستعد لغزو جديد ^(٢) وولى بدلاً منه قتيبة بن مسلم فقبض قتيبة بن مسلم على المفضل وأخويه مدرِك وعبد الملك وأرسلهم إلى الحجاج فطالبهم بستة ملايين من الدراهم ^(٣) واستمروا في حبسه إلى سنة تسعين . وفي هذه السنة خرج الحجاج إلى رستقباد لتجهيز حملة الأكراد التي أسلفنا ذكرها وأخذ معه أولاد المهلب وجعلهم في فسطاط قريباً منه وجعل عليهم حرساً من أهل الشام ووكله بتعذيبهم حتى يؤدوا ما عليهم من المال فأدوا ثلاثة ملايين وأخذوا يدبرون طريقاً للخلاص من السجن فدبروا حيلة تمكنوا بها من الفرار والسير إلى الشام .

ولما وصلوا إلى الشام استجاروا بسليمان بن عبد الملك فأجارهم وبذل مجهوداً عظيماً في الشفاعة لهم لدى الخليفة الوليد حتى أمنهم فكتب الحجاج إلى الوليد يطلبهم منه فأجابه الوليد : إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفف عنهم ومن ذلك الوقت بقي يزيد مقرباً من سليمان حتى ولاء العراق في خلافته ^(٤) .

(١) الطبري ج٥ من ص ٢٠٠ - ٢٠٥ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٥ وابن الأثير ج٤ ص ١٠٠ .

(٢) الطبري ج٥ من ص ٢١٤ وابن الأثير ج٤ ص ١٠٥ .

(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٣٠ والطبري ج٥ ص ٢٢٠ وابن خاكان ج٢ ص ٣٥٦ وابن الأثير ج٤ ص ١١٤ .

(٤) راجع الطبري ج٥ ص ٢٢٠ - ٢٢٥ وابن الأثير ج٤ ص ١١٤ - ١١٦ وابن خاكان ج٢ ص ٣٥٦ -

مرض عبد الملك بن مروان ووفاته :

في هذا الوقت مرض عبد الملك بن مروان وفي أثناء مرضه جمع بنيه وأوصاهم وصية قال فيها عن الحجاج : وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ البلاد وذل الأعداء ^(١) .

ثم توفي في منتصف شوال من سنة ست وثمانين للهجرة .

وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد فكتب ببيعته إلى الآفاق والأمصار وإلى الحجاج بالعراق فبايعه الناس ولم يختلف عليه أحد ، وكتب الحجاج إلى الوليد :

أما بعد فإن الله استقبلك يا أمير المؤمنين في حادثة سنك بما لا أعلم أنه استقبل به خليفة قبلك من التمكين في البلاد والملك للعباد والنصر على الأعداء فعليك بالإسلام فقوم أوده وشرائعه وحدوده ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم فإنهم قلما يؤتى الناس من خير وشر إلا أفشوه ثلاثة أيام والسلام ^(٢) .

وبقى الحجاج والياً على ما كان ولاه عليه عبد الملك فلم تغير وفاة عبد الملك شيئاً من سياسته والخطبة التي رسمها لنفسه . وكذلك لم يحد الوليد عن وصية أبيه له بشأنه على الرغم من إلحاح أخيه سليمان عليه ورغبته في عزله ^(٣) .

ولم تكن وصية عبد الملك هي الدافع الوحيد للوليد على عدم سماع قول سليمان فيه بل إن الوليد كان لا يجهل مكانة الحجاج ومنزلته وماله من الأيادي البيضاء على الدولة . فكان يقول إن عبد الملك قال : إن الحجاج جلدة ما بين عيني وأنا أقول : إنه جلدة وجهي كله ^(٤) .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٦٢ والمسعودي ج ٢ ص ١١٠ والسينوطي - تاريخ الخلفاء ص ١٤٧ وابن شاعر ج ٥ ص ١٧٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٣ .

(٢) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٤٩ والجاحظ ج ١ ص ٢٣٧ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨ .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج من الذين رغبوا في أن يكون الخليفة بعد عبد الملك هو الوليد فقد روي أن الحجاج كتب إلى عبد الملك في ذلك قبل خلاف ابن الأشعث وأرسل إليه وفدًا على رأسه عمران بن عصام الغزي وقد قال عمران قصيدة يعبر فيها عن رغبة الحجاج فيحث على البيعة للوليد ويبين له محاسنه (١) .

لكل ذلك أقر الوليد الحجاج على خطته التي رسمها لنفسه ولم يتعرض له .

(١) راجع الطبري ج٥ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ وابن الأثير ج٤ ص ١٠١ وابن كثير ج٩ ص ٥٩ وابن شاکر ج٥ ص ٢٠٣ والبلاذري - أنساب الأشراف ج١١ ص ٢٤١ .

الفصل الثاني

قتيبة بن مسلم في خراسان وفتوحاته ونهاية حياته

لم يكد قتيبة ينزل بخراسان حتى وضع نصب عينيه أن يفتح بلاد ما وراء النهر فخطب الناس وحثهم على الجهاد لإعزاز دين الله والذب عن الحرمات وخذل العدو وبين لهم ذلك مستشهدًا بالقرآن الكريم (١) .

ثم عرض الجند وخرج من مرو وسار حتى وصل الطالقان فتلقاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر (٢) .

وتلقاه بيش ملك الصغانيان وقابله مقابلة حسنة وقدم إليه هدايا ثمينة منها مفاتيح من ذهب وسلم إليه زمام بلاده .

والذي دعاه إلى ذلك أنه كان يخشى سطوة جاره ملك شومان وآخرون

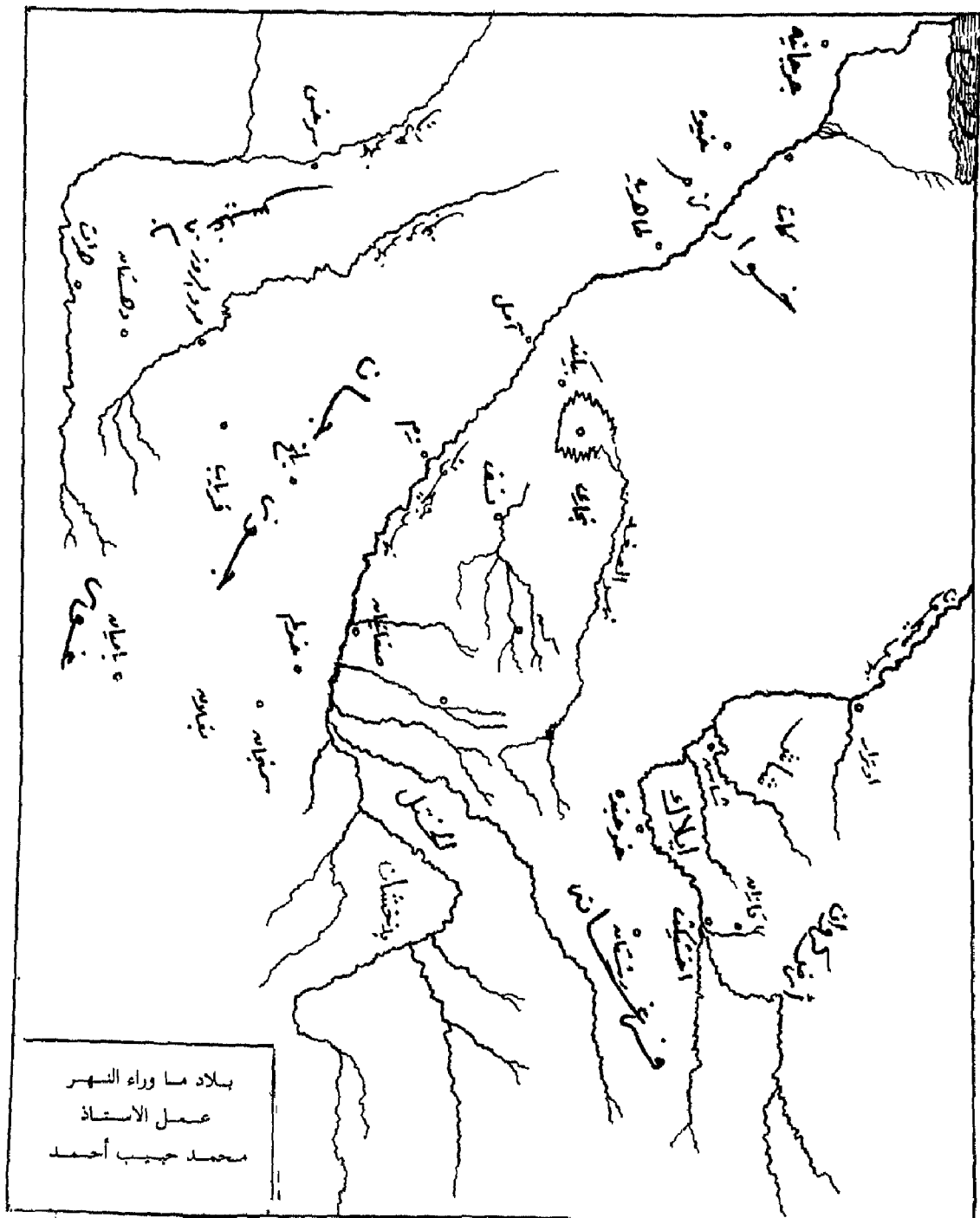
وكان ملك شومان - وآخرون - قد غزاه وضيق عليه ، فأراد أن يحتفظ بعرشه ويتخلص من العدو الذي يشن عليه الغارة بين آن وآخر فانتهاز فرصة قدوم قتيبة وقابله تلك المقابلة وقدم إليه بلاده وشجعه على غزو آخرون وشومان وقد تحقق ما أراد ، فقد ولى قتيبة وجهه شطرهما فلم يقاوما وصالحه ملكهما غيشتان على فدية ورضي المسلمون بذلك ، ورجع قتيبة إلى مرو ، بعد أن استخلف على الجند أخاه صالح بن عبد الرحمن .

وبعد أن تولى صالح على الجند تطلعت نفسه إلى الجهاد فجدد في فتح كاشان وأورشت وأخشيكت - من أعمال فرغانة - وانتهى ذلك الفتح بالنصر المبين (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٣١٤ ، ٢١٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢١٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٥ : ويروى أن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر بقية عام ستة وثمانين على بلخ لأن بعضها كان منتقضا عليه وقد ناصب المسلمين العداء فحاربهم . نفس المصادر .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢١٥ وفتوح البلدان ص ٤٢٦ وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٩ ودحلان ج ١ ص ١٨١ .



ومن مرو كتب قتيبة إلى نيزك طرخان - صاحب باذغيس - في إطلاق ما عنده من أسرى المسلمين وقد هدهدته وتوعده فخاف نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه .

ثم كتب إليه يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ويحلف له لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت .

فلما قدم الرسول بالكتاب قال له نيزك وكان يطلب منه النصح ما أظن عند صاحبك خيرًا : كتب إلي كتابًا لا يُكتب إلى مثلي . فقال له سليم الناصح : إنه رجل شديد في سلطانه سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك فأحسن حالك عنده .

فقدم نيزك مع الرسول على قتيبة فصالحه في سنة سبع وثمانين على أن لا يدخل قتيبة البلاد (١) .

ثم خرج قتيبة بعد ذلك لغزو بيكند فسار من مرو إلى مرو الروذ ثم أتى أمل ثم مضى إلى زم فقطع النهر فسار إلى بيكند - وهي أدنى مدائن بخاري - فلما دنا منها استصرخ أهلها بالصغد واستمدوا المعونة من جاورهم فأتوهم في حشد عظيم وأخذوا الطريق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول مدة شهرين فأشفق الحجاج على قتيبة وعلى الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، مما يدلنا على أن الموقف قد تخرج وازداد خطرًا .

بيد أن حزم قتيبة وموقفه في تشجيع الجند وبث روح الحماسة فيهم جعل جيوش المسلمين لا يكثرثون بالأعداء وكثرتهم ولا يهابون الموت فاستماتوا في الحرب والقتال وانهزم أهل بيكند وحلفاؤهم شر هزيمة واقتصدت جنود المسلمين أثرهم وأوسعوا قتلًا وأسرا ولم ينج منهم إلا من تحصن بالمدينة ولكن قتيبة حاول هدم حصونها فصالحوه بعد إلحاح منهم وإباء منه .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٧ وابن خلدون ج ٣ ص ٥٩ ودحلان ج ١ ص ١٨١ .

ولما تم الصلح ولى عليهم وقفل عائداً إلى مرو ولكنه لم يكـد يسير خمسة فراسخ عن بلدهم حتى نقضوا الصلح وقتلوا العامل وأصحابه ومثلوا بهم بمجدع أنوفهم وأذانهم فـكـر راجعاً وأستأنف الحرب واستولى على تلك البلاد ورفض الصلح بعد أن نقضوه وفتكوا بأصحابه ولم يرجع إلى مرو حتى طهر البلاد من الثائرين والمتردين .

وبعد أن ترك فيها حامية عاد إلى مرو آمناً مطمئناً عليها .

وأصاب المسلمون من بيكند غنائم من السلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى ولا أصابوا بخراسان مثله (١) .

فقوى المسلمون واشتروا السلاح والخيـل وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة .

قال الكـمـيت :

ويوم بيكند لا تحصى عجائبه وما بخاراء مما أخطأ العدد

واستأذن قتيبة الحجاج في دفع السلاح إلى الجند فأذن له فأخرجه من الخزائن ودفعه إلى الجند (٢) .

التحالف الأول ضد قتيبة :

كان من أثر انتصارات قتيبة المتتالية في فتوحاته المتسلسلة أن تألب الترك في مائتي ألف بقيادة ملكهم - كور بغانون - ومعهم الصغد وفرغانة وتقدموا لمقاومة جيش عبد الرحمن بن مسلم .

ودارت المعركة وكادوا ينتصرون عليه ولكنه استنجد بأخيه قتيبة فلبى النداء مسرعاً - إذ لم يكن بينهما إلا ميل واحد - ولما أدركه بث الشجاعة في قلوب المحاربين .

(١) الطبري جـه من ص ٢١٨ - ٢٢٠ وابن الأثير جـه ٤ ص ١٠٧ وابن خلدون جـه ٣ ص ٥٩ وابن نباتة ص ١١٤

ودحلان جـه ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الطبري جـه ص ٢٢٠ .

وبشجاعة قتيبة وسياسته الحربية الباهرة انتصر المسلمون وانهزم الأعداء وتشتت جمعهم وتمزق شملهم وأبلى في هذا اليوم نيزك - وكان في جيش قتيبة - بلاء حسناً ورجع قتيبة إلى مرو ^(١) .

وفي هذا الوقت كتب الحجاج إلى قتيبة بوجوب فتح بخارى فسار بجيشه حتى نزل مدينة زم ومنها عبر النهر وعند ذلك اصطدم بجموع الصفد وكش ونسف غير أنه تغلب عليهم ثم وصل إلى بخارى وأخذ يحاول فتحها . إلا أنه لم يأتها من المواطن التي تساعده على فتحها فيئس ورجع إلى مرو وأبلغ الحجاج ذلك فطلب منه الحجاج أن يصور له المدينة وموقعها الجغرافي فأرسل إليه بما طلب فلما اطلع الحجاج على المصور أشار عليه بفتحها ودله على المواطن التي تمكنه من الاستيلاء عليها فقد كتب إليه يقول : أن ارجع إلى مراغتك وتب إلى الله مما كان منك وإنها من مكان كذا وكذا ^(٢) .

وإن الباحث لا يسعه إلا الإعجاب بمهارة الحجاج الحربية ومواهبه التي لم تكن قاصرة على ميدان السياسة بل شملت ميدان الحرب وهو بعيد عنه ، وكأننا به وقد جلس إلى مكتبه لينظر في خريطة تلك البلاد التي لم يرها وبعقرية يرسم الخطة لقائده ويأمره بتنفيذها متحملاً تبعة ذلك إن كان ثمة تبعة .

فلم يسع قتيبة إلا الخروج في سنة تسعين إلى بخارى ثانية واضعاً نصب عينيه تنفيذ الخطة التي رسمها له القائد الأعلى وقد تمكن بها من الزحف على المدينة ومحاصرتها فاستصرخ ملك بخارى - وران خداه - بالترك والصفد فجاءته أمداد كثيرة وبدأت المعركة واشتدت وغامر الأزدي في هجومهم على الترك ولكنهم هزموا وخسروا خسارة كبرى . ولكن قتيبة خف ببقية الجيش الإسلامي لنجدتهم ونادى في جيشه

(١) الطبري ج ٥ من ص ٢١٨ - ٢٢٠ وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٧ وابن خلدون ج ٢ ص ٥٩ ودحلان ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الطبري ج ٥ من ص ٢٢٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٠ .

بأن من أتاه برأس تركي فله مائة درهم .
 ووقف الترك على مرتفع من الأرض فأراد قتيبة أن يزيلهم عن هذا الموضع
 فطلب من يزيلهم فلم يجبه أحد من القبائل فقصد بني تميم وطلب إليهم ذلك وأثنى
 عليهم فتقدم بنو تميم ولم يدخروا وسعاً في القتال حتى تمكنوا من هزيمة العدو وتم
 النصر للمسلمين وجرح خاقان ملك الترك وابنه ^(١) وكتب قتيبة إلى الحجاج بأن
 بخارى فتحت على يد عبد الرحمن بن مسلم ولعله أراد أن يكون لأخيه حظوة لدى
 الحجاج .

إلا أن مولى للحجاج كان قد شهد تلك الحرب فأخبره بحقيقة الأمر فغضب
 الحجاج وبلغ ذلك قتيبة فأهمه الأمر فأشار عليه الناس بإرسال وفد من بني تميم
 يخبرونه أن ما في الكتاب هو الحق .

فلما قدموا الحجاج صاح بهم وعابهم . ودعا بالحجام وييده مقرض
 وقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتصدقنني ، فقالوا الأمير قتيبة بعث عليهم عبد الرحمن ،
 فالتفتح للأمير والرأس الذي يكون على الناس .

وبهذا اللف والدوران هدأ الحجاج وسكن ^(٢) .

وعقب هذه الموقعة حضر طرخون ملك الصغد ومعه فارسان حتى دنا من عسكر
 قتيبة ورغب في أن يخرج إليه رجل من المسلمين ليتفاهم معه فأخرج إليه رجلاً
 تفاوض معه على فدية يؤديها للمسلمين فقبل منه ذلك .

وبدهي أن الذي دفع طرخون إلى ذلك - وهو الذي قاوم المسلمين وتحالف مع
 الترك - أنه توقع الغزو لبلاده ولا طاقة له بدفع تلك الجيوش ولا القدرة على
 مقاومتها ^(٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٧ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ وابن خلدون ج ٣ ص ٦١ ودحلان ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٢٨ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٢٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٤ ودحلان ج ١ ص ١٨٥ .

هال نيزك وأفرعه ما رأى من الفتوح العربية فأبان لأصحابه عن رغبته في الرجوع إلى بلاده وتدبير خطة للوقوف في وجه الفتوح الإسلامية التي كادت أن تأتي على البلاد فاستأذن نيزك قتيبة في الذهاب إلى طخارستان فأذن له فأسرع نيزك ومن معه بالعودة ، لأن نيزك قد توقع أن قتيبة سيندم على الإذن له في الرجوع إلى بلاده فيرسل إلى واليه يأمره بالقبض عليه وقد تحقق ما كان فقد أتى الرسول إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بالقبض عليه وحبسه ولكن المغيرة لم يدركه حتى كان قد دخل شعب خلم فلم يتمكن منه ورجع عنه .

التحالف الثاني ضد قتيبة :

خلع نيزك الطاعة وعمل على تأليف حلف كبير لمقاومة الفتح العربي وقد لقيت هذه الفكرة قبولاً حسناً في نفوس الترك فألبأ صهيد بلخ وباذام ملك الروم وسهرك ملك الطالقان وترسل ملك الفارياب والجوزجاني ملك جوزجان وكتب إلى كابل شاه يستظهر به وبعث إليه بثقله وماله وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه فأجابه إلى ذلك .

خلع الحلفاء قتيبة وتواعدوا الربيع وخاف نيزك من ملكه جيغويه (الشذ) أن يفسد عليه تدبيره احتفاظاً بعرشه فأخذه وحبسه وقيده بقيود من ذهب ووضع عليه الرقباء .

وبدأ العداء بإخراج سليم الناصح - عامل قتيبة بتلك البلاد - وبلغ قتيبة ما فعله نيزك وهو بمرور وقد تفرق الجند وليس معه إلا أهل مرو فأخرج عبد الرحمن أخاه في اثني عشر ألفاً وأمره بعدم عمل شيء حتى ينقضي فصل الشتاء وعند انقضاءه يسير نحو طخارستان وهو آمن فإنه سيكون قريباً منه . فنفذ عبد الرحمن ما أمره به قتيبة فقد ذهب واستكشف الحالة ووافى قتيبة عندما انقضى فصل الشتاء .

وأما قتيبة فإنه لما انقضى فصل الشتاء كتب إلى أبيوردو سرخس وأهل هراة

ليقدموا عليه بالجنود فلبوا الدعوة مسرعين فسار بهم قتيبة نحو الطالقان - إحدى شعب الحلف - فنكل بأهلها وقتل منهم مقتلة عظيمة ^(١) واستعمل على الطالقان أخاه عمرو بن مسلم وكان اسمه قد سبق إلى بقية أعضاء الحلف فخازت قواهم ، فقد سار إلى الفارياب فخرج إليه ملكها مقرًا بالولاء والخضوع فلم يحاربه وعلم ملك الجوزجان بسيرهم نحوه فهرب نحو الجبال وخرج أهلها معترفين بالولاء والطاعة ثم أتى بلخ فلم يقيم بها إلا يومًا واحدًا فقد قدم أهلها له فروض الطاعة .

ثم سار بعد ذلك إلى شُعْب خلم لمساعدة أخيه في حرب رأس الحلف ولكن الثائر سار إلى بغلان وترك حامية على فم الشعب ومضايقه لينعوه من دخوله ووضع مقاتلة في قلعة حصينة من وراء الشعب فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم على مضيق الشعب إرادة دخوله فلم يتمكن ، ولا يعرف طريقًا يسلكه إلى نيزك إلا الشعب أو مفازة لا تحتلها العساكر لوعورتها وصعوبة مسالكها فتحير في الأمر .

وبينا هو في حيرته إذا أتاه الرؤوب خان - ملك الرؤوب وسمنجان - وطلب الأمان منه على أن يدلّه على مدخل القلعة التي من وراء الشُعْب فأمنه قتيبة وبعث معه رجالاً فساروا بالليل وبيتوا أهل القلعة فقتلوا البعض وهرب البعض الآخر فدخل قتيبة الشعب وأتى القلعة ومضى إلى سمنجان فأقام بها أيامًا استراح فيها هو وجنده . ثم سار إلى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن .

بلغ ذلك نيزك فارتحل من مكانه وقطع وادي فرغانة ^(٢) ووجه ثقله وأمواله إلى كابل شاة ^(٣) - حسب الاتفاق المبرم بينهما - ومضى وعبد الرحمن يسير في أثره فنزل

(١) الطبري ج ٥ من ص ٢٢٨ - ٢٣٠ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٤ ودحلان ج ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٦١ ويروى أن ملك الطالقان لم يحارب قتيبة فكف قتيبة عنه وكان بها لصوص ومفسدون قتلهم قتيبة وصلبهم لتطهير البلاد منهم .

ولكن عودنا الرواة العرب على التكثير في مثل هذا المقام . الطبري ج ٥ ص ٢٣٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٢٥ ، ٢٣٦ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٦ ودحلان ج ١ ص ١١٦ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٢٩ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٤ ودحلان ج ١ ص ١٨٥ .

عبد الرحمن حذاءه ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان وتحصن نيزك وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب ؛ فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما في يد نيزك من الطعام وأصاب أصحابه الجدري وجدر الشد ملكهم .

وفي هذا الوقت كان الشتاء قد أقبل فخاف قتيبة البرد على جنوده فدعا سليماً وطلب منه أن يحتال لنيزك حتى يأتيه به وشد في وجوب العمل وعدم التباطؤ ، فطلب سليم من قتيبة أن يكتب إلى عبد الرحمن بوجوب الطاعة حتى يتمكن من أداء مهمته فأجابه إلى ما طلب ، وسار سليم الناصح حتى قدم على عبد الرحمن فطلب منه أن يجعل رجالاً على مدخل الشعب ينتظرونه حتى إذا ما أقبل هو ونيزك أخذوا بأفواه الشعب وحالوا بين نيزك والرجوع فيما لو حاول ذلك ، فقام عبد الرحمن بما طلب منه .

وكان سليم حمل معه الكثير من الأطعمة حينما سار إلى نيزك فلما وصل إليه قال له نيزك خذلتني ياسليم . فقال سليم : ما خذلتك ولكنك عصيتني وأسأت لنفسك خلعت وغدرت ، فأراد نيزك أن يعرف مخلصاً من هذه الورطة فبين له سليم أن قتيبة سيضي فصل الشتاء في مكانه وأن الواجب أن يقدم عليه بدون علم فعند ذلك يأخذ قتيبة الحياء فيقبل منك اعتذارك وتوبتك فلم يؤمن نيزك بهذا الكلام من جهة وأبت عليه نفسه من جهة أخرى ، وعندئذ أراد سليم الانصراف فقال نيزك فنغديك إذا فأبان سليم أنهم في شغل عن تهئية الطعام وأن لديه الكثير منه وأخرج ما معه لنيزك وأصحابه فانتهبوه لشدة جوعهم فساء ذلك نيزك وانتهاز سليم ذلك فرصة فبين لصاحبه شدة حال جيشه وأشار عليه بوجوب الخروج إلى قتيبة فطلب أماناً فأمنه سليم وقال له إن قتيبة قد أمنك فألح عليه أصحابه حينئذ بالخروج فخرج نيزك في جماعة من أعيان قومه ومعهم قوة من الجند .

ولما خرجوا من الشعب نفذ جنود عبد الرحمن التعليمات بأن حصروا الشعب فأوجس نيزك خيفة وحاول أن يفر فأشار عليه سليم بعدم فعل ذلك وأن مصلحته أن يصل إلى قتيبة في غير هذه الضجة العسكرية عسى أن يوفق إلى صلح شريف معه فآمن نيزك بما أوحى إليه صاحبه وترك عسكره وقدم بأعيان قومه فقط وسارا حتى وصلا إلى عبد الرحمن فأرسل عبد الرحمن إلى قتيبة رسولا يعلمه بذلك فطلب قتيبة من عبد الرحمن أن يحضر بهم ففعل .

ولما وصل نيزك ومن معه إلى قتيبة حبسهم وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك فأصدر الحجاج أمره بقتل هذا الغادر الذي نقض العهد وأخاف المسلمين وجمع الجموع لمقاومة الفتوح الإسلامية .

فدعا قتيبة به وسأله : هل له عند قتيبة أو عبد الرحمن أو سليم عهد ؟؟ فقال لي عند سليم فكذبه قتيبة وردّه إلى السجن ومكث قتيبة ثلاثة أيام يستشير واختلفت وجهات النظر فمن قائل أمنتّه ومن قائل اقتله وقال فريق ثالث بوجوب قتله لعدم أمنه على المسلمين سواء أكان له عهد أم لا .

وظل قتيبة متردداً حتى دخل ضرار بن حصين الضبي فسأله قتيبة عن رأيه فقال ماذا أقول ؟؟

أقول إني سمعتك تعطي الله عهداً أنك إذا تمكنت من قتله فلا بد من ذلك ؟؟ فأطرق قتيبة مدة من الزمن ثم قال : والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت اقتلوه . وكررها ثلاثاً وأمر بقتل نيزك وأقاربه وبعض أصحابه .

ويختلف الرواة في عدد القتلى فيروي علي بن محمد أن قتيبة قتل مع نيزك نحو السبعائة . ولعله يقصد أولئك الذين بقوا في الشعب . وتروي باهلة أنه قتل معه اثني عشر ألفاً . ونحن لا نصدق ذلك ، فإننا لا نظن بأنه حضر مع نيزك هذا العدد لأنه لم يخرج لغزو بل إن السبعائة كثير أيضاً .

ولكن جرت عادة العرب على التكثير للفخر وبيان القوة والسطوة وما عرفوا أن ذلك سيكون موضع نقد سيما من أعداء الإسلام .

أما جيفويه فقد بدا مغلوبًا على أمره فيما حدث ولذلك لم يقتل بل اكتفى بإرساله إلى الوليد بالشام حتى مات الوليد ولم يسمع له بعدها خبر .

ورجع قتيبة إلى مرو وترك أخاه عبد الرحمن على بلخ ^(١) .

وقد كانت قصة قتل نيزك على هذا الوجه موضع التعليق . لذلك نرى ثابت قطنة يقحم الموضوع في إحدى قصائده فيعيب على قتيبة غدره بنيزك ^(٢) .

وشاركه في ذلك بعض المعاصرين فكان الواحد منهم يقول : غدر قتيبة .

على أن سلوك قتيبة كان موضع الرضى من الكثيرين فهذا المغيرة بن جنباء ونهار بن توسعة يمتدحان ما صنعه قتيبة مع نيزك في قصيدتين ^(٣) لا تقل أبيات الواحدة منهما روعة عن البيت الفرد الذي جاء في قصيدة ثابت قطنة .

وفي تقديرنا أن قتيبة لم يكن يملك أن يفعل غير ما فعل فإن نيزك هو الذي أقام هذا الحلف في وجه الفتوحات العربية .

ولو تمت مؤامرتة الواسعة النطاق لقضي على زهرة المسلمين فيما وراء النهر ولكانت نكبة ليس بعدها نكبة .

ولو بقى نيزك حيًا لكان خطرًا دائمًا على الفتوحات العربية ولقويت شكية الأتراك سواء أفرج عنه وعاد إلى بلاده أم بقي أسيرًا في يد المسلمين .

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ٢٣٦ - ٢٣٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٧ ودحلان ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٣٩ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٤٠ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٧ .

على أن نيزك لم يدخر وسعاً في محاولة وقف الفتوحات الإسلامية واستعمل في ذلك السياسة بمثل ما استعمل الجيش فظل يخادع وينافق ، حتى لقد قيل إنه أسلم وتسمى بعبد الله ^(١) .

ولعل قتيبة أراد بقتله وأصحابه أن يضرب المثل لغيره من الأتراك ممن تحدثه نفسه بالوقوف في وجه الفتوحات .

ولقد كان غدر نيزك وجمعه الجموع لقتال المسلمين سبباً في انتفاض بعض البلاد فقد انتهز ملك شومان هذه الفرصة ونقض العهد الذي كان بينه وبين قتيبة فطرد عامله ومنع الجزية فاستعمل معه قتيبة طريق اللين وسلك خطة حميدة وسياسة حكيمة بأن أرسل إليه رسولين أحدهما من العرب والآخر من خراسان ليذكراه بالعهد المعقود بينه وبين المسلمين وما يترتب على نقض هذا العهد من الآثار السيئة فتألب أهل شومان واعتدوا على الرسولين فقاوم الرسول العربي أهل المدينة الشائرة مقاومة شديدة وفر الرجل الخراساني وثبت العربي حتى خر صريعاً في ميدان الجهاد والمناضلة .

ولما علم قتيبة بتلك الحادثة الشنيعة المخالفة لقوانين الحرب استشاط غضباً وزحف نحو شومان واختار أخاه صالحاً لصداقته لملك شومان كي يكون رسولاً بينهما عسى أن تحقن الدماء . وزوده بما زود به الرسولين من قبل . ولكن ملك شومان فهم الموقف على غير حقيقته وخيل إليه أن قتيبة أضعف من أن يناوئه وأنه ما لجأ إلى المفاوضة إلا ضعفاً فرفض الصلح على الرغم مما كان بينه وبين صالح من الصداقة فلم يجد قتيبة بداً من مقاتلته ، فحاربه حتى هزمه واستولى على المدينة وما فيها عنوة ^(٢) .

ثم وجه جنوده إلى كش ونسف ومر في طريقه بالفارياب فامتنعت عليه فأحرقها وسميت المحترقة ^(٣) .

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٣٠ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ وابن الأثير ج٤ ص ١١٨ وابن خلدون ج٣ ص ٦٢ .

(٣) الطبري ج٥ ص ٢٤٢ وابن الأثير ج٤ ص ١١٨ .

وسير قتيبة من كُش ونسف أخاه عبد الرحمن إلى ملك الصغد فقبض الجزية المتفق عليها فيما سبق .

ولعل إرسال قتيبة هذا كان لاختبار ملك الصغد الذي كان قد بلغه عنه أنه خالع للطاعة .

ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه أن الصغد قالت بعد رجوع عبد الرحمن لملكها : إنك قد رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك . وقبضوا عليه فحبسوه وولوا غوزك .

وبعد أن أخذ عبد الرحمن الجزية رجع إلى قتيبة ببخارى وكان قد سار إليها من كُش ونسف وقفل قتيبة بعد ذلك إلى مرو وكان ذلك في سنة إحدى وتسعين (١) .

ساعد المسلمين في فتح خوارزم النزاع القائم فيها بين الملك وأخيه الأصغر فقد نفص هذا على أخيه حياته فلم يترك سبيلاً لمشاكسته إلا سلكه . يضاف إلى ذلك العداء المستمر بين ملك خوارزم شاه وخام جرد المجاور له .

فرأى ملك خوارزم أن خير وسيلة للتخلص من هؤلاء الأعداء هو الإرسال إلى قتيبة فبعث إليه سرّاً يطلب منه أن يحضر إلى بلاده لحمايته ، فسارع قتيبة بالتوجه إليه وأظهر أنه يريد الصغد . وكما خدع قتيبة أهل خوارزم فقد خدعهم ملكهم بأن أكد لهم أن قتيبة لا يقصدهم وأنه خارج للصيد والقنص والتتبع بمظاهر الطبيعة في فصل الربيع .

وبهذا الصنيع تمكن قتيبة بسهولة أن يصل إلى هزراسب وعند ذلك شعر أهل خوارزم بدنو العدو من بلادهم فاستشارهم الملك فيما يفعل فأشاروا بالقتال ولكنه أبى عليهم ذلك مبيناً أنه قد عجز عنه من هو أقوى منهم فالواجب أن يقدموا إليه قرابين الطاعة والإخلاص وتم الاتفاق بين قتيبة وملك خوارزم على ما يأتي :

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٤٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٢ .

١ - أن يتمكن ملك خوارزم من أخيه الأصغر .

٢ - أن يساعده على خام جرد الذي طالما ناصبه العداء .

٣ - دفع جزية يؤديها ملك خوارزم لقتيبة .

وقد قام كل من الفريقين بتنفيذ ما عليه من شروط الاتفاق فأرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد فقتله وغلب على أرضه وسلم إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع ملك خوارزم أموالهم إلى قتيبة وأدى إليه الجزية عن طيب خاطر وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين ^(١) .

ولكن أهل مملكته لم يرضهم هذا العمل واعتبروا هذا ضعفاً من الملك فوثبوا إليه وقتلوه ^(٢) .

وبعد أن انتهى قتيبة من أمر خوارزم نمت إليه الأخبار بأن الصغد قد تقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ، فجهز الجيوش وخطبهم خطبة حثهم فيها على الاستبسال والاستماتة في القتال قال فيها : « إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن وهذه الصغد شاغرة برجلها وقد تقض أهلها العهد الذي كان بيننا وبينهم ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون وصنعوا به ما بلغكم وإني أرجو أن تكون الصغد وخوارزم كقريظة والنضير ومن نكث فإنما ينكث على نفسه فسيروا على بركة الله » فسار عشرون ألفاً على رأسهم أخوه عبد الرحمن ولحق به قتيبة بعد ثلاثة أيام وقدم معه أهل خوارزم وبخارى فقاتلوا الصغد وحصروهم نحو الشهر وخاف أهل الصغد طول الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش وخاقان الترك وأخشاد فرغانة : إن العرب إذا ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم ومهما كان

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٧ والطبري ج ٥ من ص ٢٤٦ - ٢٤٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٣ والعيني ج ١١ ص ١٨٦ ودحلان ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) فتوح البلدان ص ٤٢٧ والطبري ج ٥ ص ٢٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٣ .

عندكم من قوة فابذلوها .

ففكروا وقالوا : إنما نؤتي من سفلتنا لأنهم لا يجدون كوجدنا : فانتخبوا من أبناء الطبقة العليا عددًا للخروج وجعلوا عليهم ابنًا لخاقان وأمروهم أن يبيتوا عسكر قتيبة وهو مشغول بحصار سمرقند ، فساروا قاصدين معسكر قتيبة .

بلغت هذه الخطة قتيبة فدبر لهم مكيده تمكن بها من إحباط خطتهم بل وقتلهم وأسرهم .

وذلك بأن أرسل إليهم أخاه صالح في الطريق وأمن لهم كينين . فلما جاؤا وجدوا صالحًا فحملوا عليه واقتتلوا وبينما هم في القتال خرج إليهم الذين كنوا وأعملوا فيهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلا القليل وغنموا منهم مغانم عظيمة .

علم الصغد بما حدث فضعفت نفوسهم ونصب قتيبة المجانيق على المدينة ورماهم فثلم السور واشتد في قتالهم فسئم أهل الصغد القتال ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب العرب فأرسلوا إلى قتيبة يلتمسون منه الصلح فقال حتى يبلغ الجيش الثلثة وحمل الجيش عليهم إلى أن تمكن من بلوغها وحينئذ قبل قتيبة الصلح على الشروط الآتية .

أولاً : أن يدفع أهل الصغد في كل عام مليونين ومائتي ألف مثقال ^(١) .

ثانيًا - أن يدفعوا في هذا العام ثلاثين ألفًا من فرسانهم ^(٢) .

ثالثًا - أن تخلى المدينة لقتيبة فلا يكون فيها مقاتل حتى يبني قتيبة فيها مسجدًا ويصلي فيه .

(١) ابن الأثير ج٤ ص ١٢٧ وابن خلدون ج٣ ص ٦٣ والطبري ج٥ ص ٢٥١ وابن كثير ج٩ ص ٨٥ ودحلان ج١ ص ١٩٨ .

ويروي البلاذري في فتوح البلدان ص ٤٢٧ أنه صالحهم على مليونين ومائتي ألف درهم أو سبعمائة ألف درهم فقط

(٢) الطبري ج٥ ص ٢٥١ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٧ وابن خلدون ج٣ ص ٦٣ وابن كثير ج٩ ص ٨٥ ودحلان =

رابعًا - الاستيلاء على بيوت النيران وحلّية الأصنام ^(١) .

فأعطوه ما شرطه فأخذ الحلّية وأحرق الأصنام .

وقد حاول غزوك - ملكهم - أن يمنع من حرقها بحجة أن من أحرقها هلك وأبان له أنه مشفق عليه فلم يبال قتيبة ونفذ ما أراد مما كان سببًا في إسلام الكثير من الناس ^(٢) .

ولما أحرقها جمع بقايا مساميرها وكانت ذهبًا فبلغت خمسين ألف مثقال . ثم أراد أن يقيم حامية في المدينة لحفظ الأمن والنظام فأرسل إليهم حين دخلها وبنى المسجد يقول : من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه فياني لست خارجًا منها ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه غير أن الجند يقيمون بها ^(٣) .

ففرى أن قتيبة لم يلزم أحدًا بالخروج بل من أراد أن يساكن الجند فلا ضير عليه في ذلك ومن لا يريد فلا حرج عليه فإنه عند شرطه معهم في أنه سوف لا يأخذ إلا ما صالحهم عليه .

وقد اتخذ قان قلوثن ^(٤) صنيع قتيبة هذا مثلاً حيًا للاستدلال على أن العرب في ذلك الوقت لم يكن يحفزهم للفتوح الدافع الديني بل شن الغارات والسلب والنهب وأنهم لا وفاء عندهم بل كانوا كثيرًا ما يشنون الحرب على بعض الولايات قبل أن تعلن الحرب عليهم بل قبل أن تنقض المعاهدة .

= جـ ١ ص ١٩٨ وقيل إنه صالحهم على مائة ألف رأس . نفس المصادر .

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ٢٤٩ - ٢٥١ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦ ، ٢٧ وابن خلدون ج ٢ ص ٦٣ وفتوح

البلدان ص ٤٢٧ ودحلان ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ وابن كثير ج ٩ ص ٨٥ والعيني ج ١١ ص ٣٨٦ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ والسير توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام ص ٢١٣ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ والطبري ج ٥ ص ٢٥١ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٧ والعيني ج ١١

ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ وابن كثير ج ٩ ص ٨٦ وابن نباتة - سرج العيون ص ١١٥ ودحلان ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) السيادة العربية ص ٢٢ ، ٢٣ .

فيقول : قد فتحت تلك المدينة أبوابها لسعيد بن عثمان بعد أن أبرمت بينه وبينها معاهدة ودفعت له سبعمائة ألف درهم كما قدمت إليه مائة ألف من سكانها رهائن . ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم فطرد أهلها واحتلت جنوده مساكنها - كما روى ذلك مؤرخو العرب - على الرغم من أن سكان هذه المدينة لم يخرجوا على تلك المعاهدة التي كانت بينهم وبين سعيد بن عثمان (١) .

وبرجعنا إلى المصادر نرى أنه حاد عن جادة الصواب في كل عبارته . فإن سمرقند لم تفتح أبوابها لسعيد بن عثمان بل إنه حدث قتال عنيف فقئت فيه عين سعيد .

ولما لم يجد أهل المدينة بداً من التسليم وخافوا من الفتح عنوة وما يترتب عليه طلبوا الصلح . ثم انتقضوا بعد ذلك ؛ فسار إليها قتيبة بن مسلم وفتحها (٢) ، فلما فتحها لم يطرد أهلها كما سبق بل خيرهم بين الإقامة والخروج وأخبرهم أنه سيضع جنداً بها .

ولو نظر قان قلوتن إلى هذا العمل - بروح المؤرخ النزيه - لوجد أن بقاء الجند في المدينة تبرره الظروف والملابسات ، فقد نقضوا العهد غير مرة وكانوا يدعون أنهم مسلمون ثم لا يلبثون أن يشقوا عصا الطاعة على الخليفة عندما تنسحب جيوشه الفاتحة من البلاد (٣) .

وسوف لا أرجع بالقارىء إلى بعيد بل إلى عهد قتيبة بن مسلم فإننا قد رأينا أن وردان خداه - ملك بخارى - استنجد بملك الصغد ضد قتيبة في سنة تسعين فلبى طرخون الطلب .

(١) السيادة العربية ص ٢٣ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤١٨ .

(٣) توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام ص ٢١٣ .

وطبعي أن انضمامه إلى عدو قتيبة يعد نقضاً للصلح . ولما انهزم ملك بخارى بادر
طرخون إلى طلب الصلح من قتيبة قبل أن يشن عليه حرباً جزاء انضمامه فأجابه
قتيبة إلى الصلح . ولم يعاقبه بغزو بلاده بل كان مسلماً حقاً . ولم يرض ذلك الصلح
أهل الصغد الذي عقده ملكهم ونددوا عليه في قبول الجزية وحبسوه وولوا غوزك
أصبح بعد هذا أن يقول ثاقب فلولتن : « على الرغم من أن سكان هذه المدينة لم
يخرجوا على تلك المعاهدة التي كانت بينهم وبين سعيد بن عثمان؟! وهم قد خرجوا
في عهد قتيبة مرتين بانضمامهم إلى عدو قتيبة أولاً وعدم رضاهم بالمعاهدة التي عقدها
ملكهم ثانياً ؟ وقد كان حبسه بسبب تلك المعاهدة لا غيرها فقد قالوا له : إنك قد
رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك .

وبعد هذا يعاب على قتيبة في تركه حامية لضمان عدم خروجهم وشغلهم جيوش
المسلمين بين كل حين وآخر؟؟ ولقد كان قتيبة يود إسلامهم فقد قال في غزوته
هذه : حتى متى ياسمرقند يعيش فيك الشيطان ؟ (١) .

وقد أصاب قتيبة بالصغد جارية من ولد يزدجرد اسمها شاهمفريد فأرسلها إلى
الحجاج وأرسلها الحجاج إلى الوليد فولدت له يزيد (٢) .

وقد قصّد الشعراء القصائد في فتح سمرقند فقد قال قتيبة لنهار بن توسعة أين
قولك :

ألا ذهب الغسزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يا نهار ؟ قال هذا أحسن وأما الذي أقول :

وما كنا مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

(١) الطبري ج٥ ص ٢٥٣ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٧ ودحلان ج١ ص ١٩٨ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢٥٢ وابن الأثير ج٤ ص ١٢٧ ودحلان ج١ ص ١٩٨ وابن خلدون ج٢ ص ٦٣ والعيني

ج١١ ص ٣٨٨ والهمداني ص ٢٠٩ وابن نباتة ص ١١٥ .

أعم لأهل الشرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مقسماً بعد مقسم^(١)

كان قتيبة حينما غزا بخارى ولى على حربها إياس بن عبد الله وعلى خراجها عبيد الله بن أبي عبيد الله - مولى بني تميم - فاستضعف أهل خوارزم إياساً وجمعوا له الجموع فكتب عبيد الله إلى قتيبة بالخبر فبعث قتيبة أخاه عبد الله عاملاً وأمره أن يضرب إياساً وحيان النبطي مائة مائة ويحلقيها ، فلما قرب عبد الله من خوارزم أرسل إلى إياس إنذاراً فتنحى وقدم فضرب حيان وحلقه .

ثم وجه قتيبة الجنود إلى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله فحاربهم وانتصر عليهم ف عقدوا معه صلحاً^(٢) .

وأراد قتيبة أن يغزو الشاش وفرغانة لمحاولتهم مساعدة ملك الصفد وحفز همهم لحرب العرب ففرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل سير منهم عددًا عظيمًا إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة ونزل بالقرب من خجندة . فخرج أهلها لمقاومته ودارت بينهم معركة كان النصر فيها حليف قتيبة ثم توجه إلى كاسان عاصمة فرغانة والتقى عندها بالجيوش التي كان قد وجهها إلى الشاش وكانوا قد فتحوها .

وزحفوا جميعًا إلى كاسان ودارت معركة حامية الوطيس أسفرت عن الانتصار العظيم للمسلمين .

وبذلك أصبحت بلاد فرغانة في قبضة المسلمين وكان ذلك في سنة أربع وتسعين للهجرة^(٣) . وفي هذا الوقت بعث الحجاج جنودًا من العراق ليتمكن قتيبة من إتمام

(١) راجع الطبري ج ٥ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٣ وابن خلكان ج ١ ص ٥٤١ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٥٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٨ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٣ ودحلان ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣١ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٤ ودحلان ج ١ ص ١٩٩ .

مغازيه فوصلوا إليه وغزا بهم فلما كان بالشاش أتاه نبأ موت الحجاج في شوال من سنة خمس وتسعين فغمه هذا النبأ وقفل راجعاً إلى مرو ، منتظراً ما تأتي به الأقدار وممثلاً بقول القائل :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أغلقته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتك طائل

وبينما هو في حيرته إذ أتاه كتاب الخليفة الوليد يقول له : قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تَغَيَّبْ عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والشجر الذي أنت به ^(١) .

وكان الحجاج قد كتب إلى قائديه - قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم - أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها ^(٢) .

فلما وصل قتيبة في فتوحه إلى هذا الحد وجه عزمه إلى فتح مدينة كاشغر - أدنى مدائن الصين - فأعد جيشاً عظيماً وعبر نهر بلخ وجعل على المجاز مسلحة تمنع الراجع من العسكر إلا إذا كان معه جوازاً من قتيبة .

وبعث جيشاً مع كثير بن فلان إلى كاشغر فدخلها وغنم منها مغانم كثيرة وأسر كثيراً من الرجال فختم أعناقهم واستمر في سيره .

هال ذلك الأمر ملك الصين فكتب إلى قتيبة يطلب منه إرسال وفد من أشراف العرب ليسألهم عن حالهم ودينهم ، فانتخب قتيبة عشرة من أشراف الناس عليهم هبيرة بن المشرخ وزودهم بالعدة الحسنة والخيول المطهمة وقال لهم : أعلموا ملك الصين أنني حالف ألا أعود حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبي خراجهم .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٣ .

فلما قدموا على ملك الصين دعاهم لمقابلته وفي حضرته عظماء أهل مملكته وقال لهم : لقد رأيتم عظمة ملكي وأنتم بين يدي وليس لكم من يمنعكم من بطشي ، وقد عرفت قلتكم فقولوا لصاحبكم ينصرف . وإلا بعثت إليكم من يهلككم : فقالوا له : كيف نكون في قلة وأول خيلنا في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟! وأما القتل فلا نخافه ولا نكرهه ولنا آجال إذا حضرت فلن نتعدها . وقد حلف صاحبنا أنه لا ينصرف حتى يوطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ جزيتكم : فقال الملك إنا نخرجه من يمينه وذلك بأن نبعث إليه تراباً من أرضنا ليطأه ويقبض أبناءنا فيختبهم ونبعث إليه هدية ترضيه . ثم أجازهم فأحسن جائزتهم وقدم الوفد على قتيبة بما بعث به ملك الصين فقبل الهدية وختم الغلمان وردهم .

وعزم على الرجوع إلى مرو بما أفاء الله عليه فبلغه موت الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ست وتسعين للهجرة ^(١) .

خاتمة حياة قتيبة :

لقد كانت نهاية فاتح بخارى وسمرقند وخوارزم وكاشغر مثل نهاية غيره من عظماء التاريخ فإنه لما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك خاف قتيبة على نفسه وخشي أن ينتقم منه لأنه من صنائع الحجاج بن يوسف البغيض إلى سليمان من جهة ولأنه من الذين وافقوا على بيعه الوليد لابنه عبد العزيز وخلع سليمان من جهة أخرى ^(٢) وتوقع أن يولى سليمان يزيد بن المهلب خراسان وهو العدو اللدود للحجاج ومن ينتمي إليه فكتب إلى سليمان ثلاثة كتب في وقت واحد . كتاباً يهنيه فيه بالخلافة ويعزّيه في الوليد ويذكر فيه بلاءه وأعماله وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه سيكون له كما كان لأبيه وأخيه من الطاعة وحسن البلاء إذا رأى أن لا يعزله .

(١) الطبري ج ٥ من ص ٢٦٨ - ٢٧١ وابن الأثير ج ٤ من ص ١٣٥ - ١٣٧ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٧ وابن

شاعر ج ٥ من ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ وشرح العيون ص ١١٦ ودحلان ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٦٧ وابن الأثير ج ٤ ص ١٢٨ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٢٨ وابن شاعر ج ٥

ص ٢٨٩ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٨ وابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٨ ودحلان ج ١ ص ٢٠١ .

وكتابًا ثانيًا يذكر فيه فتوحه ونكايته بالعدو ، وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعن سليمان . وكتابًا ثالثًا فيه خلعه ^(١) .

وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له : ادفع الكتاب الأول إلى الخليفة فإن كان يزيد بن المهلب حاضرًا فقرأ الخليفة الكتاب ورماه إلى يزيد فادفع إليه الثاني فإن قرأه ورماه فادفع إليه الثالث ، وإن قرأ الكتاب الأول ولم يعطه ليزيد فاحتبس الكتابين الآخرين .

فخرج الرسول وسار إلى سليمان فقدم عليه وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه فأعطاه ليزيد فدفع إليه الثالث فقرأه فتغير لونه وامتقع وجهه واحتبسه في يده .

وأمر بالرسول فحول إلى دار الضيافة ثم أحضره في المساء فأجازه وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بحلول بلوغه ما كان من أمر قتيبة ^(٢) .

فإن قتيبة كان غير مطمئن إلى سليمان وكان موقنًا أنه سيناله ما نال آل الحجاج سيما وأن الكتب التي أرسلها كانت تحوي تهديدًا قويًا من جانبه ، فثارت الهواجس في نفسه وأشار عليه بعض إخوته بخلع سليمان فخلعه ودعا الناس والقبائل إلى خلعه وقارن بين نفسه ومن سبقه في ولاية خراسان وبينهم أن سليمان ممن لا يرجى لخير ولكن الناس أبوا عليه خلع سليمان .

ولما لم يجبه أحد إلى ما أراد ثارت ثائرتة وغضب فشم الناس قبيلة قبيلة فتحزب الناس ضده وأسندوا أمرهم إلى وكيع سيد بني تميم وثاروا على قتيبة حتى

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٧٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٩ والعيون والحدائق ج ١ ص ٢٣ وشرح العيون ص ١١٧ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٨ وابن كثير ج ٩ ص ٢٢٧ ويروى أن الكتاب الأول كان وقية في يزيد وقلة شكره والثاني ثناء على يزيد والثالث يهدد فيه الخليفة بالخلع إن عزله . الطبري ج ٥ ص ٢٧٤ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٧٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٩ وابن شاعر ج ٥ ص ٢٩١ .

قتلوه هو وإخوته وأكثر آل بيته (١) في سنة ست وتسعين .

وبذلك انتهت حياة هذا القائد الذي برهن على حزم وعزم في مدة ولايته .

وضاغت حياة ذلك الفاتح العظيم الذي كان له أعظم الأثر في مد نفوذ دولة الإسلام والفتوحات التي تشهد له بالقدرة مما جعله مهاباً لدى الترك والعجم فقد قال الإصهبي لرجل : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيدا العرب ؟! قال العربي : فأيهما كان أعظم عندهم وأهيب ؟؟ قال : لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر به في الأرض مكبلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا والياً علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد .

وقال رجل من أهل خراسان : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ؟؟ لو كان قتيبة مناهات فإنا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر (٢) .

وقد رثاه الشعراء بقصائد تدل على عظم قدره وما له من المكانة (٣) .

ورب قائل يقول : إن قتيبة هو الذي قتل نفسه بما صنع من إرساله للكتب وخلعه للخليفة وسبه للقبائل سباً لم يطيقوا معه صبراً فهو الذي يتحمل تبعه قتل نفسه .

وفي رأينا أنه كان مسئولاً ولكن إلى حد . فقد ركب المركب الصعب ووقف من

(١) راجع الطبري ج٥ من ص ٢٧٥ - ٢٨١ وابن الأثير ج٤ من ص ١٣٩ - ١٤١ والبلاذري - فتوح البلدان من ص ٤٢٨ - ٤٣٠ وابن خلدون ج٣ ص ٦٨ ، ٦٩ وابن شاعر ج٥ ص ٢٩٢ والجاحظ ج٢ ص ٦٧ والعيون والحدائق ج٣ ص ٢٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢٨٣ وابن الأثير ج٤ ص ١٤٢ وابن شاعر ج٥ ص ٢٩٤ والعيون والحدائق ج٣ ص ٢٤ ودحلان ج١ ص ٢٠١ .

(٣) راجع الطبري ج٥ من ص ٢٨٣ - ٢٨٥ وابن الأثير ج٤ ص ١٤٢ وابن كثير ج٩ ص ١٦٨ .

الخليفة هذا الموقف وهو يعلم أنه لابد معزول . فرأى أن يكون البادىء بالهجوم على
الخليفة .

ولكن أساء تقدير العرب المحيطين به إذ أسرف في حسن الظن بهم فخيّل إليه
أنهم متابعوه على خلع الخليفة .

فلما أبوا عليه ذلك طاش عقله وتحقق من سوء خاتمته فجرى على لسلنه سب
القبائل العربية والمن عليهم بما أغدقه الله عليهم من نعم على يديه . فكانت خاتمته
ما رأينا .

الفصل الثالث

محمد بن القاسم في السند وفتوحاته ونهاية حياته

تحدثنا المصادر العربية عن فتح العرب للسند مرات عدة ؛ ويجدر بنا قبل الكلام عن فتوح محمد بن القاسم للسند أن نقرر أن السند التي عرفها العرب تختلف في موقعها الجغرافي عن الإقليم الذي يطلق عليه هذا الاسم في العصر الحديث .

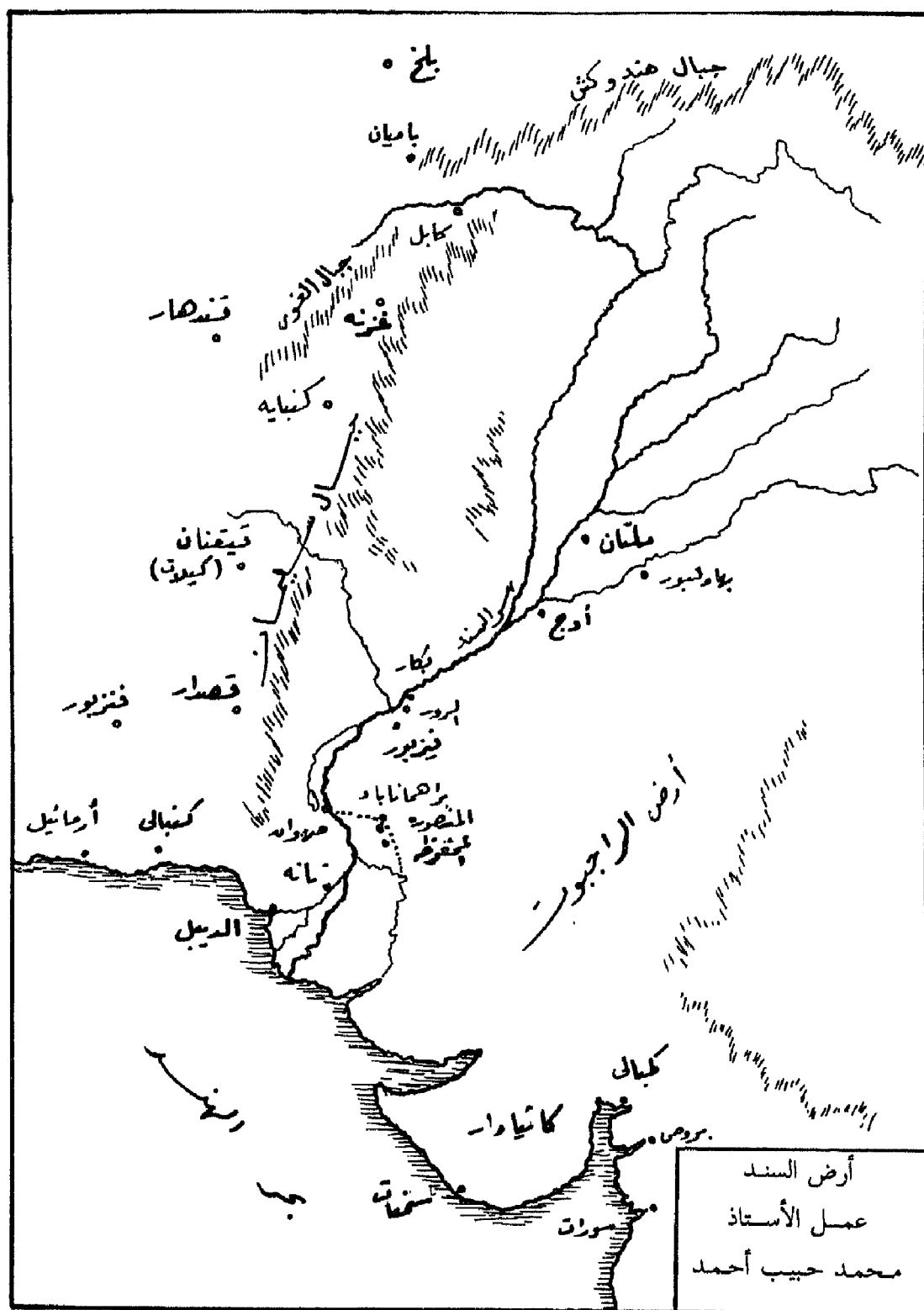
فالسند اليوم هي عبارة عن المجرى الأدنى لنهر السند من مدينة الملتان إلى كراتشي عند المصب .

أما في القرن الأول الهجري فكانت بلاد السند تشمل السند الحالية ووادي البنجاب (أرض الأنهار الخمسة) وتمتد غربًا حتى تصل إلى هرات فتشمل بذلك البلاد المعروفة اليوم بأفغانستان وتتجه جنوبًا إلى أن تصل إلى بحر العرب فتشمل بذلك بلوختان الحالية .

وتنقسم السند - التي عرفها العرب - إلى إقليمين طبيعيين أحدهما شرقي جبال سليمان وهو خصب أهل بالسكان منذ القدم (وهو المعروف اليوم بالسند والبنجاب) .

وثانيهما قاحل ماحل كثير التضاريس واقع في الغرب من جبال سليمان (وهو المعروف اليوم بأفغانستان وبلوختان) .

وإذا نظرنا إلى الفتوحات العربية التي امتدت شرقي بلاد فارس وجدنا أن العرب قد حاولوا في مناسبات متعددة أن يتوغلوا داخل إقليم السند الغربية فكانوا بين أن وآخر يصيبون فتحًا وفيئًا ثم لا تلبث الحامية العربية أن تستعصى عليها سبل الحياة أو يقوم السكان الوطنيون عليهم بشورة يتقلص بها نفوذ الإسلام ثم لا يلبث المسلمون بعد ذلك أن يقوموا بغزو جديد يكون في الغالب مصيره مصير ما سبقه من غزو .



وكان من التقاليد - في ولاية العراق أو في مقر الخلافة - أن يعين أحد العرب الناهيين واليًا على السند .

وظاهر مما ذكرناه من ظروف أن تولية أحد العرب ولاية السند لم يكن معناه أن السند خضعت للعرب خضوعًا تامًا حتى يعين لها حاكم سياسي . كما يجب أن يستقر في الأذهان أن تعيين حاكم السند لم يكن معناه بحال من الأحوال أن يرى هذا الحاكم بلاد السند الحالية رأى العين .

فمن ذلك أن الحجاج لما ولي العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة أسند ولاية السند إلى أسلم بن زرعة الكلبي فأقام بمكران ؛ ولم تستطع المصادر العربية أن تحدثنا بأكثر من ذلك اللهم إلا قولها (وغزا ناحية من الهند) . أما في حديثها عن الشؤون العربية فتفيض في هذه الناحية فتحدثنا عن خروج محمد ومعاوية ابني الحارث العلافيين على سعيد وقتلها له وأن الحجاج أرسل إليهما جماعة بن سعر التيمي ففتح جماعة أماكن من قنڊايل .

ثم مات بعد سنة بمكران فولى الحجاج بعده محمد بن هارون بن ذراع النمري فسار إلى مكران وغزا في البلاد وظفر مرة بعد أخرى ^(١) ؛ ومن ذلك يستدل على أن مؤرخي العرب لم يستطيعوا - لأسباب خارجة عن إرادتهم - أن يحدثونا عن كنه الفتوحات الإسلامية في ذلك الإقليم إن كانت ثمت فتوحات .

على أنهم يقررون أن العرب لم يحاولوا فتح السند الحقيقية قبل عصر الحجاج اللهم إلا تلك المحاولة الكشفية التي قام بها المهلب بن أبي صفرة في سنة أربع وأربعين من الهجرة حيث توغل من كابول شرقًا حتى دخل بلادًا بين كابل والملتان ثم عاد ^(٢) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤١ وابن الأثير - الكامل ج ٤ ص ٣٦ وابن خلدون ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ وابن الأثير - الكامل ج ٣ ص ٢٢١ .

ويبدو من ظروف الحوادث أن تقريره الذي رفعه إلى دار الخلافة كان من النوع الذي لا يشجع العرب على إرسال بعوث جديدة إلى تلك الجهات .

وفي تقديرنا أن محاولة فتح العرب للسند (شرقي جبال سليمان) عن طريق كابول كانت محاولة محفوفة بالمخاطر إذ إن حال الإسلام لم يكن قد استقر في إقليم السند (غربي جبال سليمان) .

أما الفتح المنتج لتلك البلاد فكان يجب أن يأتي عن طريق السهل الساحلي الواقع على بحر العرب المعروف وقتئذ بساحل مكران ؛ وهذا هو الطريق الذي سلكته جيوش الحجاج .

حاول محمد بن هارون بن ذراع النمري أن يدخل السند الحقيقية عن طريق السهل الساحلي فوصل إلى دلتا نهر السند يريد الديبل فعلم ملكها بقدومه فجمع له جيشاً وحدثت معركة قتل فيها محمد بن هارون ^(١) .

كان يحكم بلاد السند في ذلك الوقت أمير هندوسي هو راجاداهر وكانت عاصمته مدينة ألور ^(٢) .

وكان يملك السند والبنجاب بأكملها ويحتمل أنه كان يملك السهول المجاورة وكانت إمارته موزعة بين أقاربه ويحتمل أنها كانت موزعة على الأسلوب الإقطاعي الذي لا يزال معروفاً بين قبائل الراجبوت ^(٣) .

وكان يحكم إقليم الديبل ابن لداهر هو الذي تلقى صدمات العرب الأولى وفي عهده اتجه الحجاج بنظره إلى السند فجرد عليها الحملات للفتح .

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٢ ويروي البلاذري في فتوح البلدان ص ٤٤٢ أنه لم يقتل وأنه تقابل مع محمد بن القاسم .

(٢) ألور بالقرب من بكار جنوبي مدينة الملتان - تاريخ الهند لألفنستون ص ٢٦١ .

(٣) ألفنستون - تاريخ الهند ص ٢٦١ .

ويتخذ المؤرخون لهذه الفتوحات قصة اختلفوا في حقيقة كنهها :

فيروي البلاذري ^(١) . أن ملك جزيرة الياقوت (سيلان) أهدى إلى الحجاج نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات أبائهن وكانوا تجارًا فأراد التقرب بهن فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن - وكانت من بني يربوع - يا حجاج وبلغ ذلك الحجاج فقال : يالبيك .

ويروى أن ملك جزيرة الياقوت كان قد اعتنق الإسلام وأن السفينة التي نهبها القراصنة كانت تحمل الخراج إلى أمير المؤمنين ، ويروى كذلك أن عبد الملك كان قد أرسل إلى الهند بعثًا لشراء بعض الجواري وشيء من سلع الهند وأن السفينة التي كانت تحمل هذا البعث ألقت مراسيها في ثغر الديبل فنهبها اللصوص ^(٢) .

ومهما يكن من أمر فلسنا بصدد تفاصيل الحادث في ذاته بل كل ما يهمنا أنه أحدث أزمة بين داهر والحجاج كان من نتائجها أن اتجهت الفتوحات الإسلامية نحو السند .

كتب الحجاج إلى داهر على يد محمد بن هارون يسأله وضع الأمور في نصابها فقال إنما أحدث ذلك لصوص لا أقدر عليهم فاستأذن الحجاج الوليد في أن يغزو السند فلما أذن له أغزاها عبید الله بن نبهان فقتل فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل فلما لقيهم نفر به فرسه فأطاف به الأعداء وقتلوه ^(٣) .

حملة محمد بن القاسم :

وفي سنة تسع وثمانين من الهجرة ولى الحجاج ذلك الثغر بطلاً من أبطال المسلمين ومحاربًا من خيرة المحاربين ذلكم هو محمد بن القاسم الثقفي فقد تمكن بجراته وحزمه

(١) فتوح البلدان ص ٤٤١ .

(٢) السيوطي هاريج - تاريخ كبرج ج ٣ ص ٢ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤١ .

من فتح السند في سنين قليلة مع أن سبعة من قواد المسلمين لم يتمكنوا من فتحها .
ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن فتوحاتهم كانت بمثابة مناوشات واستطلاعات
كشفية .

أما الفتح الحقيقي الذي بقي زمنًا ثابت الأركان فقد كان بطله محمد بن القاسم
وذلك لأنه تمكن من امتلاك البلاد والاستيلاء عليها .

ويبدو لنا أن الحجاج كان يُولي هذا البعث كل عنايته وكان يهتم بمصيره كل
الاهتمام فنراه لا يعتمد فيه على جند العراق بل يجند له ستة آلاف من جند الشام
يستطيع من أراد من أهل العراق وفارس أن ينضم إليه .

ورغبة منه في أن يكفل لهذا الجيش كل وسائل الراحة والتموين جهزه بكل ما
يحتاج إليه حتى الخيوط والمسال والإبر^(١) .

وأراد الحجاج أن يوفر لرجال جيشه الخل ليطبخوا به ويصطبغوا فهداه تفكيره
إلى أن ينقع القطن في الخل ويجففه في الظل حتى إذا صار الجند بالسند نقعوا
القطن في الماء فصار خلًا^(٢) .

وبلغ من عناية الحجاج بهذه الحملة أن هيا لها كل الوسائل التي تكفل لها الفتح
والاستقرار فبعث معدات الحصار - في سفن خرجت من الخليج الفارسي وألقت
مراسيها عند ثغر الديبل في الوقت الذي كانت قد وصلت فيه الجيوش البرية ؛ ومن
تفاصيل الحملة التي اتبعها الحجاج - رغبة منه في الاطمئنان على مصير هذه الحملة -
أنه أوصى محمد بن القاسم أن يوافيه بكتبه كل ثلاثة أيام^(٣) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤١ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ ودحلان ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٢ ويروي أن محمد بن القاسم لما صار إلى السند ووجد الخل بها قليلاً

كتب إلى الحجاج يخبره بذلك فبعث إليه القطن المنقوع في الخل - نفس المصدر .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٢ .

وأمر محمد بن القاسم - وكان بفارس - أن يسير إلى مكران وأن يتابع الساحل حتى يصل إلى الديبل فقدمها يوم الجمعة ووافته السفن التي حملت معدات الحصار ومن بينها المنجنيق الذي كان يعرف باسم العروس ويقوم عليه خمسمائة رجل .

وقف العرب على أبواب المدينة وقد شاهدوا إلى جانبها معبدًا يحيط به جدار من الحجر ويأوي إليه كثير من أهل الطبقة العليا من الهندوس ويحرسه حرس كبير من الراجبوت فاتجه محمد بن القاسم إليه قبل أن يتجه إلى المدينة رغبة في تحطيم ما بداخله من الأصنام .

وقيل إن محمد بن القاسم قد علم من بعض الأهالي أن القوم يعتقدون أن منارة المعبد إذا تهدمت آمن الناس بالفتح ، فوجه ابن القاسم ضرباته نحو الهدف فما تحطمت المنارة إلا ودب الرعب والاضطراب في جميع القلوب وإذا بحاكم المدينة يفر منها نحو الشمال .

أما أهل المدينة فقد فتحو أبوابها للغزاة المسلمين ^(١) .

وقيل إن المدينة لم تستسلم للفتح بهذه السهولة والسرعة وإنما أغلق أهلها أبوابها عليهم واعتصموا بها ولكن هذا الاعتصام لم ينجهم إذ أمر محمد بن القاسم بالسلام فوضعت على سور المدينة وصعد عليها الرجال واقتحموا المدينة وأعملوا السيوف في رقاب الأعداء ففتكوا بهم فتكًا ذريعًا ^(٢) .

ويفصل بعض المؤرخين ذلك فيروى أن محمد بن القاسم عرض الإسلام على أهل الديبل - بما فيه من عملية الختان - فرفض البراهمة وتابعهم بقية الشعب فأعمل محمد السيف في كل رجل زادت سنه عن سبع عشرة سنة وأسر كل من قلت سنه عن ذلك .

(١) الفنتون ص ٢٦٢ وراجع البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٢ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ واليعقوبي ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٠ ودحلان ج ١ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٢ واليعقوبي ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ وابن خلدون ج ٣ ص ٦٠ .

أما النساء فقد أسرن جميعاً (١) .

وقد غنم المسلمون من البدو والمدينة غنائم لا تحصى أرسل الخمس منها للحجاج ووزع الباقي على المحاربين .

وجه ابن القاسم بعد ذلك عنايته لإصلاح المدينة فبنى مسجداً لإقامة الشعائر الدينية وخلف بها حامية (٢) ثم اتجه نحو الشمال متابعاً حاكم المدينة الذي فر من وجهه .

وتقدم ابن القاسم حتى وصل (حيدر أباد السند) ولكن أهلها كفوا المسلمين عناء الفتح إذ كاتبوا الحجاج قبل ذلك في طلب الأمان والصلح فدخل ابن القاسم المدينة فقابله أهلها بمقابلة حسنة وقدموا له العلوقة ووفوا بالصلح وجعل محمد لا يمر بمدينة إلا فتحت له أبوابها (٣) حتى أتى صهوان فحاصرها .

وعلى الرغم من استعداد المدينة للمقاومة وقعت في يد العرب بعد سبعة أيام (٤) .

وإلى هذه المرحلة كان محمد بن القاسم لم يلق عناءً كبيراً في هذه الفتوحات إذ كان مسيره في واد زراعي محدود الأهمية بينما كانت بلاد داهر الحقيقية واقعة إلى الشمال من ذلك فكان ابن القاسم كلما سار شمالاً اقترب من مراكز المقاومة العنيفة دفاعاً عن كيان البلاد الأصلية .

جهز داهر أكبر أبنائه لتنظيم المقاومة بينما كانت ظروف محمد بن القاسم تستدعي شيئاً من الراحة وانتظار المدد وتجديد العدة . وقد وافاه وقتئذ ألفا فارس من بلاد الفرس اتجه بهم شمالاً على الضفة الغربية للنهر حتى حاذى مدينة ألور (بكار الحديثة) الواقعة على الضفة الشرقية للنهر حيث اعتصم الهندوس تحت زعامة ابن داهر فعبر ابن القاسم النهر بوسيلة أرعبت الهندوس : ذلك أنه قاس بنظرة عرض

(١) ألفنستون ص ٢٦٢ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٣ وابن الأثير جزء ١ ص ١١١ ودحلان جزء ١ ص ١٨٩ .

(٣) ألفنستون ص ٢٦٢ .

النهر ثم جاء بسفن ربطها ببعضها محاذية لشاطئ النهر حتى كان طول هذا الجسر من السفن مساوياً لعرض النهر ثم أقام الجسر فجأة وعبرت عليه جنوده فأرعبت هذه المفاجأة الهندوس ودارت بين الفريقين معركة هرع فيها داهر بنفسه إلى الوقوف بجانب رجاله البالغ عددهم نحو الخمسين ألفاً

وبذلك دارت رحى معركة كانت الغلبة العددية فيها للهندوس يقابلها من جانب المسلمين ثبات وصبر واعتماد على الله واستشهاد في سبيله .

ودام القتال طويلاً فكانت الحرب سجالاً إلى أن أصابت قذيفة من قذائف المسلمين الفيل الذي كان يعتليه داهر فجمع الفيل وعليه راكبه فلم تهدأ ثائرته إلا بعد أن ألقى بنفسه وراكبه في النهر .

ولقد أحدث هذا المصاب الذي أصاب داهر خللاً خطيراً في صفوف الهندوس وعلى الرغم من أن داهر استطاع أن يعود إلى ميدان القتال على ظهر جواد إلا أن الغلبة كانت قد صارت للعرب وظل داهر يحارب حتى سقط في ميدان القتال ؛ وبذلك كسب المسلمون الموقعة ^(١) وفر ابن الراجا داهر .

وبعد فراره قامت زوجته بعمل باهر فإنها جمعت شعث الجيش وحاولت مقاومة الفاتحين فحاصر المسلمون المدينة وقطعوا عنها الأرزاق فصم الهندوس على المقاومة إلى النهاية فأوقدوا نارا أحرقوا فيها الأطفال والنساء .

أما الرجال ففتحو أبواب المدينة ودار بينهم وبين العرب معركة مخيفة فني فيها الهندوس عن آخرهم ولم يبق منهم إلا قلة رفضت المشاركة في هذه المغامرة فوقعوا أسرى في يد المسلمين .

اتجه ابن القاسم بعد ذلك شمالاً إلى أن أشرف على وادي البنجاب فكان قلماً يلتقى مقاومة تذكر .

(١) ألفنستون ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ وراجع اليعقوبي ج ٣ ص ٣٢ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ .

ذلك أن داهر الملك الأعلى للبلاد كان قد قتل أما ابنه الأكبر فكان قد فر جنوبًا إلى براهناباذ وبذلك استطاع ابن القاسم أن يدخل الملتان ^(١) .

وكان محمد بن القاسم يوافي الحجاج بكتبه كل ثلاثة أيام ويرسل إليه خمس الغنائم ؛ ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم ووجد ماحمل إليه مائة وعشرين ألف ألف فقال : شفيننا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر ^(٢) .

ومات الحجاج فأتت محمدًا وفاته فرجع من الملتان إلى ألور منتظرًا ما تأتي به الأقدار فكتب إليه الخليفة الوليد : إني أعرف همتك وعزمك فسر في طريقك ووافني بالكتب حتى كأني أنظر إلى الثغر الذي أنت فيه .

فبعث ببعوثًا إلى جهات مختلفة فتحتها واستولت عليها غير أنها كلها كانت فتوحات محلية تختلف في طابعها عن الفتوحات التي قام بها أيام الحجاج إذ كان ابن القاسم في أيامه يجد في السير نحو الشمال ولعله كان وقتئذ يرجو أن ينتهي من فتح السند والبنجاب وأن يجاوزهما إلى كشمير في طريقه إلى الصين كما كان يفعل قتيبة بن مسلم في فتوحاته فيما وراء النهر في نفس الوقت .

ولعل كلا منها كان يرجو أن يصل إلى الصين قبل صاحبه اعتاذًا على ما ذكره الحجاج في خطابه « أيكما سبق إلى الصين فهو عاملها » ^(٣) .

(١) ألفنستون من ص ٢٦١ - ٢٦٤ وراجع اليعقوبي ج ٢ ص ٣٣ وابن الأثير ج ٤ ص ١١١ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ وابن خلدون ج ٣ ص ٦١ .

وقد أثرنا أن نعتمد على تحقيقات ألفنستون لأن المصادر العربية في حديثها عن فتوحات السند اضطربت بعض الاضطراب ؛ ولها العذر في ذلك . إذ إن أخبار هذه الفتوحات وما إليها من أسماء المدن كانت كلها غريبة عليهم ؛ وقد دونت هذه الأخبار في وقت لم يكن للعرب في هذه الأقاليم نفوذ يستحق الذكر .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٥ وابن الأثير ج ٤ ص ١١٢ ودحلان ج ١ ص ١٨٩ .

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٣ .

ولكن وفاة الحجاج كانت بمثابة صدمة لكل منها فوقفت الفتوحات الجديدة واقتصر الفاتحان على فتوحات محلية كما ذكرنا .

على أن هذه الفتوحات في ذاتها وقفت أيضاً بوفاة الوليد ؛ وبذلك طويت صفحة من صفحات الفتوحات الإسلامية الزاهرة ولو طال عمر الحجاج سنوات أو لو بقي الوليد بعده سنوات لتغير وجه التاريخ الإسلامي في تلك البقاع .

نهاية محمد بن القاسم :

تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة فأراد أن ينتقم من آل الحجاج فعزل محمد بن القاسم عن ولاية السند وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي فأخذ محمداً وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد ممتثلاً :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد بكى أهل السند على محمد وصوره في الكرج تذكراً لعهد الزاهر وتقدير لأعماله الخالدة في بلادهم ولما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسطة فقال :

فلئن تويت بواسطة وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وقد عذبه صالح في رجال من آل عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قد قتل آدم أخا صالح لأنه كان يرى رأي الخوارج .

وقال حمزة بن بيض الحنفي يرثي ابن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى محمد بن القاسم بن محمد

قائد الجيوش لسبع عشرة حجة يقارب ذلك سؤددًا من مولد^(١)
وهكذا طويت صحيفة من سفر البطولة وأغمد سيف من سيوف الإسلام التي
سلها الله على رقاب المشركين .

فإليه يرجع الفضل في تثبيت أقدام المسلمين في بلاد الهند .
هذا ؛ ولم تشفع له لدى الخليفة سليمان أعماله الجليلة ولا مواقفه الجبارة ولا بلاؤه
الحسن في فتح هذه البلاد الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف كما لم يشفع لموسى بن
نصير فتحه للأندلس .

وهكذا تغلبت العوامل الشخصية على المصلحة العامة ففقد سليمان اثنين من خيرة
قواد العرب ولو حاول الانتفاع بهما سيوفًا مسلولة للإسلام لكان ذلك خيرًا وأبقى .
ولقد كان لمحمد بن القاسم من قوته وشدة بأسه وطاعة جنده له والتفاف الشعب
الهندي حوله ما يساعده على شق عصا الطاعة ومحاربة الخليفة سليمان والاستقلال

(١) ابن الأثير ج٤ ص ١٣٣ ، ١٣٤ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

وقد أوردت بعض المصادر الأوربية قصة عن نهاية ابن القاسم ذهبت فيها إلى أن ابن القاسم أرسل إلى الوليد
ابن عبد الملك بعد فتح الرورابنتين لداهر ملك السند كائنًا قد أسرتا . فلما رآهما الوليد بهر بجهلها
فأراد أن يتسرى بإحداها فقالت له : يا أمير المؤمنين أنا لا أصلح لك فلقد عبث بي محمد بن القاسم قبل
أن يرسلني إليك . فغضب الوليد وأرسل إلى ابن القاسم من وضعه في جلد ثور غير مدبوغ وأرسله إلى
الخليفة إلا أن ابن القاسم مات في الطريق من شدة ما عانى . فلما حضر لدى الخليفة فتح عنه الجلد
بحضور الخليفة فوجد ميتًا .

وفي رأينا أن هذه قصة خرافية حكمها في ذلك حكم ما صيغ من أمثالها من القصص فيما يشابه هذه
المناسبة .

هذا ؛ وقد أجمعت المصادر العربية على أن ابن القاسم عاد إلى واسط حيًا مقيدًا بالسلاسل وقد رثى
نفسه ورثاه الناس في عهد سليمان مما يستبعد معه تصديق القصة التي أوردتها المصادر الأوربية -
ألفنستون ص ٢٦٤ والسير أئلكوت ص ٢٦١ نقلًا عن تاريخ شاشنامة والسير ولزلي ج٣ ص ٧ وقد
استبعدوها معتدًا على ما اعتدنا عليه من أن مأساة ابن القاسم حدثت في أيام سليمان لقيام العدواة بينه
وبين آل الحجاج ؛ ولم تحدث في أيام الوليد .

بالهند ؛ ولكنه أثر الموادة والمسألة صدعًا لأمر الخليفة فذهب ضحية الإخلاص
والوفاء وقد قال محمد في سجنه .

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت	إنّا أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا	ولا كان من عـك عليّ أمير
وما كنت للعبد المزوني تابعًا	فيالك دهرٌ بالكرام عثور

الباب الخامس

الحجاج في حياته الخاصة

الفصل الأول

أدب الحجاج

الحجاج والشعراء ، الحجاج الخطيب والكاتب

عرف الحجاج - وخاصة خلال حكمه العراق - بالقسوة وقال في ذلك المؤرخون ما طاب لهم أن يقولوه حتى لا يكاد الإنسان يجد كتابًا من كتب التاريخ أو مرجعًا من المراجع إلا وفيه إشارة أو أكثر لهذه الصفة .

ومهما أفاض المؤرخون في ذلك فلا يستطيع الإنسان أن ينكر أن الحجاج في حياته الخاصة كان يختلف عن ذلك الوصف كثيرًا .

أجل . لقد كانت ظروف العراق تستلزم أن يظهر لأهله بهذا المظهر الحشن وأن يعاملهم هذه المعاملة التي وصفت بالقسوة .

ولقد كانت هذه المعاملة موضع مدح الشعراء الذين اتصلوا بالحجاج وعاشروه .

أما حياته الخاصة تلك الحياة التي لا يربطه فيها بشؤون الدولة رابط فقد طغت عليها حياة الحجاج الأصلية من لين في المعاملة وتبسط في القول ودعابة في الحديث وإجزال في العطاء .

ومن أعجب ما في تاريخ الحجاج من تناقض بين صفاته العامة وصفاته الخاصة أن الرجل الذي أجمعت المصادر على اتهامه بالإسراف في الدماء هو بعينه الرجل الذي يشغف بالموسيقى إلى حد أن يعزف بنفسه على بعض آلاتها . يعزف لنفسه ثم يعزف كذلك لجلسائه (١) .

(١) راجع الإمامة والسياسة ج٢ ص ٤٢ ، ٤٣ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ج١ ص ١١٠ وابن خلكان ج١ ص ٢٥٧ .

وكان الحجاج يقرب الشعراء ويستمتع لشعرهم وكثيرًا ما كان ينقد الشعر ملكة الأديب كما كان يحفظ الكثير من جيد الشعر ويقتبس منه في خطبه بما يناسب المقام . وإذا كان الحجاج لم يقل من الشعر ما يستحق التدوين لكثرتة فأكبر ظننا أنه لم يجد من الفراغ ما يؤهله للإكثار منه وإن كان كثيرًا ما يختم كتبه لأمر المؤمنين بشيء من شعره .

ولقد استعاض عن الشعر بالتفنن في أسلوب الكتابة والخطابة . الكتابة بنوعيتها إلى دار الخلافة في دمشق وإلى ولاته وقواده في الأمصار ، والخطابة بنوعيتها الخطابة السياسية والخطابة الدينية .

ومثل من كانت هذه مكاتته من الأدب والفن والميل إلى الشعر لم يكن غريبًا أن يقرب الشعراء ويرسل في طلبهم ويهش لرواية الشعر الجيد ويضطرب له ويستزید الشاعر منه .

ومن خيرة الشعراء الذين اتصلوا بالحجاج وأطنبوا في مدحه جرير بن عطية .

اتصل أول الأمر بحاكم البصرة - الحكم بن أيوب - وكان مقيمًا بها ومدحه فسر الحكم من شعره ^(١) وكتب إلى الحجاج (إنه قدم عليّ أعرابي شيطان من الشياطين) فرد عليه يطلب منه إرساله فكساه الحكم وأرسله ولما وصل إلى واسط دخل على الحجاج فأحسن لقاءه وخلع عليه ^(٢) وأنشده قصيدة من عيون الشعر يقول فيها :

(١) راجع المبرد ص ٢٠٠ والأغاني ج ٧ ص ٤١ وديوان جرير ص ٥٢٠ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٤١ ويروي الأصفهاني أيضًا ج ٧ ص ٦٦ أن جريرًا دخل مدينة واسط من غير استئذان وهذا أمر كان لا يجيزه الحجاج واتصل بعنيسة بن سعيد فتمكن بعنيسة من إيصاله بالحجاج بدون أن يلحقه أذى وأنشده القصيدة التي مطلعها .

سُئِمَ من المواصلَة العتَابَا - وأمسى الشيب قد ورث الشبابَا
ويروي المسعودي ج ٢ ص ١٠٦ أن الحجاج أخذ جريرًا وأراد قتله فشى إليه قوم من مضر - قوم جرير - فوجه لهم .

من سَدَّ مَطْلَعِ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ
أَمْ مِنْ يَغَارِ عَلَى النِّسَاءِ حَفِظَةَ
إِنْ ابْنُ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا
قَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُمَضِّي هَمَّهُ
مَعَ الرُّشَا وَأَرَاكُم سَبَلَ الْهَدَى
فَاسْتَوْثِقُوا وَتَبَيَّنُوا سُبُلَ الْهَدَى
يَا رَبِّ نَاكِثٍ بَيِّعَتَيْنِ تَرَكْتَهُ
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ
إِنِّي لَمُرْتَقِبٌ لِمَا خَوْفَتَنِي
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِيَاقَ كُلِّ مُنَافِقٍ

أَمْ مِنْ يَصُولِ كَصَوْلَةِ الْحِجَاجِ ؟
إِذَا لَا يَثْقَنُ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ
مَاضِي الْبَصِيرَةِ وَاضِحُ الْمُنْهَاجِ
وَاللَّيْلِ مُخْتَلَفِ الطَّرَائِقِ دَاجِي
وَاللَّصِّ نَكَلُوسُهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ
وَدَعَا النُّجِيِّ فَلَيْسَ حِينَ تَنَاجِي
وَخَضَابِ لِحَيْتِهِ دَمُ الْأَوْدَاجِ
سُبُلَ الضَّجَاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَاجِ
غُبْرَاءِ ذَاتِ دَوَاجِنٍ وَأَجَاجِ
وَلِفَضْلِ سَيْبِكَ يَا ابْنَ يَوْسُفَ رَاجِي
وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحِجَاجِ (١)

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر ، ومطلعها يقول :

سُمْتُ مِنَ الْمَوَاصِلَةِ الْعَتَابَا
دَعَا الْحِجَاجِ مِثْلَ دَعَاءِ نُوحِ
صَبَّرْتُ النَّفْسَ يَا ابْنَ أَبِي عَقِيلِ
وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يُنْزَلْ
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبِ
تَرَى نَصْرَ الْإِمَامِ عَلَيْكَ حَقًّا
عَفَارِيْتُ الْعِرَاقِ شَفِيتَ مِنْهُمْ
وَقَالُوا لَنْ يَجَامَعَنَا أَمِيرُ

وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا
فَأَسْمَعُ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابَا
مَحَافِظَةُ فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَا
مَعَ النَّصْرِ الْمَلَائِكَةُ الْغَضَابَا
رَأَى الْحِجَاجِ أَثْقَبَهَا شَهَابَا
إِذَا لَبَسُوا بِدِينِهِمْ أَرْتِيَابَا
فَأَمْسُوا خَاضِعِينَ لَكَ الرِّقَابَا
أَقَامَ الْحَدَّ وَاتَّبَعَ الْكِتَابَا (٢)

وقد أعطاه الحجاج جارية كان قد أرسلها حاكم اليمامة وهي أم أولاده بلال
وحرزة وحكيم وكانت تسمى باسم هذا الأخير (أم حكيم) (٣) .

(١) ديوان جرير ص ٩٠ ، ٩١ . (٢) ديوان جرير من ص ١٦ - ١٨ .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٦٦ ويروي المبرد في الكامل ص ٣٠١ أنها كانت من الرِّي

ومن طريف ما يروى أن جريراً لما قدم على الحجاج أول مرة استأذنته زوجته هند بنت أسماء أن تسمع لجرير من وراء حجاب فأذن لها فجلست من وراء حجاب وجلس الحجاج معها ودخل جرير وجلس حيث يسمع كلامها ولا يراها ؛ فقالت له يا ابن الخطفَى أنشدني ما شببت به في النساء .

فقال ما شببت بامرأة قط وما خلق الله شيئاً هو أبغض إليّ من النساء ؛ فقالت يا عدو الله وأين قولك ؟؟

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
قال ما قلت هذا ولكني أنا الذي أقول
لقد جرد الحجاج للحق سيفه
وما يستوي داعي الضلالة والهدى
قالت دع عنك هذا فأين قولك ؟؟

خليلي لا تستغزرا الدمع في هند
أعيذك بالله أن تجدا وجدي
قال فما قلت هذا ولكني أنا الذي أقول :
ومن يأمن الحجاج؟ أما عقابه فر
يسر لك البغضاء كل منافق
كما كل ذي بر عليك شفيق
قالت دع عنك هذا فأين قولك ؟؟

يا عاذليّ دعا الملامة واقصرا
طال الهوى وأطلتما التفنيدا
إني وجدتُ ولو أردت زيادة
في الحب عندي ما وجدت مزيداً
فقال : باطل أصلحك الله ولكني أنا الذي أقول :

من سد مطلع النفاق عليهم
أم من يصول كصوله الحجاج ؟

أُم من يغار على النساء حفيظة إذا لا يثقن بغيرة الأزواج
فقال الحجاج يا عدو الله تحرض على النساء . قال لا والذي أكرمك أيها الأمير
ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه وما علمت بمكانك فأقلني به جعلني الله فداك
قال قد فعلت . ثم استأذن في الانصراف فأمرت له هند بجارية وكسوة ^(١) .

وقد قال في الحجاج أيضاً من قصيدة :

وأطفأت نيران العراق وقد علا
وإن امرأ يرجو الغلول وقد رأى
وأنت لنا نور وغيث وعصمة
ألا رب عاص ظالم قد تركته
وقال فيه أيضاً من أخرى :

ولولا أمير المؤمنين وأنه
وبسط يد الحجاج بالسيف لم يكن
دعوا الجبن يا أهل العراق فإنما
لقد جرد الحجاج بالحق سيفه
قدمت على أهل العراق ومنهمو
فكنت لمن لا يُبْرِئ الدين قلبه
لقد جهد الحجاج في الدين واجتنبى
وما نام إذ بات الحواضن ولها
تمنى شبيب منية سفلت به

إمام وعدل للبرية فاصل
سبيل جهاد واستبيح الحلائل
يباع ويشترى سبي من لا يقاتل
لكم فاستقيموا لا يملين مائل
مخالف دين المسلمين وخاذل
شفاء وخف المذهن المتثاقل
جباً لم تغله في الحياض الغوائل
وهن سبايا للصدور بلابل
وذو قطري لفه منك وابل

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير ص ٣٩٩ .

تقول فلا تُلَقَى لقولك نبوةً وتفعل ما أنبأت أنك فاعل (١)

وهكذا صار جرير يقول في الحجاج قصائد من عيون الشعر وطال بقاؤه في بلاطه فخشي الحجاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين فرأى أن يوفده إلى دمشق ليمدح عبد الملك فأجزل له العطاء ثم قال : إن الطاقة تعجز عن المكافأة ولكني موفدك إلى أمير المؤمنين فسر إليه بكتابي هذا . فسار إليه مع محمد بن الحجاج وكان عبد الملك لا يسمع لشعراء مضر لأنهم من شيعة ابن الزبير فما زال بن الحجاج يتوسل إليه حتى سمح له بالثول بين يدي الخليفة فأنشده قصيدة قال فيها :

تعزت أم حرزة ثم قالت رأيت الواردين ذوي امتناح
ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
فلما ختمها بقوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطسون راح (٢)

سر عبد الملك وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال : من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت . وأعطاه فأجزل له العطاء (٣) .

(١) ديوان جرير ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٢) راجع ديوان جرير من ص ٩٦ - ٩٩ والجاحظ - التاج في أخلاق الملوك ص ١٣٣ .

(٣) الأصفهاني الأغاني ج ٧ ص ٦٢ ، ٦٣ وابن عبد ربه ج ١ ص ١٥١ وابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ١٨٠ .
ويروي أبو علي القالي في ذيل الأمالي والنوادر ص ٤٢ أن جريراً لما مدح الحجاج أجازته بعشرة من الرقيق وأموال كثيرة وأوفده إلى عبد الملك مع وفد مكون من عشرة على رأسهم ابنه محمد فقدموا على عبد الملك فخطب بين يديه جرير ثم أجلسه على سريرته عند رجله ثم دعا بالوفد رجلاً رجلاً فكلما تكلم واحد قطع جرير كلامه وتكلم هو فسأل عبد الملك عنه محمداً فأخبره أنه جرير فقال : مادح الحجاج ؟؟ فقال ومادح أمير المؤمنين فائذن لي فأنشدك . فقال هات ما قلت في الحجاج فأنشده : صبرت النفس يا ابن أبي عقيل إلخ إلى أن قال : إذا سر الخليفة نار حرب : رأى الحجاج أثقبها شهاباً . فقال عبد الملك صدقت .

واتصل الفرزدق أيضاً بالحجاج ونال جوائزه ومما قاله فيه من قصيدة طويلة
يذم فيها ابن الأشعث وجيشه ويمدح الحجاج :

وليست هدايا القافلين أتيتم بها أهلكم ياشر جيش عنصراً
ثم يقول :

رماكم بيمون النقيبة حازم إذا لم يقيم بالحق لله نكراً
لقيم مع الحجاج قوماً أعزة غلاظاً على من كان في الدين أجوراً
هم يوم بدر أيد الله نصره وسوى من القتلى الركي المعوراً
جنوداً دعا الحجاج حين أعانه هم إذ دعا رب العباد لينصرا
بشبهاء لم تشرب نفاقاً قلوبهم شامية تتلو الكتاب المنشراً^(١)

ودخل الناس على الحجاج يعزونه في وفاة ابنه وأخيه في يوم كان فيهم
الفرزدق . فقال له الحجاج أما رثيت محمداً ومحمداً؟؟ فقال نعم أيها الأمير وأنشده :

لئن جزع الحجاج ما من مصيبة تكون لمحزون أمض وأوجعا
من المصطفى والمنتقى من نقاية جناحاه لما فارقاه وودعا
جناحا عتيق فارقاه كلاهما ولو نزعاً من غيره لتضعضعا
ولو أن يوم جمعيه تتابعا على شامخ صعب الذرى لتصدعا
سمياً رسول الله ساهما به إذا لم يكن عند الحوادث أخضعا

فاستحسن الحجاج قوله وأمر له بصلة^(٢) .

وكان جرير والفرزدق يتنافسان على الحجاج طمعاً في كسب الخطوة لديه
ولكن جريراً تغلب^(٣) ؛ ومع ذلك فقد نال الفرزدق جوائز الحجاج وعطاياه^(٤) .

(١) راجع ديوان الفرزدق من ص ٢٠٧ - ٢١٢ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ١٦ وابن شاعر عيون التواريخ ج ٥ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) راجع الأغاني ج ١٩ ص ١٨ و ج ٧ ص ٧١ .

ولما مات الحجاج رثاه الفرزدق بقصيدة يقول فيها :

ليبك على الحجاج من كان باكيًا	على الدين أوسارٍ على الثغرواقف
وأيتام سوداء الذراعين لم يدع	لها الدهر مالاً بالسنين الخوالف
وما ذرفت عيناى بعد محمد	على مثله إلا نفوس الخلايف
ألم تعلموا أن الذي قد تدفنونه	به كان يرعى قاصيات الزعانف
له أشرقت أرض العراق لنوره	وأومن إلا ذنبه كل خائف (١)

ومن الشعراء المعاصرين الأخطل وكان شاعر البلاط الأموي يقيم في دمشق فقال الخليفة يومًا : سوف لا ترى الحجاج ولكنه يطلبك في رسائله . فاعتذر الأخطل عن ذلك وقال : الحمار لا يوازي الجواد الأصيل ، فسر عبد الملك لهذا الجواب ومنحه عشرة آلاف درهم .

واكتفى الأخطل بأن مدح الحجاج بقصيدة روى الأصفهاني أنها ليست من جيد شعره وأرسلها مع ابنه (٢) .

ومن خير الأدلة على تبسط الحجاج مع الشعراء قصته مع ليلي الأخيلية . وفدت عليه فطأطأ لها رأسه فأنشدته قصيدتها المشهورة :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ	منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العصاة مناهم	ولا الله يعطي للعصاة مناهها
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة	تتبع أقصى دأئه فشفاهها
شفاها من الداء العضال الذي بها	غلام إذا هز القناة سقاها
إلى أن تقول :	

فا ولد الأ Bakar والعون مثله يبحر ولا أرض يحف ثراها (٣)

(١) ديوان الفرزدق ص ٢١٢ . (٢) الأغاني ج ٧ ص ١٦٦ .

(٣) زهر الآداب ج ٤ ص ٧٦ وابن شاعر - عيون التواريخ ج ٦ ص ٦١ ، ٦٢ والأمالى ج ١ ص ٨٦ ، ٨٧ وابن شاعر فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤١ .

فلما وصلت هذا البيت قال الحجاج لجلسائه : قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر
مذ دخلت العراق غيرها . ثم التفت إليها وقال : حسبك فأخبرته أنها قالت غير هذا
فقال : حسبك ويحك حسبك .

وقال لخادم له : قل لفلان يقطع لسانها فذهب بها وأخبره بما قال الأمير فأمر
بإحضار الحجام فالتفتت إليه وقالت : ثكلتك أمك إنما أمر أن تقطع لساني بالصلة .
فأرسل إلى الأمير للتثبت من الخبر فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانه وأمر
بردها إليه .

فلما دخلت عليه قالت : كاد وأمانة الله أن يقطع مقولى . وأنشأت تقول :
حجاج أنت الذي ما فوقه أحد إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحتُ وأنت للناس نور في الدجى لقد
ثم أخبر الحجاج جلساءه عن هذه المتكلمة والشاعرة الفصيحة وأنها التي ماتت توبة
الحفاجي في حبها .

واستنشدها بعض ما قاله فيها توبة فأنشدته قصيدته التي يقول فيها :
ولو أن ليلي الأخيلىة سلمت عليّ ودوني جنـدل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح^(١)
وطلب منها الزيادة فأنشدته غيرها كما أنشدته بعض مراثيها له .

ولما فرغت من كلامها استكثر أحد جلساء الحجاج هذا القول فيه وأنكره حالفاً
بالله أنه يعتقد أنها كاذبة في كلامها فنظرت إليه ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل
لو رأى توبة لسره أن لا تكون عذراء في داره إلا وهي حامل منه . فقال الحجاج
هذا وأبيك الجواب وقد كنت عنه غنيا .

(١) زهر الآداب ج٤ ص ٧٦ والأغاني ج ١٠ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ والأمالى ج ١ ص ٨٧ وابن شاعر - فوات
الوفيات ج ٢ ص ١٤١ وعيون التواريخ ج ٥ ص ٦٢ ، ٦٣ .

وطلب منها الحجاج أن تطلب ما تريد فأبت وقالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن فأمر لها بعشرين ومازالت تستزيده برقة لفظها حتى وصل العطاء إلى مائة فقال لها عند ذلك : واعلمي أنها غم .

ولكنها تمكنت بما وهبها الله من فصاحة اللسان أن تجعلها من الإبل برعاتها . ثم قال لها الحجاج بعد ذلك : ألك حاجة بعدها ؟؟ قالت تدفع إليّ النابغة الجعدي وكانت تهجوه ويهجوها - فدفعه لها . فلما علم النابغة بذلك خرج هاربًا إلى عبد الملك فاتبعته إلى الشام فلحق بقتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة فماتت بقومس ويقال بحلوان (١) .

وبعد أن أجاب الحجاج طلباتها أراد أن ينزلها منزل الضيافة فطلب منها أن تخبره عن أي نسائه ترغب أن تنزل عندها فقالت أخبرني عن نسائك فَسَمِي لها هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة فاخترت بنت أسماء فأدخلها عليها فسرت بنت أسماء وصبت عليها من الحلي ما أثقلها لاختيارها وتفضيلها على من سواها (٢) وأكرمها كما أكرمها الحجاج وتبسط معها في الحديث حتى أنهم قالوا : ما رؤي الحجاج أشد سرورًا ولا بشاشة مثل يوم دخلت عليه ليلي الأخيلىة (٣) .

ومن مادحي الحجاج الشاعر أبو النجم بن فضالة وقد أقطعه الحجاج أرضًا (٤) وعبيد بن موهب الذي رد على هجاء قيل في الحجاج (٥) .

هؤلاء قليل من كثير ممن اتصل بالحجاج من الشعراء وأكثروا من مدحه وأجادوا فيه القول وغنوا منه بالعطاء . وهذه طبيعة الحجاج في حياته الخاصة من حب للمديح وإجزال العطاء لقائله .

(١) ابن شاعر - عيون التواريخ ج٥ ص ٦٣ - ٧٠ والأمازي ج١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) زهر الآداب ج٤ ص ٧٦ وابن عبد ربه ج١ ص ١٢٣ .

(٣) زهر الآداب ج٤ ص ١٠١ والمبرد ص ٢٩١ .

(٤) الأصفهاني - الأغاني ج٩ ص ٧٨ .

(٥) الأصفهاني - الأغاني ج٣ ص ١٠٧ .

إلا أن رجلاً كالحجاج كان في حياته العامة عنواناً للحزم وما يستتبعه من شدة ؛
وقد رأى بعضهم المجال واسعاً أمامه لهجاء الحجاج كما كان هؤلاء - بطبيعة الحال -
ينشدون هجاء الحجاج في غير حضرته فيدخل بذلك شعرهم في حدود النقد العلني
لسياسة الحجاج والتشهير به وهذا شر ما يكرهه .

لذلك نراه يتصيد هؤلاء ويصب عليهم جام غضبه .

ومن هؤلاء العدیل بن الفرخ العجلي وقف على باب الحجاج فلم يأذن له
الحاجب بالدخول فسار إلى يزيد بن المهلب فمدحه وذم الحجاج (١) .

ونظرًا لأنه أضاف إلى جرمه هذا أنه كان متهمًا بجريمة قتل واستعدى ولي الدم
عليه الحجاج فاشتد الحجاج في طلبه فخاف من يزيد بن المهلب أن يسلمه إلى
الحجاج فرحل عنه وصار يتنقل في القبائل يطلب جوارها إلى أن أجاره بكر بن
وائل ، والتمس بكر العفو من الحجاج فأجاب ملتسه (٢) .

ويروى الأصفهاني وابن قتيبة (٣) أن العدیل انتهى به المطاف إلى البلاط
البيزنطي فبعث الحجاج إلى قيصر الروم « لترسلن به أو لأبعثن لك جيشًا أوله
عندك وآخره عندي » فبعث به القيصر فلما مثل بين يدي الحجاج قال له أنت
القائل :

ودون يد الحجاج من أن تنالني	بساط لأيدى اليعملات عريض
مهامه أشباه كأن سرايها	ملاء بأيدي الغاسلات رحيض
ياعدیل هل نجاك بساطك العريض ؟؟ فقال أيها الأمير أنا القائل :	
ولو كنت بالعنقاء أو بأسومها	لكان لحجاج عليّ دليل
خليل أمير المؤمنين وسيفه	لكل إمام مصطفى و خليل

(١) الأصفهاني - الأغاني جـ ٢٠ ص ١٣ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني جـ ٢٠ ص ١٢ ، ١٤ وابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ١٥٥ .

(٣) الأصفهاني - الأغاني جـ ٢٠ ص ١٢ وابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ١٥٥ .

بني قبة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول
فقال له الحجاج : اربح نفسك واحقن دمك وإياك وأختها ، فقد كان الذي
بيني وبين قتلك أقصر من إيهام الحبارى ^(١) .

ومن هؤلاء أيضاً الأعشى عبد الله بن حبيب فقد نظم قصيدة في رثاء ابن
الجارود واشترك في ثوزة ابن الأشعث وناصب الحجاج العداء ومع ذلك فقد عفا
الحجاج عنه حينما اعتذر للحجاج وأبان له أن كلا من الكوفة والبصرة قد اجتهد
في قتال الحجاج ولم يكن أحد المصريين بأقل من الآخر في هذا الميدان ^(٢) .

ومن الذين هجوا الحجاج كعب بن معدان الأشعري الذي كان في جيش المهلب
يحارب الأزارقة وقد هجا الحجاج يوماً فقال .

إن ابن سيف غره من غزوكم خفض الجناح بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنية أيام كان محالف الإقتار

ولما بلغ ذلك الشعر الحجاج كتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه فأوعز
إليه المهلب أن يذهب إلى عبد الملك ويستجير به فصار إليه واستجار به فأجاره
وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عنه ويرده إلى أمير مصره . فلما دخل على
الحجاج قال له : إيه يا كعب « ورأى معاودة الدباغ غنية » فقال : أيها الأمير والله
لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب وأهوالها أن أنجو منها وأكون حجاجاً أو
حائكاً فقال الحجاج : أولى لك لولا قسم أمير المؤمنين ما نفعلك ما أسمع فالحق
بصاحبك ^(٣) .

(١) الأصفهاني - الأغاني ج ٢٠ ص ١٣ وابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ١٥٥ والجاحظ - البيان والتبيين ج ١
ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) الأصفهاني - الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٥٨ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٣ .

ومن الذين هجوا الحجاج وطاردهم طويلاً عمران بن حطان السدوسي من فحول شعراء عصره ^(١) ومن زعماء الخوارج .

وهو القائل في الحجاج :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفيّر الصافر
هلاً برزت إلى غزالة في الوغى ؟ بل كان قلبك في جناحي طائر .

وقد ظل الحجاج يطلبه طويلاً حتى ظفر به فقال للحرس : اضرب عنق ابن الفاعلة فقال عمران : بئس ما أدبك أهلك يا حجاج أبعد الموت منزلة أصانعك عليها ما على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به ؟؟ فقال الحجاج : صدق أطلقوا عنه فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له ارجع إلى قتال الحجاج فوالله ما هو أطلقك بل الله الذي أطلقك فقال هيهات : غلّ يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها ثم قال :

أقاتل الحجاج عن سلطانه بيدٍ تقر بأنها مولاته !!
ماذا أقول إذا وقفت حياله في الصف واحتجت له فعلاته !!
وتحدث الأقوام أن صنيعه غرست لدى فحنظلت نخلاته
تا الله لو جئت الأمير بآلة وجوارحي وسلاحي آلاته ^(٢)

(١) الأغاني جـ ١٦ ص ١٤٧ والمبرد ص ٤٥٠ .

(٢) ابن شاعر جـ ٥ ص ٢٠٣ وزهر الآداب جـ ٤ ص ٥ وابن عساكر جـ ٤ ص ٦٧ .

ويروي المبرد ص ٥٣٠ أنه صار يتنقل في القبائل وينتسب إلى كل قبيلة ينزل فيها حتى نزل عند روح ابن زنباع وبقي عنده وقتاً طويلاً يسمران معاً ويسأله روح عن مسائل مختلفة فيجيبه عنها بدون أن يعرف عن أمره شيئاً .

وقد حدث أنه بينما كان روح وعبد الملك بن مروان يتحادثان إذ ذكر روح حديثاً لعبد الملك تبين فيه عبد الملك أن هذا حديث عمران بن حطان الذي يطلبه الحجاج . فطلبه عبد الملك من روح ليسر معه وقتاً . فلما طلب روح بن زنباع من ضيفه مقابلة عبد الملك هرب وسار يتنقل بين القبائل إلى أن استقر بعمان فمات بها .

ويروي صاحب الأغاني جـ ١٦ ص ١٤٨ أن الحجاج لما علم به أنه لدى روح نذد به لدى عبد الملك وبلغ ذلك عمران فهرب واستقر في ضواحي الكوفة فكشف أمره وسبق إلى الحجاج فأمر بقتله على الرغم من =

أما علاقة الحجاج بالشاعر يزيد بن الحكم الثقفي فقد عينه الحجاج حاكمًا على فارس ولما دخل عليه ليأخذ عهده قال له الحجاج أنشدني بعض شعرك - وإنما أراد أن ينشده مديحًا له - فأنشده قصيدة يفخر بها فيقول .

وأبي الذي سلب ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر
فغضب الحجاج ورد العهد ، وقال للحاجب قل له .

ورثتُ جدي مجده وفعاله وورثتُ جدك أعزًا بالطائف (١)

ومن الذين خرجوا على الحجاج أبو عبد الله بن الحجاج أبو الأقرع .

كان جوالا في الفتن فكان مرة مع عمرو بن سعيد وأخرى مع نجدة بن عامر الحنفي وثالثة مع ابن الزبير فأراد الحجاج قتله ولكنه استطاع أن يصل إلى بلاط عبد الملك وينال منه العطاء بما يستتبعه من عفو عما حدث منه دون أن يعرف عبد الملك عن أمره شيئًا (٢) .

والحارث بن خالد المخزومي وقد حفظ لنا صاحب الأغاني مساجلة (٣) بين الحارث هذا وأبان بن عثمان هجا فيها الحجاج وكان سبب ذلك أنه لما شغل عبد الملك بن مروان بحرب ابن الأشعث لم يول أحدًا إمارة الحج وكان الحارث هو العامل على مكة فكان الطبيعي أن تكون إمارة الحج للحارث ولكن نازعه في هذه الرئاسة أبان بن عثمان وتغلب عليه فهجا خالد الحجاج لاعتقاده أن الحجاج هو الذي أوعز إلى أبان بهذا العمل .

= رضاء عبد الملك عنه ، كما يروي نفس المصدر ج ١٦ ص ١٤٩ أنه لم يكشف أمره وأنه استمر بجانب الكوفة حتى مات .

(١) الأغاني ج ١١ ص ٩٦ .

(٢) راجع الأغاني ج ١٢ من ص ٢٤ - ٣٢ .

(٣) الأغاني ج ٢ ص ١٠٤ .

فلما لقيه الحجاج عاتبه فقال خالد « ظننت أنك كاتبتة فحلف الحجاج له أن هذا لم يحدث » فاعتذر إليه .

ومن الذين مدحوا الحجاج ثم خرجوا عليه عمران بن عصام العُزَني الذي أوفده الحجاج إلى عبد الملك ليزين له البيعة لابنه الوليد وخلع أخيه عبد العزيز .

فلما كانت ثورة ابن الأشعث انضم إليها وخرج مع ابن الأشعث فظفر به الحجاج وقتله فبلغ ذلك عبد الملك فقال هلا رعى فيه قوله :

وبعثت من ولد الأغرمعتب	صقرا يلوذ حمامه بالعوسج
فإذا طبخت بناره أنضجتها	وإذا طبخت بغيرها لم ينضج
وهو الهزبر إذا أراد فريسةً	لم ينجها منه صياح الهجهج ^(١)

الحجاج الخطيب والكاتب : ❦

كان الحجاج بليغاً يختار لكتابه وخطابه التعبيرات البديعية كما كان مولعاً بانتقاء الألفاظ ، وكان من الذين يتحمسون للغة العربية .

لذلك نراه يهش إذا سمع قولاً عربياً فصيحاً ، ولا تمنعه هيبة الإمارة من أن يثني علناً على قائله .

ويعزو بعض المؤرخين تحويله الديوان من الفارسية إلى العربية إلى عنايته باللغة العربية وشغفه بها^(٢) .

ولكننا نرى أن العامل الأول في ذلك هو اعتزاز الحجاج بقوميته ورغبته في أن تكون الدولة عربية لحماً ودماً .

ولي الحجاج العراق في ظروف تتطلب خطيباً موهوباً يمثل ما تتطلب إدارياً

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) فلهوزن - الدولة العربية وسقوطها ص ١٥٧ ولامانس - دائرة المعارف الإسلامية ص ٢١٥ الكراسة ٢١ .

حازمًا وقائدًا موفقًا .

كان أهل العراق قد وقفوا موقف التردد في محاربة الخوارج بينما كان الخوارج مستبسلين في ثورتهم تحفزهم في ذلك عقيدة دينية تملي على زعمائهم جيد القول وحسن الكلام وتتناقل الركبان وجهات نظرهم في الدين وجيد كلامهم فيه .

فكان لزامًا على ولي الأمر في العراق أن يكون موهوبًا في خطبه من الناحيتين الدينية والسياسية .

ولقد كان الحجاج من هذا الطراز من الرجال حتى لقد قال فيه الحسن البصري : إنه كان يعظ وعظ الأزارقة (١) .

ولما كان الحجاج أحد القراء المعدودين في زمانه وكان كثير التلاوة للقرآن فقد علقت معانيه في قلبه وظهرت في قوله . لذلك كان كثير الاستشهاد والاقتباس ، ولا يسع المتأمل في خطبته بالكوفة عندما ولي العراق وخطبته بعد دير المجاجم إلا أن يعترف بأنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر مطبوعًا على القدرة على الارتجال مع بلاغة في العبارة وروعة في الأسلوب ومطابقة مقتضى الحال .

وكان إذا تواعد فكان كلامه قصف المدافع ودوي القنابل (٢) وإذا وعظ ملك قياد الناس حتى أن الحسن البصري شيخ الوعظ في ذلك العصر قال لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج : سمعته يقول على أعواد هذه المنابر إن امرأ ذهب من عمره ساعة في غير ما خلق له حريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة (٣) .

وقال مالك بن دينار : ما رأيت أبين من الحجاج كان يرقى المنبر فيذكر

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ١٠٨ .

(٢) راجع ابن عبد ربه ج٢ ص ١٠ والمبرد ص ١٧٣ .

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ والمبرد - الكامل ص ٩٢ وابن كثير - البداية والنهاية ج٩

إحسانه لأهل العراق وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين ^(١) .

ومن خير ما يؤثر عن الحجاج خطبته عندما أراد الحج وقد استخلف ابنه محمداً فإنه قال :

أيها الناس إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني هذا وأوصيته بخلاف وصية رسول الله في الأنصار .

إن رسول الله ﷺ أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم وإني أمرته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي ألا وإنكم ستقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة . ألا وإني معجل لكم الإجابة لا أحسن الله الخلافة عليكم ثم نزل ^(٢) .

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي أتاه بريد من الين بوفاة أخيه محمد ففرح أهل العراق وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فخرج وصعد المنبر ثم خطب الناس فقال :

أيها الناس محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحب أنها معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وأيم الله ليوشكن الباقي منكم ومني أن يفنى ، والجديد أن يبلى والحي منكم ومني أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ .

(١) ابن حجر العسقلاني - تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢١١ والجاحظ ج ١ ص ٣٠١ والنويري - نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٤٤ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٠ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٤٤ والجاحظ - البيان والتبيين ص ٢٩٧ والمسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٤ وابن شاعر - عيون التواريخ ج ٥ ص ٢٦١ =

ثم تمثل بهذين البيتين .

عزائي رسول الله من كل ميّتٍ وحسي ثواب الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضيًا فإن سرور النفس فيما هنالك (١)

وفي مرة أرفج أهل العراق بموت الحجاج فخطبهم خطبة قال فيها :

إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج مات الحجاج . فمه ، وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟! والله ما يسرني ألا أموت وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه : إبليس . ولقد دعا الله العبدُ الصالح فقال « رب اغفر لي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي » فأعطاه ذلك إلا البقاء . فما عسى أن يكون أيها الرجل - وكلكم ذلك الرجل - ؟؟ كأني والله بكل حي منا ميتًا وبكل رطب يابسًا وتقل في ثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضًا وأكلت الأرض لحمه ومصّت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله .

إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول (٢) .

وبما ازدان به أسلوب الحجاج كثرة التشبيهات والاستعارات التي لها أبلغ الأثر في تصوير المعاني في النفوس .

من ذلك قوله في خطبته بالكوفة « والله لأحزمنكم حزم السلة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » .

وقوله في الخطبة التي ألقاها عقب موقعة دير الجماجم :

= وابن عساكر ج٤ ص ٦٧ .

(١) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٦ وابن نباتة - سرح العيون ص ١٢٢ .

(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج٢ ص ٢٤٣ والمسمودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٢ وابن عساكر ج٤

ص ٨٢ وابن عبد ربه ج٢ ص ١٣٢ وابن نباتة ص ١٠٠ .

« يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقًا وشقاقًا » .

فالحجاج كان من أفصح العرب لفظًا وأقواهم أسلوبًا حتى أن عمرو بن العلاء قال : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري (١) .

وسأل عبد الملك بن مروان خالد بن سلمة الخزومي عن أخطب الناس فقال : أنا قال ثم من ؟ قال سيد جذام - روح بن زنباع - قال : ثم من ؟ قال : أخيفش ثقيف - الحجاج - قال : ثم من ؟ قال : أمير المؤمنين قال : ويحك جعلتني رابع أربعة ؟ (٢) .

وقد كان في العصر الذي وصل فيه الحجاج إلى الذروة في الخطابة أربعة رجال اشتهروا كلهم بالبلاغة .

وهم الحجاج وعبد الملك والحسن البصري وابن القرية .

وكان القدماء يقدمون عليهم الحجاج والحسن البصري ولكن الحسن كان خطيبًا دينيًا لا سياسيًا وقد شهد له الحجاج فقال : أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة (٣) .

أما الحجاج فقد كان خطيبًا دينيًا وسياسيًا ولم ينبغ بعد علي بن أبي طالب في ذلك النوع الذي يملك القلوب ويأسر العقول سواه ؛ فكلاهما كان إذا خطب مهذبًا خرج كلامه يفيض حرارة وغيظًا وتقريعًا وإيجاعًا وإذا ما خطب مهذبًا كان كلامه برد النفوس وشفاء الصدور .

وهذا النوع من الخطابة لا يجيء في العادة وليد تكلف أو تصنع وإنما هو

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ١٤٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ وابن كثير ج٩ ص ٤١٩ وابن عساكر

ج٤ ص ٤٩ والعيني ج١١ ص ٤٠١ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ٢٧٣ .

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ٣٠٤ .

الوجدان المتقدم ينساب على اللسان فيضًا خطايًا عندما يجيش في النفس أمر من الأمور .

انظر إلى خطبته عقب دير الجماجم وماورد فيها من العبارات المترادفة الجميلة في غير سجع مبتذل ثم تأمل تقريره لأهل العراق وتنديده بمسلكهم ترأه أنه كان من ذلك الطراز من الرجال الذي يعرف كيف يتكلم .

ثم استعرض خطابه لجند الشام وما يشتمل عليه من فصاحة ودهاء ترأه أنه من ذلك الطراز من الرجال الذي يستهوي الألباب ويلعب بالعقول .

ثم استمع إلى حديثه في مواطن الجدل يتبين لك كيف كان بارعًا في الإدلاء بحجته حتى تخال أن ليس للقضية إلا هذا الوجه الذي يدلي به .

وإن الناظر في كلامه وخطبه في المقامات المختلفة يرى أنه كان يستخرج أكثر معانيه من مصادر أربعة : القرآن الكريم والسنة النبوية والشعر العربي وكلام من تقدم من خطباء الجاهلية والإسلام .

فنى أن خطبه في الوعظ أشبه شيء بكلام الخلفاء الراشدين ومذاهبهم في استخراج المعاني الحكيمة من الدين . فمن ذلك قوله : امرؤ حاسب نفسه . امرؤ راقب ربه . امرؤ نظر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عندهم أمراً وعند هواه زاجراً . امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جملة .

فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه . إنا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننتقل من دار إلى دار (١) .

وقوله : أيها الناس اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأعطى شيء إذا سئلت فرحم الله امرأً جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقاده بخطامها إلى

(١) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٥١ وابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣٢ والجاحظ ج ٢ ص ١٤٠ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠ .

طاعة الله وعطفها بزماتها عن معصية الله فياني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله ^(١) .

ومن كلامه الديني أيضاً « أن امرءاً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه . إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ؛ ولا قضاء لما كتب عليه البقاء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا الأمل بقصر الأجل ^(٢) .

وخطب مرة يسأل الله أن يبصره مواطن الحق فقال : اللهم أرني الغي غيا فأجتنبه وأرني الهدى هدى فأتبعه ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيداً ؛ والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعامتى هذه ولما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء ^(٣) .

هذا قليل من كثير مما يجب أن يقال في مواهب الحجاج الخطيب .

ولو أردنا أن ننقد خطبه ونحللها لكان من ذلك رسائل وكتب ؛ ولكننا أردنا بعضاً من كل فيه دلالة كافية على أن الحجاج كان من أعظم الخطباء في التاريخ .

أما الحجاج الكاتب فقد كان سيال العبارة سلس الأسلوب تواتيه المعاني والتعبيرات وفق هواه .

كتب إليه الخليفة عبد الملك بن مروان رسالة جافة خطيرة وأرسلها على يد غلامه نباتة فما أتم الحجاج قراءتها حتى طلب دواة وقرطاساً وانكفأ يكتب فما كان

(١) ابن قتيبة ج٢ ص ٢٤٧ وشرح العيون ص ١٢١ والمبرد ص ٩١ والجاحظ ج١ ص ٢٠٦ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠ .

(٢) المسعودي ج٢ ص ١٠٦ وشرح العيون ص ١٢١ والمبرد ج٢ ص ٦٩ .

(٣) ابن عبد ربه ج٢ ص ١٢٠ وشرح العيون ص ١٢٢ والمبرد ج١ ص ٢٩٦ ، ج٢ ص ١١٢ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠ .

يرفع القلم إلا مستمداً حتى أتمها ودفع بها إلى نباتة وهي تتضمن من المعاني والأساليب مالا تأتي الرواية بخير منه حتى لقد قال عبد الملك عند قراءتها : إن من البيان لسحراً .

لم تكن بلاغة الحجاج قاصرة على الكتب التي يشرح فيها وجهة نظره في سياسته للخليفة بل كانت تتناول فنوناً أخرى مثل الوصف .

كتب إليه عبد الملك مرة يسأله عن الفتنة فأجاب « إن الفتنة ليست بالنجوى وتحفى بالشكوى وتنتج بالخطب » فسر عبد الملك من هذه الإجابة (١) .

وكتب إليه مرة أخرى يسأله عن أمس واليوم والغد فأجابه « أما أمس فأجل وأما اليوم فعمل وأما غداً فأمل » (٢) .

وكتب إليه مرة يصف المطر فقال : أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ حتى دفعت الأرض واقشعرت واغبرت وثار في نواحيها أعاصير تذر دقاق الأرض من تراها فأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها ؛ وأرضنا أرض سريع تغيرها وشيك تنكرها سيء ظن أهلها عند قحوط المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة فأثارت زبرجاً متقطعا متمصراً .

ثم أعقبته الشمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه وألقت متقطعه وجمعت متمصره حتى انتضد فاستوى وطما وطحا وكان جونا مرثعاً قريباً رواعده واعتدت عوائده بوابل منهمل منسجل يردف بعضه بعضاً كلما أردف شؤبوب ارتدفته شآبيب لشدة وقعه في العراض ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن قد

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية ج ٩ ص ١٢٦ .

ملاً اليباب وسد الشعاب وسقى منها كل ساق ؛ فالحمد لله الذي أنزل غيثه ونشر رحمته من بعد ما قنطوا وهو الولي الحميد (١) .

وكان الحجاج من ذلك الطراز من الناس الذي تطيب له حسن السمعة وقد بلغت منه هذه الشهوة مبلغاً جعلته يضجر بالنقد - ولا يحتله - مهما كان طفيفاً ويشدد في عقوبة ناقده - مهما كان مخلصاً بريئاً - .

روي أن يزيد بن المهلب لما فتح قلعة نيزك ببادغيس كتب إلى الحجاج يقول :
إنا لقينا العدو فمحننا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرونا طائفة ولحقت طائفة
برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار .

فسأل الحجاج عن الذي يكتب ليزيد ف قيل له يحيى بن يعمر . فكتب إليه
يطلبه فلما حضر لديه قال له أين ولدت ؟؟ قال : بالأهواز .

قال : فهذه الفصاحة ؟ قال حفظت كلام أبي وكان فصيحاً . قال : فأخبرني :
هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثير . قال فهل يلحن فلان ؟ قال نعم
قال : فأخبرني : هل ألحن أنا ؟؟ قال تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً
وتجعل أن في موضع إن فقال الحجاج : قد أجلتلك ثلاثاً فإن وجدتك بأرض العراق
قتلتك . فرجع إلى خراسان (٢) .

(١) الجاحظ البيان والتبيين ج٣ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٧ وابن الأثير ج٤ ص ٩٤ وابن خلدون ج٣ ص ٥٣ وشذور العقود ص ٥٦ وابن عساكر ج٤ ص ٦٥ والمبرد ص ١٥٨ وياقوت - معجم الأدباء ج٢ ص ٤٢ ، ٤٣ وابن خلكان ج٢ ص ٣٥٢ .
ويروي ابن عبد ربه ج١ ص ١٩٣ أنه قال ليحيى بن يعمر هل تسمعي ألحن ؟ فقال ربما سبقك لسانك
في إن وأن قال : فإذا كان ذلك فعرفني .
ويروي ابن خلكان ج٢ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ أنه قال له ترفع ما يوضع وتضع ما يرفع فكتب إلى يزيد بن
المهلب : أن اجعله على قضائك .
وينفرد الجهشيارى ص ٢٥ برواية أن هذا الكتاب والمناصرة كانت عقب هزيمة يزيد بن المهلب
لعبد الرحمن بن العباس الذي خلف ابن الأشعث في قيادة الجيش .

الفصل الثاني أخلاق الحجاج تكينه ، وأوصافه الخلقية

إذا ما ذكر اسم الحجاج اقشعرت الجلود ووجلّت القلوب وتصور السامعون الحجاج مصلتا السيف على رؤوسهم كما أسلطه على أسلافهم قائلاً : إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها .

كيف لا والحجاج في نظرهم قد أغرم بسفك الدماء فصارت أكبر لذاته أن يسوق الناس كرهًا إلى لقاء المنايا وخوض غمرات الحروب تارة بمجد سيفه وأخرى بمجد لسانه ، والناس مغلوبون على أمرهم لا يخالفون له رأيًا ولا يرجعون له قولاً بل يرى بعضهم أن لقاء الموت في ساحة القتال أهون من لقاء الحجاج في ساحة الجدل . تلك هي الصورة التي ارتسمت في مخيلة الكثير ممن قرأوا أخباره فيما كتبه المؤرخون .

ولكننا نجد في تضاعيف تلك الأخبار - التي اختلط صحيحها بموضوعها اختلاطًا شديدًا - نجد أخبارًا أخرى تنبئ عما كان للحجاج من فضائل نفسية ومزايا عقلية وسياسية تجعله فوق مستوى عصره .

بل تصل به إلى مستوى الساسة العظام والقواد الكبار والمصلحين الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

ولسنا نتخيل أو ندعي فالأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة ؛ فقد كانت الشجاعة صفة واضحة في الحجاج وإلى هذه الصفة يعزى ما وصل إليه من عظمة في حياته ، ولا ينسى التاريخ موقفه من ابن الأشعث حينما أخبره بعض خاصته أن جنود الشام يهزمون أمام جنود العراق فما طار لذلك لبه ولا ذهبت نفسه شعاعًا ، ولكنه جثا على ركبتيه وانتضى نحو شبر من سيفه واستعد للقاء الموت كريماً وقال : لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل . فكان صنيعه هذا مما قوى قلوب جنده

فاستبسلاوا حتى كتب لهم النصر على جند ابن الأشعث (١) .

كما لا ينسى له موقفه في ثورة ابن الجارود وقد انفض عنه أكثر خاصته وجاءه ابن مسمع يقول : إني قد أخذت لك الأمان . فلم يقبل ذلك الأمان ثقة بنفسه ولم يلبث أن عكس الآية وجعل يقول : والله لا أؤمنهم أبداً . وصار يرفع صوته كما يسمع ذلك أنصاره فترتفع روحهم المعنوية .

وقد كان الحجاج موهوباً في ذكائه وسعة حيلته . قال عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقلهما كان يرجح على عقول الناس (٢) فكان بذلك ثاني اثنين فاقا أهل عصرهما في الذكاء .

روى عبد الله بن ظبيان - قاتل مصعب بن الزبير - قال : كنت واقفاً بباب الحجاج فإذا هو قد خرج وحده وكانت القائلة وما بالباب أحد فوقع في نفسي أن أقتله فنظر إليّ فقال : هل لقيت يزيد بن أبي مسلم ؟؟ - كاتبه - قلت : لا . قال : القه فإن عهدك على الرّي معه . فطمعت وكففت عنه وتوجهت إلى يزيد فلم يكن عنده عهد ولا شيء من ذلك ، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً مني وشغلاً عما أردته به .

وقد بنى هو وعبد الملك بايين فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك فداخله حسدٌ للحجاج فكتب إليه الحجاج (إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي كمثلي ابني آدم إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) فسر عبد الملك من ذلك الجواب وزال ما كان في نفسه (٣) .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٥٢ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٢ وابن عساكر ج ٤ ص ٤٩ وابن كثير ج ٩ ص ١١٩ .

(٣) ابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٨ .

وقد تجلى ذكاؤه خلال قتاله لابن الزبير إذا نزلت صواعق فقتلت عدداً من أهل الشام فقال لأصحابه هذا الفتح قد حضر فأبشروا إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ^(١) .

فلما تحقق ذلك قويت روحهم المعنوية .

ولما قتل جبلة بن زحر في فتنة ابن الأشعث وجيء له برأسه حملها على رحمين ثم قال : يا أهل الشام هذا أول الفتح والله ما كانت فتنة قط فخبث حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن وهذا من عظمائهم ^(٢) .

وقد ساعده الحظ فلم يلبثوا كثيراً حتى دارت الدائرة عليهم . وكان الحجاج كريماً ما وضع أمامه طعام إلا وطلب من يشاركه فيه ^(٣) ؛ وكان يقول البخل على الطعام أقبح من البرص على الجسد ^(٤) .

ولما ولي العراق كان يطعم في كل يوم على ألف مائدة ^(٥) يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس وقد وضع على تلك الموائد الملكية عشرة ألوان منها الثريد والشواء والسمك والأرز بالسكر . وكان الحجاج يطوف على هذه الموائد بنفسه ليتفقد المدعوين والطعام الموضوع ^(٦) فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليحييها بالسكر وقد أبطأ حتى أكلت الأرز بلا سكر ضرب الخباز مائتي سوط . فلما رأى خدمه ذلك كانوا لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر ^(٧) .

(١) اليعقوبي ج٣ ص ١٢ وابن الأثير ج٤ ص ٢٢ وراجع الرسالة ص ٤٢ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٦٥ وابن الأثير ج٤ ص ٨٥ وراجع الرسالة ص .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ١٠٦ .

(٤) المبرد - الكامل ص ١٧٣ .

(٥) ابن شاعر ج٥ ص ٢٧٢ وابن نباتة ص ١٠٨ والمبرد ص ١٧٢ ويروي ابن عبد ربه ج٣ ص ٦ أن الألف كان في رمضان وفي بقية أيام العام خمسمائة .

(٦) ابن شاعر ج٥ ص ٢٧٢ وابن عبد ربه ج٣ ص ٦ والمبرد ص ١٧٣ .

(٧) ابن عبد ربه ج٣ ص ٦ .

وكان يقول لأهل الشام اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم^(١) وكان له ساقيان أحدهما يسقي العسل والماء والآخر يسقي اللبن^(٢) .

وكان يرسل الرسل كل يوم إلى الناس لحضور الطعام فكثر عليه ذلك فقال : أيها الناس رسل إليكم الشمس إذا طلعت فاحضرو للغداء وإذا غربت فاحضروا للعشاء فكانوا يفعلون ذلك .

واستقل عدد الناس في يوم فسأل عن سبب ذلك فأجابه رجل قائلاً : إنك أغنيت الناس في بيوتهم عن الحضور إلى المائدة ، فأعجبه ذلك الجواب اللطيف وقال لقائله : اجلس بارك الله فيك^(٣) .

وبذلك ترك الحجاج صيتاً في تنظيم الموائد بانتقاء الأصناف وكثرتها ؛ وعدوه من مشاهير الأكلة في الإسلام مثل معاوية وسليمان بن عبد الملك وعبيد الله بن زياد^(٤) .

وكان أحياناً يوفق بين هذه الموائد ومجالس المنادمة ؛ فمن ذلك أنه كان على مائدته في يوم من الأيام بعض المدعوين ومنهم محمد بن عمير فالتفت إليه في وسط الولية وقال : ألا تذكر يا محمد حينما دعاك قتيبة بن مسلم للانضمام إلي في يوم رستقباد فأجبتة قائلاً لاناقة لي في هذا الأمر ولا جمل ؟ لا جعل الله لك فيه ناقة ولا جملًا يا حرس خذ بيده وجرّد سيفك فاضرب عنقه . ثم التفت إلى حجار بن أبجر فوجده فقال امنع سيفك ؛ وأتني الخباز بقطعة من الحلوى فقال : اجعل هذا مما يلي محمدًا فإنه حلّوى يحب الحلوى^(٥) .

(١) ابن عساكر ج٤ ص ٦١ وشرح العيون ص ١٠٨ .

(٢) الجاحظ - التاج في أخلاق الملوك ص ١١ والأبشهي ج١ ص ١٨١ .

(٣) ابن شاکر ج٥ ص ٢٧٢ وشرح العيون ص ١٠٨ والمبرد ص ١٧٣ .

(٤) ابن شاکر ج٥ ص ٢٧٢ والمبرد ص ١٧٣ .

(٥) المبرد ص ١٧٤ والميداني - الأمثال ص ١٤٤ .

وكان الحجاج صريحاً يحب الحق ولا يرى عيباً ولا زللاً في الرجوع إليه .

دخل عليه سليك بن سلكتة فقال : أصلح الله الأمير أعزني سمعك واغضض عني بصرك واكفف عني حزبك فإن سمعت خطأ أو زلاً فدونك العقوبة . فقال : قل . قال : عصي عاص من عرض العشيرة فحلّق على اسمي وهدمت دارى وحرمت عطائي . فقال : هيهات أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وإنما تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنوب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال : أصلح الله الأمير سمعت الله قال غير هذا . قال : وما ذاك ؟؟ قال : قال :
﴿ يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال
معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾^(١) .

فقال الحجاج عليّ بيزيد بن أبي مسلم ؛ فلما أتى به أمره أن يفك له عن اسمه ،
ويعطيه صكاً بعطائه ويبني له منزله ، وأمر منادياً ينادي في الناس « صدق الله
وكذب الشاعر »^(٢) .

وكان يصارح أهل العراق بكراهيته لهم .

خطبهم مرة فقال : يا أهل العراق إني لم أجد لكم دواءً أدواً لدائكم من هذه
المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب الراحة . وإني
لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم إلا كارهين لمقاتلي . أنا والله
لرؤيتكم أكره ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي
مقاساتكم والصبر إلى النظر إليكم والله أسأل حسن العون عليكم^(٣) .

(١) سورة يوسف الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ٦ وابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ج٤ ص ٦١ وابن كثير -
البداية والنهاية ج٩ ص ١٣٣ وابن شاعر - عيون التواريخ ج٥ ص ٢٥٩ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ١٣١ .

وقد تجلت صراحته في رده على خطاب عبد الملك الذي أرسله مع غلامه نباتة (١) .

وكما كان الحجاج صريحاً لا يحب المواربة كان يحب الصدق في القول ، فقد يأتي الرجل الجسم من الأمر فلا يشك أن الحجاج قاتله فإذا أحضر بين يديه وسأله عن ذنبه فاعترف به كان اعترافه منجاة له من الموت .

ومن هؤلاء عامر الشعبي فقيه أهل العراق لما دخل على الحجاج بعد ثورة ابن الأشعث وأصدقته القول عفا عنه (٢) كما عفا عن رجل أجابه بأنه يبغضه كثيراً وأنه لذلك لم يدافع عنه أمام ابن الأشعث حينما ذكر ابن الأشعث أم الحجاج بسوء (٣) .
وعفا عن ولدين عاصيين لرعي بن خراش لصدق أبيهما (٤) والمثل على ذلك واضحة وكثيرة .

وكان يعجبه الجواب السديد والنكتة البارة . ففي مرة أتى بأسارى فضرب أعناق بعضهم فقال رجل منهم : والله لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت المكافأة . فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أفما كان فيهم أحد يحسن مثل هذا ؟؟ وكف عن القتل (٥) .

وأمر مرة بقتل رجل فقال : أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني . فعفا عنه (٦) .

(١) راجع ابن عبد ربه ج٣ ص ٩ ، ١٠ .

(٢) ابن عبد ربه ج٣ ص ١١ ، ج١ ص ١٨٦ وابن قتيبة ج١ ص ١٠٦ .

(٣) ابن عبد ربه ج١ ص ١٨٤ والمبرد ص ٣٤٥ وابن قتيبة ج١ ص ٩٨ وابن عساكر ج٤ ص ٦٢ وابن كثير ج٩ ص ١٢٥ .

(٤) ابن خلكان ج٢ ص ٢٣٣ والأتابكي ج١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٥) الجاحظ ج١ ص ٢١٤ والأبشهي ج١ ص ١٩١ وابن قتيبة ج١ ص ١٠٣ وابن عبد ربه ج١ ص ١٨٥ والنويري ج٦ ص ٦٤ .

(٦) الأبشهي ج١ ص ١٩١ وابن عساكر ج٤ ص ٦١ وابن كثير ج٩ ص ١٠٧ .

وجيء إليه بامرأة خارجية فسألها فصوبت له جوابًا سديدًا تضمن نكتة بارعة بأن قالت له : لقد كان وزراء صاحبك خير من وزرائك يا حجاج قال : ومن هو صاحبي ؟؟ قالت فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا أرجه وأخاه بيننا ووزرائك أشاروا بالقتل فعفا عنها الحجاج (١) .

وخرج الحجاج وهو بالمدينة مرة للصيد فانفرد وحده فرأى أعرابيًا فسأله عن سيرة أميرهم فقال ظلوم غشوم لا حياه الله . فقال له : لو شكوه إلى عبد الملك . فقال : أغشم وأظلم عليه لعنة الله . وبينما هم في الحديث إذا بالخييل قد أحاطت بالحجاج فأمر بالقبض على الأعرابي فقال الأعرابي : يا حجاج السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوما . فضحك الحجاج وعفا عنه (٢) .

وكان الحجاج حليما ، لما انتهى من أمر ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخا خارجا منها فلما رآه الحجاج قال له : من أهل المدينة أنت ؟؟ قال نعم قال : من أيهم قال : من بني فزارة . فسأله عن حال أهل المدينة فقال بشر حال ، لقتل ابن الزبير . فسأله عن القاتل فذمه ووصفه بعدم الخوف من الله فعرفه الحجاج بنفسه وهدده بالقتل فأراد الرجل أن يخترع حيلة لينجو من هذا المأزق من الحجاج فقال له : والله يا حجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة أنا العباس بن أبي ثور أصرع في اليوم خمس مرات فتركه الحجاج (٣) .

وتروى بعض المصادر مثل هذه الرواية في خروجه إلى ظاهر الكوفة منفردا وسؤال مولى لبني عامر عن حال أميرهم فلعن هذا المولى الحجاج ، فلما عرفه الحجاج

(١) ابن عبد ربه ج١ ص ١٨٥ والأبشيهي ج١ ص ٥٥ ويروي ابن عساكر ج٤ ص ٧٨ هذه الحكاية على أنها لرجل من الخوارج .

(٢) ابن شاکر ج٥ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن عساكر ج٤ ص ٦٥ وابن كثير ج٩ ص ١٢١ والعيني ج١١ ص ٤٠٣ .

بنفسه اعتذر بأنه يحجن في الشهر ثلاث مرات وأن هذا اليوم أشد الصرع عليه فضحك الحجاج من قوله وعفا عنه ^(١) .

وبمثل ما كان الحجاج يحب الصدق ويكره الكذب والخيانة ، فقد حبس صهره مالك بن أسماء إذ مد يده إلى مال الدولة . وكان يسقيه الماء ممزوجًا بالملح والرماد ^(٢) .

ووفد عليه الجفاف يستعين على دفع الديات المطلوبة لبني تغلب من قيس فلم يأذن له الحجاج بالدخول .

إلى أن لقي الجفاف أسماء بن خارقة الفزازي فرجاه أن يتوسط لدى الحجاج في الإذن له في الدخول عليه . فلما قبل رجاء أسماء ودخل الجفاف قال الحجاج : متى عهدتني خائنًا ؟؟؟ فقال له : ولكنك سيد قومك وأمير العراقيين وابن عظيم القريتين وعمالتك في كل سنة خمسمائة ألف درهم وما بك بعدها إليّ خيانة ، فقال الحجاج : أشهد أن الله وفقك وأنتك نظرت بنور الله فإذا صدقت فلك نصفها العام وأدوا البقية ^(٣) .

وكان الحجاج يفخر بغيرته على الأحساب والأنساب : خطب في الناس بعد موقعة الزاوية فأوصاهم بالاعتدال في أمورهم وحذرهم من دخول رجل بيت امرأة وجعل عقاب ذلك القتل وقال : أنا الغيور ابن الغيور . رافعًا بها صوته ^(٤) .

ولما حدث أن أحد الشاميين دخل على امرأة وقتله زوجها وأخبر الحجاج بذلك قال : خذوا قتيلكم فإنه لا قود له ولا دية بل هو قتيل الله إلى النار ^(٥) .

(١) ابن نباتة ص ١٠٠ ويروي الأبشهي ج ١ ص ٥٩ أنه قال : أنا مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين .
(٢) الأغاني ج ١٦ ص ٤١ ويروي أبو علي القالي في الأمالي والنوادر ج ٢ ص ١٩٥ أن الذي كان في حبس الحجاج هو أخوه عيينة .

(٣) راجع الأغاني ج ١١ ص ٥٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٩ ويروي ابن الأثير ج ٤ ص ٩ أنه أعطاه مائة ألف درهم .

(٥) تقدم ص ٣١٧ .

(٤) تقدم ص ٢٦٥ .

وليس أدل على ذلك من حادثة ابن أخيه الذي كان حاكماً بواسط وأغرم بامرأة فمنعته نفسها مرات حتى سئمت فأخبرت إخوتها فأ مروها بأن تأذن له بالهجيء ليلاً ، ولما دخل في غسق الليل قتلوه وقطعوا أوصاله ثم رموا به في عرض الشارع وعلم الحجاج بالامر وثبت بالأدلة أنه كان يريد أن يرتكب الفاحشة مع تلك المرأة فأمر بإلقائه للكلاب ووصل المرأة بكل ما خلفه ابن أخيه وقال لها : كثر الله في النساء أمثالك (١) .

ولغيرته كان يكره فحش القول فإنه لما أتى بامرأة ابن الأشعث بعد دير الجماجم قال لأحد الخدم قل لها : عدوة الله أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك ؟ فقال لها الخادم أين مال الله الذي جعلته تحت إستك ، فغضب الحجاج وقال له كذبت ما هكذا قلت وأمره بتخليته عنها (٢) .

وبقدر ما اشتهر الحجاج بالقسوة على المجرمين والمذنبين نراه كثيراً ما عفا عن مذنبين لمكانتهم أو لاعترافهم بذنبهم أو لإجابتهم المستحسنة أو شجاعتهم .

فقد عفا عن جحدر بن مالك الذي كان مقاتلاً شجاعاً وشاعراً ولصاً قوياً ، ولكنه اشترط عليه أن يقتل أسداً ضارياً كان في إقليم كسكر . وبعد أن قتله مبارزة كَنِدُ له خيره الحجاج بين الرجوع إلى وطنه - اليمامة - أو البقاء في خدمته فاختر هذا البقاء في خدمته فأجزل له الحجاج العطاء (٣) .

وقد تجلت رحمته وعطفه حينما بعث إليه الخليفة عبد الملك يطلب منه رأس أسلم بن عبيد البكري لأمر بلغه عنه ؛ بأنه لما وصله كتاب الخليفة أحضره فقال

(١) ابن شاکر ج٥ ص ٨٣ ، ٨٤ والنویری ج٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ٦ .

(٣) الجاحظ - المحاسن والأضداد ص ٧٧ وابن عساكر ج٤ ص ٦٢ ، ٦٤ وابن كثير ج٩ ص ١٢٥ وابن شاکر ج٥ ص ٢٦٠ والأبشيهي ج١ ص ٢٢٤ .

أسلم : أعز الله أمير المؤمنين هو للغائب وأنت للحاضر قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (١) .

وما بلغه عني باطل فاكتب إليه أني أعول أربعًا وعشرين امرأة ماهن بعد الله كاسب غيري فقال الحجاج : ومن لي بتصديق ذلك ؟؟ قال هن بالبواب أصلح الله الأمير فأمر بإحضارهن فجعل يسألهن فهذه تقول عمي والأخرى تقول خالي والثالثة تقول زوجي وهكذا جعل يسألهن عن صلتهم به حتى انتهى إلى جارية دون العاشرة فقال لها : ومن أنت منه ؟؟ فقالت أصلح الله الأمير . ثم جثت بين يديه وأنشأت تقول :

أحجاج لم تشهد مقام بناته	وعماته يندبه الليل أجمعاً
أحجاج كم تقتل به إن قتلته	ثماناً وعشرًا واثنين وأربعاً
أحجاج من هذا يقوم مقامه	علينا فهلأ أن تزدنا تضعضاً
أحجاج إما أن تجود بنعمة	علينا وإما أن تُقتلنا معاً

فما أتمت الجارية كلامها حتى سال دمه وبكى لهاهن وقال : والله لا أعنت الدهر عليكن ولا زدتك توضعضاً ؛ وكتب إلى عبد الملك بقصة هذا الرجل فرضي عبد الملك وأمره بأن يصلهن صلة حسنة ويتفقد الجارية كل وقت (٢) .

وفي مرة كان متوجهاً إلى البصرة فقابلته امرأة وقالت له : اتق الله يا حجاج فإن أزواجنا غائبة عنا مع ابن أبي بكر منذ ستة أشهر . فأشفق عليها وأمر بإطلاق زوجها وكل من كان معه (٣) .

(١) الآية ٦ سورة الحجرات .

(٢) ابن عساكر ج٤ ص ٦١ ، ٦٢ وابن كثير ج٩ ص ١٢٤ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) ابن شاکر ج٥ ص ٢٦٠ .

وكان الحجاج مخلصًا للخلافة فلم يحاول ولم يفكر في الغدر بأحد من الخلفاء على الرغم من أنه كان يحكم نصف أملاك الدولة وقد تجلى وفاءه في استمرار صلته لعبد الله ابن جعفر وحمله له ما يلزم كل هلال (١) .

وكذلك مالك بن شرحبيل الخولاني - الذي كان معه في حصار مكة - فإنه كان يرسل إليه في كل عام بحلة وثلاثة آلاف درهم وولاه القضاء في سنة ثلاث وثمانين (٢) .

تدنية : اتصف الحجاج بكل ما عددنا من محاسن وتحلى بكل ما سجلنا له من صفات تدل على حسن اتباعه لتعاليم الدين .

ولم يكن غريبًا على الحجاج أن يتصف بكل ذلك وهو الرجل المسلم المتدين تدنيًا صحيحًا .

حقًا لقد كان الحجاج مسلمًا مخلصًا في عقيدته ورعًا زاهدًا ؛ ولذلك كان إذا وعظ أخذ بمجامع القلوب وأثر في قرارة النفوس حتى قال إمام الواعظين في عصره - الحسن البصري - : لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج .

وقد رأينا بعض خطبه الوعظية تفيض بالإخلاص وتتم عما كان عليه الرجل من الإيمان الصحيح ، ولقد خطب مرة وذكر القبر وما فيه حتى بكى وأبكى من حوله (٣) .

ومن قوله في مناسبة دينية : إن إمرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ذنبه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه (٤) .

(١) العقد الفريد - ابن عبد ربه ج١ ص ١٤٦ والأبشيهي ج٢ ص ٢٢١ .

(٢) القضاة للكندي ص ٣٢٠ ، ٣٢١ وابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها ص ٢٣٦ وكنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الأثير - الكامل ج٤ ص ١٣٢ وابن عساكر التاريخ الكبير ج٤ ص ٤٨ .

(٤) الجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ٦٩ والمسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٦ .

ولم لا يقول الحجاج ذلك ؟؟ ، وهو الذي كان يحاسب نفسه ويراقبها وقد وصل في ذلك إلى الدرجة التي قال بها المتصوفة فيما بعد . ولذا لا نعجب لما قيل من أن الحجاج كان يقرأ القرآن كل ليلة ^(١) حتى حسده على ذلك عمر بن عبد العزيز حيث قال : ما حسدت الحجاج عدو الله حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله ^(٢) .

وبلغ من محبته للقرآن والمحافظة عليه أنه عندما وجد الناس يلحنون في كتاب الله عمل على شكله ونقطه مما يذكره له التاريخ بالفخر والإعجاب .

وكان الحجاج لا يضحك كثيراً وإذا ضحك وإلى بين الاستغفار ^(٣) ولقد بكى وأكثر من البكاء خوفاً من الله تعالى حتى عمشت عيناه ^(٤) .

ولما أشير عليه بمعلمين لأولاده : أحدهما نصراني عالم والآخر مسلم أقل علماً فضل المسلم معللاً ذلك بأن المسلم يذكر الولد ربه إذا نسي ويعلمه الشريعة ^(٥) .

وكان الحجاج يحب العلماء ويجلهم ؛ ولكنه كان يرى أن لايتدخلوا في السياسة وألا يشتركوا في الثورات ، وقد رأينا ما فعله مع سعيد بن جبير من توليته له المناصب وجعله من سُمّاره قبل أن يتدخل في ثورة ابن الأشعث وحتى بعد تدخله كاد أن يعفو عنه لولا ما بدر من سعيد .

وبلغ من إكباره للعلم أن ترك يحيى بن وثاب يصلي بالناس مع أنه مولى ^(٦)

(١) ابن عساكر ج٤ ص ٤٩ وابن كثير ج٩ ص ٤١ .

ويروى صاحب مختصر صفوة الصفوة لابن الجوزي ص ١٥١ أن الحجاج كان يختم القرآن في ركعة واحدة في جوف الكعبة وكان في رمضان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء .

(٢) ابن عساكر - التاريخ الكبير ج٤ ص ٨٢ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١٩ .

(٣) المبرد - الكامل ص ١٧٣ وابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٠ والأبشيهي ج١ ص ٥٠ .

(٤) مختصر صفوة الصفوة ص ١٥١ .

(٥) الأصفهاني - الأغاني ج١٨ ص ٧٨ .

(٦) ابن عبد ربه ج١ ص ٢٠٧ .

وكان الحجاج يلتزم للعلماء طريقاً للعفو إذا ما أذنبوا ورجعوا كما حدث للشعبي وعلى الرغم من أن الحجاج كان عالماً معتزاً بعلمه فقيهاً معتزاً بمكانته كان لا يأ أن يستمع للنصيحة ، وكان الحجاج مع كثرة مشاغله - لا ينشأ عن الجلوس للعلم والاعتناء بهم فقد اقتدى بآبن عمر في مناسك الحج ^(١) وصلى مرة وهو صغير بجاء سعيد بن المسيب فلم يحسن الصلاة . فلما انتهت الصلاة أمسك سعيد بطرف رداء صار يوجنه على صلاته تلك وكان مما قاله له : لقد هممت أن أضرب بهذا الن وجهك فلم يرد عليه الحجاج شيئاً

ثم مرت الأيام والسنون وولي الحجاج الحجاز فأقبل على مجلس سعيد وجد بين يديه وقال له : جزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ما صليت بعدك صلاة إلا أذكر قولك ^(٢)

وكان يحضر مجالس الحسن البصري فإذا أراد أن ينصرف يوصيه بالناس فيمة له : لا تمل الناس ، فيقول الحسن : أصلح الله الأمير لم يبق إلا من له حاجة ^(٣) . وكان يسأل العلماء عما يشكل عليه وقد سأل الشعبي ^(٤) ويحيى بن يعمر وغيرهما .

وكان الحجاج لا يشرب الخمر وقد أجمعت المصادر على ذلك ويروى أن الخليفة عبد الملك ^(٥) أو الوليد ^(٦) عزم عليه أن يشرب معه النبيذ فأبى وقال : إني أ.

(١) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٢ .

(٢) ابن عساكر ج٤ ص ٧٢ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٧٩٩ وابن كثير ج٩ ص ١١٩ .

(٣) ابن عساكر ج٤ ص ٧١ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١٣ .

(٤) ابن عبد ربه ج٣ ص ١١ وج١ ص ١٧٣ والمسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٣ والمبرد ص ١٥٨ .

(٥) ابن عبد ربه ج٣ ص ٧ وج١ ص ١٨٥ وابن عساكر ج٤ ص ٦٥ وابن كثير ج٩ ص ١٢٦ والذهبي ص ٨٢٠ والعيني ج١١ ص ٤٠٢ والدميري - حياة الحيوان ج١ ص ١٦٠ .

(٦) ابن نباتة ص ١٠٨ .

(٧) المبرد ص ٣٢٣ وابن كثير ج٩ ص ١٢٧ وغرر الخصاص الواضحة ص ٨٩ .

أهل عملي عنه وما أريد أن أخالف قول العبد الصالح : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

وكان لا يحب الطغاة ولا المتكبرين فإنه لما دخل العراق قيل له كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو أدركت به أربعاً لتقربت إلى الله بدمائهم . قيل : ومن هم ؟؟ قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال : فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم فقال لمثل هذا فليعمل العاملون . وعبيد الله ابن ظبيان قام فخطب خطبة أوجز فيها فنأدى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا أمثالك . فقال : لقد سألتكم الله شططاً . وسعيد بن زرارة كان ذات يوم جالساً على الطريق فمرت به امرأة فقالت : يا عبد الله أين الطريق إلى مكان كذا ؟ فغضب وقال ألمثلي يقال يا عبد الله ؟؟ وأبو سمالك الحنفى أضل ناقته فقال : لئن لم يردها علي لا صليت أبداً . فلما وجدها قال : علم أن يميني كانت برّاً (١) .

وكان الحجاج يحب آل بيت الرسول ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم ، وعلى الرغم من أنه طلقها فإزال واصلاً لعبد الله حتى مات فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه (٢) .

وقد تجلّى ذلك في أنه قال مرة : ليقم كل رجل منكم يذكر بلاءه لنعطيه . فقام رجل فقال : أنا قاتل الحسين . فقال : كيف قتلته ؟؟ قال : دسرت به بالرمح دسراً ، وهبرته بالسيف هبراً . فقال أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة ، وحرمه من العطاء (٣) .

(١) ابن عبد ربه ج١ ص ٢٤٢ وج٢ ص ١٧ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج١ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن عبد ربه ج١ ص ١٤٦ والأبشيهي - المستطرف من كل فن مستظرف ج٢ ص ٢٢١ .

(٣) ابن الأثير - الكامل ج٤ ص ١٣٢ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١٢ وابن نباتة - سرح العميون

وكان الحجاج يعتقد في الدعاء وقد روى في ذلك حديثاً (١) .

وإنه لما أبطأ خبر قتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر أمر الناس بالدعاء له في المساجد (٢) .

وخلاصة القول أن الحجاج كان يضع السيف في موضعه كما كان يضع الندى كذلك في موضعه حتى لقد قيل إن الحجاج كان يعظ عظة الأزارقة ويبطش بطش الجبارين (٣) .

على أن الحجاج - شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال - لم ينج من حسد الناس له وحقدهم عليه حتى لقد وصلت الحال ببعضهم أن كفره (٤) .

وعرف الحجاج منهم ذلك فخطب مرة فقال : ألا إن الحجاج كافر ، وأطرق ثم التفت عن يساره وقال ألا إن الحجاج كافر باللات والعزى (٥) أو بيوم الأربعاء والبلغلة الشهباء (٦) .

ولما مات الحجاج صار الناس يسألون عنه أهو في الجنة أم في النار ؟! فأفتى بعضهم أنه في النار (٧) وبذلك حكم عليه في آخرته ؛ وتورع البعض الآخر عن الحكم وقال : سبحان الله أحكم على الله ؟! فسألوه عن سبه فنهى عن ذلك (٨)

(١) ابن عساكر - التاريخ الكبير ج٤ ص ٤٨ .

(٢) الطبري ج٥ ص ٢١٨ وابن الأثير ج٤ ص ١٠٧ وشرح العيون ص ١١٤ .

(٣) ابن عبد ربه ج٢ ص ١٦ والجاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) راجع ابن عبد ربه ج٢ ص ١٧ والمسعودي - مروج الذهب ج٢ ص ١٠٢ ، ١٠٤ وابن كثير ج٩ ص ١٢٩ ، ١٣١ والعيني ج١١ ص ٤٠٣ وابن شاعر ج٥ ص ٢٦٢ والقرماني ص ١٣٣ وكنز الدرر ج٤ ق ٢ ص ١٤٥ .

(٥) العيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج١١ ص ٤٠٤ .

(٦) ابن كثير - البداية والنهاية ج٩ ص ١٣١ .

(٧) العيني ج١١ ص ٤٠٤ والعقد ج٣ ص ١٦ وابن شاعر ج٥ ص ٢٦٢ والقرماني ص ١٣٣ .

(٨) ابن عساكر ج٤ ص ٨١ والذهبي ج٤ ص ٨١٨ .

وعزي إلى عمر بن عبد العزيز أنه رآه يعذب في النار^(١) .

ولما رأى بعض الكتاب المحدثين ماله من الأعمال الطيبة وماروته المصادر في الحكم عليه وعلى أعماله مما لا يمكن أن يصدر عن شخص واحد قالوا إن الحجاج كان ذا شخصيتين : شخصية متدينة فتصدر الأعمال عنها عن فيض وإيمان صحيح ، وأخرى قاسية جبارة فتأكله تحب سفك الدماء^(٢) .

وأما نحن فلسنا في حاجة إلى أن نظهر بطلان رأيهم من وجهة الفرض الذي فرضوه بل إننا نعتقد أن شخصيته كانت شخصية واحدة وهي المؤمنة تجزي المحسن وتعاقب المسيء .

أوصاف الحجاج الخلقية : ذكروا أن الحجاج ولد مشوه الخلقة ، ولكنهم لم يذكروا هذا الوصف حينما كانوا يريدون أن يعيبوه بعد أن غما وترعرع ، ولكنهم قالوا إنه كان صغير الجسم وأن رأسه كانت مفرطحة وغارقة بين كتفيه وأن عينيه كانتا ضيقتين فكان ضعيف البصر ، وقد نسب بعض رجال حاشيته ضعف عينيه إلى قراءته المستمرة في الأوراق^(٣) لأنه بصفة حاكم لإقليم واسع كان عليه أن يعرف كل صغيرة وكبيرة ويشرف على الأمور كلها بنفسه فكان على الدوام مكبًا على أوراقه مجدًا في عمله .

وينسب بعض المؤرخين ضعف عينيه إلى كثرة بكائه من خشية الله^(٤) وأيًا ما كان فقد عيره أعداؤه بذلك فقال إمام بن أرقم النيري - وكان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان ثم حبسه :

(١) راجع مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٩ وابن خلكان ج ١ ص ٢٠٨ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٩ والعيني ج ١١ ص ٤٠٧ وابن كثير ج ٩ ص ١٣٩ .

(٢) الثقافة - العدد ١٧٠ من السنة الرابعة .

(٣) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٥ .

(٤) مختصر صفوة الصفوة ص ١٥١ .

وللحجاج عَيْنٌ بنت ماء تقلب طرفها حذر الصقور^(١)
 وأن ساقيه كانتا صغيرتين وضعيفتين فإذا ما مشى اصطكت إحداهما
 بالأخرى^(٢) .
 وكان الحجاج دقيق الصوت^(٣) ، وكان يرجل شعره ويخضب أطرافه^(٤) .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ١٦٦ والجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص ٢٩٦ .

(٢) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٩ والبدء والتاريخ ج٦ ص ٢٧ .

(٣) المعارف ص ١٧٣ .

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص ١٦ .

الفصل الثالث

**أسرة الحجاج - قرابته لبنين أمية - نساؤه - تربيته لأولاده -
مرضه - أطباؤه - وفاته**

رأينا أن كثيرًا من أمراء الأسرة الحاكمة كان يكره حاكم العراق ومع ذلك ارتبطت أسرته بالأسرة الحاكمة بروابط المصاهرة .

وقد سبق بيان ذلك في الكلام عن العلاقة بين الحجاج والأسرة الأموية -

وكان الحجاج بارًا بأسرته محبًا لعشيرته عاملاً على إسعاد قرابته . لذلك لم يدخر الحجاج وسعًا في أن يرشحهم للمناصب الكبرى ؛ وقد رحب الخلفاء باستخدام آل الحجاج ؛ فأخوه محمد عينه عبد الملك حاكمًا على الين فأدار هذا الإقليم عدة سنوات بمهارة وجعل على أهل الين خراجًا محددًا فاستاء أهل الين من هذه التصرفات وشكوه إلى الحجاج ولكنه لم يعزله اقتناعًا بسياسته ؛ واستمر أمر خراج الين على وضعه إلى عهد عمر بن عبد العزيز فألغاه واقتصر على العشر ونصف العشر ؛ فلما ولي يزيد بن عبد الملك أمر بجعل الخراج كما كان قبل عهد عمر^(١) .

وفي مرة حاول رجل من أهل الين إيغار صدر عبد الملك عليه فقال له وهو يخطب : إن محمد بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام فقال له اجلس فجلس ثم قام فقال مثل مقالته الأولى فقال عبد الملك : لقد هممت أن أقتلك^(٢) .

ولم يدخر أهل الين وسعًا في إيغار صدر الحجاج على أخيه .

كان بمكة فجاءه رجل من أهل الين فسأله عن أخيه فقال : خلفته ظلمًا غشومًا عاصيًا للخالق مطيعًا للمخلوق^(٣) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٨٠ وابن الأثير ج ٤ ص ١٦٦ والأتابكي - النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٩٤ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ٦٧ .

وقد استطاع محمد في ولايته أن يستصفي لنفسه بعض الممتلكات ^(١) فلما توفي في ولايته وجد في خزائنه نحو المائة والخمسين ألفاً من الدنانير فأخبر الحجاج الوليد بها قائلاً : إن محمد بن يوسف قد أصاب مائة وخمسين ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله وإن لم يكن أصابها من حلها فلا رحمه الله . فرد عليه الوليد « إنه قد أصابها من تجارة أحللناها له فارحمه رحمه الله » ^(٢) .

وقد رأينا فيما سبق أن الحكم بن أيوب بن أبي عقيل - ابن عمه وزوج أخته - كان خليفته على البصرة ومحمد بن القاسم - ابن عمه - كان قائد الحملة التي وجهت إلى السند وقد نجح فيما فشل فيه غيره . ومحمد ابنه كان قائد الجيش الذي ذهب إلى غزو الديلم وأبناء المغيرة الثلاثة كانوا أمراء فعروة كان أمير الكوفة والمطرف أمير المدائن وحمزة أمير همدان .

وقدم على الحجاج ابن عم له من البادية فسأله أن يعطيه ولاية فأبى عليه الحجاج محتجاً بأنه لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، ولكن ذلك لم يقنع الأعرابي فامتحنه الحجاج بأن قال له : اقسم ثلاثة دراهم على أربعة أشخاص فلم يعرف ولما ضاقت حيلته اقترح بأن يعطي كل واحد درهما ويعطي الرابع درهماً من عنده وعرض هذا الحل على الحجاج وجلسائه فضحكوا منه ، ولكن الأعرابي ظل مصرّاً على ما يطلب !!.

فكر الحجاج فوجد أن أهل أصبهان قد كسروا خراجهم ثلاث سنين وكلما أتاهم وال عجزوه فقال : والله لأرminهم ببديوية هذا وعنجهيته فأخلق به أن ينجب . فكتب له عهده على أصبهان فخرج إليها فلما وصلها استقبله أهلها استقبالاً عظيماً واعتقدوا أن هذا سيكون آله في أيديهم ، ولكنه لم يأخذه هذا الاستقبال ولم يلهه عما حضر لأجله فما كاد يستقر بداره حتى جمع الناس وقال لهم : ما لكم تعصون ربكم

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٨٠ .

(٢) المبرد - الكامل ص ٢٩٤ .

وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم . فشكوا إليه ظلم الولاة وجور العمال فسألهم عما يصلحهم فطلبوا منه تأخير الخراج ثمانية شهور فمد لهم الأجل إلى عشرة وطلب منهم عشرة ضمء .

ومضت الأيام والشهور وقرب الأجل وهم غير مكترئين بجمعه فطلب منهم المال فلم يسمعوا لقوله .

فلما رأى مطلبهم جمع الضمء وطلب منهم المال فقالوا إن الزراعة أصابتها آفة فحلف أن لا يفطر - وكان ذلك في شهر رمضان - حتى يجمع المال أو يضرب أعناقهم جميعاً . وقدم أحدهم فضرب عنقه وكتب عليه فلان ابن فلان أدى ما عليه وجعل رأسه في بدرة وختم عليها وقدم الثاني ففعل به مثل ذلك فلما رأى القوم الرؤوس تبدر قالوا : أيها الأمير توقف حتى نحضر لك المال ففعل وسرعان ما أحضره .

بلغ ذلك العمل الحجاج فسر وقال : إنا معاشر آل محمد - يعني جده - نُجِبٌ فكيف رأيتم فراستي في الأعراي ؟ . ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج ^(١) .

نساؤه وأولاده : تزوج الحجاج بأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر وأم الجلاس بنت عبد الله بن خالد بن أسيد وأم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو ، وبالفارعة بنت هبار ^(٢) وأم أبان بنت النعمان بن بشير ولم تطل مدة إقامة هذه الأخيرة عند الحجاج لأنها كانت تريد أن يكون الحجاج رهين إشارتها ورهين حبها ، ولكن الحجاج لم يكن رجل حب وغرام بالنساء بل كان ينظر إلى المرأة نظرة أنها أم فحسب .

ذلك أنه كان رجل عمل فلم يكن لديه المتسع من الوقت لمبادلة نسائه الحب فطلقها ^(٣) .

(١) المسعودي - مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد جـ ٣ ص ٦ .

(٣) الأغاني جـ ٨ ص ١٣٥ .

أما الزوجتان المشهورتان للحجاج فهما هند بنت المهلب ؛ وهند بنت أساء بن خارجة الفزاري وقد طلق هند بنت المهلب يوم أن سجن أخاها يزيد وعلا صوته من شدة العذاب فناحت وعلا صوتها (١).

ولم تكن زوجته الثانية بأسعد حظًا من سابقتها فقد كانت في بدء حياتها تحب عبيد الله بن زياد - والي العراق في عهد يزيد بن معاوية - ولكنها لم تتزوجه وأرغمت على الزواج ببشر بن مروان وقد أنجبت منه ولدين ومات عنها .

ولما مات وولي العراق الحجاج بن يوسف أراد أن يضم إليه الأميرين الصغيرين ليربيهما في بيته كأولاده وأرسل في هذا الشأن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري فلم تحاول هند الممانعة في أخذ نجليها إذ كانت المحاولة ضد حاكم العراق فاشلة .

وقد وصفها الرسول للحجاج فأشاد بما فيها من محاسن فردده ليخطبها إليه فوافق أبوها على زواجها من الحجاج فأرسل إليها الحجاج مهرًا عظيمًا وخدمًا وجواري يحملون فاخر الثياب ثم زفت إليه وقد أوصاها أبوها بوصايا قبل مفارقتها لمنزلها ؛ ولكن قلبها كان معلقًا بغرام الصبا وأيام الشباب وقد كانت كل أمنيتها أن تقوم يوم القيامة لترى وجه عبيد الله بن زياد فلم يتسع قلبها لغيره .

فلما نقلها الحجاج إلى البصرة لم تجد قصره في نظرها جميلًا كقصر عبيد الله بن زياد فنغصت حياتها وبالتالي حياته (٢) .

يروى أنه دخل عليها مره وهي تنظر في المرأة - وقد أعجبها جمالها - وتقول :

وما هند إلا مهرة عربية سلاله أفراس تحللها بغل

(١) الطبري - تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٢٠ وابن الأثير - الكامل ج ٤ ص ١٢٥ وابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

فإن ولدت فحلاً فلله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل^(١)
فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها - ولم تكن قد علمت به - وأرسل إليها
ابن القرية^(٢) وقال له يا ابن القرية طلقها بكلمتين ولا تزدد عليها وأرسل معه
ما كان لها قبلاًه .

فدخل ابن القرية عليها وقال لها : يقول لك الحجاج « كنت فبنت » ، وهذه
المائة ألف درهم التي كانت لك قبله^(٣) . فقالت : اعلم يا ابن القرية أنا والله كنا فما
حمدنا وبنّا فما ندمنا وهذه المائة ألف بشارة لك بطلاقي^(٤) .

وأما الأولاد فهم محمد وقد مات في حياة أبيه ، وفي عهد المؤرخ ابن قتيبة كان
لمحمد ذرية في دمشق ، وعبد الملك وكان له ذرية في البصرة . أما أبان والوليد فقد

= ويروي المبرد ص ٢٩١ وابن خلكان ج ١ ص ١٥٧ أن الحجاج طلق الهنديين - هند بنت المهلب وهند بنت
أسماء لسبب واحد وهو أنه رأى في المنام أن عينيه قلعتهما فأول الرؤيا بطلاق زوجته فطلقها ، فلم يلبث
أن جاءه نعي أخيه محمد من اليمن في اليوم الذي مات فيه ابنه محمد فقال : محمدان في يوم واحد إنا لله
وإنا إليه راجعون .

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٢٩ والجاحظ - المحاسن والأضداد ص ١٨٤ ، ويروي الأتابكي ج ١ ص ٢٠٥ أن ذلك
القول كان من هند بنت النعمان في حق زوجها روح بن زنباع بينما يروي الألبشهي ج ١ ص ٥٤ أن
ذلك في الحجاج من هند بنت النعمان . وهذا خلط فإن الحجاج لم يتزوج بهند بنت النعمان وإنما تزوج
أختها أم أبان وأن الذي تزوج بهند بنت النعمان بعد روح بن زنباع كما يقول صاحب الأغاني ج ١٤
ص ١٢٥ إنما هو الفيض بن محمد الثقفي وكان يسكر ويقيء في حجرها فقالت فيه هذا الشعر ؛ وقد
ولدت منه بنتاً تزوجها الحجاج - الأغاني ج ٨ ص ١٣٥ .

(٢) الجاحظ - المحاسن والأضداد ص ١٨٤ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٠٩ .

ويروي الألبشهي ج ١ ص ٥٤ أن الرسول كان عبد الله بن طاهر .

(٣) الجاحظ - المحاسن والأضداد ص ١٨٤ ويروي الألبشهي ج ١ ص ٥٤ مائة ألف درهم بينما يروي ابن قتيبة
ج ٢ ص ٢٠٩ عشرة آلاف درهم وعلى أنها متعة .

(٤) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٠٩ .

ماتا دون عقب ^(١) وبنتان تزوجت إحداهما ابناً للخليفة عبد الملك بن مروان ^(٢) وثانيتهما بسرور ابن الخليفة الوليد ^(٣) .

وقد عمل على تربيتهم تربية صحيحة تحقق لهم السعادة فاهتم بغرس المبادئ الدينية فيهم باختيار أساتذة مسلمين ووصايتهم لهم .

يروى صاحب الأغاني أنه عندما أراد مؤدباً لولده أشير عليه بأستاذين أحدهما نصراني عالم والآخر مسلم أقل علماً فاختر الحجاج المسلم ^(٤) ، ولما حضر لديه قال له : ألا ترى يا هذا أنا قد دللنا على نصراني ، وقد ذكروا أنه أعلم منك غير أنني لم أشأ أن أضم ولدي إلى من لا ينبهم للصلاة عند وقتها ولا يدهم على شرائع الإسلام ومعاله ^(٥) .

كما اهتم بأن ينشئهم تنشئة رياضية حتى يشبوا أقوياء البنية .

ورغبة منه في أن ينشأوا وهم لا يخافون ركوب البحار أبدى رغبته لمعلم أولاده أن يعلمهم السباحة قبل الكتابة قائلًا له : إنهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم ^(٦) .

وفاة الحجاج : كتب الحجاج إلى عامله قتيبة بن مسلم بأنه فكر في سنه فوجد أنه قد بلغ الثالثة والخمسين وأن من وصل إلى خمسين سنة أو شك من النهاية ^(٧) .

(١) ابن قتيبة - المعارف ص ١٧٣ .

(٢) ابن الأثير ج٤ ص ١٨١ .

(٣) ابن الأثير ج٤ ص ٢٥٦ وابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٩ .

(٤) تقدم ص ٣٩٧ .

(٥) الأغاني ج١٨ ص ٧٨ .

(٦) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج٢ ص ١٦٦ والملاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ١٤٥ .

(٧) الأغاني ج١٨ ص ١١٩ وذيل الأمالي والنوادر ص ١ .

ويبدو لنا أن الحجاج قد كتب هذا حينما أحس بمبادئ المرض بدا ديبها في جسمه فقد مرض بسرطان المعدة ^(١) وقد أشرف على علاجه طبيبيه تياذوق ^(٢) وكان له طبيبان آخران هما الفرات بن سحناثا ^(٣) وثاذون ^(٤) ، ولكن الذي أشرف على علاجه هو تياذوق الذي كان في إبان شبابه متصلا بخدمة الأكاسرة وألف كتباً كثيرة في الطب منها كتاب الأدوية والكناشة الكبرى ^(٥) .

لم يُجَدِ العلاج فقد حانت المنية وأحس الحجاج بها فكتب وصيته المشهورة للخليفة الوليد ^(٦) .

وقال للناس أسندوني فأسندوه وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكر الموت وكربه واللحد ووحشته والدنيا وزوالها ، والآخرة وكرهها وأنشأ يقول :

إن ذنبي وزن السموات والأر	ضِ وطني بخالقي أن يحايي
فلئن منّ بالرضا فهو ظني	ولئن مرّ بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلم وهل يظلم	رب يرجى لحسن المآب؟!!

وقد فرح أهل العراق بمرضه وشمّتوا به وظهر ذلك منهم في صورة شنيعة .

(١) شذرات الذهب ج١ ص ١٠٧ و مرآة الجنان ج١ ص ١٩٥ . ومختصر التواريخ للسلامي ص ٢٢ ويروي صاحب البدء والتاريخ ج٦ ص ٣٩ أنه مات بالسل الرئوي .

(٢) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٤ وابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج١ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٦٩ وابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج١ ص ١٦٢ .

(٤) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٦ وابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج١ ص ١٢٣ .

(٥) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٤ .

(٦) تقدم ص ١٤٩ .

فقد دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعي وقال له : كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟؟ فقال : يا يعلى غما شديدا وجهدا جهيدا وألما مضيضا ونزعا جريضا وسفرا طويلا وزادا قليلا فويلي ويلى إن لم يرحمني الجبار .

فقال له يعلى - في تلك اللحظة القاسية - : يا حجاج إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولي الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقهم أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن الحجة وآثار الصالحين قتلت صالحى الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فبترتهم وأطعت المخلوق في معصية الخالق وهرقت الدماء وضربت الأبخشار وهتكت الأستار وسست سياسة لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان وأذلت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك فالיום لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر .

لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء فالحمد لله الذي أراحها بموتك وأعطاهم منها ما يحزبك .

فسكت الحجاج وتنفس الصعداء وخنقته العبثة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول :

رب إن العباد قد أيأسوني ورجائي لك الغداة عظيم ^(١)
ودعا فقال : اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل ^(٢) ؛ وصار يردد هذين البيتين :

(١) أبو علي القالي - ذيل الأمالي والنوادر ص ١٧١ .
(٢) ابن عساكر - التاريخ الكبير ج ٤ ص ٨٢ وابن كثير - البداية والنهاية ج ٩ ص ١٣٨ والقرماني - أخبار الدول وآثار الأول ص ١٣٣ .

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا أيانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عيياء ويحهم !! ما ظنهم بعظيم العفو غفار^(١)

ويروى أنه أحضر منجمًا وسأله : هل ترى في علمك ملكًا يموت ؟؟ قال : نعم
ولست هو - قال : وكيف ذلك ؟ قال المنجم لأن الذي يموت اسمه كليب . قال أنا
والله سمتني أُمِّي بذلك^(٢) فأوصى عند ذلك بأن يؤم الناس في الصلاة ابنه عبد الملك
وأن يلي إمارة الحرب يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن أبي مسلم الخراج^(٣) وقد أقر
الخليفة هذا التعيين ونفذ هذه الوصية كما أقر عماله على ما كانوا عليه^(٤)

ومات على الأغلب في خمس وعشرين من رمضان^(٥) ، وقيل في شوال^(٦) من
سنة خمس وتسعين للهجرة^(٧) وسنه ثلاث وخمسون أو أربع وخمسون سنة متأثرًا
بسرطان المعدة كما مات نابليون بونابرت بهذا المرض وفي سن الحجاج أيضًا .

(١) ابن عساكر - التاريخ الكبير ج٤ ص ٨٢ وابن شاعر - عيون التواريخ ج٥ ص ٢٧١ واليعني ج١١
ص ٤٠٧ والذهبي ج٤ ص ٨١٩ وابن خلكان ج١ ص ١٥٦ .

(٢) ابن قتيبة - المعارف ص ١٧٤ والبدء والتاريخ ج٦ ص ١٣٩ واليعني ج١١ ص ٤٠٧ وشذرات الذهب ج١
ص ١٠٧ وابن خلكان ج١ ص ١٥٥ .

(٣) ابن قتيبة - المعارف ص ١٧٤ والطبري ج٥ ص ٢٦٤ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ .

(٤) راجع ص ١٣٧ من الرسالة .

(٥) الطبري ج٥ ص ٢٦٤ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ وابن كثير ج٩ ص ١٣٨ وفي رواية أخرى للطبري ج٥
ص ٢٣٥ وابن خلكان ج١ ص ١٥٧ أنه مات يوم الجمعة ٢١ من رمضان ، وفي شذرات الذهب ج١
ص ١٠٦ ، ورواية أخرى لابن كثير أنه مات في ٢٧ من رمضان . ويروي ابن شاعر أنه مات في ١٥
منه .

أما المعارف ص ١٧٤ والعيون والحداث ج٣ ص ١٥ والمسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٧٣ فيذكرون أنه
مات في رمضان بدون التعرض لتعيين اليوم .

(٦) الطبري ج٥ ص ٢٦٤ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٢ وابن خلكان ج١ ص ١٥٧ وابن شاعر ج٥ ص ٢٧٢ في
روايتهم الثانية وابن كثير ج٩ ص ١٣١ في رواية له ثالثة .

(٧) الطبري ج٥ ص ٢٦٤ والمسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٧٤ واليعقوبي ج٣ ص ٣٤ وأبو الفدا ص ١٩٨
وابن قتيبة ص ١٧٤ ويروي الذهبي في تاريخ الإسلام ج٤ ص ٧٧٧ وفاته في سنة أربع وتسعين ويردد
ابن عساكر ج٤ ص ٨٢ وفاته بين سنة خمس وتسعين وست وتسعين .

ودفن الحجاج بمدينته التي أسسها - واسط - وعفى قبره وأجرى عليه الماء (١) .
وإذا كان قد عفى قبره فما لا شك فيه أنه ترك اسمًا هو من أعظم الأسماء في تاريخ الإسلام .

ولما مات طغى شعور الفرح على الناس الذين كانوا يبغضونه ، فقد خر عمر بن عبد العزيز ساجدًا حينما بلغه النبأ (٢) وكذلك الحسن البصري (٣) وبكى إبراهيم النخعي من شدة الفرح (٤) .

أما الخليفة الوليد فإنه حزن وتفجع عليه وجلس يتقبل التعازي فيه وقد رثاه الفرزدق الشاعر .

وبدأ المسلمون يتحدثون في مصيره في الآخرة كما قالوا إنه سيع صياحه في قبره وأخبروا بذلك يزيد بن أبي مسلم فقال : يرحمك الله يا أبا محمد فما تدع القراءة حيا ولا ميتا (٥)

ومات الحجاج ولم يترك من حطام الدنيا إلا ثلاثمائة درهم ومصحفًا (٦) وسرجًا ورحلاً ومائة درع موقوفة (٧) .

مصير أسرته : نفذ الوليد وصية الحجاج وأقر عماله على ما كانوا عليه ، وكتب إلى قتيبة بن مسلم يطلب منه أن لا يغيب عنه كتبه ويصف له خطواته حتى كأن

(١) ابن خلكان ج١ ص ١٥٧ وابن كثير ج٩ ص ١٣٩ والقرماني - أخبار الدول وآثار الأول ص ١٣٣ والإسلامي ص ٢٢ .

(٢) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٨ .

(٣) الذهبي ج٤ ص ٨٢١ وابن خلكان ج١ ص ١٥٧ وابن عساكر ج٤ ص ٨٢ وابن حجر ج٢ ص ٢١٢ .

(٤) ابن عساكر ج٤ ص ٨٢ .

(٥) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٩ والجهشياري ص ٢٦ وابن شاعر ج٥ ص ٢٧٤ .

(٦) ابن كثير ج٩ ص ١٣٩ .

(٧) ابن عساكر ج٤ ص ٨١ .

الوليد يرى الشجر الذي هو فيه ^(١) .

ولكن لم تطل مدة حياة الوليد بعد الحجاج أكثر من ثمانية شهور أو تسعة شهور إذ مات في منتصف جمادى الثانية من سنة ست وتسعين للهجرة وولي الخلافة بعده سليمان بن عبد الملك عدو الحجاج فأساء لأسرة الحجاج كما أساء لقتيبة بن مسلم ، فولى يزيد بن المهلب العراق وعين صالح بن عبد الرحمن على خراج الإقليم وكلفه بتعذيب آل الحجاج وقتلهم .

وقد قام صالح بذلك العمل يساعده عبد الملك بن المهلب ^(٢) ، فأخذ صالح أموال تلك الأسرة وعذب في ذلك السبيل الحكم بن أيوب بن أبي عقيل حتى مات تحت آلة التعذيب ^(٣) .

وبعث ابن المهلب إلى البلقاء من أعمال دمشق وبها عيال الحجاج فنقلهم وما معهم إليه وكان فيمن أتى به أم الحجاج - زوج يزيد بن عبد الملك - فعذبها ^(٤) . ولما ذكر خالد القسري - حاكم مكة - الحجاج في يوم الجمعة فحمد طاعته وأثنى عليه تلقى في الجمعة التالية أمرًا من سليمان بلعنه فلعنه ^(٥) .

ولم يذكر لنا المؤرخون سوى رجل واحد ظل وفياً لذكر الحجاج ؛ ذلك هو يزيد بن أبي مسلم فإنه لما أخذ إلى سليمان بن عبد الملك ؛ وسأله عن الحجاج أهو قد استقر في قعر جهنم أم ما زال ؟ يهوي ؟ أجابه لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين فإن الحجاج عادى عدوك ووالى وليكم وبذل مهجته لكم ، فهو يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فاجعله حيث شئت ^(٦) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٢ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) مرآة الزمان ج ٩ ص ٤ ، ٣١ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٣١٧ وابن الأثير ج ٤ ص ١٦٠ وقيل بل أخت لها . نفس المصادر .

(٥) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠ وزهر الآداب ج ٢ ص ٤٩ .

(٦) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ والمبرد ص ٣٤٧ وابن شاکر ج ٥ ص ٤٠٢ وابن خلکان

ج ٢ ص ٣٦٦ والدميري - حياة الحيوان ج ١ ص ٨٢ وشذرات الذهب ج ١ ص ١٢٤ .

خاتمة

نظرة في سياسة الحجاج وإدارته :

قبل أن نتكلم على سياسة الحجاج يحسن بنا أن نذكر كلمة عن العصر الذي نشأ فيه ونفسية الشعوب التي حكمها .

نشأ الحجاج في عصر بني أمية ، وهو عصر كان يعج بالثورات والفتن لكثرة الأحزاب السياسية وتباغضها وتنافرها لأنه بعد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى شيعة على رأسهم علي بن أبي طالب وأمويين على رأسهم معاوية بن أبي سفيان .

وقد أدى تنافس هذين الحزبين على الخلافة إلى حروب نشبت بين المسلمين انتهت بالتحكيم الذي كانت نتيجته انتصار حزب معاوية وانقسام أصحاب علي إلى فرقتين :

فرقة معه نصرته وأزرتة واستمرت موالية له ، وأخرى خرجت عليه وعلى معاوية وسموا أنفسهم بالشراة (الخوارج) الذين أكفروا الأمة واستحلوا دمهها والخروج على أئمتها .

وقد ائتمر فريق منهم بعد موقعة النهروان - التي حدثت بينهم وبين علي - على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص لاعتقادهم أنهم أصل الفتن التي دبت عقاربها بين المسلمين ، وانتهت هذه المؤامرة بقتل علي بن أبي طالب في رمضان من سنة أربعين للهجرة فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ولكنه تنازل عن الخلافة .

وسواء أكان تنازله طوعاً أم كرهاً فقد تمَّ الأمر لمعاوية في سنة واحد وأربعين للهجرة . وبذلك انتصر الحزب الأموي وصارت الخلافة لبني أمية .

وقامت الخلافة الأموية في دمشق يشد أزرها قبائل عربية قوية سكنت الشام منذ الفتح الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب ، وقد ألفوا إمرة معاوية الذي وسعهم بجملة وماله فكانوا طوع إرادة الأمويين ورهن إشارتهم .

وأما أمهات المدن الإسلامية فكانت تختلف حالها ، فصر كان بها جماعة يتشيعون
لأبناء علي وجماعة تمالىء بني أمية ، ولذلك كانت بها فتن واضطرابات لا تنقطع سيما
عند موت خليفة وقيام آخر .

وأما الحجاز فقد آوى إليه فريق من المهاجرين والأنصار من الذين اعتزلوا
السياسة وآثروا الاشتغال بالعلم على متابعة الطامعين في السلطان ، أو من الذين
كانوا ذوي مطامع ، ولكنهم وجدوا في معاوية قناة لا تلين لهم فظلوا مرتقبين
الفرصة .

وبجانب هذين الفريقين عاش فريق ثالث من ذوي اليسار ينعمون بحياة وادعة
في ظل الشعر والغناء وما إليهما منصرفين عن السياسة ومتاعبها وما تجره من عناءٍ
وآلام .

وأما العراق فقد كان أنشط الأقاليم العربية في السياسة إذ كان فيه قوتان
كبيرتان من قوى المعارضة :

كان فيه الشيعة العلوية التي اتخذت الكوفة مقراً لها ، وكان فيه الخوارج وهم
منتشرون في الكوفة والبصرة وغيرها من القرى والبلدان .

ولهذا السبب ظل هذا الإقليم منبع كثير من الأحداث التي أجهدت الأمويين
واستدعت نفقات كثيرة من الأموال والأرواح في تثبيت الأمن ورد المخاوف التي
تحدثها الخوارج حيناً والشيعة حيناً آخر .

راى معاوية في هذا الإقليم أن الخوارج قد أخافوا الناس وزلزلوا الأمن في المدن
والقرى كما أن الشيعة كانوا يرجفون ببني أمية ويلعنون معاوية على المنابر
ويضايقون عماله ويطردونهم .

لذلك رماهم بداهيتين من دهاة العرب : المغيرة بن شعبة الذي ولي الكوفة
وزياد بن أبيه الذي ولي البصرة وخراسان وسجستان .

وكان المغيرة في سياسته يؤثر العافية ولا يبدأ أحداً بالشر حتى يبدأ به . فهو يرخي للناس حبل السياسة حتى يشدوه فإذا راموا قطعه عاجلهم بضربة منه تقفهم عند حدهم وكان ينهج نهج معاوية أحياناً في تألف الخصوم بالمال .

على أن سياسة المسائلة هذه لم تقدم مع هؤلاء فقد اضطر آخر الأمر إلى أن يجرّد سيفه من غمده ، ولكنه مات في سنة خمسين من الهجرة فضم معاوية الكوفة إلى زياد .

وكان زياد أشد من المغيرة وأقوى ، ونستطيع أن نعرف سياسته من قوله في خطبته (لين في غير ضعف وشده في غير عنف المحسن يحازي بإحسانه والمسيء يحازي بإساءته) .

وفي عهده سكنت الحالة بالعراق حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين من الهجرة فولى بعده ابنه عبيد الله .

وفي عهده كاتب العراقيون الحسين بن علي يطلبون منه الحضور لديهم لإخراج الأمر من بني أمية ومبايعته بالخلافة وزينوا له ذلك الأمر فسار إليهم من الحجاز فلما بلغ كربلاء خذلوه كما خذلوا علياً والحسن من قبل ، وحدثت موقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين وكثير من آل بيته ، وكان لمقتل الحسين أثر مهم .

ذلك أن التشيع بعد أن كان نظرياً أصبح عملاً وفعلاً وبعد أن كان الشيعة متفرقين اجتمعوا نادمين على ما كان منهم من خذلان الحسين وآل بيته وقد لبى هذا النداء - نداء الندم والتوبة - العدد الكثير وعلى الأخص الموالي من الفرس .

وقام فريق كبير من هؤلاء النادمين على ما اقترفوا (التائبين) برئاسة سليمان ابن صرد لمحاربة قتلة الحسين وساروا قاصدين عدوهم ومازالوا سائرين حتى انتهوا إلى عين الوردة ^(١) في ربيع الآخر من سنة خمس وستين للهجرة حيث اشتبكوا بجيش

(١) رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة - ياقوت ج ٦ ص ٢٥٨ .

عبيد الله بن زياد ودارت رحى الحرب التي انتهت بقتل سليمان بن صرد والكثير منهم وتفرق من بقي منهم .

وظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ست وستين وتمكن من جمع - الشيعة التوابين - وغيرهم حوله وقام بحرب ضد قتلة الحسين وتمكن من قتل معظمهم ، ولكنه قتل على يد مصعب بن الزبير الذي كان العراق تحت إمرته - في سنة سبع وستين ، فبدأ الشيعة من ذلك الوقت يعملون في الخفاء .

انتهز عبد الله بن الزبير - وهو من أشد المنافسين للأمويين - فرصة مقتل الحسين فقام مندداً بالأمويين وسياستهم مرشحاً نفسه للخلافة الشرعية ، تلك الأمنية التي لم يكن يستطيع أن يجهر بها طالما كان الحسين على قيد الحياة .

وتمكن من أخذ البيعة في سنة ثلاث وستين من الهجرة حيث قال له أهل الحجاز : امدد يدك نبايعك فلم يبق غيرك (١) .

وقد صادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد الحجاز والعراق ومصر ، وبذلك ظهر في الجو السياسي حزب رابع هو حزب الزبيريين .

وفي هذه الأثناء حدث الانقسام في البيت الأموي بعد تنازل معاوية الثاني بسبب الخلاف على من يتولى الخلافة وحدثت موقعة مرج راهط في سنة خمس وستين للهجرة التي انتصر فيها مروان بن الحكم وحزبه وانتقلت الخلافة من الفرع السفيفاني إلى الفرع المرواني .

في هذه الحقبة قضى الحجاج عهد طفولته وصباه فسمع بتلك الحوادث أو شاهدها وللشئون السياسية والأحداث الاجتماعية الأثر الكبير في تكوين عقول الناس وأخلاقهم .

(١) موضع بنواحي دمشق - ياقوت ج ٨ ص ١٦ .

ولقد أثرت هذه الأحداث في نفس الحجاج وزادها تأثيراً ممارسته للتعليم فإنها أكسبته خبرة ومرانا مكناه من معرفة طبائع الناس وبواطن نفوسهم والأوقات التي تنفع فيها الشدة والأوقات التي ينفع فيها اللين . هذا ، فضلاً عما وهبه الله له من القوة الشخصية والاعتزاز بالنفس والتأثير البياني .

في هذا الجو الذي كان يعج بالثورات والاضطرابات ولي الحجاج بن يوسف قيادة الحملة التي وجهت إلى الحجاز ضد عبد الله بن الزبير العائد بالبيت ، فلما انتصر عليه أسندت إليه حكومة الحجاز ، وبذاك قُدِّر للحجاج أن يتحمل المسؤولية مبكراً فلم تكن له مندوحة من أن يلتبس سبيل الشدة والحزم وإلا سقط في إدارته سقطنة لا تقوم له بعدها قائمة .

عرف الحجاج ذلك فشر عن ساعد الجد فأرهب دعاة التفرقة ، وقام بعدة أعمال دلت على بعد نظره ودهائه في السياسة ، فأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول وفرق أموالاً وبني مسجداً وأصلح آباراً .

على أن الحجاج لم تطل به الإقامة بالحجاز فقد اختاره عبد الملك لولاية العراق .

ذلك الإقليم الذي كان يعج بالثورات فكان إذا ما ولي على أهله عاهل لا يلبثون أن يطلبوا عزله أو هم كما وصفهم الأحنف بن قيس « كالمسومة تريد كل يوم بعلاً وهم يريدون كل يوم أميراً »^(١) فإذا لم يجابوا إلى ذلك قاموا بثورة .

وقد أدرك ذلك الداهية الكبير معاوية بن أبي سفيان فكان من وصيته لابنه يزيد (وانظر لأهل العراق فإن سألك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف)^(٢) .

(١) ابن الأثير ج٤ ص ١١ .

(٢) الطبري ج٤ ص ٢٣٨ وابن الأثير ج٣ ص ٢٥٩ .

ذلك الإقليم الذي كان من طبيعة أهله الغدر ومن سجيتهم عدم الوفاء ، فهم قد كاتبوا الحسين بن علي - في عهد يزيد بن معاوية - في أن يحضر إليهم ليناصروه ويبايعوه فلما حضر إليهم قاتلوه ، وبعد قتله ودخول آل الحسين الكوفة وقفت أخته السيدة زينب رضي الله عنها فخطبت ووصفت أهل العراق بالغدر والنفاق (١) .

وكانوا مع مصعب بن الزبير ويكاتبون عبد الملك بن مروان بأن يحضر بجيشه حتى إذا ما حضر غدروا بمصعب وأسلموه في ميدان القتال (٢) .

وبعد قتله وخروج زوجته السيدة سكينه بنت الحسين قالوا : أحسن الله صحبتك يا ابنة رسول الله ، فقالت : لا جزاكم الله خيراً من قوم ولا أحسن الخلاقة عليكم قتلتم أبي وجدي وعمي وزوجي ، أيتتموني صغيرة وأيتتموني كبيرة (٣) .

ذلك الإقليم الذي كان أهله يرتكبون الكبائر ويسألون عن الصغائر وكما وصفهم بعض الناس بقوله (أسأل الناس عن صغيرة وأركبهم للكبيرة . يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم) (٤)

استعرض الحجاج هذه الحال قبل أن يذهب للعراق ، فرأى أنه إن أعرض عن قبول المهمة التي أسندت إليه سقط من حساب الأمويين وهيئات أن تقوم له بعد ذلك قائمة ، فرأى أن يغامر بقبول المهمة التي أسندت إليه .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذي طلب إلى عبد الملك أن يكل إليه أمر العراق .

(١) العيني ج١١ ق١ ص ٥٢ .

(٢) البلاذري ج٥ ص ٣٣٨ وابن الأثير ج٤ ص ١٢ والدينوري ص ٣٠٣ .

(٣) تاريخ الكوفة ص ٢٤٧ وابن عبد ربه ج٣ ص ٢٥٦ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف ج٥ ص ٣٧٧ وراجع ابن عبد ربه ج٣ ص ٢٥٦ .

وسواء أكانت إمارة العراق قد عرضت عليه فقبلها أم أنه سعى لها عند أمير المؤمنين فما لا شك فيه أنها كانت مغامرة لا يقدم عليها إلا من كان في جرأة الحجاج

حزم الحجاج أمره وسار إلى العراق فاستهل حياته فيه بتلك الوقفة المسرحية التي وقفها من أهل الكوفة

قدم عليهم في هيئة أثارت استخفافهم وزرايتهم لبني أمية لاختيار مغمور مثله واليًا على العراق .

دخل عليهم متقلدا سيفه متنكبا قوسه ، وقد غطى أكثر وجهه ثم لبث فترة طويلة لا يتكلم .

ولما أحس بأنه أثار في القوم الدهشة والاستغراب وحرك فيهم حسن الانتباه حسر اللثام عن وجهه ، ولم يلبث أن ملأ الأسماع دويًا ورنينًا وأفاض على الوجوه رهبة ورعبًا

(إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها .. ، إن أمير المؤمنين قد نثر كنانته بين يديه فوجدني أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي) ... إلخ .

بهذه العبارات وأمثالها مما امتلأت به خطبة الحجاج الأولى أفاق أهل الكوفة من سباتهم وأدركوا أن أمر الخليفة في هذه المرة جد لا هزل فيه .

ولسنا مغالين إذا قلنا إن الحجاج قد لازمه التوفيق من أول يوم دخل فيه العراق ، فقد ولى عمالاً أكفاء وقد سبق أن ذكرنا أنه في أول ولايته طلب رجلاً يوليه الشرطة واشترط فيه شروطًا وأوصافًا خاصة فذلَّ على عبد الرحمن بن عبيد التيمي .

وهذا العامل قد سار سيرة بسطت الأمن وقللت من وقوع الجرائم .

واختار المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة وأبان له بصراحة أنه في حاجة إلى

خدماته فقال له : إن بشرًا رحمه الله استكره نفسه عليك وأنا أريك حاجتي إليك فأرني الجد في قتال عدوك ، (١) .

واختار الحكم بن أيوب لولاية البصرة ، وناهيك بقتيبة بن مسلم فاتح بخارى وسمرقند ومحمد بن القاسم فاتح السند .

وكان يبحث عن الأشخاص الصالحين والأخيار ليوليهم الأعمال (٢)

وكان في اختياره للعمال لا يفرق بين القبائل بل كان يختار الكفاء مهما كانت قبيلته فقد ولي قتيبة بن مسلم وهو باهلي عملاً من أهم أعمال الدولة .

حقيقة أن بطانته كانت من قيس ولكنه لم يعينهم لقيستهم بل لما توافر فيهم من كفاية ومقدرة وحسن تصريف للأمر .

ولو فرضنا أن الحجاج كان يؤثر القيسيين على غيرهم إذا تساوت الكفاية ، ففي رأينا أنه لا يلام على ذلك .

ومن إحدى فطن الحجاج سوء الظن بالعمال حتى لا يتورط معهم فكان يرسل الرسل الى المهلب وهو على حرب الأزارقة لتنظر ما هو عليه ويبعث الأرصاد لتأتيه بأخباره مخافة أن تحدثه نفسه بالخروج .

وعزل يزيد بن المهلب لما علمه عنه من الطغيان والجبروت وإسرافه في الإنفاق على الشعراء واستمالة القلوب إليه وكذا مخالفته للأوامر (٣) .

وكان الحجاج لا يني عن أن يحاسب المسيء على إساءته مهما كانت حظوته

(١) المبرد ص ٦٦٧ وابن أبي الحديد م ١ ص ٣٩٧ .

(٢) راجع ابن عساكر ج ٦ ص ٣٣٦ وابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢١١ وابن عبد ربه ج ١ ص ١٨٦ .

(٣) راجع الأغاني ج ١٣ ص ٥٦ .

لديه ، فقد حبس صهره مالك بن أسماء لارتكابه جريه الخيانة ^(١) .

فصلحة الدولة وما يستتبعها من طاعة للأوامر كانت في نظره فوق كل اعتبار ، وكان عماله لهذا يهابونه ويخافونه ويحسبون له حساباً فيعملون على مرضاته إذ كان يكافئ المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ويبالغ في ذلك حتى قيل « ليس مثله لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه » ^(٢) .

وكان من حسن إدارته أنه لا يجمع أهل الشام بأهل العراق وإذا اجتمعوا لا يخلطهم ^(٣) حتى لا تنقل جرائم عدوى العصيان إلى أهل الشام - وكان هذا سبباً من الأسباب التي أدت إلى بنائه مدينة واسط .

وكان من حسن سياسته أن يأخذ بأيدي العلماء الذين لا يتدخلون في السياسة ويمنحهم العطايا وقد فعل ذلك مع غير واحد مع سعيد بن جبير قبل أن يخوض غمار ثورة ابن الأشعث ومع الشعبي وغيرها ، وكان يسمع لنصح الناصح وخاصة إذا اعتقد أن النصيحة قد صدرت عن إخلاص ^(٤) .

ومن حسن إسلامه اهتمامه بالفتوحات فإنه لم يكد ينتهي من الخوارج حتى وجه الجيوش وأنفق عليها للفتح ، ولم يكن غرضه الأساسي المال وفرض الجزية كما يقول دوزي ^(٥) إنما كان غيوراً على نشر الإسلام غير طامع في سلب أو فيء .

وكان الحجاج يشرف على كل الأقاليم ويعلم أخبارها وما يجري فيها وقد وصل قلم المخابرات عنده إلى درجة كبيرة من الدقة ، فكان يعلم الأخبار كبيرها وحقيقها

(١) الأصفهاني - الأغاني ج١٦ ص ٤٠ ويروي أبو علي القالي ج٢ ص ١٩٥ أن الذي كان في السجن هو عيينة ابن خارجة .

(٢) الذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١١ .

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين ج٢ ص ١١٣ .

(٤) الطبري - تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص ٨٦ .

(٥) تاريخ مسلمي إسبانيا ص ١٢٣ .

بعد حدوثها بقليل . ولقد سهل عليه ذلك بعدما اتخذ المناظر بين واسط - مقره - وبين قزوين ^(١) .

وكان الحجاج يعامل أهل العراق وفق عقلياتهم التي درسها ونفسياتهم التي كشفها فقد قطع ناس من عمرو بن تميم وحنظلة الطرق . فكتب إليهم رسالة جاء فيها :

(من الحجاج بن يوسف : أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنتهون وأيم الله إني لأهم أن يكون أول من يرد عليكم من قبلي خيل تسف الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والولدان يتامى والديار خراباً والسواد بياضاً ، فأيا رفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه مقدمة مني إليكم والسعيد من وعظ بغيره والسلام) ^(٢) .

هذا وقد تعارف المؤرخون على القول بأن الحجاج كان لا يحتمل أن يخالف له قول أو يعصى له أمر أو أن يخرج عن طاعته أحد ورموه من أجل ذلك بالطغيان والاستبداد .

وواقع الأمر أن الحجاج كان من ذلك الطراز من الرجال الذين تأصلت فيهم غريزة الطاعة ^(٣) فكان من العسير عليه أن يستسيغ العصيان من غيره .

يضاف إلى ذلك أنه لم يأت أمراً إذاً ولا فعلاً منكراً ^(٤) . ومن هنا يرى أنه لا يستحق أن يكون موضع لوم أو أن يعصى له أمر . فكان من نتائج ذلك أن قسا على كل من حدثته نفسه أن يأتي أمراً من ذلك .

وقد أكثر المؤرخون من عدد ضحايا الحجاج فقالوا إنه قتل مائة ألف ^(٥) أو

(١) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٤٨ وياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٢ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٤ وابن عبد ربه - العقد الفريد ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن كثير ج ٩ ص ١٢٨ .

(٤) ابن كثير ج ٩ ص ١٢٨ .

(٥) ابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٩ .

مائة وعشرين ألفاً صبراً طوال ولايته^(١) ، وقالوا إنه قتل هذا العدد بعد موقعة دير الجماجم فحسب .

وفي تقديرنا أن المؤرخين قد ذكروا هذا الرقم (مائة ألف) تمشيًا مع جاري عادة العصر في المبالغة فيها نحن نرى معاوية بن أبي سفيان يقول لابنه يزيد : فإن سألك أهل العراق كل يوم عزل عامل عليهم فاعزله عنهم فإنه أهون عليك من سل مائة ألف سيف ... إلخ .

وقد قدر المؤرخون عدد جيش ابن الأشعث من العرب بمائة ألف ، ويقول يزيد ابن المهلب ليزيد بن عبد الملك : والله لأرمينك بمائة ألف سيف . ولعل رقم المائة ألف كان شائعاً في تلك الأيام على الألسن ، ولعل المؤرخين اندفعوا إلى تسجيل الإسراف في الدماء على الحجاج لكثرة ما قرأوه في خطبه من التهديد والوعيد ، وحقاً لو أن الحجاج نفذ كل ما في خطبه وكتبه من تهديد لقتل أهل العراق جميعاً لا مائة ألف فحسب .

كما قالوا إنه مات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ثلاثة وثلاثون ألفاً لم يجب على أحد منهم قتل ولا صلب^(٢) .

ويستدلون بذلك على تفاهة الجرائم التي كان الحجاج يلقي من أجلها الناس في السجون ، ويستشهدون بحادث رجل بال في أصل مدينته « واسط » فسجن^(٣)

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٢ ص ١٦ وابن الأثير ج٤ ص ١٣٣ وابن شاعر ج٥ ص ٢٧٢ والعيني ج ١١ ص ٤٠٥ وياقوت ج ٨ ص ٣٨١ وابن عساكر ج٤ ص ٨٠ والذهبي ج٤ ص ٨١٧ والسلامي ص ٢٢ والدميري ج٢ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن عبد ربه ج٣ ص ١٥ والعيني ج ١١ ص ٤٠٦ وياقوت ج ٨ ص ٣٨١ وابن عساكر ج٤ ص ٨٠ والقرماني ص ١٣٣ والدميري ج٢ ص ٢٠٨ في رواية له ويروي في رواية أخرى له ج٢ ص ٨٢ أنه أخرج من السجون ثلثائة ألف .

(٣) الدميري ج٢ ص ٢٠٨ في رواية له ويروي في رواية أخرى له ج٢ ص ٨٢ وابن شاعر ج٥ ص ٢٧٢ وابن كثير ج٩ ص ١٣٦ وابن عساكر في رواية له ج٤ ص ٨٠ وفي رواية أخرى له بال في الرحبة وقضى حاجته في المسجد .

وبآخر أخطأ في القراءة فسجنه (١) .

والواقع أن الحجاج كان يلقي بالناس في السجن لأتفه الجرائم . ولم لا . ؟؟ ألم يفد على العراق وحاله فوضى والناس مستهترون بسلطة الحكومة أيما استهتار؟؟

على أن النسبة بين الجريمة والعقوبة مسألة تقديرية تختلف باختلاف الظروف فجريمة إحراز المخدرات مثلاً كانت منذ بضع سنوات لا تستحق - صارم العقاب وكان يكتفي فيها بالغرامة فلما استفحل أمر المخدرات وخُشي على الشعوب منها أصبحت عقوبتها اليوم من أقصى العقوبات .

ولا نستطيع أن نقدر حزم الحجاج في تشديد العقوبة وملء السجون بمرتكبي الجرائم إلا إذا تصورنا حالة العراق في عصره .

وفي تقديرنا أن الحجاج لو سجن نصف أهل العراق لما كان ذلك كثيرًا عليهم ، ومتى كانت السجون مأوى لمن وجب عليهم القتل أو الصلب حتى يؤخذ على الحجاج (أنه لم يجب على أحد منهم قتل أو صلب) .؟؟

أما قصة سجونها وأنها كانت لا سقف لها تقي المساجين من حر الصيف ولا برد الشتاء (٢) ، فإن السجون كانت ولا تزال تتطور مع الزمن ولا تزال في العالم المتدين اليوم سجون إذا قيست بغيرها في ممالك أخرى كانت هذه أتعس حالاً من سجون الحجاج .

ألنسنا نرى الفرق بين السجون الملحقة بمراكز البوليس في مصر والسجون في إنجلترا وأمريكا .؟؟

(١) ابن نباتة - سرح العيون ص ١٠٩ .

(٢) ابن شاعر جده ص ٢٧٢ وابن دقاق - الجوهر الثمين ص ٢١ والسلامي - مختصر التواريخ ص ٢٢ والقرياني

ص ١٣٣ والدميري ج ٢ ص ٢٠٨ .

وبعد ، فمتى كان أهل العراق الذين عاصروا الحجاج يستحقون غير هذا النوع من السجون؟؟

أما اختلاط النساء بالرجال في سجون الحجاج (١) - ذلك الاختلاط الذي رواه المؤرخون - فنستطيع أن نقطع مطمئنين بأن الحجاج لم يفعل شيئاً من ذلك ، وكيف يفعل ذلك وهو الغيور على الأعراض والأنساب المحافظ على الأعراض العامة . فضلاً عن أننا نستبعد عليه أن يسمح لمسجونيه بهذا النوع من الترفيه .

وفي تقديرنا أن الحجاج كان ضحية المؤرخين الذين افتروا عليه شتى المفتريات تمشياً مع روح العصر الذي كانوا يكتبون فيه ، ومن ذا الذي يصدق أن عبد الملك طلب منه مرة أن يصف نفسه فقال : أنا لجوج حسود ذو قسوة : فقال عبد الملك : ما في إبليس أشر من هذا . فقال الحجاج : إذا رأي إبليس سامني (٢)؟؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يتمشى مع المؤرخين في وصف الحجاج بأنه كان بينه وبين إبليس نسب؟؟

وليس معنى هذا أن الحجاج كان ينفي عن نفسه تهمة القسوة على أهل العراق . لا . بل إن الحجاج كان في ذلك صريحاً .

قابل مرة في بلاط عبد الملك عدوه اللدود خالد بن يزيد فقال له : إلى كم هذا البسط والقتل فقال : ما دام بالعراق رجل يدعي الخلافة .

ونرى أننا كلما بعدنا عن عصر الحجاج كثرت المفتريات والأباطيل ، وكراهية الروايات المتأخرة له تثبت قدره العالي الذي كان له في حياته وأن الذين عابوا

(١) ابن شاعر جده ص ٢٧٢ وابن دقاق - الجواهر الثمين ص ٢١ والاسلامي - مختصر التواريخ ص ٢٢ والقرماني ص ١٣٣ والدميري ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٧ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٣ والذهبي ج ٤ ص ٨١٣ واليعني ج ١١ ص ٤٠٤ وابن الأثير ج ٤ ص ١٣٣ .

الحجاج مثل يزيد بن المهلب وولوا شيئاً من الأمور لم يستطيعوا إلا السير على طريقته .

فقد أبقى الجيش السوري في العراق ولم يغير شيئاً من الضرائب التي كانت في عهد الحجاج حتى يبقى الدخل في الارتفاع ، وقد أراد ابن المهلب أن لا يتحمل شيئاً من التبعات فيما يتعلق بمالية الدولة فعين مديراً للضرائب هو صالح بن عبد الرحمن ، ولكن هذا المدير كان حازماً فقد استقل بالأمر ورفض أن يوقع على الصكوك التي كان يرفعها له يزيد ، وكان ذلك سبباً من أسباب كراهيته للعراق وعمل على أن يولى خراسان لينال أغراضه لعدم وجود أصعب آخر معه فيها ولكنه لم يوفق هناك أيضاً (١) .

ومن الغريب أن أعداء الحجاج ظلوا يذكرون المساويء ويضيفون عليها من عندياتهم ولا يذكرون المحاسن .

وبعد ، فالحجاج لم يكن ملكاً نزل من السماء بل كان بشراً يخطيء ويصيب ، ومن الإنصاف أن يسجل للإنسان ما أصاب فيه بمثل ما يسجل عليه ما أخطأ فيه .

وفي مرة ذكر الحجاج في مجلس فيه عبد الوهاب الثقفي بسوء فغضب عبد الوهاب وقال : إنما تذكرون المساويء أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهماً عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة بعد الصحابة في الإسلام وأول من اتخذ المحامل ، وإن امرأة سبيت في الهند فنادت يا حجاجاه واتصل به ذلك فجعل يقول لبيك لبيك وأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى أنقذ المرأة ؟!

واتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا النيران فتجرد الخيل إليهم ، فكانت المناظر متصلة بينهم وبين قزوين (٢) .

(١) راجع الطبري ج ٥ من ص ٢٨٦ - ٢٨٨ وابن الأثير ج ٤ من ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٢٨١ .

وقد أكبر أبو جعفر المنصور الحجاج لهذا الإخلاص^(١) الذي كان الغرض منه خدمة الدولة الإسلامية وتوطيد دعائها ونشر راية الإسلام عالية خفاقة في البلاد فقد استطاع أن يوطد دعائم الدولة وأن يرفع الامبراطورية الإسلامية إلى أوج عظمتها وأن يجمع عناصر الشقاق فيها بقوة وحزم .

وبمثل ما كان الحجاج موفقاً في سياسته كان موفقاً في إدارته إذ عرف الحجاج - قبل العصر الحديث بعشرات المئات من السنين - تحديد مواعيد السهر والأمر بعدم التجول .

ولعل العوامل التي تحدوا برجال الحكم اليوم لفرض هذا النظام هي بعينها التي دعت الحجاج لفرضه وإن كان الحجاج قد التمس لذلك أسباباً أخرى كرجبته في أن ينام الناس آمنين مطمئنين لا يزعجهم مزعج ولا يكدر صفوهم مكدر .

وتحقيقاً للغرض الأصلي الذي فرض الحجاج من أجله هذا النظام - وهو الاطمئنان على الدولة من المؤامرات التي تدبر بالليل في المجالس - كانت عيونه تسير بالليل فإذا وجدت شخصاً مخالفاً للأوامر قبضت عليه وسيق إلى الحجاج للتحقيق معه (٢) .

وقد عرف الحجاج كذلك مجموعة من أساليب الإدارة والحكم يظنها كثير من الناس اليوم من مبتكرات العصور الحديثة .

بلغت عنايته بنظافة المدن والحرص عليها من أن تلوث بالأقذار أن فرض في هذا السبيل قيوداً عدة (٣) .

(١) راجع المسعودي ج٢ ص ١٠٨ وابن عساكر ج٤ ص ٦٨ والبلاذري ج١١ ص ١٧٢ .

(٢) ابن دقاق - الجوهر الثمين ص ٢١ وابن عساكر ج٤ ص ٦٧ وقد روت بعض المصادر حادثة مستبعدة الحدوث على الحجاج راجع ابن عساكر ج٤ ص ٧٧ والذهبي - تاريخ الإسلام ج٤ ص ٨١٦ .

(٣) ابن قتيبة ج١ ص ٢٣٦ وابن كثير ج٩ ص ١٣٦ وابن شاکر ج٥ ص ٢٧٢ .

ولعل الحجاج أول من فرض عقوبة السجن على من يضبط عابثاً بنظافة المدن محلاً بالآداب . وقد نظم الحجاج الانتقال من مدينة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر^(١) على النظام المعروف اليوم بنظام جوازات السفر أو بعبارة أدق علي النظام الذي عرفته الدول الدكتاتورية قبيل الحرب العالمية المعروف بنظام « السالفو كوندكتو » ، فإذا ما أراد أحد السفر من مكان إلى آخر - ولو داخل حدود الإقليم - كان لا بد له من أخذ جواز بذلك من موظف مختص يقيم في دار تعرف بقصر المجيز .

ونظراً لما كان لمدينة واسط من أهمية خاصة جعل الدخول إليها بإذن خاص^(٢) .

ولعل الحجاج أول من ابتدع إعدام الكلاب الضالة حتى لا تؤذي الناس وتسبب انتشار الأمراض^(٣) .

وقد هاله إقبال العرب على ذبح الأبقار فخشي انقراض النسل وغلاء الألبان فأصدر أمره بتحريم الذبح^(٤) وهي وسيلة قد لجأت إليها الأمم في العصر الحديث مدفوعة بنفس العوامل التي رآها الحجاج .

ولما كانت حاجة الحجاج ماسة إلى طراز طيب من الجند بدلاً من ذلك الخليط الذي عرفته الفتوحات الإسلامية قبل عهده فقد جعل الخدمة العسكرية إجبارية وكان يقبل الجند في الجيش بعد توقيع الكشف الطبي عليهم^(٥) كما تفعل الأمم المتحضرة اليوم .

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ١١ ص ٢٧٩ .

(٢) راجع الأغاني ج ٧ ص ٦٦ .

(٣) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ١ ص ٢٦٣ وابن عساكر - التاريخ الكبير ج ٤ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٤) تقدم ص ١١١ .

(٥) الأصفهاني - الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ .

وقد أراد أن يجعل لإمارته أهمية خاصة في المعاملات فاتخذ دارًا لضرب النقود وجمع فيها الطباعين وكان يحيطهم بضروب من المراقبة تجعل التزييف في حكم المستحيل (١) .

وكان يراقب الأسواق في البيع والشراء ففي مرة وجد رجلاً يبيع دواب معيبة فسأله عن طريقة بيعها فقال له إنه يبيعها على عيبها (٢) .

وخلاصة القول أنه لم يترك شاردة ولا واردة في شؤون الإدارة إلا وأولاهها عنايته .

ولعل أهل العراق قد بهتوا للابتكارات التي أحدثها الحجاج في الإدارة فقالوا عنه إنه إبليس من الأبالسة وأنه ساحر (٣) .

ولي الحجاج العراق نحو عشرين عامًا كان فيها سيفًا من سيوف الإسلام المسلولة ودعامة من أهم دعائم الدولة الأموية .

ولا صحة لما ذهب إليه بعض الكتّابين (٤) من أنه كان سببًا من أسباب سقوط الدولة الأموية فيما بعد ، فإن تصرفاته كانت سليمة ولكن الأعداء استغلوه في دعايتهم ضد الأمويين تلك الدعاية التي مهد لها عمر بن عبد العزيز بسياسته الهادئة التي جعلت الدعاة يتمكنون من تأسيس الجمعيات ونشر الدعايات المختلفة تلك السياسة التي أنعشت الموالي وأعداء الإسلام ومكنتهم في عهده من الوقوف على أقدامهم .

ولقد ساعدتهم على ذلك وقف حركة الفتوح الخارجية فاشتغل الجند بالسياسة

(١) تقدم ص ١٠٦ .

(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ١ ص ١٦٠ .

(٣) ابن عساكر - التاريخ الكبير ج ٤ ص ٧١ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١١٥ .

(٤) فان فلوطن السيادة العربية ص ٥٩ والحضري بك - تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٦٣ .

وقلت موارد الدولة فأثر ذلك على خزانتها ، فلما حاول الخلفاء من بعده أن يعيدوا الحال إلى ما كانت عليه حق تسير السفين بدأ الناس يتذمرون وينتقدون .

فلو أن الدولة سارت على نظام واحد - وهو نظام الحجاج - ل طال أجلها وامتدت حياتها .

فانهيار النظام الذي وضعه كان خسارة للإسلام عامة وللدولة الأموية خاصة فإن الدولة - كما قال رفيق بك العظم^(١) - تموت برجل وتحيا بآخر وإن الرجال في الدول قليل .

والدولة الأموية لما فقدت رجالها المخلصين الصادقين في خدمتها مثل الحجاج وخالد القسري وموسى بن نصير وغيرهم فقدت بفقد هؤلاء الرجال وأمثالهم جانباً لا يقدر من قوتها وأخذت من ثم تنحط هيبتها .

فوت الحجاج في الحقيقة مبدأ أفول نجم الدولة الأموية لأنه كان يدها التي بها تضرب وعنيها التي بها تبصر ، فإنه بعد أن أحمد فتنة ابن الزبير كان والياً على الكوفة وخراسان - وكلاهما عش الفتنة ومنبع الإمامية - ومع هذا ضبط البلاد وأرهب ببطشه المنازعين للدولة النازعين إلى الشغب وأحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الأمويين في عهده إلى كابل من بلاد الأفغان شرقاً والتركستان الصينية شمالاً .

ولو جاء من بعد الحجاج من يخلص للدولة الأموية إخلاصه ومن يحكم الأمصار بمثل حزمه وعزمه لتغير وجه التاريخ .

(١) مجموعة الآثار ص ٢٢ ، ٢٣ .

ملحقان

- (١) أهم الحوادث وتواريخها وفق التقويمين الهجري والميلادي .
- (٢) أهم الأماكن التي وردت في حرب الخوارج ، والأماكن التي فتحت في عهد الحجاج .

ملحق رقم (١) بأهم الحوادث وتواريخها وفق التقويمين الهجري والميلادي

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
رجب سنة ٦٥	خروج الحجاج ووالده مع مروان بن الحكم إلى مصر	فبراير سنة ٦٨٥
شعبان سنة ٦٥	خروج الحجاج ووالده مع جيش ابن دلجة القيني إلى المدينة وموقعة الربرة	مارس سنة ٦٨٥
١٤ رمضان سنة ٦٧	قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي	إبريل سنة ٦٨٧
١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٢	قتل مصعب ابن الزبير في مسكن	١١ نوفمبر سنة ٦٩١
غرة ذي القعدة سنة ٧٢	خروج الحجاج بحملته من الطائف متجها إلى مكة لحصار عبد الله بن الزبير	٢٥ مارس سنة ٦٩٢
١٥ من ذي الحجة سنة ٧٢	حدوث الصواعق أثناء حصار الحجاج لابن الزبير	٩ مايو سنة ٦٩٢
الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣	قتل عبد الله بن الزبير	٤ أكتوبر سنة ٦٩٢
صفر سنة ٧٤	سير الحجاج إلى المدينة واليا عليها	يونيو ويوليو سنة ٦٩٣
رجب سنة ٧٤	موت بشر بن مروان	نوفمبر وديسمبر سنة ٦٩٣
رجب سنة ٧٥	دخول الحجاج للعراق	نوفمبر وديسمبر سنة ٦٩٤
أول شعبان سنة ٧٥	نزول الحجاج رستقباد	٢٣ ديسمبر سنة ٦٩٤
٢٠ شعبان سنة ٧٥	كتاب الحجاج إلى المهلب بمناهضة الخوارج	يناير سنة ٦٩٥
٢٠ رمضان سنة ٧٥	إجلاء المهلب للخوارج عن رامهرمز	فبراير سنة ٦٩٥
ربيع الثاني سنة ٧٦	قيام ابن الجارود بالثورة	يوليو سنة ٦٩٥
أول صفر سنة ٧٦	قيام صالح بن مُسَرَّح الخارجي بالثورة	٢١ مايو سنة ٦٩٥
١٧ جمادى الأولى سنة ٧٦	قتل صالح بن مُسَرَّح	٢ سبتمبر سنة ٦٩٥
سنة ٧٦		
سنة ٧٧	الحروب بين الحجاج والأزارقة من ناحية	

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
	وبين شبيب والحجاج من ناحية أخرى وانتصاره على الفريقين	سنة ٦٩٦
سنة ٧٨	تولية الحجاج أمور خراسان وسجستان وتقليد الحجاج خراسان للمهلب ، وسجستان لعبيد الله بن أبي بكر	سنة ٦٩٧
سنة ٧٩	حملة عبيد الله بن أبي بكر إلى سجستان وحربه مع زنبيل وانتصار زنبيل	سنة ٦٩٨
سنة ٨٠	غزو المهلب بلاد ما وراء النهر ، ومسير عبد الرحمن بن الأشعث إلى زنبيل	سنة ٦٩٩
سنة ٨١	خروج ابن الأشعث على الحجاج	سنة ٧٠٠
١٠ من ذي الحجة	انتهاء معركة تستر وهزيمة الحجاج	أواخر يناير سنة ٧٠١
سنة ٨١		
٢٣ من ذي الحجة	نزول الحجاج الزاوية	٧ فبراير سنة ٧٠١
سنة ٨١		
أول المحرم سنة ٨٢	بدء معركة الزاوية	١٥ فبراير سنة ٧٠١
آخر المحرم سنة ٨٢	انتهاء معركة الزاوية وانتصار الحجاج	١٥ مارس سنة ٧٠١
رجب سنة ٨٢	وفاة المغيرة بن المهلب	أغسطس سنة ٧٠١
٣ ربيع الأول سنة ٨٣	بدء معركة دير الجماجم	٦ إبريل سنة ٧٠٢
١٤ جمادى الآخرة	انتهاء المعركة بانتصار الحجاج	١٥ يولية سنة ٧٠٢
سنة ٨٣		
شعبان سنة ٨٣	معركة مسكن	سبتمبر سنة ٧٠٢
سنة ٨٣	بناء مدينة واسط	سنة ٧٠٢
سنة ٨٤	فتوح ليزيد بن المهلب في خراسان	سنة ٧٠٣
سنة ٨٥	هلال ابن الأشعث	سنة ٧٠٤
ربيع الثاني سنة ٨٥	عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية	إبريل سنة ٧٠٤

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
سنة ٨٦	المفضل قدوم قتيبة بن مسلم خراسان	سنة ٧٠٥
منتصف شوال سنة ٨٦	وفاة عبد الملك بن مروان	أكتوبر سنة ٧٠٥
سنة ٨٧	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر	سنة ٧٠٦
سنة ٨٨	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر	سنة ٧٠٧
سنة ٨٩	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر ، وولاية محمد بن القاسم للسند وقتل داهر ملكها	سنة ٧٠٨
سنة ٩٠	الفتوح في بلاد ما وراء النهر وفي السند ، وهرب آل المهلب من سجن الحجاج	
٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤	استمرار الفتوحات استمرار الفتوحات ، وقتل سعيد بن جبير ، وموت الحجاج في بعض الروايات	٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢
٢٥ رمضان سنة ٩٥	موت الحجاج في أغلب الروايات	١٣ يولية سنة ٧١٤
سنة ٩٦	وفاة الوليد بن عبد الملك وقيام قتيبة بن مسلم بالثورة وقتله	٧١٤ ، ٧١٥

ملحق رقم (٢) بأهم الأماكن التي وردت في حرب الخوارج ، والأماكن التي فتحت في عهده

إخسيكت : اسم مدينة بما وراء النهر ، وهي قصبة ناحية فرغانة ، وهي على شاطئ نهر الشاش (سيحون) .

أذربيجان : أرض واسعة الأرجاء ، اسمها القديم « أتروباتان » : من بلاد الجبال جنوباً ، والكرد غرباً ، والديلم وبحر قزوين شمالاً ، وأرمينية وموقان شرقاً .

أرجان : مدينة بفارس .

أصبهان : مدينة مشهورة - من أعلام المدن - وهي من نواحي الجبل .

اصطخر : مدينة بفارس قرب مدينة « برسيبويس » التي كانت عاصمة تلك البلاد قديماً ، وهي واقعة في الشمال الشرقي من شيراز على ٣٥ ميلاً في الطريق إلى أصبهان ، واسمها الآن « تشهيل منار » أي ذات الأربعين عموداً .

ألور : بالقرب من « بكار » جنوبي مدينة « الملتان » .

آمد : مدينة « ديار بكر » الآن ، وسميت بهذا الاسم منذ الفتح العثماني .

الآبار : مدينة على شاطئ الفرات من نواحي بغداد .

الأهواز : وهي كورة من كور خوزستان ، ومدينتها سوق الأهواز .

بابل مهروز : طوسج من طساسيج بغداد ، وهو نهر عليه قرى ، ولعل بابل إحدى هذه القرى .

بادغيس : ناحية تشتمل على قرى من أعمال هرات ومرو الروذ .

بروذبار : وهي عدة مواضع : ناحية من طوسج أصبهان وهي تشتمل قرى كثيرة .

بخاري : من أعظم مدن ما وراء النهر بينها وبين « جيحون » يوم .

بغلان : بلدة بنواحي « بلخ » .

بلخ : مدينة مشهورة « بخراسان » ، وهي مدينة « بقطر » القديمة : بين « جوزجان » و « طخارستان » .

البنجاب : كانت من حواضر الهند ، فتحها « الغزنوي » سنة ١٠٠٥ م .

بهرسير : من نواحي سواد بغداد قرب « المدائن » وقيل : هي إحدى « المدائن » .

- بياس : نهر عظيم بالسند مفضاه إلى « ملتان » .
- البيرون : من بلاد الهند ، يفصلها عن السند نهر « مهران » أو « تكران » .
- بيكند : بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى .
- ترمذ : مدينة من أمهات المدن على نهر « جيحون » من الجانب الشرقي .
- تكريت : من بلاد الجزيرة على نهر دجلة .
- حربي : بلدة في أقصى دُجَيْل بين بغداد وتكريت .
- الجزيرة : إقليم في شمالي العراق ويشمل منابع دجلة وكثيرًا من منابع الفرات .
- جلولاء : بلد شرقي القادسية .
- جوخى : مقاطعة كبيرة بين بين خانقين وبغداد .
- جوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .
- جيرفت : أعظم مدن كرمان .
- حمام عمر : مكان حول الكوفة .
- الحيرة : مدينة كانت على فرسخ من الكوفة من جنوبيها .
- خانقين : بلد بسواد بغداد في طريق همذان .
- الختل : كورة واسعة كثيرة المدن ، وقال « الاصطخري » : أول كورة على « جيحون » من وراء نهر الختل .
- خجندة : بلدة فيما وراء النهر على شاطئ سيحون ، بينها وبين سمرقند عشرة أيام .
- خوارزم : اسم للناحية بجملتها .
- دارا : بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين .
- دار بجرى : قرية من كورة اصطخر « ودار بجرى » أيضًا موضع بنيسابور .
- الدسكرة : مدينة على طريق النهران وجلولاء ، والدسكرة أيضًا قرية بخوزستان .
- دقوقاء : مدينة بين الموصل وحلوان .
- الديبل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .
- رامثنة : قرية من أعمال بخارى .
- رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحي خوزستان .
- زاغول : من قرى مرو الروذ .

- زرارة : محلة بالكوفة .
- سابور : كورة واسعة بأرض فارس ومدينتها النوبندجان ، وقال البشاري : هي « شهربستان » .
- السبخة : مكان حول الكوفة .
- سرجان : موضع قرب سميساط على شاطئ الفرات .
- سردان : بين فارس وخوزستان من أعمال فارس .
- سمرقند : اسمها القديم « مرقند » : حاضرة الصغد فتحها « قتيبة » سنة ٩٣ هـ .
- سمنجان : بلدة من طخارستان ، وراء بلخ وبغلان .
- سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة وبينها وبين الموصل « ثلاثة أيام » .
- السند : بلاد ما بين الهند وسجستان وكران ، وهي خمس كور : فأولها من قبل كرمان . مكران . طوران . السند . الملتان . ومن مدنها ديبيل .
- واسم يطلقه العرب على ثلاثة أقاليم يفصلها عن الهند نهر كبير يسمى بمكران أو مهران ، وهي بلاد : أ - بلسكان (أفغانستان الآن) فتحها محمد ابن القاسم . ب - طوران . ج - مكران (جندروسيا قديماً) وهما بلوخيستان الآن ، ومدنها : غزنة . كابل . قندهار .
- سورا : موضع بالعراق من أرض بابل .
- سوق حكمة : موضع بنواحي الكوفة .
- السلحين : قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية .
- شهرورزر : كورة واسعة في بلاد الجبال التي تسميها العامة عراق العجم ، وتقع بين الموصل وهمدان .
- شومان : بلد من الصغانيان من وراء نهر جيحون .
- الصراة : قرى من سواد الحلة الزيدية .
- الصغانيان : ولاية عظيمة متصلة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمز .
- الصغد : ناصية قصبتها سمرقند ، بين سمرقند وبخارى .
- الطالقان : ناحية من بلاد طخارستان ، وأخرى من بلاد قزوین .
- طبرستان : ناحية واسعة ببلاد الفرس بين جرجان والديلم على « بحر قزوین » الذي

يسمى أيضًا باسمها « بحر طبرستان » .

عقروق : قرية قرب بغداد .

عين التمر : قرية قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له « شفاثا » .

فارس : ولاية واسعة : أول حدودها من جهة العراق : « أرجان » ، ومن جهة

كرمان : السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند : سيراف ، ومن جهة

السند : مكران .

الفارياب : إقليم من بلاد ما وراء النهر على نهر جيحون .

فرغانة : مدينة ، وكورة واسعة متاخمة لبلاد التركستان .

فسا : أكبر مدينة بكورة درابجرد .

قناديل : مدينة بالسند . وهي قصبة لولاية يقال لها : « الندهة » .

« والندهة » أرض واسعة بالسند ما بين حدود طوران ومكران والملتان ومدينة

المنصورة ، وهي في شرقي نهر « مهران » ومن « قناديل » إلى المنصورة ثمان

مراحل ، ومن « قناديل » إلى الملتان مفاوز نحو عشرين مرحلة .

قومس : الآن إقليم ما زندران (طبرستان) من مملكة أتران .

كابل : اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى « أوهند » وقال ابن الفقيه : كابل من

ثغور « طخارستان » .

كازرون : بلد بفارس في غربي شیراز .

كاشان : مدينة ما وراء النهر على بابها وادي « إخسيكث » وقاشان : بلدة بالجبل

شمال أصبهان ، وقاشان أو كاشان بلدة فيما وراء النهر أيضًا .

كاشغر : هي مدينة وقرى ورساتيق - يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي . وبلد

فيما وراء النهر لم فتح المسلمون ما بعدها ، وهي بمملكة الصين الآن

(بلوخستان) .

كرمان : ولاية كبيرة بين فارس ومكران وخراسان وسجستان : فشرقيها : مكران ،

ومفازة ما بين مكران : وغربيها أرض فارس : وشمالها مفازة خراسان ،

وجنوبيها : بحر فارس .

كُش : مدينة تقارب سمرقند ، وهي من أعمالها .

كلواذا : طوسج قرب مدينة بغداد في الجانب الشرقي منها ، وهي أطلال بينها وبين بغداد فرسخ واحد .

ماردين : قلعة مشهورة مشرفة على قنة الجبل مشرفة على دنيستر ونصيبين .
ماه بهرذان : ما أظنها إلا ناحية « الراذنين » وماه : القمر - تضاف إليه الكلمة .
المدائن : في أيام ياقوت : بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ أو على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة ، وأطلالها على بعد ٢٦ كم من بغداد جنوبًا .
المدبج : قرية بين الموصل والعراق قتل بها صالح بن مسرح .
المردمة : بالقرب من الكوفة .

مرو : أو « مرو الشاهجان » : قاعدة بلاد خراسان على نهر مرغاب ، ومتى ذكرت يراد بها « مرو الشاهجان » .

مرو الروذ : مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام وهي على نهر عظيم فلها سميت به ، وهي صغيرة بالنسبة لمرو الأخرى .
مكران : ولاية : كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها .

الملتان : مدينة نحو نصف المنصورة وتسمى « فرج بيت الذهب » .
وبلد ياقلیم « البنجاب » من حواضر الهند فتحها الغزنوي سنة ١٠٠٥ م .
الموصل : مدينة بأرض الجزيرة على نهر دجلة ، على جانبه الغربي :
 والموصل المدينة المشهورة العظيمة ، وهي مفتاح باب العراق وباب خراسان ، ومنها يقصد إلى « أذربيجان » .

نسا : مدينة بين « أبيورد » و « سرخس » .

نسف : مدينة كبيرة في الرستاق بين جيحون وسمرقند .

نصيبين : هي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام .
نفر : بلد أو قرية على نهر « الفرس » من بلاد الفرس قديمًا ، والآن من بلاد الكوفة ، من أرض بابل .

النهر وان : كورة واسعة بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي ، وتنقسم ثلاثة أقسام : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل .

ثبت

بالمراجع والمخطوطات

أ - المراجع العامة مرتبة ترتيباً زمنياً

- ١ - ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ = ٨٤٥م : أبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدي الطبقات الكبير الجزء الخامس والسادس والثامن طبع ليدن سنة ١٣٢٢هـ .
- ٢ - الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ = ٨٦٨م : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب .
 - البيان والتبيين . (الطبعة الثانية ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م المطبعة الرحمانية) .
 - التاج في أخلاق الملوك . طبع بولاق سنة ١٣٢٢هـ = ١٩١٤م بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا .
 - المحاسن والأضداد . مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م .
- ٣ - ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ = ٨٨٩م : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .
 - الشعر والشعراء . طبع مطبعة المعاهد ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م . مطبعة المعاهد .
 - عيون الأخبار . طبع دار الكتب سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٥م .
 - المعارف . المطبعة الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م .
 - الإمامة والسياسة (المنسوب إليه) مطبعة الأمة بمصر سنة ١٣٢٨هـ .
- ٤ - البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ = ٨٩٢م : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
 - أنساب الأشراف الجزء الخامس طبع الجامعة العبرية بفلسطين سنة ١٩٣٦
 - والجزء الحادي عشر طبع عريفز ولد سنة ١٨٨٣م .
 - فتوح البلدان . طبع مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩هـ = ١٩٠١م .
- ٥ - المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ = ٨٩٨م : أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد .
 - كتاب الكامل . طبع لبنج سنة ١٨٦٤م ما عدا الخوارج فقد رجعت إلى الجزء الثاني من طبع مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤هـ .
- ٦ - اليعقوبي المتوفى سنة ٢٩٢هـ = ٩٠٤م : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح .
 - تاريخ اليعقوبي الجزء الثالث طبع النجف سنة ١٣٥٨هـ .
 - البلدان « ليدن سنة ١٨٩١م » .
- ٧ - الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ = ٩٢٣م : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد المعروف بابن جرير الطبري .

- تاريخ الأمم والملوك الجزء الرابع والخامس . مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م والسادس . المطبعة الحسينية .
- ٨ - المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المشهور بالمسعودي .
- مروج الذهب ومعادن الجواهر الجزء الثاني . طبع المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٣ هـ .
- التنبيه والإشراف مطبعة الشرق الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م .
- ٩ - ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م : أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي .
- العقد الفريد طبع المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣١٦ هـ .
- ١٠ - الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م . أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصفهاني .
- الأغاني طبعة ساس (مطبعة التقدم بمصر) .
- ١١ - ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ = ١١٧٥ م : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي .
- التاريخ الكبير الجزء الرابع والسادس طبع مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٢ هـ .
- ١٢ - ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
- تنقيح فهم أهل الأثر . طبع مطبعة جيّد بريس يرقى ببلدة دهلي .
- شذور العقود في تاريخ العهود . مصور تصويرًا شمسيًا ومحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩٤ .
- مختصر صفوة الصفوة (لا يعلم من اختصره) طبع المنار سنة ١٣٣٩ هـ .
- مناقب عمر بن عبد العزيز . طبع برلين .
- ١٣ - ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي .
- معجم البلدان طبع سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م بمطبعة السعادة .
- معجم الأدباء الجزء الأول والعشرون طبعة الدكتور فريد رفاعي بك .

- المقتضب من جمهرة أنساب العرب ج ٢ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٨٥ تاريخ .
- ١٤ - ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م : أبو الحسن عز الدين بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني .
- الكامل في التاريخ ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، طبع منبر سنة ١٣٥٧ هـ .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ، ٤ طبع سنة ١٢٨٢ هـ .
- ١٥ - ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م : عز الدين بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد .
- شرح نهج البلاغة . المجلد الأول والثاني طبع دار الكتب العربية الكبرى .
- ١٦ - ابن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .
- وفيات الأعيان . طبع بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .
- ١٧ - ابن أبيك المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن الهجري = القرن الرابع عشر الميلادي .
- أبو بكر عبد الله بن أبيك صاحب صرخد المعروف بالداوداري .
- كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الرابع القسم الثاني منه مصور تصويرًا شمسيًا بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ .
- ١٨ - الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قابص الذهبي .
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام ، الجزء الثالث والرابع مخطوط بدار الكتب .
- دول الإسلام الجزء الأول طبع الهند (حيدرآباد) سنة ١٣٢٧ هـ .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال م ١ طبع سنة ١٣٢٥ هـ بمطبعة السعادة بمصر .
- ١٩ - ابن شاکر المتوفى سنة ٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م : صلاح الدين أبو عبد الله بن أحمد المعروف بابن شاکر الكتبي .
- عيون التواريخ . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٤٩٧ .
- فوات الوفيات . طبع بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .

- ٢٠ - ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٦م : جمال الدين محمد بن نباتة المصري .
 ● شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون . طبع بولاق ١٢٧٨ هـ .
- ٢١ - ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي .
 ● البداية والنهاية ج ٤ ، ٨ ، ٩ . طبع مطبعة السعادة .
- ٢٢ - ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م :
 عبد الرحمن بن محمد بن جابر بن إبراهيم بن خلدون .
 ● المقدمة . طبع عبد الرحمن محمد بالمطبعة البهية .
 ● العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ، ٣ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .
- ٢٣ - الأبشيهي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري = القرن الخامس عشر الميلادي شهاب الدين أحمد الأبشهي .
 ● المستطرف من كل فن مستظرف . مطبعة المعاهد سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م .
- ٢٤ - العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ = ١٤٥٢م : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الشهير بالعيني .
 ● عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . الجزء الحادي عشر مصور تصويرًا شمسيًا بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ .
- ٢٥ - الأتابكي المتوفى سنة ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م : جمال الدين أبي المحاسن بن يوسف ابن تغربردي الأتابكي .
 ● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع دار الكتب المصرية ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م .
- ٢٦ - العمادي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ = ١٦٧٨م : أبو الفلاح عبد الحي بن العمادي
 ● شذرات الذهب في أخبار من ذهب الجزء الأول . نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٠هـ .
- ٢٧ - فان فلوتن المتوفى سنة ١٩٠٩م .
 ● السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والشيخ محمد زكي إبراهيم طبع سنة ١٩٣٤م بمطبعة السعادة بمصر .

المراجع العامة مرتبة بحسب الحروف الأبجدية
مع الإشارة إلى رقم المصدر بحسب الترتيب الزمني

٧	١٥ - الطبري	٢٣	١ - الأبيشي
٩	١٦ - ابن عبد ربه	١٥	٢ - ابن أبي الحديد
١١	١٧ - ابن عساكر	٢٥	٣ - الأتابكي
٢٦	١٨ - العمادي	١٤	٤ - ابن الأثير
٢٤	١٩ - العيني	١٠	٥ - الأصفهاني
٢٧	٢٠ - فان قلوطن	١٧	٦ - ابن أبيك
٣	٢١ - ابن قتيبة	٤	٧ - البلاذري
٢١	٢٢ - ابن كثير	٢	٨ - الجاحظ
٥	٢٣ - المبرد	١٢	٩ - ابن الجوزي
٨	٢٤ - المسعودي	٢٢	١٠ - ابن خلدون
٢٠	٢٥ - ابن نباتة	١٦	١١ - ابن خلكان
١٣	٢٦ - ياقوت	١٨	١٢ - الذهبي
٦	٢٧ - يعقوبي	١	١٣ - ابن سعد
		٩	١٤ - ابن شاعر

المراجع الخاصة بحسب الترتيب الزمني والأبجدي

- ١ -

الباب الأول

أولاً : بحسب الترتيب الزمني :

١ - الازرقى المتوفى سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٨م : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الازرقى .

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار طبع مكة سنة ١٣٢٥هـ .

٢ - ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ = ٨٧٠م . عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم .

- فتوح مصر وأخبارها . طبع ليدن سنة ١٩٢٠ .

٣ - مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ - ٨٧٤م : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .

- صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ طبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ .

٤ - الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م : أحمد بن أبي داود الدينوري .

- الأخبار الطوال ، طبع سنة ١٣٣٠هـ بمطبعة السعادة بمصر .

٥ - أبو زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م أحمد بن سهل البلخي .

- البدء والتاريخ - المنسوب إليه - ويروى أنه المطهر بن طاهر القدسي المتوفى بعد

سنة ٣٥٥هـ الجزء السادس . نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩م .

٦ - ابن عبد البر القرطبي ، المولود سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م الحافظ أبو عمرو يوسف بن عبد

الله المعروف بابن عبد البر القرطبي .

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ١ ، ج ٢ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر

أباد سنة ١٣١٨هـ .

٧ - القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن

عبد الواحد جمال الدين القفطي .

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . طبع سنة ١٣٢٦ بمطبعة السعادة بمصر .

٨ - أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : إسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور

محمد بن المظفر تقي الدين .

- المختصر في أخبار البشر ج ١ . المطبعة الحسينية بمصر .

- ٩ - الياضي المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٧م : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين الياضي .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ج١ . طبع حيدر آباد سنة ١٣٣٧هـ .
- ١٠ - الوطواط المتوفى سنة ٧٧١هـ = ١٣٦٩م : جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى ابن علي الأنصاري الكتبي .
- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . بولاق سنة ١٢٨٤هـ .
- ١١ - الهيشمي المتوفى سنة ٧٠٨هـ = ١٤٠٤م : نور الدين علي بن أبي بكر أبو الحسن الهيشمي .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢هـ .
- ١٢ - ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ = ١٤٠٦ ، ١٤٠٧م : صارم الدين أو غرس الدين إبراهيم بن محمد بن أبدمر العلائي .
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين . تصوير شمسي بدار الكتب رقم . ١٥٨٧ .
- ١٣ - ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣هـ = ١٤٤٩م : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .
- تهذيب التهذيب ج٢ حيدر آباد سنة ١٣٢٥هـ .
- ١٤ - السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله . القاهرة سنة ١٣٥١هـ .
- ١٥ - الفاكهي أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي .
- المنتقى في أخبار أم القرى . وهو منتخبات من :
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي المعروف بقطب الدين النهرواني المتوفى سنة ٩٩٠هـ = ١٥٨٢م .
 - الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف . لمحمد بن أمين بن ظهيرة . من علماء القرن العاشر . ألف الكتاب سنة ٩٥٠هـ = ١٥٤٣م .

- شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام . لتقي الدين أبي الطيب محمد بن أحمد الفاسي المتوفى في شوال من سنة ٨٣٢هـ = ١٤٢٨م : ليسك سنة ١٨٥٩م .
- ١٦ - الديار بكري المتوفى بعد سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م : حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري .
- الخميس في أحوال أنفس نفيس ج٢ الوهبة سنة ١٢٨٣هـ .
- ١٧ - القرمانى المتوفى سنة ١٠١٩هـ = ١٦١٠م : أبو العباس أحمد جليبي بن يوسف ابن أحمد الدمشقي القرمانى .
- أخبار الدول وآثار الأول طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨١هـ .
- ١٨ - الخضرى . المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك .
- تاريخ الأمم الإسلامية . طبع مصطفى محمد .
- ١٩ - رشيد رضا (المرحوم الشيخ رشيد رضا) مجلة المنار المجلد الخامس .
- ٢٠ - أحمد أمين . الأستاذ أحمد أمين بك .
- فجر الإسلام . مطبعة الاعتماد سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م .
- ٢١ - سنوك هرجونى .
- أخبار مكة ج١ ترجمة الدكتور علي حسن (ترجمة خاصة) .
- ٢٢ - لامانس .
- الطائف . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .

ثانيًا : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر بالترتيب الزمني :

١ - أحمد أمين	٢٠	١٢ - ابن عبد الحكم	٢
٢ - الأزرقى	١	١٣ - الفاكهى	١٥
٣ - البلخى	٥	١٤ - أبو الفدا	٨
٤ - ابن حجر	١٣	١٥ - القرمانى	١٧
٥ - الخضرى	١٨	١٦ - القفطى	٧
٦ - ابن دقماق	١٢	١٧ - لامانس	٢٢
٧ - الدينورى	٤	١٨ - مسلم	٣
٨ - الديار بكري	١٦	١٩ - سنوك حرجوونى	٢١
٩ - رشيد رضا	١٩	٢٠ - الهيثمى	١١
١٠ - السيوطى	١٤	٢١ - الوطواط	١٠
١١ - ابن عبد البر	٦	٢٢ - اليافعى	٩

- ٢ -

الباب الثاني

أولاً : بحسب الترتيب الزمني :

- ١ - الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م : همام بن غالب بن صعصعة الشاعر .
- ديوان الفرزدق . ليدن . بريل سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٢ - أبو يوسف المتوفى في سنة ١٩٢ هـ = ٨٠٧ ، ٨٠٨ م : يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة .
- كتاب الخراج المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ .
- ٣ - الأزرق المتوفى سنة ٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق .
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . طبع مكة ١٣٢٥ هـ .
- ٤ - ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م : أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم .
- سيرة عمر بن عبد العزيز . رواية ابنه أبي عبد الله محمد المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .
المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م .
- ٥ - ابن خرداذبة المتوفى في منتصف القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي : أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة .
- المسالك والممالك . ليدن سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٦ - ابن رسته ألف الكتاب سنة ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م : أبو علي أحمد بن علي بن رسته .
- الأعلام النفيسة . المجلد السابع ليدن سنة ١٨٩١ م .
- ٧ - السجستاني المتوفى سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م : أبو بكر بن عبد الله بن أبي داود بن سليمان السجستاني .
- كتاب المصاحف ، الجزء الاول . مصر سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م .
- ٨ - الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري .
- الوزراء والكتاب ، دار الصاوي بدر الجماميز سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م .
- ٩ - الاصطخري المتوفى في أواسط القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي : أبو إسحق

الفارسي المعروف بالكرخي .

- مسالك الممالك . ليدن سنة ١٨٧٠ م .

١٠ - أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م : أبو علي إسماعيل بن القاسم البغداي .

- ذيل الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .

١١ - المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م : أبو عبد الله محمد بن البشاري المعروف بالمقدسي .

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن سنة ١٩٠٩ م .

١٢ - الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م : أبو علي الحسين علي بن محمد الماوردي .

- الأحكام السلطانية . القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ .

١٣ - الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي .

- تاريخ بغداد الجزء الأول . القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م .

١٤ - سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن علي غيزاوغلى المعروف بابن سبط الجوزي .

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج ٩ . تصوير شمسي بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ .

١٥ - القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ = ١٢٧٢ م : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

- الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول . دار الكتب المصرية سنة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ م .

١٦ - أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م : إسماعيل بن علي بن محمود المظفر تقي الدين .

- المختصر في أخبار البشر ج ١ . الحسينية بمصر .

١٧ - النويري المتوفى ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .

- نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٦ ، ٧ دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م .
- ١٨ - أحمد السلامي :
- مختصر التواريخ . انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ م : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٣٥ .
- ١٩ - الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ هـ = ١٨٠٥ م : كمال الدين محمد بن عيسى الدميري .
- حياة الحيوان الكبرى ج ١ . المطبعة الكستلية سنة ١٣١٩ هـ .
- ٢٠ - القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م : أبو العباس أحمد القلقشندي .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ١ دار الكتب المصرية سنة ١٢٤٠ هـ = ١٩٢٢ م .
- ٢١ - ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ = ١٤٣٣ م : تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي .
- ثمرات الأوراق في المحاضرات ، مطبعة المعاهد سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م .
- على هامش المستطرف من كل فن مستظرف .
- ٢٢ - المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م : تقي الدين بن أحمد بن عبد القادر المقرئ .
- النقود القديمة والإسلامية . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ .
- ٢٣ - ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .
- تهذيب التهذيب ج ٢ . حيدر آباد سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢٤ - النهرواني المتوفى سنة ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ م : قطب الدين النهرواني الحنفي .
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . ليبسك سنة ١٢٧٤ هـ .
- ٢٥ - الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود المعروف بالألوسي البغدادي .
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج ١ . بغداد سنة ١٣١٤ هـ .

- ٢٦ - العيون والحدائق في أخبار الحقائق . لم يعلم مؤلفه . عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين . الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تبدأ من خلافة الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي - وتنتهي بالمعتصم - الخليفة العباسي - ليدن سنة ١٨٥٣ م .
- ٢٧ - عبادة : الأستاذ عبد الفتاح عبادة .
- سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتھا في الإسلام . الفجالة بمصر سنة ١٩١٣ م .
- ٢٨ - الخضري المرحوم الشيخ محمد الخضري بك .
- تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ (طبع مصطفى محمد) .
- ٢٩ - جورجي زيدان
- تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ (الهلال سنة ١٩٣٥ م) .
- ٣٠ - البلاوي : السيد محمد البلاوي .
التعريف بالنبي والقرآن الشريف . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٥ هـ .
- ٣١ - كرد علي : الأستاذ محمد كرد علي .
- الإسلام والحضارة العربية ج ٢ دار الكتب سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م .
- ٣٢ - حسن إبراهيم : الدكتور حسن إبراهيم .
- النظم الإسلامية . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .
- ٣٣ - الرسالة : المجلة العدد ٢٤٧ (السنة السادسة ٢٨ مارس ١٩٣٨ م) .
- ٣٤ - كاتريمير (١٨٥٧ م) حياة عبد الله بن الزبير . المجلة الأسبوعية الجديدة العددان ٩ ، ١٠ من سنة ١٨٣٢ م ، ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد . (ترجمة خاصة) .
- ٣٥ - فراتياج (١٨٦١) .
- الأمثال العربية . ترجمة الأستاذ عبد الفتاح السرنجاي (ترجمة خاصة) .
- ٣٦ - نولدكه . مستشرق ألماني من مستشقي القرن التاسع عشر .
- تاريخ القرآن ، الجزء الثالث . ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر (ترجمة خاصة) .
- ٣٧ - دوزي (١٨٨٣) . تاريخ مسلمي إسبانيا . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق

(ترجمة خاصة) .

٣٨ - موير . الخلافة قيامها وسقوطها . طبع أدنبرة بإنجلترا سنة ١٩١٥ م .

ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع (ترجمة خاصة) .

٣٩ - برتولد : إسلاميكاجد٤ ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر ترجمة خاصة .

٤٠ - برييه : جان برييه . مستشرق فرنسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

الحجاج كما تراه المصادر العربية (سنة ١٩٠٤ م) .

٤١ - اشترك : أرض بابل القديمة أخذاً عن الجغرافيين العرب . ترجمة الأستاذ عبد الفتاح

السرناجوي (ترجمة خاصة) .

٤٢ - دائرة المعارف الإسلامية . مادة حجاج . ترجمة الدكتور علي حسن ترجمة خاصة .

ثانيًا : حسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى مصدر الرقم الزمني :

١٨	٢٢ - السلامي	١٠	١ - أبو علي القالي
٢٧	٢٣ - عبد الفتاح عبادة	٤١	٢ - اشترك
٤	٢٤ - ابن عبد الحكم	٩	٣ - الاصطخري
١٦	٢٥ - أبو الفدا	٢٥	٤ - الألوسي
٣٥	٢٦ - فرائيج	٣٠	٥ - البلاوي
٣	٢٧ - الفرزدق	٣٩	٦ - برتولد
١٥	٢٨ - القرطبي	٤٠	٧ - بريه
٢٠	٢٩ - القلقشندي	٢٩	٨ - جورجى زيدان
٣٤	٣٠ - كاتريمير	٨	٩ - الجهشياري
٣١	٣١ - كرد علي	٢٣	١٠ - ابن حجر
١٢	٣٢ - الماوردي	٢١	١١ - ابن حجة
١١	٣٣ - المقدسي	٣٢	١٢ - حسن إبراهيم
٢٢	٣٤ - المقرئ	٢٨	١٣ - الخضري
٣٨	٣٥ - موير	١٤	١٤ - الخطيب البغدادي
٢٤	٣٦ - النهرواني	٥	١٥ - ابن خرداذبة
٣٦	٣٧ - نولدكه	١٩	١٦ - الدميري
١٧	٣٨ - النويري	٣٧	١٧ - دوزي
٢	٣٩ - أبو يوسف	٦	١٨ - ابن رسته
٢٦	٤٠ - العيون والحداثق	٣	١٩ - الأزرقى
٤٢	٤١ - دائرة المعارف الإسلامية	٢٠	٢٠ - سبط ابن الجوزي
٣٣	٤٢ - مجلة الرسالة	٧	٢١ - السجستاني

- ٣ -

الباب الثالث

أولاً : بحسب الترتيب الزمني :

- ١ - الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م : أحمد بن أبي داود الدينوري .
- الأخبار الطوال . طبع سنة ١٣٣٠ بمطبعة السعادة .
- ٢ - البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م : أحمد بن سهل البلخي .
- البدء والتاريخ (المنسوب إليه) والمنسوب أيضاً لمطهر بن طاهر المقدسي المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ الجزء السادس . نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩م .
- ٣ - الهمداني المتوفى آخر القرن الثالث الهجري = أوائل القرن العاشر الميلادي : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه .
- كتاب البلدان . ليدن بريل سنة ١٣٠٢هـ .
- ٤ - البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ = سنة ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .
- الفرق بين الفرق (القاهرة سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م بمطبعة المعارف) .
- ٥ - الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ = ١١٥٣م : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني .
الملل والنحل ، الجزء الأول بهامش كتاب الفصل في الملل والنحل والأهواء (المطبعة الأدبية سنة ١٣١٨هـ) .
- ٦ - النويري المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١١٣١م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٧ . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .
- ٧ - اللقاني المتوفى سنة ١٠٤٧هـ = ١٦٤٧م عبد السلام بن إبراهيم اللقاني .
- شرح عبد السلام على الجوهرة في التوحيد . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م .
- ٨ - الأربلي . عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتوا الأربلي .
- خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك . لابن الجوزي المتوفى سنة

- ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م مطبعة القديس جاذرجيوس ، للروم الأرثوذكس سنة ...
 ١٨٨٥م . بيروت .
- ٩ - جورجى زيدان .
 - تاريخ التمدن الإسلامى الجزء الرابع . طبع الهلال سنة ١٩٢٧ .
- ١٠ - أحمد أمين .
 - فجر الإسلام . القاهرة سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م مطبعة الأعماد .
- ١١ - فلهوزن .
 - أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة .
 ترجمة الدكتورين محمد ماضى وعلي حسن (ترجمة خاصة) .
 - الامبراطورية العربية وسقوطها (ترجمة خاصة) طبع سنة ١٩٠٢ برلين .
- ١٢ - فان برشم .
 - الملكية العقارية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأوائل . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .
- ١٣ - حسن إبراهيم .
 - تاريخ الإسلام السياسى ج ١ . مطبعة حجازى سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م .
- ١٤ - دائرة المعارف الإسلامية مادة . : حجاج . المهلب بن أبى صفرة . عبد الرحمن بن الأشعث .
 ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر (ترجمة خاصة) .

ثانياً : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر في الترتيب الزمني :

٥	٨ - الشهرستاني	١٠	١ - أحمد أمين
١٢	٩ - فان برشم	٨	٢ - الأربلي
١١	١٠ - فلهوزن	٤	٣ - البغدادي
٧	١١ - اللقاني	٢	٤ - البلخي
٦	١٢ - النويري	٩	٥ - جورجى زيدان
٣	١٣ - الهمداني	١٣	٦ - حسن إبراهيم
١٤	١٤ - دائرة المعارف الإسلامية	١	٧ - الدينوري

- ٤ -

الباب الرابع

أولاً : بحسب الترتيب الزمني :

- ١ - الهمداني المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري = أوائل القرن العاشر الميلادي :
أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه .
- كتاب البلدان . ليدن بريل سنة ١٣٠٢ هـ .
- ٢ - السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
- تاريخ خلفاء أمراء المؤمنين القائمة بأمر الله . القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .
- ٣ - دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م : السيد أحمد بن السيد زيني دحلان .
- الفتوحات الإسلامية . مصر . مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠ م .
- ٤ - العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، لم يعلم مؤلفه . عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين ، الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تحتوي على خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - وتنتهي بالمعتصم بالله - الخليفة العباسي .
ليدن سنة ١٨٥٣ .
- ٥ - أرنولد . توماس أرنولد .
- الدعوة إلى الإسلام . لندن سنة ١٩٣٥ .
- ٦ - ألفنستون .
- تاريخ الهند . لندن سنة ١٨٤٩ م .
ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد (ترجمة خاصة) .
- ٧ - ولزلي : السير ولزلي هاريج .
- تاريخ كمبردج الجزء الثالث : ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد (ترجمة خاصة) .

ثانيًا : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر في الترتيب الزمني :

١ - أرنولد	٥	٥ - الهمداني	١
٢ - دحلان	٣	٦ - ولزلي	٧
٣ - السيوطي	٢	٧ - العيون والحداثق	٤
٤ - ألفنستون	٦		

الباب الخامس

أولاً : بحسب الترتيب الزمني :

- ١ - جرير المتوفى سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م : جرير بن عطية الخطفي الشاعر .
- ديوان جرير بشرح الصاوي : مطبعة الصاوي سنة ١٣٥٣ هـ .
- ٢ - الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م : همام بن غالب بن صعصعة الشاعر .
- ديوان الفرزدق . ليدن بريل سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٣ - الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م : أحمد بن أبي داود الدينوري .
- الاخبار الطوال . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٤ - البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م : أحمد بن سهل البلخي .
- البدء والتاريخ (المنسوب إليه) والمنسوب أيضاً لطاهر بن مطهر المقدسي .
الجزء السادس نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩ م .
- ٥ - الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري .
- الوزراء والكتاب . دار الصاوي بمصر سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م .
- ٦ - الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م : أبو عمر محمد بن يوسف الكندي .
- كتاب الولاة وكتاب القضاة . بيروت سنة ١٩٠٨ م . مطبعة الآباء اليسوعيين .
- ٧ - أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م : أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادى .
● الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .
● ذيل الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .
- ٨ - الحصري المتوفى سنة ٤٥٣ هـ = ١٠٣٥ م : أبو إسحق إبراهيم بن علي بن تميم المعروف بالحصري القيرواني .
- زهر الآداب وثمر الألباب ج٤ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .
- ٩ - الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ = ١٠٦١ م : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الأمثال . بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

١٠ - القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م : الوزير جمال الدين أبو الحسن جمال الدين القفطي .

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦هـ .

١١ - ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ = ١٢٥٦م : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن علي غيزاوغلي المعروف بابن سبط الجوزي .

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان الجزء التاسع . تصوير شمسي بدار الكتب رقم ٥٥١ .

١٢ - ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م : موفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء . المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م .

١٣ - أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : إسماعيل بن علي تقي الدين .

- المختصر في أخبار البشر ج ١ . الحسينية بمصر .

١٤ - النويري المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .

- بنهاية الأرب في فنون الأدب ج ١ . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .

١٥ - اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٧م : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن عفيف الدين اليافعي .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ج ١ . طبع حيدر آباد .

١٦ - الوطواط المتوفى سنة ٧٧١هـ = ١٣٦٩م : جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى ابن علي الأنصاري الكتبي .

- غرر الخصاص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

١٧ - السلامي : أحمد السلامي .

- مختصر التواريخ . انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦هـ = ١٤٠٣م . مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٣٥ .

١٨ - الدميمري المتوفى سنة ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م : كمال الدين محمد بن عيسى

الدميري .

- حياة الحيوان الكبرى الجزء الأول . المطبعة الكستلية سنة ١٣١٩ هـ .

١٩ - ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م : صارم الدين أو غرس الدين إبراهيم بن محمد بن أهدمر العلائي .

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين . تصوير شمسي بدار الكتب رقم ١٥٨٧ .

٢٠ - القرمانى المتوفى سنة ١٥١٩ هـ = ١٦١٠ م : أبو العباس أحمد جلبي بن يوسف ابن أحمد الدمشقي القرمانى .

- أخبار الدول وآثار الأول . طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨٢ هـ .

٢١ - العيون والحداث في أخبار الحقائق . لم يعلم مؤلفه عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين ، الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تبدأ من خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان وتنتهي بالخليفة المعتصم (ليدن سنة ١٨٥٣ م) .

٢٢ - النجفي المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩١٤ م : السيد حسين بن السيد أحمد البراقى النجفي .

- تاريخ الكوفة . طبع النجف سنة ١٣٥٦ هـ .

٢٣ - الخضرى بك . المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك .

- تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ . طبع مصطفى محمد .

٢٤ - رفيق بك العظم .

- مجموعة الآثار . طبع المنار سنة ١٣٤٤ هـ .

٢٥ - محمد خلف الله الأستاذ .

- مجلة الثقافة العدد ١٧٠ .

٢٦ - روزي .

- تاريخ مسلمي إسبانيا . ترجمة إستكس طبع سنة ١٩١٣ : ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .

٢٧ - فلهوزن .

الامبراطورية العربية وسقوطها : ترجمة الدكتورين محمد ماضي وعلي حسن عبد

القادر . ترجمة خاصة طبعة رامير بيرلين سنة ١٩٠٢ .
٢٨ - دائرة المعارف الإسلامية الكراسة ٢١ . ترجمة الدكتور علي حسن (ترجمة خاصة) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الباب الأول	
الحجاج منذ ولد إلى أن ولي بلاد الحجاز	٩
الفصل الأول : من هو الحجاج . أبوه ، أهل قبيلته . موطنها . دخولها	
الإسلام . أشهر رجالها	٩
الفصل الثاني : مولد الحجاج . نشأته . تعليمه	٣٢
الفصل الثالث : اتصاله بالخلفاء والأمراء	٣٧
الفصل الرابع : الحجاج وابن الزبير	٤٢
- أسباب انتصار الحجاج على ابن الزبير	٦١
- تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق	٦٣
الباب الثاني	
الحجاج الوالي	٦٧
الفصل الأول : حكومته في الحجاز	٦٧
الفصل الثاني : ولاية الحجاج للعراق	٧٧
- مسير الحجاج إلى الكوفة وخطبته في أهلها	٨٢
- ولاية عبد الرحمن التميمي لشرطة الحجاج	٩٣
الفصل الثالث : إصلاحات الحجاج	٩٨
- عنايته بالقرآن	٩٨
- سك الحجاج للعملة	١٠٣
- تعريب الدواوين	١٠٧
- الزراعة	١٠٨
- بناء المدن	١١٦
- عنايته بالأسطول	١٢٦
الفصل الرابع : علاقة الحجاج بخلفاء وأمراء بني أمية	١٢٧

الباب الثالث

- الثورات في عهد الحجاج ١٥١
- الفصل الأول : ثورة ابن الجارود ١٥١
- ثورة الزنج ١٧٠
- الفصل الثاني : ثورة الخوارج الأزارقة ١٧٢
- اختلاف الأزارقة ١٨٢
- إرسال المهلب الرسل والكتب للحجاج ١٨٩
- الحجاج ينصف مواهب المهلب الحرية ويكافؤه على إخلاصه وخدماته للدولة ١٩١
- الفصل الثالث : ثورة الخوارج الصفرية : الصالحية والشيبية ١٩٥
- أمر جيش الكوفة ٢١٣
- معركة سوق حكمة ٢١٦
- خروج الحجاج لشيب ٢١٩
- إرسال الحجاج سفيان بن الأبرد إلى شيب ٢٢٢
- الفصل الرابع : ثورة مطرف بن المغيرة ٢٢٦
- الفصل الخامس : اتساع نفوذ الحجاج وتاريخه بعد الانتهاء من حرب الخوارج إلى قيام ثورة ابن الأشعث ٢٣٤
- تقليد المهلب خراسان وابن أبي بكر سجستان ٢٣٥
- الفصل السادس : الحرب بين الحجاج وابن الأشعث ٢٥١
- موقعة الزاوية ٢٥٨
- حركة مطر بن ناجية الرياحي ٢٦٢
- عبد الرحمن بن عباس والحجاج ٢٦٤
- موقعة دير الجماجم ٢٦٧
- موقعة مسكن ٢٧٩
- مصير ابن الأشعث ٢٨٠
- مقتل سعيد بن جبير ٢٩٣

- نهاية ابن الأشعث ٢٩٩
- وفادة الحجاج على عبد الملك ٣٠٣
- ثورة ابن الأشعث والموالي ٣٠٥
- ثورة ابن الأشعث ومسيحو ويهود النجرانية ٣٠٩
- حرب الحجاج مع الكرد والديلمة ٣١٠

الباب الرابع

- الفتوحات في عهد الحجاج ٣١٣
- الفصل الأول : آل المهلب في خراسان وفتوحاتهم ٣١٣
- وفاة المهلب ٣١٥
- مقتل موسى بن عبد الله بن خازم ٣٢٠
- مرض عبد الملك بن مروان ووفاته ٣٢٣
- الفصل الثاني : قتيبة بن مسلم في خراسان وفتوحاته ونهاية حياته ... ٣٢٥
- التحالف الأول ضد قتيبة ٣٢٨
- التحالف الثاني ضد قتيبة ٣٣١
- خاتمة حياة قتيبة ٣٤٥
- الفصل الثالث : محمد بن القاسم في السند وفتوحاته ونهاية حياته ٣٤٩
- حملة محمد بن القاسم ٣٥٣
- نهاية محمد بن القاسم ٣٥٩

الباب الخامس

- الحجاج في حياته الخاصة ٣٦٣
- الفصل الأول : أدب الحجاج ٣٦٣
- الحجاج الخطيب والكاتب ٣٧٧
- الفصل الثاني : أخلاق الحجاج : تدينه وأوصافه الخلقية ٣٨٦
- أوصاف الحجاج الخلقية ٤٠١
- الفصل الثالث : أسرة الحجاج ، قرابته لبني أمية ٤٠٣
- وفاة الحجاج ٤٠٨

- ٤١٢ - مصير أسرته
- ٤١٤ خاتمة
- ٤١٤ - نظرة في سياسة الحجاج وإدارته